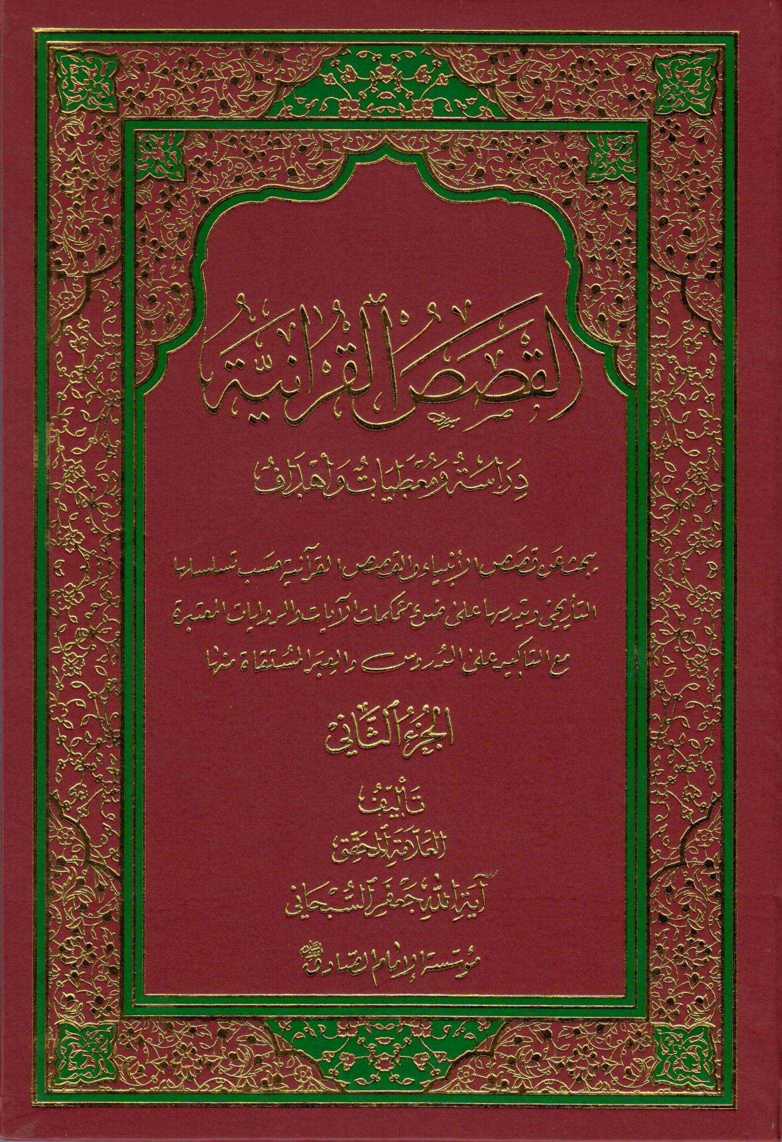

القصص القرآنية
دراسة ومعطيات وأهداف
يبحث عن قصص الأنبياء والقصص القرآنية حسب تسلسلها
التاريخي ويدرسها على ضوء محكمات الآيات والروايات المعتبرة
مع التأكيد على الدروس والعبر المستقاة منها
الجزء الثاني
تأليف
العلامة المحقق
آية الله جعفر السبحاني
مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام





٢

بسم الله الرحمن الرحيم



يبحث عن قصص الأنبياء والقصص القرآنية حسب تسلسلها
التاريخي ويدرسها على ضوء محكمات الآيات والروايات المعتبرة
مع التأكيد على الدروس والعبر المستقاة منها

الجزء الثاني

تأليف

العلاّمة المحقّق

آية الله جعفر السبحاني

نشر

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

فهرستنويسى پيش از انتشار توسط : موسسه تعليماتى وتحقيقاتى امام صادقعليه‌السلام

سبحاني تبريزي، جعفر، ١٣٠٨ـ
القصص القرآنية / تأليف جعفر السبحاني.ـ قم: مؤسسة الإمام الصادقعليه‌السلام، ١٤٢٧ق.= ١٣٨٥.
٢ج.
ISBN 964 - 357 - 258 - 7(ج.١)
ISBN 978 - 964 - 357 - 290 - 7(ج.٢)
ISBN 964 - 357 - 259 - 5 (دوره)
فهرستنويسى بر اساس اطلاعات فيپا.
١ـ قرآن ـ قصه‌ها. الف. مؤسسه امام صادقعليه‌السلام. ب. عنوان.
٢٩٧/١٥٦ BP ٨٨/ ٦ق ٢س

إسم الكتاب: .... القصص القرآنية / الجزء الثاني
المؤلّـــف: .... العلّامة المحقّق آية الله العظمىٰ جعفر السبحاني
الطبعـــة: .... الأُولى
تاريخ الطبع: .... ١٤٢٨ هـ
المطبعـــة: .... مؤسسة الإمام الصّادق عليه‌السلام
الكمّيّـــة: .... ٢٠٠٠ نسخة
الناشـــر: .... مؤسسة الإمام الصّادقعليه‌السلام
الصفّ والإخراج الفنّي: ....مؤسسة الإمام الصّادقعليه‌السلام ـ السيد محسن البطاط

توزيع
مكتبة التوحيد
ايران ـ قم ؛ ساحة الشهداء
☎ ٧٧٤٥٤٥٧ ـ ٢٩٢٥١٥٢ فاكس ٢٩٢٢٣٣١
البريد الإلكتروني: imamsadeq@hotmail.com
العنوان في شبكة المعلومات www.imamsadeq.org

الإهداء:

أهدي عـملي هـذا إلى صاحب الرسـالة العظمى والولاية الكبرى سيد المرسلين وخاتم النبيين الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم .

وإلى أسـاتذة التـفسير فـي المـحافل العلمية والجامعات الإسلاميّة عسـى أن يحظى بالرضا والقبول، آملاً أن يجعلوه منهجاً دراسياً جديداً في موضوعه.

المؤلف

شكر وتقدير

أتقدّم بجزيل الشكر إلى الأُستاذ الفاضل **السيد حيدر محمد علي البـغدادي (أبو أسد)** ـ أحد المحقّقين البارزين في مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام ـ حيث آزرني بأنظاره وآرائه عند إنجاز فصول هذا الكتاب، كما قام مشكوراً بتلخيص مضامين قصص الأنبياء في آخر كل فصل. فشكر الله مساعيه الجميلة.

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

إيران ـ قم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على جميع أنبياء الله ورسله لاسيّما خاتم النبيين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين .

أما بعد:

فقد صدر الجزء الأوّل من كتابنا «القصص القرآنية» ، وتلقاه القراء الكرام بالترحيب والثناء، والرغبة في إصدار ما بقي من القصص، لما رأوا فيه من إبرازٍ لحياة رجال الله وسيرتهم الحافلة بالجهاد والخير والعطاء من خلال التدبر في الذكر الحكيم، واستجلاءٍ للدروس والعبر، الّتي تُثري تجربة الفرد والأُمّة، وتفتح العيون علىٰ أسباب الرُّقيّ أو الانتكاس .

فهذا هو صديقنا الفاضل الدكتور عبد الهادي التازي ـ دام علاه ـ [1] قال في رسالة بعثها لنا بتاريخ ٢٩ / ١٠ / ٢٠٠٧ م، ما نصه:

«كان تأليفاً رائعاً انكببت على تصفحه منذ أن تسلمته، لما اشتمل عليه من أفكارٍ غير مسبوقة، وكم أنا متطلع للوقوف على الجزء الثاني...

إن موضوع القصص في القرآن موضوع دقيق جداً، ويكفي أن نعرف أن في

---

١ . أُستاذ كبير ومؤلف بارع عضو اكاديمية المملكة المغربية.

صدر ما نزل من القرآن الكريم، ونبيّنا «عليه الصلوات» في المسجد الأقصى عند الإسراء يستعد للقاء الأنبياء: ﴿وَ اسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾[1] وبالرغم من أن طائفة من الباحثين تناولوا هذا الموضوع، لكن بحثكم تميَّز بالوضوح والصدق والجاذبية، وعسى أن يجد هذا التأليف مكانه في المكتبات المغربية ».

وها نحن نقدّم بيد التكريم الجزء الثاني منه إلى القراء الأعزاء، وهو يشتمل على قصص حياة أحد عشر نبياً من أنبياء الله الصالحين سلام الله عليهم أجمعين.

كما يتضمّن عرضاً لـ(١٤) قصة وردت في الذكر الحكيم، تتعلّق بأشخاصٍ، كان لبعضهم دور صالح في الحياة أو غير صالح، مع ذكر العبر والدروس المستفادة من قصصهم.

والرجاء من القراء الكرام إتحافنا بنظراتهم البناءة فيما ورد في هذين الجزءَين.

والحمد والثناء لله سبحانه، الّذي بنعمته تتم الصالحات.

جعفر السبحاني

قم / مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

٢٣ / شوال المكرم/ ١٤٢٨ هـ

---

١. الزخرف: ٤٥.

النبي أيوب عليه السلام

المُمتحَن الصابر

إنّ النبي أيوب عليه السلام من الأنبياء الذين نصّ القرآن المجيد على الإيحاء إليهم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ﴾[1].

ورد اسمه في القرآن الكريم أربع مرات [2]، واشتهر عليه السلام بصبره واحتماله للمكاره، حتّى أصبح مضرب المثل في ذلك.

وهو عليه السلام من ذريّة إبراهيم الخليل عليه السلام [3] كما يدل عليه قوله سبحانه:

---

١. النساء: ١٦٣.

٢. النساء: ١٦٣، والأنعام: ٨٦، والأنبياء: ٨٣، وص: ٤١.

٣. قيل في نسبه: أيوب بن أموص بن زارَح بن رعوئيل بن العيص (وهو المسمّىٰ عيسو في التوراة) بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. وقيل غير ذلك.

وقيل: إنّ امرأته، هي رحمة (رحما) بنت أفرائيم (وقيل منسّى) بن يوسف عليه السلام، وقيل غير ذلك.

واختلفت الأقوال في زمن وجوده عليه السلام، فقد ذهب بعضهم إلىٰ أنّه من الأنبياء المبعوثين بين

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[١]، فالضمير في قوله ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ يرجع إلى إبراهيم دون نوح عليهما السلام.

وإليك ما نزل في قصة ابتلائه من الآيات الكريمة:

١. ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ إِنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرى لِلْعَابِدِينَ﴾.[٢]

٢. ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ إِنِّي مَسَّنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[٣].

٣. ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾[٤].

٤. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

٥. ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[٥].

☜ سليمان وبين المسيح عليهما السلام، في حين ذكره آخرون (ومنهم عدد من كتّاب قصص الأنبياء مثل ابن كثير وطبّارة) فيمن بُعث بين يوسف وبين موسىٰ عليهما السلام. ويؤيد هذا ما جاء في مدخل سِفر أيوب من العهد القديم: يمكن الاعتقاد بأنّ قصة أيوب كانت شائعة بين حكماء الشرق الأدنىٰ في أواخر الألف الثاني ق. م. ورُويت بالعبريّة في أيام صمونيل وداود وسليمان (في القرن الحادي عشر والعاشر ق. م). الكتاب المقدس: ١٠٤٤، ط، دار المشرق ـ ١٩٩١ م.

١. الأنعام: ٨٤ ٢. الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤

٣. ص: ٤١. ٤. ص: ٤٢.

٥. ص: ٤٣ ـ ٤٤.

ويمكن تقسيم القصة إلىٰ ثلاثة محاور:

١. نوع البلاء الّذي ابتُلي به أيوب عليه السلام .

٢. الأسلوب الإلهي في شفائه .

٣. كيفية التحلّل من يمينه.

١. نوع البلاء الّذي ابتلي به أيوب عليه السلام

ذكر القرآن الكريم أنّ أيوب عليه السلام قد مسّه الضُّرُّ والمشقة والألم الشديد، قال سبحانه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ [١] وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وقال عزّ من قائل: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [٢]، ولم يصرِّح بنوع الضُّرّ الّذي لحقه، ولكن يبدو منه أنّه امتُحن في نفسه وأهله، فلم ييأس أو يجزع ويتذمّر، بل تحلّىٰ بالصبر الجميل علىٰ ما نابه من أرزاء ونكبات، وظلّ مستمسكاً بإيمانه واستقامته وثقته برحمة ربّه .

هذا وقد أسهب طائفة من المفسرين والمحدثين في الكلام عما أصاب أيوب عليه السلام من أنواع البلايا، ونقلوا حكايات كثيرة في هذا الشأن، كوقوع الدود في بدنه، ونتن رائحته، وإلقائه خارج القرية، معتمدين في ذلك علىٰ روايات وأخبار

---

١. الضُّرّ: ما يمسّ النفس من الضرر كالمرض ونحوه، والضَّرّ: الضرر من كل شيء، وهو ضد النفع. قال تعالى: ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾. الحج: ١٣.

٢. النُّصْب، والنَّصَب: المشقّة والتعب. قال سبحانه: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾. الحجر: ٤٨.

والعذاب: الألم المُضرّ.

لا يصحّ الاعتماد علىٰ كثير منها، لطغيان الإسرائيليات عليها، وهي في مجملها مأخوذة من سِفر أيوب من العهد القديم.

وممّا جاء في هذا السِّفْر:

«وضرب الشيطان أيوبَ بقَرْحٍ خبيث من أخمص قدمه إلى قمّة رأسه، فأخذ له خَزَفَةً ليحتكّ بها وهو جالس على الرماد. فقالت له امرأته: أإلى الآن متمسِّك بكمالك؟ جَدِّفْ على الله ومُت» فقال لها: «إنما كلامك كلام إحدى الحمقاوات، أنقبل الخير من الله ولا نقبل منه الشر» في هذا كله لم يخطأ أيوب بشفتيه .

ثم جرىٰ حوار بين أيوب عليه السلام وثلاثة من أصدقائه، فقال أيوب من جملة ما قال: «قد صار نفسي خبيثاً عند امرأتي، وأمسيتُ مُنتناً لأبناء أحشائي. حتّى الصبيان ازدَرَوني. أقومُ فيتكلّمون عليّ. قد مقَتني أمناء سرّي، والذين أحببتُهم قد انقلبوا عليّ... وقد اشمأزّوا منّي وابتعدوا عنّي، ولا يحتشمون أن يبصقوا في وجهي».

أقول: إنّ الله سبحانه وتعالىٰ يرسل الأنبياء لغايات سامية، وهذا يستلزم أن يتمتع الأنبياء بجاذبية خاصة، وأن يكونوا بعيدين عن العوامل المنفِّرة، لأنّ وجودها لا يجتمع مع تلك الغايات السامية، فما فيها من أنّ الشيطان ضربه (بقرح خبيث من أخمص قدمه إلى قمة رأسه) يضاد تلك الضابطة الّتي يحكم بها العقل. وممّا يؤسف له أنّ تلك الإسرائيليات قد تسربت إلىٰ كتب المفسرين[1]، والعجب أنّ ابن عاشور اعتمد علىٰ تلك القصة الإسرائيلية، لكنّه أصلحها وحذف

---

١. الدر المنثور: ٥ / ٦٥٤.

منها تلك الفقرة، وقال: ثم ابتلي بإصابة قروح في جسده وتلقّىٰ ذلك كله بصبر وحكمة وهو يبتهل إلى الله بالتمجيد والدعاء لكشف الضر.[١]

وهنا يُثار سؤال، وهو أنّ النبي أيوب عليه السلام ذكر مس الضُّر في سورة (الأنبياء) دون أن يذكر مصدره حيث قال: ﴿إِنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ﴾، ولكنّه أسند في سورة (ص) نصَبَه وعذابه إلى الشيطان، حيث قال: ﴿مَسَّنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

فماهوالوجه في هذا الاختلاف؟ ويمكن أن يقال في جواب هذا الاختلاف بأنّ المراد بالضُّر هو المرض وفقدان العافية والأهل، ومن المعلوم أنّ الضُّرّ بهذا المعنىٰ من الله سبحانه ولا صلة له بالشيطان، أمّا المقصود بالنصب والعذاب، فهو ما كان يقاسيه من أذى الناس، الذين كان يوسوس لهم الشيطان، فيُغريهم بالقول بأنّ أيوب لو لم يكن مذنباً وعاصياً لما أصابه مثل هذا البلاء العظيم، ولو كان الله تعالىٰ يحبّه لما لحقه مثل هذا الضُّرّ!! ومن الواضح أنّ هذا التعب والعذاب النفسي اللّذين كان يلاقيهما أيوب من هذا الكلام تصحّ نسبتهما إلى الشيطان، ويؤيد ذلك ما روي عن الصادق عليه السلام من أنّ الله تعالى ابتلىٰ أيوب بلا ذنب فصبر حتىٰ عُيّر، وأنّ الأنبياء لا يصبرون على التعيير.[٢]

هذا وقد جاء في الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ أيوب كان بعيداً عما أُلصق به من الأمراض المنفِّرة، فعن الباقر عليه السلام: إنّ أيوب ابتلي سبع سنين من غير ذنب، وإنّ الأنبياء لايذنبون، لأنّهم معصومون مطهّرون لا يذنبون

١. التحرير والتنوير: ٢١ / ٩٢.

٢. بحار الأنوار: ١٢ / ٣٤٧ نقلاً عن علل الشرائع.

ولايزيغون ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً. وقال ﷺ: إنّ أيّوب من جميع ما ابتلي به لم تنتن له رائحة، ولا قبحت له صورة، ولا خرجت منه مدّة من دم ولاقيح، ولا استقذره أحد رآه، ولااستوحش منه أحد شاهده، ولاتدوّد شيء من جسده، وهكذا يصنع الله عزّوجلّ بجميع من يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرّمين عليه.

وإنّما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره لجهلهم بما له عند ربّه تعالى ذكره من التأييد والفرج، وقد قال النبيّ ﷺ: أعظم الناس بلاءً الأنبياء، ثمّ الأمثل فالأمثل، وإنّما ابتلاه الله عزّوجلّ بالبلاء العظيم الّذي يهون معه علىٰ جميع الناس لئلّا يدّعوا له الربوبيّة إذا شاهدوا ما أراد الله أن يوصله إليه من عظائم نعمه متى شاهدوه، وليستدلّوا بذلك علىٰ أنّ الثواب من الله علىٰ ضربين: استحقاق واختصاص، ولئلّا يحتقروا ضعيفاً لضعفه، ولا فقيراً لفقره، ولا مريضاً لمرضه، وليعلموا أنّه يُسقم من يشاء، ويشفي من يشاء متى شاء كيف شاء بأيّ سبب شاء، ويجعل ذلك عبرة لمن شاء، وشقاوةً لمن شاء، وسعادة لمن شاء، وهو عزّ وجلّ في جميع ذلك عدل في قضائه وحكيم في أفعاله، لا يفعل بعباده إلّا الأصلح لهم، ولا قوّة لهم إلّا به .(١)

---

١. بحار الأنوار: ١٢ / ٣٤٨ ـ ٣٤٩. نقلاً عن كتاب النبوّة.

٢. الاسلوب الإلٰهي في شفاء أيوب عليه السلام

عرض أيوب النبي المعروف بالصبر سوء حاله على الله تعالىٰ ، قائلاً:

﴿إِنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

هكذا، دون أن يضجّ بشكواه ويصرخ بمعاناته، ودون أن تنسيَه أوصابه وأوجاعه أدب الدعاء مع الله، والّذي تجلّىٰ في هذه الإشارة الخفيفة إلىٰ رفع البلاء عنه. لم تتأخّر إجابة هذا العبد التقي الأبيّ الصابر، فقد نظر إليه سبحانه بعين الرحمة، وأزال ما به من الأوجاع والأمراض، كما قال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾.

كما ردّ الله عليه أهله الذين تفرّقوا عنه، ورزقه مثلهم ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ وقيل في معناه ـ كما ورد في بعض الروايات ـ:

إنّ الله أحيا له أولاده الذين هلكوا بأعيانهم، وأعطاه مثلهم معهم.

وأمّا كيفية علاجه ممّا ابتُليَ به من سُقم ومرض فيحكيها سبحانه بقوله: ﴿أُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (1) والمعنىٰ: اضرب برجلك الأرض، فامتثلَ عليه السلام الأمر، فنبعت له عين باردة، وأمره أن يغتسل فيها ويشرب منها، فبرئ من مرضه وشفي منه بإذن الله تعالىٰ.

---

١. المُغتَسَل: الموضع الّذي يُغتسَل منه، والماء الّذي يُغتَسل به.

٣. كيفية التحلّل من يمينه

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١).

روي أنّ أيوب قد حلف علىٰ امرأته لأمر أنكره منها؛ لئن عوفي ليضربنّها مائة جلدة، فلمّا عوفي أمره سبحانه بأن يفي بيمينه ولا يحنث به .

وأمّا كيفية الوفاء فهي أن يأخذ ضغثاً بعدد ما حلف عليه من الجلدات فيضربها به دفعة واحدة، فإذا حصل ذلك تحلّل من يمينه، وبرَّ بقسَمه، وأمّا ما هو القول أو العمل المنكر الّذي صدر منها، فللمفسرين في ذلك أقوال، لا حاجة لذكرها هنا.

---

١ . الضِّغث: القبضة من الحشيش أو العيدان ونحوهما. وبه شُبِّهت الأحلام المختلطة الّتي لا تتبيّن حقائقها ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾: حزم (أخلاط) من الأحلام.

والحِنْث: الذنب المؤثم، وسُمّي اليمين الغَموس حنثاً لذلك، وقيل: حنث في يمينه، إذا لم يفِ بها.

خلاصة قصة أيوب عليه السلام

اسم أيوب، من أشهر الأسماء الّتي لمعت في دنيا الصبر على البلاء، شَنّتْ عليه الآلام حرباً شعواء، فانتصر عليها بسلاح الصبر والإيمان، فجرىٰ ذكره علىٰ كلّ لسان، وفي كلّ زمان ومكان، وأصبح المثلَ الّذي يُضرب لكلّ صابر.

كان عليه السلام من ذرية إبراهيم الخليل عليه السلام، وأوحىٰ الله تعالىٰ إليه، كما أوحىٰ إلى سائر الأنبياء، الذين اضطلعوا بمسؤولية الدعوة إلى الله عزّوجلّ، وهداية الناس، وإنقاذهم من الضلالة ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ﴾.

ثم ابتُلي عليه السلام بأعظم البلايا، وأُصيب في جسده وفي أهله، ولكنّه ظلّ صابراً شاكراً، مطمئنّ النفس، دائم الذكر لله، مستأنساً بإيمانه، موقناً (أنّ بلاياه ـ تعالىٰ ـ محشوّة بكراماته الأبدية، ومحَنَهُ مورثةٌ رضاه وقُربه).[1]

ولمّا طال عليه أمد البلاء، أخذت ألسنة بعض الناس تنطق بالقول الباطل، الّذي وسوس به الشيطانُ في صدورهم، وزيّنه في نفوسهم، ومفاده: أنّ أيوب لو لم يكن مجترحاً للذنوب والآثام، ومُسخطاً لربّه العظيم، لما عانىٰ أهوالَ هذه الآلام.[2]

أحسّ عليه السلام بأن الأجواء تكفهرّ من حوله، فقد كان وقع هذا الكلام أشدَّ

١. اقتطفناه من كلام مرويّ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام. انظر: بحار الأنوار: ٧٨ / ٢٠٠ ح ٢٧.

٢. هذا هو أحد وجوه تفسير قول أيوب عليه السلام، الّذي حكاه سبحانه في القرآن المجيد: ﴿إِنِّي مَسَّنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

مضاضةً عليه من وقع الألم الجسدي، ولكنّ سمّو إيمانه لا يـزال يـمدّه بأشـعة الأمل، فرفع بصره نحو السماء راجياً، ودعا بلهجة تفيض أدباً ورقّةً وثقة برحمته تعالىٰ، قائلاً: ﴿إِنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِـمِينَ﴾.. و ﴿إِنِّـي مَسَّـنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

وجاءه النداء الإلهي، يحمل معه بُشرىٰ انتهاء الضُّرُّ، وكشف البلوىٰ، ورفع المشقة والعذاب: ﴿أُرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾... اضرب بقدميك الأرض، فسينبع منها الماء، وهو لك ﴿مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ يُبرئُك من مرضك، ويشفيك من سقمك.

ولتقرَّ عينُك بمن يؤنسُك من ذرّيتك، فقد كتبنا أن نؤتيك أهلَك ونرزقك مثلَهم من فيض رحمتنا بك، وجزاءً لصبرك الجميل ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾.

أما أمر زوجته الّتي ـ كما يقول المفسرون ـ أحسنت عشرته ومداراته، ووفت له كأسنىٰ ما يكون الوفاء، والّتي أثارت غضب زوجها لأمر ما، وأقسم أن يضربها كذا ضربة، إذا ألبسه الله أبراد العافية، أما هذا الأمر فقد يسّره الله لهما، إذ أمره سبحانه أن يضربها بقبضة من العيدان ونحوها ضربةً واحدة، وبذلك يتحلّل من قَسَمه، ولا يحنث فيه ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾.

وهكذا، خاض هذا النبي العظيم معركته مع الآلام والنكبات بكل ثبات واستقامة وإيمان، فخرج منها مُتوَّجاً بإكليل النصر، مَرضيّاً عند الله، مُحاطاً بسابغ نعمائه، مُضمَّخاً بعاطر ثنائه في الذكر الحكيم ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، مضروباً به المثل في نزاهة القلب واللسان، والتحلّي بفضيلة الصبر.

الدروس والعبر

قصة أيوب عليه السلام كسائر قصص الأنبياء فيها عظات وعبر، منها:

١. إنّ كثيراً ممّا يلحق الإنسان من بلايا ومصائب، ينبغي أن يُنظر إليه علىٰ أنّه امتحان وابتلاء وفتنة، ولا ينبغي اعتباره دليلاً علىٰ سخط الله وغضبه بسبب العصيان وارتكاب الذنوب والآثام، لأنّ الدنيا هي دار عمل واختبار، وإنّ الآخرة هي دار الجزاء والثواب والعقاب.

يُشار إلىٰ أنّ البلاء يكون أحياناً وسيلة لتفتح الاستعدادات المخزونة، وظهور الكمالات النفسية المكنونة، وقد اشتهر ـ مثلاً ـ أنّ الفقر هو بيت النبوغ وظهور الاستعداد، ويكون أحياناً أُخرىٰ سُلّماً لبلوغ المُبتلىٰ أعلى الدرجات، وفي هذا الإطار يأتي ابتلاء أيوب عليه السلام وغيره من الأنبياء والأولياء.

رُوي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: ما كُرِمَ عبدٌ على الله إلّا ازداد عليه البلاء.[١]

وعن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة.[٢]

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: إنّ في الجنة منزلة لا يبلغها عبد إلّا بالابتلاء في جسده.[٣]

---

١. دعائم الإسلام: ١ / ٢٤١.

٢. بحار الأنوار: ٦٧ / ٢٣٥ ح ٥٤.

٣. بحار الأنوار: ٦٧ / ٢١٢ ح ١٦.

وعن الإمام موسى الكاظم عليه السلام أنّه قال: مثل المؤمن مثل كفتي الميزان، كلما زيد في إيمانه، زيدَ في بلائه، ليلقى الله عزّوجلّ ولا خطيئة له.[١]

وما أروع قول أمير المؤمنين في هذا المجال، وهويتحدث عما لقيَه خاصة أنبياء الله وأوليائه من ضُرّ ومشقّة، قال عليه السلام: قَدِ ٱخْتَبَرَهُمُ ٱللهُ بِالمَخْمَصَةِ، وَٱبْتَلَاهُمْ بِالمَجْهَدَةِ، وَٱمْتَحَنَهُمْ بِالمَخَاوِفِ، وَمَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ. فَلَا تَعْتَبِرُوا الرِّضَىٰ وَٱلسُّخْطَ بِالْمَالِ وَ ٱلْوَلَدِ جَهْلاً بِمَوَاقِعِ ٱلْفِتْنَةِ وَٱلاخْتِبَارِ، فِي مَوْضِعِ ٱلْغِنَىٰ وَٱلاقْتِدَارِ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ: ﴿**أَيَحْسَبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾[٢]، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ.[٣]

٢. إنّ صبر النبي أيوب عليه السلام كان صبراً في المصيبة، وقد طال أمده، ومع ذلك فإنّه لم ينبس طول هذه المدة بكلمة شكوىٰ أو اعتراض أو ضجر.

ولذا وصَفه سبحانه في الذكر الكريم بقوله: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ أي وجدناه صابراً على البلاء الّذي ابتليناه به ﴿**نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ أي رجّاع إلى الله منقطع إليه .

٣. إنّ الابتلاء بالمحن والبلايا ربما يرافق فوات بعض المصالح والمنافع إلّا أنّ الله تعالىٰ يعوِّض الإنسان ما فاته، كما نرىٰ في قصة أيوب، حيث قال: ﴿**وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ**﴾...

---

١. بحار الأنوار: ٦٧ / ٢٤٢ ح ٨٢.	٢. المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦.

٣. نهج البلاغة: ٢٩١، الخطبة: ١٩٢ (وتسمّى القاصعة). و (المخمصة): الجوع. و (المَجهدة): المشقة. و (مَخَض): مَخَض اللبن، حرّكه ليُخرج زُبْدَه.

٤. إنّ الإنسان المحسن الّذي خدم عائلته مدة مديدة بفكره وجهده ربما يرتكب بعض الخلاف الّذي يستحق عليه العقوبة، إلّا أنّ مقتضىٰ الكرامة يوجب أن لا تُنسىٰ خدماته الّتي بذلها في سبيل إسعاد هذه العائلة، ويُركّز علىٰ خطئه فقط وتُترك حسناته المتقدمة، كما هو الحال في زوجة أيوب ﷺ، الّتي جاء في الأخبار أنّها خدمت زوجها سنين طويلة وإن صارت مصدراً للخلاف في بعض الأحيان، فلمّا شُفي الزوجُ، أمره سبحانه بأن لا يحنث بيمينه ولكن يؤديه بشكل لا يؤذي زوجته.

وهناك رواية نقلها العياشي، نحبّ أن نذكرها هنا وهي تنفع الفقهاء: روى العياشي بإسناده: أنّ عبّاد المكي قال: قال لي سفيان الثوري: إنّي أرىٰ، لك من أبي عبد الله ﷺ منزلة فاسأله عن رجل زنىٰ وهو مريض فإن أُقيم عليه الحدّ، خافوا أن يموت، ما تقول فيه؟ فسألته فقال لي: هذه المسألة من تلقاء نفسك أو أمرك بها إنسان؟ فقلت: إنّ سفيان الثوري أمرني أن اسألك عنها. فقال: إنّ رسول الله ﷺ أتي برجل أحبن قد استسقىٰ بطنه وبدت عروق فخذيه وقد زنىٰ بامرأة مريضة، فأمر رسول الله ﷺ فأتي بعرجون فيه مائة شمراخ فضربه به ضربة، وضربها به ضربة، وخلّىٰ سبيلهما، وذلك لقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾.[1]

والرواية تدل علىٰ أنّ الشريعة المتقدمة حجة على الشريعة المتأخرة، ما لم يَرِد دليل علىٰ نسخها، ونريد بالشريعة المتقدمة ما ورد ذكرها في القرآن، لا في كتب العهدين المحرّفة.

---

١. مجمع البيان: ٤ / ٤٧٨.

١٤

موسى كليم الله

منقذ بني إسرائيل

رسم الكليم موسى بن عمران عليه السلام بسيرته ومواقفه حياة بطل أمضى عمره في مكافحة الظلم والتمييز العنصري، وهو من أعظم المناضلين في تاريخ الإنسانية، ولذلك احتلّت قصّتُه المرتبةَ العليا في القرآن الكريم، حيث ذُكرتْ في أربع وثلاثين سورة منه، كما ورد اسمه فيه مائة وستاً وثلاثين مرة، وكانت حياته منذ ولادته إلىٰ أن لقي ربّه تعالى، مقترنة بالصعاب ومليئة بالأشواك، ومن هنا اهتمّ الذكر الحكيم بذكر كفاحه مع طاغوت عصره على وجه لانجد له مثيلاً في القرآن الكريم.

إنّ الكليم أحد أنبياء بني إسرائيل، وبنو إسرائيل هم الأسباط الاثنا عشر، وقد ذكرت أسماؤهم في التوراة كالتالي: ١. رأوبين، ٢. شمعون، ٣. جاد، ٤. يهوذا، ٥. يساكر، ٦. زبولون، ٧. عشير، ٨ دان، ٩. نفتالي، ١٠. لاوي، ١١. يوسف، ١٢. بنيامين، وإذا أُطلق «**بنو إسرائيل**» أو قيل «**يا بني إسرائيل**» فإنّما يراد به أولاد هؤلاء.

وكان يعقوب عليه السلام ـ الذي يسمّى بإسرائيل ـ قد هاجر مع أولاده إلى مصر أيام تولّي يوسف الأُمور المالية فيها، واستوطن الجميع في «جوشن» أو في حدود

مدينة «أون» عام ١٧٢٩ قبل الميلاد، وكان عددهم ـ كما قيل ـ يوم هاجروا ثلاثاً وسبعين نسمة، ولكن بعد التوطّن هناك تناسلوا وتكاثروا إلى حد خاف المصريون من كثرة عددهم، فصاروا يعاملونهم بخشونة وفظاظة قلب، وكانوا يقتلون أبناءهم ويستبقون نساءهم، كما سيمر عليك تفصيله.

***

ولوجود عبر وعظات في قصة موسى وحياة بني إسرائيل تناول القرآن الكريم قصتهم في سورة القصص بشكل أوسع من قصص سائر الأُمم، وبدأ كلامه بقوله:

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[١].

إنّ سورة القصص سورة مكية تكفّلت ببيان حياة موسى ومعاناته ونضاله، وكان بنو إسرائيل أذلّاء تحت يد الفراعنة، لكن تعلّقت مشيئته سبحانه بتسليط الضعفاء على الأقوياء وإبادة مُلكهم.

١. القصص: ٣ـ٦.

وما ذكر القرآن ذلك ـ في أوائل بعثة النبي ﷺ ـ إلّا ليكون سبباً لتقوية قلوب المؤمنين، وشدّ عزمهم، حيث كانوا مستضعفين تحت يد جبابرة قريش، فلم يكن لهم حرية في الإيمان ولا أمان على النفس والنفيس.

ومن أهمّ أغراض هذه القصة، هو بيان أنّ مشيئته تعالىٰ وسنّته في خلقه تجري في عامة العصور على وتيرة واحدة، وأنّ جولة الباطل مهما امتدت فإنّها تفنى وتحلّ مكانها دولة الحقّ.

تبدأ القصة بعرض أبرز خصائص فرعون ومعالم سياسته مع مجتمعه، وهي:

١. العُلوّ في الأرض ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر.

والمراد من العلو هو الكبر لا العلو المطلق، فإنّ العلو إذا كان لملاك كان أمراً مستحسناً ، فالقرآن لا يذم مطلق العلو كعلوّ العالم وتفوّقه على الجاهل، والقائد العسكري على جنوده، وانّما المذموم هو التكبّر و التجبّر بلا ملاك وهو من أعظم المعاصي الّتي تفتح على الإنسان باب المصائب.

٢. تمزيق المجتمع ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً﴾

نجح فرعون في تقسيم المجتمع إلى فرق مختلفة وأحزاب متباينة في ميولها ونزعاتها، ليسهل عليه تأجيج الصراع بينهم، وبالتالي إلهاؤهم عن مخططاته الرامية إلى التحكّم بهم جميعاً، والسيطرة على مقدّرات البلاد. وقد اشتهر قولهم: «فرِّق تَسُد»، و أمّا كيف فرّقهم وجعلهم شيعاً، فالآية ساكتة عن ذلك.

٣. القهر والإذلال والتقتيل ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾

مارس فرعون مع طائفة من أهل مصر وهم بنو إسرائيل، الذين قطنوا مصر لمئات السنين أي منذ أن قدم إليها يعقوب وأبناؤه بدعوة من يوسف ﷺ، مارس معهم سياسة عنصرية جائرة، تعمل على إذلالهم ومصادرة حقوقهم، وأهمّ مرتكزاتها: قَتْلُ الذكور، واستبقاء الإناث أحياءً ليتخذوهن خدماً .

في هذه الأجواء الخانقة، والمعاناة القاسية، كانت إرادة الله قد شاءت تحرير هؤلاء المستضعفين المضطهدين من قبضة الظالمين، وتخليصهم من أسر الذلّ والتبعية، ورفعهم إلى مقام العز والقيادة، ووراثة ما كان في مُلك فرعون وقومه، وامتلاك الإرادة الكاملة في التصرف فيه. ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾.

وهنا تتجلّىٰ إرادة الله الغالبة، والّتي لا يقف في وجهها شيء، فتصبح كلُّ مخططات الظالمين ووسائلهم وقدراتهم للاحتراز ممّا يخافون، تصبح أمام هذه الإرادة أوهن من بيت العنكبوت، فتتلاشىٰ وتتبدّد، وكأنّها لم تكن شيئاً مذكوراً ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ من زوال مُلكهم على يد رجل من بني إسرائيل .

وهذه الآيات عرضت لنا القصة بشكل إجمالي، وهو وجود سلطة ظالمة في مصر وأُمة مستضعفة، وتعلّق مشيئة الله سبحانه بقلب الأمر على رؤوس الظالمين....

إنّ الإمعان في مجموع الآيات الواردة حول قصة موسى مع فرعون وقومه في سور مختلفة، يرشدنا إلى تقسيمها إلى محاور تسعة، وهي :

١. ولادته ورضاعه.

٢. أسباب الهجرة إلى مَدْيَن.

٣. إقامته في مدين.

٤. هجرته من مدين إلى مصر والحوادث التي واجهها في طريقه.

٥. هبوطه مصر ودعوة فرعون إلى التوحيد.

٦. هلاك فرعون وجنوده.

٧. الإقامة في سيناء.

٨. الحَيرة في صحراء سيناء.

٩. موسىٰ الكليم عليه السلام والعبد الصالح.

وإليك دراسة مفصّلة لهذه المحاور.

١

ولادة موسى ورضاعه

١. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

---

١. القصص: ٧ ـ ١٣.

٢. ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾[١].

***

لمّا وضعت أمّ موسىٰ حملها، خافت على وليدها موسىٰ من أن يطّلع عليه جواسيس فرعون وتحيّرت في أمره إلى أن ألهمها الله سبحانه إرضاعَه مادامت تستطيع إخفاءه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، فإذا خافت أن يطّلع عليه آل فرعون فيأخذوه ويقتلوه فلتضعه في صندوق وتقذفه في البحر (اليمّ) وهو النيل ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾.

وبما أنّ إلقاء الولد في الأمواج لا ينفك عن الخوف عليه واستيلاء الخوف على الأُمّ، أوحى الله سبحانه إليها بأن: ﴿لَا تَخَافِي﴾ على موسى من الذبح، و﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ لفقده ومفارقته إياك: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فأخبرها الله سبحانه بسلامة وليدها وإرجاعه إليها، وبشّرها باصطفائه للنبوة والرسالة.

وقد تحقق الوعد الإلهي كله، كما سيوافيك.

---

١. طه: ٣٨ـ ٤٠.

وهذه الآية الكريمة من بدائع آيات القرآن وهي على وجازتها قد جمعت فعلين من الماضي «أوحينا و خفتِ»، وفعلين من الأمر «أرضعيه، وألقيه»، وفعلين من النهي «لا تخافي و لا تحزني»، ووزنين من اسم الفاعل «رادّوه، وجاعلوه»، و وزنين من اسم المفعول «موسى، و مرسل» ، واسمين خاصّين «موسى، و أُمّه» ثمّ قد تكررت فيها «فاء الجواب» مرتين «فإذا» و «فألقيه»، وحرف «إلى» مرتين «إلى أُمّ موسى»، و«إليك»، ثمّ قد كرّر «الخوف» مرتين، وعبّر عن أُمّ موسى باسم مزدوج بدل أن يسميها باسمها.وفيها نبأ غيبي وهو الإخبار بردّ موسى إلى أُمّه، وفيها وعدان: الرد والنبوة.

فاجتماع هذه الأُمور في آية واحدة يوجد في الإنسان عند سماعها، لذة وانجذاباً واستغراقاً، تجعله يذعن بمصدر هذا القرآن ومنزله....

ألقت أُمّ موسى بوليدها في البحر، وجرىٰ به الماء إلى أن ألقاه بالساحل بمشيئة الله تعالى، فأخذه آل فرعون، فكان مآل ذلك أن صار عليه السلام عدواً لهم، وسبباً لحزنهم ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ [١].

وهكذا تتجلىٰ هذه الحقيقة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ في جميع أعمالهم لاسيما في قتلهم أبناء الإسرائيليين خوفاً من زوال مُلكهم على أيديهم، بَيْد أنهم تركوا هذا الوليد حياً، واجتهدوا في تربيته، وهم لا يشعرون أنّه هو الّذي قُدِّر له أن يملأ قلوبهم حزناً وألماً، وأن يقوِّض حُكمهم ويُبيد مُلكهم .

١ . الالتقاط: إصابة الشيء وأخذه من غير طلب. واللام في قوله ﴿لِيَكُونَ﴾ لام العاقبة، ومثل ذلك قول الشاعر:

لِدُوا للموت وابنوا للخرابِ

لقد مَنّ سبحانه على هذا الوليد، بأن ألقىٰ محبته في قلب امرأة فرعون بمجرّد أن وقعت عينها عليه ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ ومن هنا استعطفت زوجها الطاغية وأَطْمَعَتْه فيه بقولها هو ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ [1].

وهذا يدل على أنّه لم يكن لهما ولد.

وقد استمالت بذلك قلب فرعون فصدته عن قتله قائلة: بأنّ التبنّي والإحسان يورث محبة في قلب المتبنّى (موسى) والمحسن إليه فينفعنا ولا يضرنا. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يعلمون ما وراء هذه التبنّي من إرادة الله القاطعة في إزالة مُلك الطاغية فرعون ومَلئه.

هذا ما كان يدور في القصر، أمّا حال قلب الأُمّ الّتي طرحت وليدها في البحر، فتصفه هذه الآية الكريمة ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولكن هل المراد أنّه صار فارغاً وخالياً من كلّ شيء إلّا من ذكر موسى، أو أنّ المراد بذلك أنّه صار فارغاً من الحزن لعلمها أنّ ابنها ناج سكوناً إلى ما وعدها الله تعالى به؟ الظاهر هو الثاني، ومعنى الآية: صار قلب أُمّ موسى بسبب الوحي خالياً من الخوف والحزن المؤدِّيَين إلى إظهار الأمر، ولولا أن ثبّتْنا قلبها بسبب الوحي (الإلهام) لتكون واثقةً بحفظ الله له لقرُبت من أن تُظهر الأمر وتُفشي السرّ.[2]

---

١. قَرَّتْ عينه (قُرَّةً وقَرَّة وقُرورةً): بردت سروراً وجفّ دمعها أو رأت ما كانت متشوّقةً إليه.

٢. انظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٦ / ١٢.

وقد انتفعت أُمّ موسى بالإيحاء اليها في موارد مختلفة:

أ. مدة الإرضاع التي أخفت فيها ولادة الولد وإرضاعه.

ب. حين إلقائه في اليمّ فلولا الوحي ربما فزعت وجزعت وانكشف أمرها.

ج. عندما التقطه آل فرعون وأخذوه معهم إلى البلاط....

وبالرغم ممّا أوحى الله تعالى إلى أُمّ موسى من أنّه سيحفظه ويرده إليها ويجعله في المستقبل من المرسلين فمهما بلغ يقينها بذلك، إلّا أنّ مقتضيات الأُمومة دفعتها إلى أن تتعرف على مآل ولدها ومصيره فأمرت أُخته باتّباع أثره حتى ترىٰ مآل أمره ﴿وَقالَتْ لأُخته قصّيه﴾، أي اتّبعي أثر ولَدي، فذهبت تتحسّس خبره بأسلوب ينمّ عن ذكاء وحذر شديدَيْن ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ أي عن بُعد أو عن جانب تنظر إليه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنّ أُخته تقتفي أثره وتراقب أحواله، وذلك بسبب حذقها في كيفية مراقبته.

لمّا امتثل الطاغية فرعون لرغبة امرأته بإبقاء الوليد حيّاً، أخذوا يبحثون له عن مرضعة تتولىٰ رعايته، ولكن الله تعالى قدّر أن يعاف هذا الوليد جميع المراضع اللواتي عُرض عليهن ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [1] أي من قبل مجيء أُخته أو من قبل ردّه على أُمّه .

وكانت أُخت موسى تراقب الأوضاع بتكتّم، وقد دخلت بذكائها إلى البلاط

---

١ . التحريم هنا تحريم تكويني، ومعناه: مَنَعناه منهنّ وبغّضناهنّ إليه، فكان ذلك كالمنع والنهي، لا أنّ هناك نهياً عن الفعل، يقال: فلان حرّم على نفسه كذا أي امتنع منه كما يمتنع بالنهي.

وشاهدت امتناع موسى عن الرضاع ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

في هذه الأجواء المضطربة التي عمّت البلاط قالت أُخت موسى بأنّها تعرف مَن يتكفّلون رعايته ويشفقون عليه، فاستجابوا لطلبها، وطلبوا من أُمّه بأن ترضعه.

وهكذا هيّأ الله الأسباب الّتي أفضتْ إلى إرجاع الطفل إلى أُمّه ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ونحن نميل إلى أنّ كيفية إرضاعها لولدها كانت بتردّدها إلى البلاط أو إقامتها فيه أيام رضاعه ولم يكن بدفع موسى إلى أُمّه كي ترضعه في بيتها وتردّه إليهم بعد انقضاء الرضاعة، وذلك لأنّ الكيفية الثانية تقطع أواصر المحبة بينهما وبين الولد، بخلاف الصورة الأُولى، فإنّها تؤكد على بقائها في قلبهما، وقد يؤيد ذلك قول فرعون لموسى عليه السلام عند المحاجّة ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[١].

وعلى ضوء ذلك نرجِّح :

أنّ موسى عاش في البلاط من أيام رضاعه إلى أن اشتدت قواه واستوى.

وقد حقّق سبحانه بردّ موسى إلى أُمّه أُموراً، أشار إليها في الآية:

١. ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ﴾.

---

١. الشعراء: ١٨.

٢. ﴿كَي تقرّ عَيْنها﴾.

٣. ﴿وَلا تَحْزَنْ﴾.

٤. ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَق﴾. والمراد بالعلم هو اليقين بالمشاهدة، فإنّها كانت تعلم من قبل أنّ وعد الله حقّ، وكانت مؤمنةً، وإنّما أُريد بالردّ أن توقن بالمشاهدة أنّ وعد الله حقّ.[1]

٢

أسباب الهجرة إلى مَدْيَن

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلماً وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنينَ﴾.

﴿وَدَخَلَ الْمَدينَةَ عَلىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هٰذا مِنْ شِيَعتِهِ وَهٰذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذي مِنْ شِيعَتِهِ عَلى الَّذي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسىٰ فَقَضىٰ عَلَيْهِ قَالَ هٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبينٌ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنّي ظَلَمْتُ نَفْسي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً لِلْمُجْرِمينَ﴾.

---

١. الميزان في تفسير القرآن: ١٦ / ١٤.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿فَلَمّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قَالَ يَا مُوسىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبّاراً فِي الأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدينَةِ يَسْعىٰ قَالَ يَا مُوسىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْها خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَومِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسىٰ رَبّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبيل﴾(١).

***

قد تقدّم أنّ موسى بن عمران رُدّ إلى أُمّه للرضاع، وأنها ـ على الأرجح ـ قامت بإرضاعه في البلاط وعاش فيه إلى أن بلغ أشده واستوى.

و «بلوغ الأشد» عبارة عن أن يعيش الإنسان إلى عمر تشتد فيه قواه ويكون في الغالب في الثمان عشرة، «والاستواء في الحياة» عبارة عن استقلال الإنسان في أمر حياته، ويختلف في الأفراد وهو على الأغلب بعد بلوغ الأشد.(٢)

ثم حباه الله سبحانه السَّدادَ في حُكمه على الأمور، والعلمَ الّذي يصيب به

---

١. القصص: ١٤ ـ ٢٢. ٢. الميزان: ١٦ / ١٤.

حقائق الأشياء ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلماً وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقد جاء هذا المضمون في سورة يوسف، فقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلماً وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وربما يُفرَّق بين بلوغ الأشدّ والاستواء، فيُقال إن المراد من الأوّل اكتمال القوة الجسمية ومن الثاني اكتمال القوة العقلية والفكرية ولعل هذا يشير إلى أن يوسف أوتي الحكم والعلم بعد ان اشتدّت قواه الجسمية بخلاف موسى فإنّه أوتيهما بعد بلوغه المرحلتين المذكورتين.

وهاتان الموهبتان (الحكم والعلم) لم تُمنحا لموسىٰ عليه السلام جُزافاً، بل جزاءً لإحسانه ﴿كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وهو ـ الجزاء ـ ضابطة كلية في حق المحسنين دون أن يختص بمُحسن دون آخر.

إنّ هذه الفترة الطويلة من حياة موسىٰ عليه السلام (الّتي تمتد من إرجاعه إلى أُمّه رضيعاً إلى إيتائه الحكم والعلم عند اشتداد قوّته واستوائه) لم يتعرّض لها القرآن ولم يذكر شيئاً عن ملابساتها وأحداثها، بل طواها كلها، ليقف بنا عند حادثة كبيرة ألقت بعض الضوء على طبيعة شخصيته ومسلكه في الحياة، ومثّلت انعطافةً مهمة في تاريخ حياته، وبدايةً لإرهاصات نبوّته وتكليفه بالرسالة.

وعلى الرغم من نشأته عليه السلام في البلاط الفرعوني. وبقائه فيه كل هذا الوقت، كما رجّحنا ذلك، إلّا أنّه ليس ـ فقط ـ لم يتأثر بأجوائه المشبعة بالظلم والقهر، والاستعلاء على بني إسرائيل واستعبادهم، بل نقم عليها ودعا إلى تغييرها

---

١. يوسف: ٢٢.

وإصلاحها، وإلى الانتصار للمظلوم وإنصافه من الظالم.

وإليك ما عرضه لنا القرآن من هذه الحادثة ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي في وقت يغفل فيه أهل المدينة عما يجري فيها وذلك لإغلاقهم المتاجر والاستراحة في بيوتهم وهو امّا وقت القيلولة أو أوّل الليل، والأوّل هو الأقرب لما سيأتي في الآيات التالية، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ [1] وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ . وجد ﷺ رجلين يتنازعان ويتضاربان أحدهما إسرائيلي من قومه، والآخر قبطي من أتباع فرعون، فاستنجد به الإسرائيلي على عدوه القبطي، وكلمة الاستغاثة دالة على كونه أضعف من خصمه.

استجاب ﷺ لنداء الاستغاثة، وأراد أن يردع القبطيّ ويؤدّبه، فضربه بجمع كفّه، فسقط ميّتاً ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ .

ولما رأى موسى مصرعه ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ وهنا احتمالان:

الأوّل: إنّ الذي وقع من المعاداة والاقتتال من جنس العمل المنسوب إلى الشيطان أو أنّه ناشئ من عمل الشيطان فانّه هو الذي أوقع العداء والبغضاء بينهما وأغراهما بالاقتتال حتى أدى ذلك إلى تدخل موسى وقتل القبطي بيده فأوقعه ذلك في خطر عظيم.

الثاني: إنّ هذا الاحتمال لا يناسب ما يأتي من قوله: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ لأنّه يدلّ على أنّ الموصوف بعمل الشيطان هو نفس العمل

---

١. الشيعة (لغةً): هم الجماعة المتعاونون على أمر واحد في قضاياهم، يقال تشايع القومُ: إذا تعاونوا، وربما يُطلق على التابع.

الذي أدى إلى قتل القبطي لا العداء والاقتتال بينهما إلى آخر ما ذكر في الأوّل. وعندئذٍ يقع الكلام كيف قتل موسى إنساناً وهو بعد غير مستحق للقتل وإن كان مستحقاً للتأديب؟

والجواب أنّ القتل وقع خطأ وعن غير قصد، فلا يعدّ مثله معصية. وأمّا وصفهُ بأنّه ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ﴾ فلأنّه تورّط في عمل خطير، سيجلب إليه الشرّ والأذىٰ، ويكلّفه ثمناً باهضاً.

وأدرك أنّه ترك الأَوْلىٰ والأفضل، وظلَمَ نفسه بهذا الاندفاع الّذي أفضىٰ إلى القتل في هذا الوقت الّذي لا تُجدي فيه المواجهة مع الأعداء، فتوجّه إلى ربّه ضارعاً و ﴿قَالَ رَبِّ إِنّي ظَلَمْتُ نَفْسي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ﴾.

ثمّ أيقن عليه السلام أنّ هذا الأمر لم يبق مستوراً عن فرعون وملئه وأتباعه، وأنّهم سوف يقبضون عليه ويقتصّون منه، ومع ذلك كان غير نادم على استجابته لاستغاثة الإسرائيلي، بل كان على استعداد لإجابة كل مستغيث مستضعَف ونصرهِ، وإن كان نادماً على كيفية تأديب القبطي بالوكز المؤدي إلى القتل، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً لِلْمُجْرِمينَ﴾.

أي بما أنعمت عليّ من القوة والقدرة والحكمة والعلم، فـ ﴿لَنْ أَكُونَ ظَهيراً لِلْمُجْرِمينَ﴾، ويريد بالمجرمين القبطي ومن كان على شاكلته.

وشكر النعمة ـ أعني: العلم والحكمة ـ عبارة عن الانتصار للحق ودفع الباطل، كما هو واضح.

بقي موسى في المدينة ولم يرجع إلى البلاط كما يقول تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ أي يراقب الأوضاع، لأنّ قتل القبطي لم يكن أمراً هيّناً، وبينما هو في هذه الحال، إذ واجهته حادثة أُخرى مشابهة لما لاقاه بالأمس ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي يطلب نُصرته بصُراخ، فتوجّه ﷺ إلى الإسرائيلي وقال له موبّخاً: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ بعيد عن الرُّشد، مجانب للصواب فيما تفعله، حيث تخاصم مَن لا تُطيق دفْعَ شرّه عنك، وتخلق لنا المشاكل. ومع ذلك أراد أن ينصره لأنّه عاهد الله سبحانه في كلامه السابق: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً لِلْمُجْرِمين﴾ أن ينصر المظلومين، ﴿فَلَمّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما﴾.

لما أراد أن ينصر المستنجد به ـ كما نصره بالأمس ـ ويبطش بالقبطي الذي هو عدو لهما، ﴿قال يا موسىٰ أَتُريدُ انْ تَقْتُلَني كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ﴾.

وهنا اختلف المفسرون: هل قائل هذا الكلام هو الإسرائيلي، أو القبطي؟ فذهب جُلّهم إلى أنّه الإسرائيلي، وإنّما قال له ذلك لظنّه أنّ موسى ـ بعد أن وصفه بالغويّ المبين ـ يريد أن يبطش به لا بالقبطي، وعند ذلك علم القبطي انّ قاتل صاحبِ القبطي بالأمس، هو موسى، فأُنهيَ خبره إلى البلاط، فعقدوا اجتماعاً خاصاً، قرّروا فيه قتل موسى ﷺ.

وقال غيرهم: إنّ القائل هو القبطي، لِما ذاع في المدينة بأنّ موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس .

ولعلّ الوجه الثاني هو الأقرب ، لأنّ الظاهر أنّ ضمير «قال» يرجع إلى

الأقرب وهو العدو، وقد حاول بكلامه ـ أتريد أن تقتلني ـ زجر موسى عن البطش واستعمال الشدة، بدل الصلح بين المتخاصمين والسعي بالتراضي بينهما.

ثمّ إنّ الظاهر أنّ قوله ﴿عَدُوٌّ لَهُما﴾ تعريض لما في التوراة الحاضرة حيث تذكر أنّ المتخاصمين هذين كانا جميعاً إسرائيليين.[١]

ما إن آنفضّ الاجتماع الّذي تداولوا فيه قضية موسىٰ، حتّى أسرع أحد الرجال إلى موسى، وأخبره بما دار فيه، مشيراً عليه بمغادرة البلد للنجاة بنفسه ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ أي من ناحية قصور فرعون وقومه وكانت عادة الملوك السكنى في مكان بعيد عن المدينة التي تسكنها الرعية وقد قيل: «الأطراف منازل الأشراف»، ﴿قَالَ يَا مُوسىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ والملأ هم الجماعة أُولي الشأن، والمراد بهم هنا أركان دولة فرعون وأصحاب الأمر والنهي، والإئتمار: التشاور ، فأخبره ذلك الرجل (وهو ـ كما في قول كثير من المفسرين ـ مؤمن آل فرعون، الّذي يكتم إيمانه) بأنّ فرعون ومن حوله من الوزراء يتشاورون في قتلك بعد معرفتهم بأنّك قاتل القبطي .[٢] ﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾، أذعن موسى بصحّة الخبر لما لمس من ملامح الصدق في سيماء الرجل وكلامه ﴿فَخَرَجَ مِنْها خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ أي خائفاً من أن يُطلب فيُقتل وكان ينتظر الطلب من جُند فرعون، الذين يجدّون في البحث عنه. وإزاء هذا الخطر المحدق به، التجأ موسى ﷺ إلى الله تعالى و ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ

---

١. جاء في التوراة: فإذا برجلين عبرانيين يتخاصمان. انظر: سفر الخروج الاصحاح الثاني.

٢. جاء في التوراة: فسمع فرعون هذا الخبر، فطلب أن يُقتل موسى، فهرب موسى من وجه فرعون، وانطلق إلى أرض مدين وجلس عند البئر. سفر الخروج، الإصحاح الثاني، الجملة ١٥.

الظَّالِمينَ﴾ أي من فرعون وأتباعه، وهذا دليل على أنّه ما كان يرىٰ قتل القبطي خطأً وجرماً بنفسه، بل غاية ما يعترف به أنّ عمله هذا جرّ عليه المتاعب.

وهكذا خرج عليه السلام من مصر خائفاً حائراً وحيداً، وسار باتجاه مدين، دون أن يعرف عن الطريق المؤدية إليها شيئاً، ولكنّ الأملَ بالله والتطلّع إلى عونه كانا يحدوانه إلى مواصلة السير، وهو مطمئن بأنّه تعالى سيرشده إلى الجادّة ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ[1] قَالَ عَسىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبيلِ﴾.

٣

إقامته في مدين

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبيرٌ﴾.

﴿فَسَقىٰ لَهُما ثُمَّ تَوَلّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقيرٌ﴾.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدٰيهُمَا تَمْشي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَومِ الظَّالِمينَ﴾.

---

١. تلقاءَ مدين: حِذاءها وجهتها.

﴿قَالَتْ إِحدٰيهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾.

﴿قَالَ إِنّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَي ابْنَتَيَّ هٰاتَيْنِ عَلىٰ أَنْ تَأْجُرَني ثَمَانِي حِجَج فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُني إِنْ شَاءَ اللّٰهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿قَالَ ذٰلِكَ بَيْني وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوانَ عَلَيَّ وَاللّٰهُ عَلىٰ ما نَقُولُ وَكِيلٌ﴾(١).

***

لم يتعرّض القرآن المجيد لما لاقاه موسى في سفره هذا من مصاعب ومتاعب، غير أنّ المفسرين والرواة ذكروا أنّ موسى خرج نحو مدين وليس له علم بالطريق ولم يكن معه زاد ولا ماء ولا راحلة ولا دليل، وكان يأكل من نبات الأرض وأوراق الشجر حتى بلغ ماء مدين.

و «مدين» على ما في «مراصد الاطلاع»: مدينة قوم شعيب وهي تجاه تبوك على بحر القلزم بينهما ست مراحل، وهي أكبر من تبوك، وبها البئر التي استقى منها موسى لغنم شعيب عليه السلام.

وربما يقال: كان بينهما وبين مصر مسيرة ثمان، وكانت خارجة عن سلطان فرعون ولذا توجه إليها.(٢)

وفي «التحرير والتنوير»: أرض «مدين» واقعة على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر وكان موسى قد سلك إليها عند خروجه من بلد «رعمسيس» أو «منفيس»

١. القصص: ٢٣ ـ ٢٨.
٢. الميزان: ١٦ / ٢٤ ـ ٢٥.

طريقاً غربية جنوبية فسلك برية تمر به على أرض العمالقة وأرض الأدوميين ثمّ بلاد النبط إلى أرض مدين، فتلك مسافة ثمانمائة وخمسين ميلاً تقريباً. وإذ قد كان موسى في سيره ذلك راجلاً فتلك المسافة تستدعي من المدة نحواً من خمسة وأربعين يوماً. وكان يبيت في البرية لا محالة. وكان رجلاً جَلْداً وقد ألهمه الله سواء السبيل فلم يضل في سيره.[١]

وعلى كلّ تقدير، قطع موسى عليه السلام كلّ هذه المسافة البعيدة بتسديد من الله تعالى، وتحمّل مشقة الطريق حتّى وصل ماءً لمدين، فوجد عنده جمعاً من الرعاة يستقون منه لمواشيهم، ولفت نظره وجود امرأتين تقفان في ناحية عن الرعاة، تمنعان أغنامهما عن ورود الماء ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾. تبرّم عليه السلام بهذا المشهد ولم يطق رؤيته، فتقدم نحوهما، و ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾.. ما شأنكما؟ ما لكما لا تسقيان مع الناس؟ ﴿قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي حتّى يصرف الرعاة مواشيَهم، رغبةً عن مزاحمة الرجال، فإذا انصرفوا سقينا مواشينا من فضول الماء...﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ وهذه الجملة كانت اعتذاراً منهما للحضور في السقي مع الرجال وهو أنّ أباهما شيخ كبير السنّ،[٢] لا يستطيع القيام بهذا العمل، فلذلك أُنيط بنا.

---

١. التحرير والتنوير: ٢٠ / ٣٧.

٢. اختلف المفسرون في هذا الشيخ من هو؟ فقال أكثرهم: إنّه شعيب عليه السلام، وقال آخرون: إنّه ابن أخي شعيب، وقال غيرهم: إنّه لا هذا ولا ذاك، بل هو شيخ من أهل مدين. وقد مرّ بنا القرآن المجيد يذكر قصة النبي شعيب عليه السلام بعد قصة النبي لوط عليه السلام، وهذا يدلّ على تقدّم زمانه على زمان موسى، ثم إنّ هذا الشيخ الكبير لو كان هو النبي شعيباً لكان سيد أهل الماء، ولو كان كذلك ما أخّر الرعاء ابنتيه من الورد، ولكانتا تصدران قبل ورد الرعاء (قصص القرآن للنجار: ١٧٠).

وفي الآية اشارة إلى أمرين وهما:

أ. انّ طبيعة المرأة تقتضي عدم الاختلاط بالرجال في المواقع التي تثير الريب، ويصعب فيها مراعاة العفاف بشكل تام، وهو أمر تدعو إليه الفطرة السليمة للإنسان، في أي عصر كان، وفي كل مجتمع.

ب. انّ الأعمال الشاقة أولَىٰ بأن يمارسها الرجال، لأنّهم ـ في الغالب ـ أقدر على النهوض بها، ولا ينبغي أن تتولّاها النساء، إلّا إذا اضطُررن إلى ذلك.

وعلى كلّ تقدير ، فما ذُكر يرجع إلى أهمية تقسيم الأعمال في المجتمع وأن يقوم كلّ بدوره الذي يناسب خصائصه وقدراته. ومن هنا قال الإمام علي عليه السلام : «ولا تُملِّك المرأةَ من أمرها ما جاوز نفسها فانّ المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة»[١] .

لما رأى موسى الوضع المحرج للمرأتين، أحسّ وهو الطريد الشريد المُبتلىٰ بغربتين: الغربة عن الوطن، وغربة الفقر، أحسّ من صميم ضميره بوجوب مساعدتهما ، فقام ﴿فَسَقَىٰ لَهُما﴾ غنمهما: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إلى الظِّلِّ﴾ أي انصرف إلى ظل شجرة واستراح إليه من شدة الحرّ، وأدركه جوع شديد، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: والله، ما سأله إلّا خبزاً يأكُله، لأنّه كان يأكُلُ بَقْلَةَ الأرض، ولقد كانت خُضرةُ البَقْلِ تُرىٰ من شَفيفِ صِفاق بطنه، لهُزاله وتَشَذُّب لَحْمِه.[٢]

---

١ . نهج البلاغة، قسم الرسائل، برقم ٣١.

٢ . نهج البلاغة: ٢٢٦ ـ ٢٢٧، الخطبة ١٦٠. وشفيف: رقيق. والصفاق: الجلد الباطن. وتشذّب لحمه: تفرُّقهِ وانهضامه.

وعليه، فالأولىٰ أن يكون المراد بقوله ﴿مَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾: القوة البدنية الّتي كان يستعملها في ما يُرضي الله تعالى، كالدفاع عن الإسرائيلي، وسقي الغنم. وإظهار الفقر مع وجود هذه القوة الّتي أفاضها الله تعالى إليه، كناية عن إظهار الفقر إلى شيء من الطعام، تُستبقىٰ به هذه القوة الموهوبة.[1]

استمع الشيخ الكبير لابنتيه، وهما تحدثانه عن هذا الشاب الغريب الّذي سقىٰ لهما الغنم، فأرسل إليه إحداهما لتدعوه إلى المنزل ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَٰيهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء﴾.

كما هو شأن الفتاة الطاهرة العفيفة الّتي يغلب عليها الحياء وهي تلقى الرجال، وأبلغتْه رسالة أبيها، و ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي ليكافئك على ما سقيت لنا. استجاب موسى عليه السلام للدعوة، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ وصارحه بما ينتابه من خوف وقلق من جلاوزة فرعون الذين يبحثون عنه ليقتلوه، ﴿قَالَ﴾ له الشيخ الكبير مُطَمْئناً ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوِمِ الظَّالِمِينَ﴾ فأنت في مكان أمين بعيد عن سطوة هؤلاء الظالمين.

اتّضحت بعض معالم شخصية موسى عليه السلام من خلال مبادرته إلى إعانة الفتاتين، وعفّتهِ في التعامل معهما، ومن خلال سرده لقصة حياته ومواقفهِ من فرعون وقومه.. وهنا وبدافع الحاجة إلى من يكفي هاتين الفتاتين مؤونة رعي الأغنام وغيره من الأعمال الشاقة ﴿قَالَتْ إِحْدَٰيهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾.

وطبع الحال يقتضي انّ ابنة هذا الشيخ تكلمت مع أبيها سرّاً لا بحضور

---

١. انظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٦ / ٢٥.

موسى. وقد استجاب لها الأب عَبر تقديم هذا العرض لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَىٰ ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ﴾.

وهكذا عرض هذا الشيخ الجليل على موسى تزويجه إحدى ابنتيه، شريطة أن يخدمه ويرعىٰ ماشيته ثماني حِجج (سنين)، فإن زادها إلى عشر سنين، فهي هبة منه، غير مُلزَم بها.

ثم وعده بأن لا يوقعه في المشقّة والعَناء ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وليس هذا من قبيل تزكية النفس المنهي عنها. لأنّ مورد النهي ما إذا أراد به الفخر والاستعلاء، وأمّا إذا كان الهدف توضيح الحال للمخاطب حتى يطمئن إليه فليس فيه إشكال، وقد مرّ نظير ذلك في سورة يوسف حيث قال للمَلك: ﴿اجْعَلني عَلى خَزائِنِ الأرضِ إنّي حَفيظٌ عَليمٌ﴾[1].

لمّا خيّره الشيخ بين ثماني حجج وعشر، خاطبه موسى بالقبول ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ وحاصل جوابه: أنّه يقبل هذه المشارطة والمعاهدة بشرط أن يكون تعيين أحد الأجلين بيده، أي له أن يختار أيّ الأجلين شاء، فإن اختار الثماني سنين فليس للشيخ أن يعدو عليه، وإن اختار الزيادة فليس للشيخ منعه.

ثمّ إنّ الطرفين أشهدا الله تعالى على ما يقولان، وأرجعا الحكم والقضاء بينهما إلى الله سبحانه ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ ما نَقُولُ وَكيلٌ﴾.

---

١. يوسف: ٥٥.

٤

العودة إلى مصر

﴿ فَلَمَّا قَضىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنّي آنَسْتُ ناراً لَعَلّي آتيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ .

﴿فَلَمّا اَتٰيهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِـنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسٰى إِنّي أَنَا اللّٰهُ رَبُّ الْعَالَمينَ﴾ .

﴿وَأَنْ الْقِ عَصَاكَ فَلَمّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ .

﴿اُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرهانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ فِرْعَونَ وَمَلائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فَاسِقينَ﴾ .

﴿ قالَ رَبِّ إِنّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ .

﴿وَأَخي هٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُني إِنّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ .

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخيكَ وَنَـجْعَلُ لَكُـمَا سُـلْطاناً فَـلا يَـصِلُونَ

إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ﴾[١].

التزم موسى بن عمران ﷺ بالعقد الّذي أُبرم بينه وبين الشيخ الكبير، واختار أبرّ الأجلين وأوفاهما، كما ورد في الحديث الشريف، أي عشر سنوات، أمضاها في خدمة الشيخ ورعي أغنامه. وكانت هذه المدة الزمنية فترة إعداد وتربية له، استعداداً لتلقّي التكليف الإلهي، والنهوض بهذه المسؤولية الكبيرة. ثم حزم حقائبه، واعتزم السفر مع أهله إلى بلاده مصر **﴿فَلَمَّا قَضىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ﴾** متوجّهاً نحو مصر ضلّ الطريق في ليلة مظلمة شديدة البرد، فتحيّر في أمره، وبينما هو كذلك، رأىٰ ناراً تضيء من جانب الجبل **﴿آنَسَ**[٢] **مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً﴾**.

فأمر أهله أن يلزموا مكانهم ليذهب إلى ما آنسه لعله يجد هناك من يُرشده على الطريق أو يأخذ قطعة من النار ليستدفئوا بها. **﴿قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنّي آنَسْتُ ناراً لَعَلّي آتيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾**[٣].

وقد ورد نفس هذا المعنى في سورة طه بالنحو التالي: **﴿وَهَلْ أَتٰيكَ حَديثُ مُوسىٰ * إِذْ رَأى ناراً فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنّي آنَسْتُ ناراً لَعَلّي آتيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً﴾**[٤].

فلما توجّه موسى الى النار وبلغها **﴿ نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي**

---

١. القصص: ٢٩ ـ ٣٥.

٢. آنس: أبصر أمراً يؤنَس بمثله، وتسكن النفس إليه.

٣. جَذوة: قطعة من الحطب غليظة فيها النار.

٤. طه: ٧ ـ ١٠. والقبس: القطعة من النار. ومنه قيل اقتبس النار اقتباساً أي أخذ منها شعلة.

﴿الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [1] أي نودي موسى من الجانب الأيمن للوادي الواقع ﴿فِي الْبُقْعَةِ [2] الْمُبَارَكَةِ﴾ وإنّما كانت مباركة لتشرّفها بالوحي والرسالة وكلام الله تعالى، وكان هذا النداء، نداءً إلهياً وصل إلى أسماع موسىٰ، وهو يقول: ﴿إِنّي أَنَا اللّٰهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وفهم معنى الآية رهن الوقوف على إعرابها.

قوله: «من شاطئ الوادي»، متعلق بقوله: «نودي» و «الأيمن» صفة «لشاطئ» و«المباركة» صفة للبقعة و«من الشجرة» بدل من قوله «من شاطئ الوادي» بدلَ اشتمال، لأنّ الشجرة كانت نابتة على الشاطئ.

ومعنى الآية : انّ موسى لما أتى النار التي شاهدها من بعيد أتاه النداء من أيمن شاطئ الوادي من قِبَل الشجرة، والشاطئ الذي هو جزء من البقعة المباركة.

وأمّا ما هو الملاك لوصف الشاطئ بالأيمن، فالآية ساكتة عنه، وربّما يقال: إنّ الملاك كونه واقعاً عن يمين موسى، وهذا خلاف ظاهر الآية، إذ ان الأيمن فيها، وصف للشاطئ نفسه، أي أنّه يقع جغرافياً في الجهة اليمنى لمكان ما، ولكن لم يُحدَّد هذا المكان.

والظاهر أنّ الشجرة كانت مبدأ للنداء والتكريم ، أي كان يسمع كلام الله من جانبها دون أن يكون كلام الله قائماً بالشجرة كقيام الكلام بالمتكلم، وكأنّ الشجرة كانت حجاباً احتجب سبحانه به فكلمه من ورائه بما يليق بساحة قدسه من

١. شاطئ: جانب، ويُجمع شواطئ وشُطآناً.

٢. البقعة: القطعة من الأرض المتميزة عن غيرها.

معنى الاحتجاب كيف وهو على كلّ شيء محيط قال تعالى: ﴿وَمٰا كانَ لِبَشرٍ أَنْ يُكَلّمهُ الله إلاّ وَحياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجاب أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحي بِإذْنِهِ مٰا يَشاءُ﴾[1].

سمع عليه السلام هذا النداء ﴿إِنّي أَنَا اللّٰهُ رَبُّ الْعَالَمينَ﴾ من جانب الشجرة، وهو النداء الوحيد المذكور في هذه السورة ، وأمّا في سورة «طه» فقد ذكرت فيها نداءات نشير إليها.

١. ﴿إنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ مكان ما في سورة القصص ﴿إِنّي أَنَا اللّٰهُ رَبُّ الْعَالَمينَ﴾.

٢. ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

٣. ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾.

٤. ﴿إِنَّني أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْني وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْري﴾.

٥. ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾.

٦. ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾[2] .

وهذه النداءات تحكي عن بلوغ موسى منصب النبوة، و قد جاء في ثنايا هذه الخطابات من أصول العقائد أصلان:

١. التوحيد: ﴿انّني أَنَا الله لا إلهَ إلاّ أَنا﴾.

٢. الإيمان بالمعاد: ﴿إِنّ الساعة آتِيَة لتجزى كلُّ نفس بِما تَسعىٰ﴾ نعم،

---

١. الشورى: ٥١.
٢. طه: ١٢ ـ ١٦.

ليس في ثنايا الآيات تصريح بأنّه صار نبياً غير أنّ نزول الوحي عليه، وتكليفه بالعبادة واقامة الصلاة وتحذيره عن الانصياع إلى من ينكر القيامة ويتبع هوى نفسه ـ كلّ ذلك ـ دليل على أنّه نال منصب النبوة بل الرسالة.

وقد مرّ انّ الشجرة لم تكن موضع كلام الله سبحانه كما زعمته المعتزلة بل كانت حجاباً بينه و بين الله وانّما سمع النداء من جانب الشجرة لا من نفس الشجرة، وبذلك يفترق مضمون الآية عن شطحات الصوفية كما قد ينسب إلى الحلاج أنّه كان يقول: ما في جبتي إلّا الله، والتفصيل في ذلك لا يسعه المقام.

معاجز موسى عليه السلام

قد تقدم أنّ الكليم عليه السلام بلغ منصب النبوة بل الرسالة وقد تحمّل مهمة كبرىٰ، ستعرضها الآيات الآتية. ومن المعلوم أنّ كل نبي يجب أن يكون مؤيَّداً بمعجزة (أو معاجز) حتى تكون دليلاً على صلته بالله تعالى، وصدقِ نبوّته، وقد أوتي موسىٰ عليه السلام في هذا المقام هاتين المعجزتين:

الأُولىٰ: أن يُلقي عصاه على الأرض، فإذا ألقاها صارت ثعباناً وحيّة كبرىٰ، واهتزت بشدة وتلوّت كأنّها صغار الحيات (الجانّ).

﴿**وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً**﴾.. انهزم من الخوف ﴿**وَلَمْ يُعَقِّبْ**﴾.. ولم يرجع، فنودي ﴿**يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ**﴾ من المخاوف، فإنّه ﴿**لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ**﴾[1].. فهم من حماية الله القوي العزيز في حصن حصين، ومن رحمته ورعايته في ظلّ ظليل.

---

١. النمل: ١٠.

الثانية: أن يُدخل يده في فتحة قميصه (الجَيْب)، فإذا أدخلها فيه ثم أخرجها، بدت بيضاء متلألئة كتلألؤ الشمس ﴿اُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سوءٍ﴾ أي من غير مرض، كما في المبتلى بالبرص، وفيه تعريض لما في التوراة الحاضرة في هذا الموضع من القصة والتي ورد فيها: ثمّ قال له الرب أيضاً: ادخل يدك في عبئك فأدخل يده في عبئه ثمّ أخرجها فاذا يده برصاء مثل الثلج.[1]

وبعد أن أراه سبحانه هاتين المعجزتين، خاطبه بكلام ثالث لا صلة له بالمعجزتين السابقتين وهو قوله: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ والرهب بالفتح فالسكون بمعنى الخوف، والجَناح يراد به اليد أو العضد، والظاهر هو الأوّل، لأنّ يدي الإنسان كالجناحين للطير، وحاصل الجملة أنّه سبحانه أمره بضم جناحه إلى نفسه لأجل ما اعتراه من الخوف والرعب، والظاهر أنّ الجار متعلق بالفعل أي اضمم. وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الجملة من الآية إلى وجوه:

١. أن يجعل يده اليمنى تحت عضد اليد اليسرى وبالعكس، وعند ذلك يصح أن يُقال: ضم جناحه إلى نفسه وعلى ذلك فقد أطلق الجناح واريد منه الجنس وذلك ليشمل اليدين ولعله أمر بذلك لتسكن نفسه من الخوف الذي طرأ عليه.

٢. ان يسبلَ يديه إلى جنبيه فيأخذ لنفسه سيماء الخاشع المتواضع، فإن من شأن المتكبر المعجب بنفسه أن يفرج بين عضديه وجنبيه كالمتمطي في مشيته،

---

١. سفر الخروج، الإصحاح ٤، الجملة ٦.

فيكون معنى الآية أنّه أمره في تلك الحالة بالتواضع كما قال سبحانه ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

وهذا الوجه غير تام، إذ يُصبح فيه قوله ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ أمراً غير لازم.

٣. إسدال اليدين وضمّهما إلى نفسه لأجل التخلص من الرهب والخوف، وذلك لأنّ الإنسان المضطرب لا يقرّ له قرار، وهذا بخلاف الإنسان الآمن فانّه يستقر كالجبل، وكأنّه استعارة من فعل الطائر، لأنّه إذا خُوّف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان مقبوضان .

وهكذا، وبعد أن ذهب الرَّوْع عنه، كُلِّف عليه السلام بالنهوض بالمسؤولية الكبرىٰ، مسؤولية الدعوة إلى الله تعالىٰ، مُزوَّداً بهاتين المعجزتين اللتين تمثّلان برهانين ساطعين ودليلين واضحين من الله جلّ شأنّه ﴿فَذانِكَ بُرهانَانِ مِنْ رَبِّكَ إلىٰ فِرْعَونَ وَمَلائِه إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة الله تبارك وتعالى.

تلقّىٰ عليه السلام التكليف الإلهي، وهو يدرك مدى الصعوبات الّتي تعترض طريقه لبلوغ الأهداف الّتي تريدها الرسالة، فدفعه شعوره العميق بالمسؤولية، وإخلاصه الشديد لها إلى استعراض المعوّقات الّتي تحول دون القيام بالمهمة على أكمل وجه ﴿ قالَ رَبِّ إنّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ قصاصاً بتلك النفس وعند ذلك لا يتم تبليغ الرسالة، ولذا اقترح أن ينضمّ إليه أخوه ﴿وَأَخِي هٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُني﴾.

---

١. الحجر: ٨٨.

فأرسله معيناً لي على تبليغ الرسالة، والمنافحة عنها عند المخاصمة ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ . والغاية من الاقتراح ليس هي الخوف من تكذيب فرعون وملئه، إذ لو كان ذلك مانعاً لسُدّ باب النبوة إذ ما من نبي إلّا ويخاف من التكذيب، وإنّما الغاية من الاقتراح هي أن يكون أخوه ناصراً له شاداً ظهره مبيّناً لأفكاره بوضوح عندما يصعب الكلام وقت غضبه وجِدّه، وقد عبّر عليه السلام عن هذا التوجّس، والرغبة في إشراك أخيه معه بشكل جليّ، إذ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[1].

روي أنّه كانت في لسان موسى لُكنة، غير أنّها لم تكن على نحو يُعدّ عيباً وعاهة بل كان الفرق بينهما هو الفرق بين الفصيح والأفصح.

استجاب الله تعالى دعوتَيْه وزاده تفضيلاً بأن أعطاه مالم يسأله ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ﴾. أمّا الدعوة الثانية، فقد استجابها بقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، وأمّا الدعوة الأُولى فاستجابها بقوله: ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما﴾. وأمّا التفضيل فأشار إليه بقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطاناً﴾ أي حجة وقوة وبرهاناً ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا﴾ ولا يتسلطون عليكما بسبب آياتنا، والظرف متعلق بقوله: ﴿فَلا يَصِلُونَ﴾، وهذه الآيات هي انقلاب العصا حية، وتحوّل يده إلى يد

---

١. طه: ٢٥ ـ ٣٢.

بيضاء مُشّعة، إلى غير ذلك من تسليط الجراد والقمّل والضفادع عليهم ـ كما سيوافيك ـ.

ثم بشّرهما تعالىٰ بأنّ النصر سيكون حليفاً لهما ولمن اتبّعهما ﴿ أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ﴾.

الوصايا الإلهيّة لموسى عليه السلام

نال موسى مقام النبوة عند جبل طور وتلقىٰ من الله سبحانه حينذاك التوجيهات والوصايا اللازمة قبل أن يتوجّه إلى فرعون ويتفق مع أخيه هارون لأداء هذه المهمة، وهذه التوجيهات ورد ذكرها في عدد من السور القرآنية:

١. ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾[١].

٢. ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ* فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى* وَأَهْدِيَكَ إِلىٰ رَبِّكَ فَتَخْشىٰ﴾[٢].

٣.﴿إِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي ولَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * إِذْهَبا إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[٣].

تلقّىٰ موسى الأمر الإلهي ـ وهو في طريق عودته إلى مصر ـ بالذهاب إلى فرعون الّذي تمادىٰ في طغيانه وجبروته حتى ادّعى الألوهية لنفسه، وبالغ في استعباد بني إسرائيل وقمعهم، فلمّا سأل عليه السلام ربّه أن يشدّ عضده بأخيه هارون،

---

١. طه: ٢٤.
٢. النازعات: ١٧ ـ ١٩.
٣. طه: ٤٢ ـ ٤٤.

أجابه تعالى إلى ذلك، وقال له: ﴿إِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ ثم نهاهما عن التقصير والتهاون في الدعوة إلى الله ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾.

وهنا يُثار سؤالان:

الأوّل: انّه سبحانه وتعالى يعلم بأنّ فرعون وملأه لا يؤمنون ومع ذلك كيف يرسل إليهم رسولاً يدعوهم إلى الايمان بالله؟

هذا الإشكال أورده الرازي في تفسيره وقد عجز عن الإجابة عنه، فقال: ليس لنا في المقام إلّا التسليم.

إلّا أنّ الإجابة عن ذلك واضحة، حيث إنّ إرسال الرسل تارة يكون لأجل رجاءَ تأثيره وأُخرى لإتمام الحجة، والمقام من قبيل الثاني، والغرض قطع العذر على فرعون لئلا يحتجّ يوم القيامة بعدم إرسال الرسل، يقول سبحانه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[1].

الثاني: انّ ظاهر قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ أنّه يحتمل إيمان فرعون مع علمه سبحانه بأنّه لا يؤمن.

والجواب: أنّ هناك مقامين، مقام المحاورة وله مقتضيات، ومقام علمه الذاتي وهو أمر آخر، فالكلام جرى على مقتضيات المحاورة.

إلى هنا تم بيان الوصايا والتوضيحات الّتي وجهّها سبحانه إلى موسى وأخيه، بقي هنا شيء آخر وهو:

---

١. النساء: ١٦٥.

حاجات موسى في تبليغ الرسالة

إنّ نجاح موسى عليه السلام في النهوض بأعباء هذا الأمر الجسيم الّذي كُلِّف به، رهن وجود بعض الأُمور، ولذا راح يطلبها من ربّه تعالى، وهي:

١. ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَح لي صَدْري﴾[١]. فالدعوة إلى الله تعالى ،وتبليغ الرسالة، ومواجهة الطغاة والمعاندين، تتطلب رحابةً في الصدر، واستقامة على الطريق، وصبراً على المشاكل الّتي تثيرها طبيعة الصراع بين الحق والباطل، والهدىٰ والضلال.

٢. ﴿وَيَسِّر لي أَمْري﴾[٢] بجعل هذا الأمر العسير الشاق، يسيراً بالنسبة إليه وهيّناً لديه، وذلك بتهيئة الأسباب إليه وتذليل العقبات الّتي تحول دون تحقيقه.

٣. ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَاني* يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[٣] وهذا السؤال يرجع إلى وجود عقدة في لسانه عليه السلام والتنكير في «عقدة» للدلالة على النوعية، وهو الّذي يلوح من قوله: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ أي عقدة تمنع من فقه قولي وفهمه.

٤. ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلي [٤] * هَارُونَ أَخِي * أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَأَشْرِكْهُ في أَمْري﴾[٥].

---

١. طه: ٢٥.

٢. طه: ٢٦.

٣. طه: ٢٧ ـ ٢٨.

٤. الوزير: حامل الثقل عن الرئيس. مشتق من الوِزْر الّذي هو الثِّقل، واشتقاقه أيضاً من الوَزَر، وهو الّذي يُلجَأ إليه من الجبال والمواضع المنيعة. التبيان: ٧/ ١٧٠.

٥. طه: ٢٩ ـ ٣٢.

وهذا طلب رابع لموسى عليه السلام يسأل فيه ربّه أن يجعل له وزيراً من أهله (وهو أخوه هارون) لأنّ المسؤولية الملقاة على عاتقه مسؤولية ضخمة مترامية الأطراف، يصعب عليه القيام بها وحده، فهو يتطلّع إلى المؤازر والمناصر والمدافع الّذي يتحمّل جزءاً منها، بل هو يرجو الله أن يجعل أخاه شريكاً له في أمره كالقيام بتبليغ بعض ما يوحىٰ إليه من ربّه عنه وسائر ما يختص به من عند الله كافتراض الطاعة وحجية الكلمة.[1]

استجابته تعالى لدعاء موسى عليه السلام

شاء الله سبحانه أن يستجيب دعاء هذا العبد المؤمن المخلص، الأمين على الرسالة، والحريص علىٰ تبليغها، وأن يُعطيه مُناه فيما سأل، قائلاً له: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾[2].

١. انظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٤ / ١٤٧.

٢. طه: ٣٦.

٥

هبوطه مصر ودعوة فرعون إلى التوحيد

كُلِّف موسى عليه السلام في جانب الطور بإبلاغ رسالة الله سبحانه إلى القبطيين عامة وفرعون خاصة، وجُعل أخوه هارون عضداً ووزيراً له. فلمّا التقىٰ أخاه وأبلغه الأمرَ الإلهي، عَزَما على أن يتوجها إلى بلاط فرعون بلا خوف ولا تردّد.

ومن المعلوم أنّ لقاء الملوك لا يتم بسهولة بل تتقدمه مجموعة من المراسيم وقد حصل اللقاء بعد هذه المراسيم، فأبلغاه رسالات الله إليه، وقد جاء مضمونها في الآيات التالية:

١. ﴿وَقَالَ مُوسىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿حَقيقٌ عَلَىٰ أَنْ لاٰ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾(١).

٢. ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللّهِ إِنّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

﴿وَأَنْ لاٰ تَعْلُوا عَلَى اللّهِ إِنِّي آتيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبينٍ﴾(٢).

إنّ الإمعان في هذه الآيات يثبت أنّ موسى عليه السلام قد بعث لتحقيق أمرين:

١. دعوة فرعون وقومه إلى عقيدة التوحيد والإيمان بالله وحده ربّاً للعالمين

---

١. الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٥. ٢. الدخان: ١٨ ـ ١٩.

وإلهاً لهم وتزييف أقاويل فرعون الّذي طغىٰ وتـجبّر، وادّعـى الأُلوهـية لنـفسه، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[1]، وادّعى الربيوية أيضاً ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾[2]، فبعث موسى إلى هدايته لكونه عبداً لا إلهاً، مربوباً لا رباً.

٢. إنقاذ بني إسرائيل من الذل والاضطهاد، وتحريرهم من الأسر، ومنحهم كامل الحرية بالذهاب مع موسى وهارون إذا شاءوا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾[3] .

وهذه الآيات الكريمة تدل على أنّ هذين الأمرين كانا لُبَّ رسالته وأهداف دعوته.

وهنا تجلّت عظمةُ الأنبياء وعلوُّ همتهم وقوة إرادتهم وعمق صلتهم بـالله تعالى، وهم يواجهون الطغاة المستبدّين السفّاكين للدماء. ولندَعْ سيّد البلغاء الإمام علياً عليه السلام يصف لنا هذا اللقاء بين الطرفين:

ولقد دخل موسى بن عِمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام على فِرعونَ، وعليهما مَدارِعُ الصوف، وبأيديهما العِصِيُّ، فَشَرطا له ـ إنْ أسلَمَ ـ بقاءَ مُلكه، ودوامَ عزِّه، فقال: ألا تعجبونَ من هذين يشرِطان دوامَ العزّ وبقاءَ المُلك، وهما بما تَروْنَ من حال الفقرِ والذُّلّ، فهلّا أُلقي عليهما أساورةٌ من ذهبٍ؟ إعظاماً للذَّهَب وجَمْعهِ، واحتقاراً للصّوف ولُبْسه![4]

١. القصص: ٣٨. ٢. النازعات: ٢٤.

٣. طه: ٤٧.

٤. نهج البلاغة: ٢٩١، الخطبة ١٩٢ (القاصعة).

حوارات فرعون وموسى عليه السلام

الحوار الأوّل:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾.

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكماً وَجَعَلَني مِنَ الْمُرسَلِينَ﴾.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسرائيلَ﴾[1].

***

بعد أن وجّه موسى خطاباته الناصعة إلى فرعون، لم يجد المخاطَبُ مَخلصاً إلّا أن يلجأ إلى المشاغبة بأمرين:

١. تذكير موسى بيده العليا عليه، حيث إنّه قد ربّاه في بيته وعاش فيه سنين، ولذا قال له : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

٢ . تذكير موسى بالفعلة التي فعلها، ألا وهي قتل أحد الأقباط ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾.

---

١. الشعراء: ١٨ ـ ٢٢.

ومراده من الكفر هو كفر النعمة مكان شكرها، إذ من لوازم الاستفادة من النعم هو تكريم القبطي لا قتله.

ولم يسكت موسىٰ أمام ما طرحه فرعون فقد أجاب عن الأمر الأوّل بقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسرائيلَ﴾ ولعل معناه أتمنُّ عليّ بأن ربّيتني مع استعبادك قومي هؤلاء؟ فهذه ليست نعمة في مقابل ما أصابهم من ظلم واضطهاد وقتل وتعذيب.

ويحتمل أن يكون المراد انّك لو كنت لا تستعبد بني إسرائيل ولا تقتل أبناءهم لكانت أُمّي مستغنية عن قذفي في اليمّ فكأنّك تمتن عليّ بما كان بلاؤك سبباً له، وإنّما صارت لك عليّ نعمة لمّا أقدمتَ على ما حظره الله عليك.

وأجاب عن الأمر الثاني بقوله: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالّينَ﴾ أي فعلت هذه الفعلة ولم أكن أعلم بأنها تنتهي إلى القتل ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾. أي خرجت من بينكم حَذِراً على نفسي إلى مدين لمّا خفتكم أن تقتلوني بمن قتلته خطأً لا عَمْداً ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ أي عِلماً أُصِيب به حقائق الأُمور ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرسَلينَ﴾.

الحوار الثاني:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمينَ﴾.

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنين﴾.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ﴾.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوّلين﴾.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

﴿قَالَ رَبُّ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

***

لما عرّف موسى نفسه للطاغية بقوله: ﴿يَا فِرْعَونُ إِنّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تجاهل فرعون معرفة هذا الربّ، وقال متسائلاً: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ والسؤال يرجع إلى التعرف على حقيقة ربّ العالمين. ومن المعلوم أنّه سبحانه شيء لا يُعرف كنهُه إذ ليس كمثله شيء فلا يمكن أن يُعرف بحقيقته، وأين للإنسان الممكن المحدود أن يدرك حقيقة الموجود غير المحدود؟ ولذلك عدل موسى عن الجواب بالجنس إلى الجواب بالوصف : ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِين﴾ وهذا الجواب تفصيل لقوله: ﴿رَبُّ الْعالَمينَ﴾ ثمّ أضاف وقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي إنّكم ستعرفون ربَّ العالمين إنّ كنتم من فئة الموقنين، وهم الذين يعرفون سبحانه بالصفات لا بالذات، إذ أن كنهه مجهول وصفاته معلومة.

وقد أشار بذلك إلى وجود التدبير والارتباط بين أجزاء العالم والسماوات والأرض وما بينهما من الإنسان والحيوان والنبات وانّ للجميع رباً واحداً ومدبراً قادراً بحكم وحدة المدبِّر واتّصال أجزائه وتماسكها.

خشيَ الطاغية ـ بعد أن عجز عن محاورته ـ من أن يؤثّر كلام موسى عليه السلام في

---

١ . الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨.

الحاضرين، فأراد أن يستخفّ به فـ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ﴾ وتصغون إلى هذا الكلام الغريب الّذي لم يطرق أسماعَنا من قبلُ؟!

وهنا اقتحم موسى عليهم كلَّ الأسوار، ودمغَهم بالحقيقة الّتي تُزهق باطلهم حين ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾. لقد فضح بهذا القول زيف ادّعاء فرعون بأنّه ربُّهم الأعلىٰ، كما يحمل في طياته إدانة لرضوخ الملأ لهذا الادّعاء الكاذب.

فلما أتّم الحجة على فرعون، وبيّن أنّ لمجموع الوجود الإمكاني الّذي عبر عنه بما يلي:

١. ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

٢. ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالأَرضِ﴾.

٣. ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُم﴾.

ربّاً واحداً.

اتّهم فرعون موسى بالجنون وهذه هي السيرة الجارية بين كل الطغاة، حيث يتهمون المصلحين بالجنون ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

وهذا ـ أي الاتهام بالجنون ـ شنشنة أعرفها من كلّ متكبر عنيد لا يخضع للحقائق إذا كانت على خلاف هواه؛ ومع ذلك نرى أنّ موسى لم يكترث لهذه التهمة ، بل استمرّ في كلامه واصفاً ربَّ العالمين بقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

الحوار الثالث:

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُما يَا مُوسَى﴾.

﴿قَالَ رَبُّنَا الّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ﴾.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى﴾[1].

***

هذه الآيات تتضمن خبر ذهاب موسى وهارون إلى فرعون لتبليغ رسالة ربهما في نجاة بني إسرائيل، وقد علم فرعون أنّهما داعيان شريكان في الدعوة غير أنّ موسى هو الأصل في إبلاغ الدعوة وهارون وزيره. وهذا يدلّ على أنّ هذا الحوار أعقَبَ الحوار السابق، وأنّه قد تعرّف على موسى وهارون من قبل، ولذلك بدأ يسألهما عن ربهما ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُما يَا مُوسَى﴾.

خاطبهما معاً وقال: ﴿رَبُّكُما﴾ ثم خصه وقال: ﴿يا مُوسَى﴾.

وبما أنّ فرعون ادّعى الربوبية ، فادّعاء ربوبية شيء آخر كان يخالف هواه ولذلك سألهما عن الرب الّذي يدعوان إليه، فقال موسى عليه السلام:

﴿رَبُّنَا الّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ﴾.

وحاصل الجواب: أنّ الربّ هو الّذي أفاض الوجود والنعم على الموجودات كلّها، ثمّ هداهم إلى الغاية الّتي خلقوا لها، فخالق كلّ شيء هو ربّهم،

---

١. طه: ٤٩ ـ ٥٢.

وتكون النتيجة؛ أنّه أنت يا فرعون لست رباً لأنّ الرب هو معطي الوجود والخلق والهادي له، وأنت باعترافك واعتراف عامة المصريين لست خالقاً لشيء فكيف تكون رباً؟!

وبتعبير آخر أنّ الربوبية من شؤون الخالقية، فإنّ الخالق إذا خلق الشيء على الأُسس التي ستنتهي إلى نجاحه في الحياة يربيه ويهديه في طريقها.

ومن هنا يعلم أنّ الربوبية غير الخالقية، فخلق الشيء هو إيجاده، والربوبية هي هدايته في طريق الحياة، كما يربي مالك الضيعة أشجارها.

وفي هذه الآية إشارة إلى الدليل الّذي ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله: **﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾**[1].

وللزمخشري في الكشاف كلمة جميلة، يقول فيها: ولله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف، وكان طالباً للحق.

تضايق فرعون من هذا البيان، فأراد أن يُحرج موسى عليه السلام ويبدّعه بطرح سؤالٍ، ظنّ أنّه يجيب عنه بشكل يثير حفيظة الآخرين ومشاعرهم تجاه آبائهم ومعتقداتهم الّتي تتّسم بالاعتزاز والتقديس **﴿قَالَ فَمَا بَالُ**[2] **الْقُرُونِ الأُولَى﴾**.. ما حال الأُمم الماضية الّتي لم تؤمن بما آمنتما به، وسلكتْ طريقاً غير الطريق الّذي

---

١. الشعراء: ٧٨.

٢. البال: بمعنى الحال المهم، يقول سبحانه: **﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾** أي أصلح حالهم. وفي الحديث:«كل أمر ذي بال لم يبتدأ ببسم الله فهو أبتر». وربما يستعمل بمعنى الفكر؛ يقال: خطر ببالي، أي بفكري. وهي مفردة لا تثنىٰ ولا تجمع.

تدعوان إليه ، وهل أنها جميعاً كانت على ضلالة حسب رأيكما؟

وهنا تجلّت براعة موسى عليه السلام في المناظرة والدعوة إلى الحق، إذ أجابه بما لا يدع للخصم مجالاً للتشبّث بأية حجة (وإن كانت واهية) يريد بها زلزلزلة موقفه، أو صرفَ الحديث عن خطّه وغايته ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى﴾.. إنّ ربّي عالم بتفاصيل أحوالهم، وإنّ أعمالهم محفوظة عند الله مكتوبة في كتاب وسيجزون حسب أعمالهم دون أن يخطأ الكتاب أو ينسى، ولم يفصّل عليه السلام أكثر من ذلك، وبهذا قطع الطريق على مشاغبة فرعون.

التهديد وطلب المعجزة

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.
﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيءٍ مُبِينٍ﴾.
﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.
﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾.
﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.
﴿قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾.
﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[١].

***

---

١. الشعراء: ٢٩ ـ ٣٥.

أبطل موسى عليه السلام بأقوى البراهين ربوبية فرعون وأثبت أنّه جزء من هذا العالم الّذي خلقه الله تعالى، وأعطاه خَلْقَه كسائر الموجودات، فعلىٰ هذا فهو عبد مربوب لا إله ولا رب. وعند ذلك ثارت ثورة فرعون وعمد إلى انتهاج هذين الأُسلوبين.

الأوّل: تهديد موسى بالسجن إذا لم يعدل عن رأيه، واستمر في التبليغ ، وهذا هو منطق القوة الغاشمة في مقابل منطق الحق والحجة البالغة، فمنطق القوة لا يعرف إلّا نفسه ولذلك يسعى لتحطيم من يقف بوجهه.

الثاني: اتهامه بأنّه ساحر، يريد خداع الناس لتحقيق مآربه السياسية، ومنها الاستيلاء على مصر، وطرد القبط منها. وهيتهمة خطيرة يهدف منها إثارة مخاوفهم، وتأليبهم عليه .

ولكن موسى ربيب الوحي والرعاية الإلهية لم يعبأ بتهديد فرعون واتهامه له، بل حافظ على اتزانه واستعمل المنطق فقال: ﴿**أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ**﴾ يعني هل استحق التهديد بالسجن حتّى ولو جئتك بدليل حاسم قاطع للنزاع ورافع للشك؟ وهنا لم يجد فرعون بُدّاً من القول : ﴿**فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾.

وعندها أبدىٰ موسى معجزتيه الكبيرتين ألا وهما:

١ . إلقاء العصا.

٢. اليد البيضاء.

فلما قُهر فرعون بهاتين المعجزتين لم يجد في مقابل منطق الحق جواباً

سوى اتهامه بالسحر الّذي يبغي به احتلال مصر حسب زعمه، وقد مرت الإشارة إلى ذلك في صدر البحث.

***

هذا ما تضمّنته الآيات الكريمة السابقة، وهناك آيات غيرها تعرّضت لتُهم أُخرىٰ وُجِّهت إليه وإلى أخيه هارون في أثناء اللقاء الّذي جمع بينهما وبين الطاغية فرعون وملئه، وهي:

١. الكذب والافتراء

ـ ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[١].

ـ ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرى﴾[٢].

٢. الصدّ عن سيرة الآباء

ـ ﴿قَالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾[٣].

٣. الاستعلاء

ـ ﴿وَتَكُونَ لَكُما الكِبرياءُ في الأَرضِ﴾[٤].

ولم يقتنعوا بمسلسل التهم، وإنّما أخذوا بالاستهزاء تارة، وبالإصرار على الجحد والإنكار أُخرى:

---

١. غافر: ٢٤. ٢. القصص: ٣٦.

٣. يونس: ٧٨. ٤. يونس: ٧٨.

ـ ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إذا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾[1].

ـ ﴿وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيقَنَتْها أنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[2].

والآية تدلّ على أنّ القوم أدركوا صدق دعوة موسى وهارون واستيقنوا بصحة ما يدعون إليه، ومع ذلك كلّه جحدوا بها بألسنتهم وسيرتهم ظلماً وتعدّياً على الحق، وعلواً وطلباً للاستعلاء.

دعوة السحرة لمعارضة معجزة موسى

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سُوىً﴾.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً﴾.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرى﴾.

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾.

﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾.

---

١. الزخرف: ٤٧.

٢. النمل: ١٤.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾.

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾.

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾[١].

***

أنكر فرعون ومن خلفهِ أعوانهُ هاتين المعجزتين ـ إلقاء العصا واليد البيضاء ـ عناداً ومكابرةً، ولم يكتفوا بذلك. بل بادروا إلى اتهام موسى عليه السلام بأنّه ساحر، يبغي من وراء سحره السيطرة على البلاد والتحكم بها.

ولمّا كانوا هم أُسراء أفكارهم الّتي تصوغُها نظرتهم المادية إلى الحياة، وتلوِّنُها مصالحهم وأهواؤهم، فقد تصوّروا أن ما يأتي به موسى عليه السلام سيتوارىٰ ويتلاشىٰ أمام عمل السحرة الذين يُجيدون التمويه والخداع، وبالتالي تسقط حجّتُه، وتنهار دعوته. ومن هنا دعَوا موسى عليه السلام إلى تحديد موعد لإقامة المباراة بينه وبين السحرة ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ ثقةً منهم بمايمتلك السحرة من مهارات وقابليات، واشترطوا أن يكون مكان المباراة ﴿مَكَاناً سُوىً﴾ أي مستوياً، مكشوفاً للناظرين.

انتهز عليه السلام فرصة هذه الدعوة الّتي أتاحها له الطغاة المعاندون، ليستثمرها إعلامياً لصالح رسالته الإلهية، فاختار الموعد يوماً كان بمثابة العيد لهم، فيتزيّنون فيه ويجتمعون ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً﴾ مستهدفاً بذلك إيصال دعوته الحقة ورسالته الصادقة إلى أكبر عدد من الناس، الذين سيرَوْن نتيجة المباراة، ويعرفون المحق من المُبطل، وينقلون قصتها لمن لم يشهدها منهم.

---

١. طه: ٥٨ ـ ٧٦.

بعد أن تمّ الاتفاق بين الطرفين وتحدّد زمان المباراة ومكانها، انصرف فرعون عن موسى ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ وأمر وزراءه ومساعديه بجمع السحرة لميقات وقت معلوم ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي جمع السحرة ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ الموعد، فعند ذلك تقابلت فئتا الحق والباطل، إحداهما تعتمد على القدرة العليا الّتي لا يقف أمامها شيء والأُخرى تعتمد على القوى البشرية المحدودة، العاجزة عن الصمود أمام الأُولى، وهنا وجد موسى عليه السلام نفسه مسؤولاً عن إبلاغ نصيحته لهم، وتحذيرهم من مغبة هذا الاستكبار والعناد، فقال لخصومه: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ﴾. لقد حذرهم من الافتراء على الله كذباً حتّى لا (يُسحتهم) أي يستأصلهم بعذابه. ثم أنذرهم بقوله ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرى﴾ أي خسر الذين افتروا على الله كذباً، وانقطع رجاؤهم عن بلوغ ما يأملون.

والمراد بـ (افتراء الكذب) هو الاعتقاد بربوبية فرعون وأُلوهيته بل الاعتقاد بأُصول الوثنية وإرجاع تدبير العالم إلى الآلهة، وقد عُدّ ذلك افتراءً على الله في مواضع أُخرى من القرآن كقوله: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾[١]. [٢]

تركت كلمات موسى عليه السلام التحذيرية بعض الأثر في النفوس، فوقع الاختلاف والتنازع ـ كما يظهر ـ بين السحرة بشأن الموقف من موسىٰ، إذ تردّد بعضهم في مواجهته بالسحر، ولكنهم بالغوا في كتمان ما دار بينهم من حديث، وتناجَوْا فيما بينهم سرّاً ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾.

---

١. الأعراف: ٨٩

٢. انظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٤ / ١٧٤.

ثم ارتفع صوت المصرّين منهم على المواجهة والتحدي، و ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾[١] إشارة إلى موسىٰ وهارون ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾لتصفو لهما البلاد، وتتمحّض لهما الرئاسة ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ أي يريدان أيضاً محوَ طريقتكم وسنّتكم الفضلىٰ، الّتي هي الاعتقاد بالوثنيّة وتعدد الالهة .

إزاء هذا الخطر القادم عليهم من موسى وهارون كما يزعمون، استنفرواكل قواهم، ودعَوْا إلى وحدة الصف، واستعمال أقصىٰ ما لديهم من قدرات في مجال السحر ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ فإنّ الفوز والفلاح نصيب من غلب وظهر في هذا الجمع الحاشد ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾.

ولماذا لا يُفلحون ـ في تصوّرهم ـ ويظفرون ببُغيتهم، إذا كان فرعون قد أجابهم إلى طلبهم بمكافأتهم على سحرهم إذا غلبوا، وزادهم على ذلك أن وعدهم بأنّه سيُدنيهم من مجلسه، ويجعلهم من خاصّته؟ ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[٢] .

وهذا يذكّرنا بموقف عمرو بن العاص من الصراع بين الحق والباطل والهدى والضلال والإيمان والطغيان. قال الإمام علي عليه السلام في حديثه عنه:

«وَإِنَّهُ لَيمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَقِّ نِسْيَانُ ٱلآخِرَةِ، إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّىٰ شَرَطَ

---

١ . إنْ في هذه الآية، أصلها (إنّ) المشبهة بالفعل، أُلغي عملها لأجل التخفيف.

٢ . الشعراء: ٤١ ـ ٤٢ .

أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً، وَيَرْضَخَ لَهُ عَلىٰ تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً»[١].

نعود إلى الساحة الّتي احتشد حولها الناس، لمشاهدة المباراة بين الطرفين: تقدّم السحرة بكل ثقة واطمئنان، وخيّروا موسىٰ بين أن يبدأ أو يبدأوا ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾، فاختار ﷺ الأمر الثاني، ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم ما معكم، فألقىٰ السحرة ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ وتتحرك كالحيّات، ولم تكن تسعىٰ حقيقة وواقعاً.

لقد أَفزع السحرةُ بهذا المنظر المهول الّذي صنعوه بمهارتهم الفائقة على التمويه والخداع، أفزعوا الجموعَ المحتشدة، وأوقعوا الرعبَ في قلوبهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

أمّا خصمهم في الميدان، فقد نقل لنا القرآن الكريم ما خالجه من إحساس (حينما رأىٰ سحرهم العظيم) بقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ﴾ أي استشعر خوفاً في داخله، لم يظهر حتّى على ملامح وجهه. هذا الإحساس الآنيّ العابر بالخوف، علّله بابُ مدينة العلم، الإمام علي ﷺ بقوله:

«لَمْ يُوجِسْ مُوسَىٰ ﷺ خِيفَةً عَلَىٰ نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِن غَلَبَةِ ٱلْجُهَّالِ وَدُوَلِ ٱلضَّلالِ!»[٣]. نعم، لقد خاف ﷺ أن يفتتن الناس بشُبَهِهم وتمويهاتهم، ويغترّوا

---

١. نهج البلاغة: ١١٥، الخطبة: ٨٤ الأَتِيَة: العطيّة. ورضخ له رضيخة: أعطاه قليلاً.

٢. الأعراف: ١١٦.

٣. نهج البلاغة: ٥١، الخطبة: ٤ (ضبط. صبحي الصالح)

بأباطيلهم، فتقوى دولة الضلالة، وتغلب كلمة الجهّال .[١]

وهنا وافاه الخطاب الإلهي الّذي يشدّ من عزمه : ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَىٰ﴾ عليهم بالظفر والغلَبة، وسيتبدّد ما صنعوا من أوهام كاذبة لاستغفال الجهلة، لحظة شروق نور الحق الساطع، وبزوغ ضياء الحجة اللامع، فبادرْ إلى المنازلة، و ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾.

قال المفسرون: لما ألقىٰ عصاه صارت حيّة، فطافت حول الصفوف حتّى رآها الناس كلهم، ثم قصدت الحبال والعصيّ فابتلعتها كلها علىٰ كثرتها، ثم أخذها موسى وعادت عصا كما كانت ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ تعليل لبلعها ما صنعوا وهو أن ما صنعوه لا يخرج عن كيد الساحر ومكره ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ أي لا يظفر الساحر ببغيته ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي في كل مكان خصوصاً إذا أراد مكافحة الحق.

وفجأة ينفذ نور الحق إلى قلوب السحرة، وتهتز ضمائرهم بقوة، لهول ما رأوْا من قدرة خارقة لا تمتّ إلىٰ السحر ولا إلى قدرة البشر بصلة ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

امتُقع وجه فرعون، واستبدَّ به الغضب، فدمدم، و ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾.. إنّها لجريمة كبرىٰ أن يمتلك هؤلاء السحرة إرادتهم وحريتهم، ويختاروا بأنفسهم نوع الإيمان، دون أن يستأذنوا ربَّهم الأعلىٰ فرعون في هذا الاختيار!!!

---

١. انظر: شرح النهج لابن أبي الحديد: ١ / ٢١١.

ألم يُمضوا حياتهم السابقة في الخضوع والاستسلام (في كل شؤونهم) لإرادة فرعون وجبروته وسلطانه؟!

أحقاً أن هذا الإيمان الجديد والموقف الّذي لم يُعهد من قبل، قد وُلدا الآن، ونبَعا من ذواتهم؟!

هذا ما لا يفهمه الطاغية المستكبر أو لا يريد أن يفهمه، فلابدّ إذاً من البحث عن تهمة يُلصقها بهم، لكي يمنع من حصول تداعيات خطيرة لهذا الحادث الكبير الّذي قد يخلق وعياً لدى الجماهير ويفتح عيونها على الحقائق، الأمر الّذي يفقده جبروته وكبرياءه، ويهزّ مُلكه وسلطانه.

وهل هناك أسهل من إدخال عنصر العامل الخارجي في هذا الشأن، وفكرة التآمر المخطط له مُسبقاً بين موسى عليه السلام والسحرة؟

إذاً فليقل: ﴿**إِنَّهُ**﴾ يعني موسى ﴿ **لَكَبِيرُكُمُ**﴾ أي رئيسكم ومتقدّمكم ﴿**الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ**﴾، وليقل: ﴿**إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا**﴾[1].

وإذا كانت حقيقة الأمر ـ كما يريد أن يصوّرها للجموع الحاشدة ـ تواطأً بينهم من أجل زعزعة الاستقرار وإجلاء القوم عن ديارهم، فليكن العقاب على قدر جريمتهم ﴿**فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**﴾ [2] لتكونوا عبرة لكلّ من يفكّر في التمرّد عليّ، ولعلّه يريد بهذه

---

١. الأعراف: ١٢٣.

٢. قطع الأيدي والأرجل من خلاف، يعني قطع اليد اليمنىٰ والرجل اليسرىٰ أو اليد اليسرى والرجل اليمنى. والتصليب: مبالغة في الصَّلْب، والصَّلْب، ربطُ الجسم على عود منتصب أو دقُّه عليه بمسامير.

القسوة الشديدة أن يخفّف من حقده المشتعل في صدره، وأن يغطي بها على إخفاقه وانكساره في ميدان المواجهة. ثم قال مزمجراً ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَىٰ﴾.

ولكن تهديده الصارخ هذا، جُوبِه بما لم يكن يتوقعه ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالذِي فَطَرَنَا﴾. إنّه لشيء عجيب أن تصدر هذه الكلمات وما بعدها، والّتي تطفح بالعلم والحكمة والهدىٰ، تصدر من أناس كانوا قبل ساعات على الوثنية وكانوا أقسموا بعزة فرعون عند إلقاء حبالهم وعصيّهم ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [١] ولكنهم أصبحوا الآن موحّدين مؤمنين وفي أعلى درجات التوحيد والإيمان ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالذِي فَطَرَنَا﴾ أي لن نفضِّلك ولن نختارك على ما جاءنا من الدلائل الواضحة على صدق موسى وصحة نبوته والبينات الّتي أتى بها، ولم نؤثرك على الّذي فطرنا وخلقنا، وإذا كان الأمر كذلك ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾.. اصنع ما أنت صانع، واحكم بما شئت، فلن يردّنا ذلك عن موقفنا بعد أن كُشفتْ عن أعيننا أغطية الجهل وأبصرنا الحق جليّاً واضحاً ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.. وتحكُمُ فيها، وهي فانية زائلة، ونحن نطمع في الآخرة الباقية الخالدة، ولا سلطان ولا حكم لك فيها .

(إن حبّ الله سبحانه هو الّذي جعل أُولئك السحرة، يتحولون إلى روّاد على الطريق، فقالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾. كيف قالوا هكذا؟ لأن حُبّ الله اشتعل في قلوبهم فقالوا هذا الكلام بكل شجاعة

---

١. الشعراء: ٤٤.

وبطولة) [١]. ثم تضرّعوا إلى ربهم وقالوا ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾.[٢]

وهذا يدلّ على أنّ فرعون أكرههم على السحر، ولعلّ هذا حصل قُبيل المباراة حين تنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوىٰ. وربما يقال: إنّ الملوك كانوا يجبرونهم على تعليم السحر كي لا يخرج السر من أيديهم. ثم قالوا ﴿وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ منك ومن عطائك يا فرعون.

لقد عظم الخالق في أنفس السحرة، واستحوذ حبُّه على قلوبهم، فكيف يأبهون بفرعون ووعيده، وهم عمّا قليل سيرجعون إلى ربّهم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ ثم أشاروا بوضوح إلى السبب الحقيقي لبغضهم والطعن عليهم، والّذي لا يمتّ بصلة إلى التواطئ مع موسى عليه السلام والتآمر على الدولة وأمن مواطنيها، وإنّما يتعلق فقط بإيمانهم بالحقّ بعد مشاهدة دلائله الواضحة المُسفرة واقتناعهم بها ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾. ولمّا كان الموقف ممّا قد تزلّ فيه الأقدام وتضعف فيه العزائم، ويستلزم مزيداً من رباطة الجأش للثبات عليه، قالوا ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[٣].

وهذه الآيات تدل على وجود ثورة عارمة في قلوب السحرة مع كثرتهم،

---

١. المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد الشهيد محمد باقر الصدر: ١٣ / ١٦٧ (حديث الروح).

٢. الخطايا: جمع خطيئة، وهي قريبة من معنى السيئة.

٣. الأعراف: ١٢٥ ـ ١٢٦. قال الشيخ أبو جعفر الطوسي: الإفراغ: صبّ ما في الإناء أجمع، حتّى يخلو، مشتقاً من الفراغ، والفراغ نقيض الشغل، وقيل: أفرغ عليه الصبر تشبيهاً بإفراغ الإناء، كما يُقال: صبّ عليه العذاب صبّاً، والصبر هو حبس النفس عن إظهار الجزع، والصبر على الحق عزٌّ، كما أن الصبر على الباطل ذلٌّ، والصبر في الجملة محمود، قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. التبيان في تفسير القرآن: ٤ / ٥١١.

وهذه المضامين الواردة في القرآن الكريم بتعابير مختلفة تعرب عن أنّهم كانوا عارفين بتفاصيل دعوة موسى أو دعوة سائر الأنبياء الذين كانت سيرتهم مثل سيرة موسى عليه السلام، وإلّا فأين الناس البعداء عن دعوة الأنبياء وهذه المفاهيم السامية، فإنّ الاعتقاد بالحياة الأُخروية وما فيها من النعم وإدراك أنّ الحياة الدنيوية وزخارفها منقطعة وزائلة وأن الله يغفر خطايا المجرمين، كل ذلك يكشف عن معرفتهم بشرائع الأنبياء ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾.

نتائج هزيمة فرعون وسحرته

١. ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾.

﴿فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

---

١. يونس: ٨٣ ـ ٨٧.

٢. ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[1].

***

بعد أن خرج موسى عليه السلام من ميدان المنازلة مع السحرة منتصِراً مرفوعَ الرأس التحق به فريق من الشبّان واليافعين، وآمنوا بدعوته، وصدّقوا بنبوّته، على أنّهم كانوا خائفين من الطاغية وأعوانه من بني إسرائيل أن يردُّوهم عن إيمانهم، ويصدّوهم عن عقيدتهم من خلال سياسة البطش والفتك والارهاب الّتي ينتهجها معهم فرعون، والضغوط الّتي يمارسها ضدهم أعوانُه من كبراء قومهم الذين يتملّقونه ويتزلّفون إليه ويجعلون من أنفسهم أدوات لتنفيذ سياسته الغاشمة، طمعاً في المال والجاه والمكاسب الشخصية، وإيثاراً للراحة والدِّعة ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾.

هؤلاء الأعوان ـ كما يقول المفكر الإسلامي السيد الشهيد محمد باقر الصدر رحمه الله ـ هم إحدى طوائف التجزئة الفرعونية للمجتمع، الّتي تستهدف تمزيق

---

١. الأعراف: ١٢٧ ـ ١٢٩.

طاقاته، وتشتيت فئاته، وبعثرة إمكانياته، وهم ـ في الحقيقة ـ ظالمون مستضعفون، أو بحسب تعبير أئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام (أعوان الظلمة)، إذ يشكّلون حماية لفرعون وللفرعونية وسنداً في المجتمع لبقائها واستمرار وجودها وإطارها.(١)

إنّ خوف المؤمنين برسالة موسى عليه السلام من تعرّضهم للبلاء الشديد من أجل صرفهم عن إيمانهم وعقيدتهم، له ما يبرّره، فهم يرزحون تحت نير سيطرة فرعون ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾ أي مستكبر باغ طاغ ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ في القتل والظلم والاستبداد، متجاوزاً كلّ الحدود في ذلك.

في ظل أجواء الخوف هذه الّتي يعيشها المؤمنون، يبرز القائد بروحه الوثّابة وإيمانه الراسخ وعزيمته المتوقّدة ليرفع من معنويات أتباعه، وينهض بهم إلى مستوى الأهداف السامية الّتي يطمحون إلى تحقيقها، بتحمّل المصاعب والمشاقّ والثبات على الطريق من خلال تعميق صلتهم بالله تعالى والتوكل عليه، وتفويض أُمورهم إليه ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾.

استجاب المؤمنون لدعوته فقالوا: ﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي أسندنا أُمورنا إليه واثقين به ثم طلبوا من الله أمرين:

أ. ﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾... ولا تمكّنهم منّا ولا تسلّطهم

---

١. انظر: المجموعة الكاملة لمؤلّفات السيد محمد باقر الصدر: ١٣ / ١٤٩ ـ ١٥٠، بحث القرآن والعلاقة الاجتماعية.

علينا، بحيث يحملنا ظلمهم علىٰ إظهار الانصراف عن ديننا. والخروج عن الدين هو الفتنة.

وهذا سؤال منهم بأن ينزع الله عنهم لباس الضعف والذلة، ذلك أن الّذي يُغري الأقوياء الظالمين على الضعفاء المظلومين هو ما يشاهدون فيهم من الضعف، فيفتتنون به، فيظلمونهم، فالضعيف بما فيه من الضعف فتنة للقوي الظالم.[١]

ب. ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وذلك بالخلاص من ظلمهم واضطهادهم وأسرهم.

كانت مهمة موسىٰ في مبدأ أمره دعوة فرعون إلى التوحيد والإيمان بالله تعالى وإنقاذ بني إسرائيل من ظلمه وتعسّفه وإطلاقهم من أسر العبودية، ولكنه بعد أن انتصر في المباراة وأثبت أنّه رسول من الله سبحانه واعتقد بدعوته فريق من الشباب، توسّعت مسؤوليته إلى تربية المؤمنين به وتعزيز إيمانهم ولذلك أمرهم بما أوحى الله إليه، وقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي اتخذا لقومكما مساكن من البيوت في مصر وكأنّهم لم يكونوا إلى ذلك الوقت إلّا كهيئة البدو يعيشون في الخيام أو ما يشبه تلك العيشة، ثم أمرهم بالصلاة في تلك البيوت وقال ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي اجعلوا بيوتكم مساجد، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي صلّوا في بيوتكم لتأمنوا من الخوف وقيل معناه. اجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً.[٢] ولعل فائدة ذلك هي أن يتصل

١. الميزان في تفسير القرآن: ١٠ / ١١٤.

٢. نُقل هذا المعنى عن التابعي الشهيد سعيد بن جبير ﷺ. انظر مجمع البيان: ٥ / ٢٤٢.

بعضهم ويتمشىٰ أمر التبليغ والمشاورة والاجتماع في الصلوات.[١]

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنجاة من فرعون وقومه في الدنيا، وبالسعادة في الآخرة.

***

بعد أن ذاع خبر إيمان ذرية من قوم موسى بدعوته والتفافهم حوله، أراد الكبراء من قوم فرعون، والملتفّون حوله من الانتهازيّين إلى اقتناص هذه الفرصة للإعراب عن ولائهم المطلق له وتفانيهم في خدمته، فبادروا إلى تحريضه على موسى عليه السلام ومَن آمن به من بني إسرائيل، واستعدائه عليهم أكثر وتهويل خطرهم على المجتمع وعقائده، سعياً في التزلّف إليه بما يتناغم مع غاياته وغطرسته وأهوائه النفسية، ورغبةً في كسب المزيد من المكاسب والمغانم ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ﴾ أي تترك ﴿مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ واللام في ﴿لِيُفْسِدُوا﴾ لام العاقبة، وليست لام الغاية، والإفساد عندهم التحرّر من عقائدهم الزائفة، والتمرّد على أصحابها الذين حكموا باسمها، فأباحوا لأنفسهم الاستئثار بالمال والقرار، والتمتع بالجاه والسلطان، واستعباد الآخرين واستنزاف طاقاتهم.

والآلهة: جمع «إله» حيث كان القبط يعبدون آلهة متنوعة من الكواكب والعناصر وكان فرعون يُعدّ ابناً للآلهة وقد حلت فيه الإلوهية، وكان في الوقت نفسه يُعدّ إله مصر. وهذا يدل على أنّ للقوم وراء فرعون آلهة يعبدونها وحتّى فرعون كان يعبدها وفي الوقت نفسه كان فرعون إله مصر وكانت طاعته طاعة

---

١. الميزان في تفسير القرآن: ١٠ / ١١٥.

للآلهة، وهذا ما هو متجسّد في قوله ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾.[١]

لما سمع فرعون هذا التحريض والتحذير من بطانته، تنمّر وتهدّد وتوعّد، و ﴿قال سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ وهذه الجملة الأخيرة اعتذار عن إبطائه في استئصالهم، وحاصل الآية هو نفي القلق والاضطراب عنهم لأنّ القوة والقدرة بيدنا، فهم مقهورون مغلوبون ونحن قاهرون غالبون، ونستطيع القضاء عليهم متى شئنا.

نصائح موسى لمن آمن به

حينما بلغ بني إسرائيل حوارُ الملأ مع فرعون وإيعاده باستئصالهم فزعوا وجزعوا، فقام موسى عليه السلام بتهدئة قلوبهم وذلك بتعزيز ثقتهم بالله كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله : ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا﴾. لقد أوصاهم هنا بأمرين:

أ. الاستعانة بالله وهو عبارة أُخرى عن توكلهم عليه وقد مرّ أن موسى خاطب قومه بقوله: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾[٢].

ب. الصبر على البلاء، لأنّه زائل بإذن الله سبحانه .

ثم غرس في قلوبهم الأمل بإلفات نظرهم إلى هذه السنّة التاريخية الّتي غيّبتها عنهم سياسة البطش والقهر والإذلال الّتي مارسها معهم فرعون: ﴿إِنَّ

---

١ . قال الأُستاذ المراغي: والتاريخ المصري المستمدّ من العاديات المصرية يدلّ على أنّه كان للمصريين آلهة كثيرة منها الشمس، ويسمّونها (رع)، وفرعون عندهم سليل الشمس وابنها. تفسير المراغي: ٩ / ٣٧.

٢ . يونس: ٨٤

الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وأنتم ستقطفون ثمار النصر إذا استعنتم بالله تعالىٰ، وتحمّلتم المشاق، وصبرتم على اللأواء، ولا ريب في أنّ العاقبة الحسنىٰ، ستكون للمتقين الذين لا يتنكّبون عن النهج القويم، ويُراعون السُّنن الإلهية في النصر والهزيمة.

ومع أنّ موسى أمّل قومه بالخلاص من هيمنة الطاغية، وانقضاء أيام المحنة، ولكنّهم عبّروا عن مَلَلهم وضجرهم ونفاد صبرهم، حيث ﴿قالوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ فمتىٰ ننعمُ بالراحة، ونستريح من هذا العناء؟ وكأنّهم يريدون أن تتغيّر أوضاعهم دون جهاد ومعاناة، ودون أن يغيّروا ما بأنفسهم.

أعاد موسى جوابه السابق، أعني قوله: ﴿إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ولكن بوضوح أكثر : ﴿قال عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾.

ثم نبّههم إلى أمر مهم للغاية، وهو: أنّ استخلافكم في الأرض بعد إهلاك فرعون، لا يعني ـ إذا حصل ـ أنّه تعالىٰ يمنحكم ذلك جُزافاً، ويكرمكم به بلا ملاك، بل هو لغاية امتحانكم ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

ومعنى ذلك أنّ الله سبحانه يراقب تصرّفاتهم، وما تكسبه أيديهم من أعمال، ويرىٰ مستوىٰ تطبيقهم للأحكام والمبادئ والقيم الإلهية، ويختبرهم وهم يتمتعون بنعمة الاستخلاف، ومالكون لحريتهم وإرادتهم، تماماً كما اختبرهم وهم تابعون مأسورون مقهورون.

والآية تنفي كل كرامة وعزة يدّعيها شعب لنفسه دون أن يتمتع بملاكاتها، فليس الكرامة إلّا بالعمل والسلوك والتجسيد الحيّ لمعاني الخير والفضيلة، ولا فرق في ذلك بين الفراعنة والإسرائيليين.

***

تسرّب التوحيد إلى بلاط فرعون

ليس شيء أخطر على الحكومات والأنظمة السياسية من تولّد بذرة المعارضة في داخلها، حيث إنّ هذه النواة ستنمو وتتكاثر وبالتالي تشكّل خطراً كبيراً يُهدّد النظام بالسقوط. وقد واجه فرعونُ هذا الخطرَ إذ علم أنّ زوجته «آسية بنت مزاحم» آمنت بموسى عن جدّ وتركت عبادة زوجها، ومن المعلوم أنّ غضّ الطرف عنها سوف يُؤثّر على نساء البلاط إذ ينتشر الإيمان بينهن، الأمر الّذي يؤدي إلى إرباك النظام من الداخل وربّما إلى تقويضه. ولذلك عزم فرعون على مؤاخذتها بأشدّ انواع العذاب حتّى لا تُحدِّث غيرها من النساء عن إيمانها بموسى عليه السلام، وقد روى المفسرون أنّها لما عاينت المعجزة من عصا موسى وغَلَبَتهُ السحرةَ أسلمت، فلمّا ظهر لفرعون إيمانُها نهاها فأبت فأوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس ثم أمر أن يلقىٰ عليها صخرة عظيمة، فلمّا قرب أجلها ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [1] فرفعها الله تعالى إلى الجنة.

وقد جمعت ـ رضي الله عنها ـ بين كون «البيت عند الله» و «كونه في الجنة»،

---

١. التحريم: ١١.

وذلك لأنّ المراد من العند؛ هو القرب المعنوي، حيث إنّ الجنة دار القرب والجحيم دار البعد.

ثم إنّها تبرّأت من فرعون وعمله، وفي الوقت نفسه تبرّأت من القوم الظالمين وهم قوم فرعون فكأنّها تبرّأت من المجتمع كلّه.

هكذا تؤثّر النصائح الخالصة والدلائل الباهرة في النفوس الطاهرة النظيفة على نحو تزهد فيه بالنعم والقصور ووسائل الدّعة والراحة، وتؤثِر رضا الله تعالى، وتستعدّ للقتل بألوان العذاب الشديد.

أخذ آل فرعون بالسِّنين

أمهل الله سبحانه فرعون وملأه مدة مديدة حتّى يتأمّلوا في بيّنات موسى ودلائله ويرتدعوا عن ظلمهم وجرائمهم، ولكنّهم عموا وصمّوا واستمروا في غلوائهم. ثم شاء الله سبحانه أن يُنبّههم من غفلاتهم بإنزال البلاء عليهم ليكون بمثابة جرس إنذار إليهم. وإليك الآيات الكريمة الّتي تحدّثت عن هذا البلاء :

١. **﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾**[1].

٢. **﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾**.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ

---

١. الاعراف: ١٣٠.

لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾[١].

لنذكر فيما يلي معاني بعض مفردات هذه الآيات :

«السنة» تُطلق على الحَوْل، وعلى الجدب والقحط، يقال: أسنتَ القوم، إذا أصابهم الجدب والقحط.

القُمَّل ـ بضم القاف وتشديد الميم ـ قيل هو كبار القِردان، جمع قَرْدَة وقُرادة: دويبة تتعلق بالبعير الهزيل ونحوه، وهي كالقَمْل ـ بفتح القاف وسكون الميم ـ للإنسان .

«**الدم**»، معروف. قيل: تحوّل ماؤهم إلى دم، ولم يقدروا على الماء العذب، وقيل: أُصيبوا بداء الرُّعاف .

سعى النبي موسى عليه السلام إلى كسب فرعون وملئه إلى حظيرة الإيمان والتوحيد بالحجج والبراهين الدامغة الّتي ساقها في حواراته ومناظراته معهم، وبالآيتين الباهرتين (العصا، واليد البيضاء)، اللّتين جاء بهما من عند الله تعالىٰ، ولكنهم ـ وقد غرّتْهم القوة وأطغَتْهم الأموال والثروات ـ أصرّوا على جحودهم وإنكارهم للحقّ، وعلى طغيانهم وظلمهم لبني إسرائيل .

ثم شاءت الحكمة الإلهية ان تبتليهم بألوان من الشدائد والمصائب لعلهم يستفيقون من غفلتهم، ويثوبون إلى رُشدهم، فإن المصائب من شأنها أن ترقّق القلوب، وتدفعَ بالإنسان إلى أن يتوجّه إلى ربّه الخالق المقتدر، ويمدَّ إليه كفَّ

---

١. الاعراف: ١٣٣ ـ ١٣٥.

الضراعة، لينقذه ممّا هو فيه .يقول سبحانه في وصف الإنسان: ﴿وَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[٢].

هكذا نزل البلاء تلو البلاء على آل فرعون لعلهم يذّكرون، فعوقبوا بالأنواع التالية من العذاب:

١. الجَدْب والقحط (السِّنين).

٢. النقصان من الثمار.

٣. السَّيْل المُغرِق (الطوفان).

٤. تسليط الجراد علىٰ زروعهم.

٥. القُمّل. مرّ معناه.

٦. الضفادع، وقد فاض بها النهر، فآذتهم ونغضّت عليهم الحياة.

٧. الدم. مضىٰ معناه.

كلّ هذه كانت ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ﴾.. تزيل اللُّبس، ودلائل واضحة، لإثبات صدق موسىٰ وصحة رسالته، وهي بصائر لمن استبصر بها، كما حكىٰ سبحانه عن موسىٰ قوله لفرعون ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَـؤُلاَءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾[٣]، ولكنّهم أعرضوا عنها، ولم يتّعظوا ولم يعتبروا بها:

١. فصلت: ٥١.

٢. العنكبوت: ٦٥.

٣. الإسراء: ١٠٢.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ وما هذا إلّا لرسوخ الإجرام في نفوسهم. ومع ذلك طلبوا من موسى أن يدعو الله حتّى يكشف عنهم العذاب ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ فتعبيرهم عن الله «بربك» دليل على أنّهم لم يؤمنوا برب موسى الّذي هو الرب القاهر على عامّة الآلهة المكذوبة. وقد بقوا على عقيدتهم أنّ له رباً وهناك أرباب أُخرى.

وقولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ لعل المراد به هو أنّه إذا دعا استجاب دعاءه، أو المراد أنّا لو آمّنا لرفع عنا العذاب ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ[1] لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ ونصدقك في أنّك نبي مبعوث من الله سبحانه ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي نطلقهم من الأسر، ونمنحهم حرية الذهاب معك إذا شاءُوا.

يُشار إلى أنّ كلّ هذا العذاب كان مختصاً بآل فرعون، وقد سَلِم منه بنو إسرائيل ولم يُصبهم منه شيء، وهذا دليل على صحة دعوة موسى عليه السلام.

وكانوا (أي الفراعنة) ينقضون عهدهم لموسى عليه السلام بعد انجلاء كلّ شدّة عنهم، ويمرّ الوقت المحدّد والأجل المعلوم الّذي يضربونه للوفاء بعهدهم، دون أيّ التزام به، بل يعودون إلى ما كانوا عليه من جحود واستعلاء وبغي، قال تعالى ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ أي ينقضون العهد.

---

١. الرِّجْز: العذاب،وأصل الرِّجْز الميل عن الحق، والعذاب رِجْز، لأنّه عقوبة على الميل عن الحق، والرَّجَز: رِعدة في رجل الناقة لداء يلحقها، والرَّجَز: ضرب من الشِّعر، أُخذ من رَجَز الناقة، لأنّه متحرك وساكن ثم متحرك وساكن في كل أجزائه، فهو كالرِّعْدةِ في رجل الناقة، يتحرك بها ثم يسكن، ثم يستمر على ذلك. انظر التبيان: ٤ / ٥٢٢ ـ ٥٢٣.

محاولة اقناع المخالفين لقتل موسى

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[1].

قد تقدم أنّ الملأ حذّروا فرعون من ترك موسى ومن آمن به من بني إسرائيل وشأنَهم، دون اتخاذ مواقف صارمة ضدهم، تقضي على تمرّدهم عليه وعلى عقائده ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾. ويستفاد من قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ أنّه كان في البلاط قوم يشيرون عليه بالكفّ عن قتله ولذلك حاول فرعون أن يرضيهم، ووجّه عمله بسببين:

أ. ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ بإحلال التوحيد مكان الوثنية وهذا يرجع إلى دينهم.

ب. ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ بأن يشيع الإيمان بدعوته في مصر، ويتحرّر الإنسان من عبودية غير الله، الأمر الّذي يُفسد عليهم أُمورَهم، ويُفقدُهم امتيازاتهم ومقاماتهم الزائفة.

ولم يقتصر فرعون علىٰ تهديده لموسىٰ عليه السلام، بل حاول أن يظهر أمام الملأ

١. غافر: ٢٦ ـ ٢٧.

بمظهر القويّ الشديد العاتي الّذي لا يُبالي بأحد، فقال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾الّذي يدّعي أنّه أرسله إلينا، ليمنعه منّا. قال الشيخ أبو جعفر الطوسي: وهذا عنف من فرعون وتمرّد وجرأة على الله، وإيهام لقومه بأن ما يدعو به موسى لا حقيقة له.(١)

ردّ موسىٰ عليه السلام على تهديد فرعون له بالقتل، بقوله ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾، فلو هدّده فرعون بالقتل فإنّه اعتصم بالله تعالىٰ، واستجار به من شر كلّ متجبّر عن الانقياد لله تعالىٰ ولا يصدّق بيوم القيامة ، فقوله: ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ضابطة كلية، لكن أُريد بها فرعون فقد كان متكبراً، مدّعياً للأُلوهية والربوبية، وكان لا يؤمن بيوم الحساب.

مؤمن آل فرعون ودوره الرسالي:

أبرز القرآن الكريم دور هذا الرجل الرسالي في الدفاع عن النبي موسىٰ عليه السلام من خلال حواره الّذي أداره مع قومه بكل هدوء وحكمة ومحبة ونصيحة من أجل توعيتهم وتبصيرهم بحقيقة الرسول والرسالة، وتحذيرهم من مغبة التمادي في موقفهم المتعّنت منهما. وإليك ما عرضه القرآن من حوار هذا المؤمن الصادق الحكيم:

الحوار الأوّل :

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ

---

١. التبيان في تفسير القرآن: ٩ / ٧١.

يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

﴿وَقَالَ الذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴾.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾.

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾[1].

***

يذكر المؤرخون أنّه قد آمن من آل فرعون اثنان مؤثران، هما زوجته آسية وأحد أقربائه المعروف بمؤمن آل فرعون وكان يُبطن الإيمان ويُظهر الكفر عملاً بالتقية، لأنّه لو أظهر الايمان لَقُتل. ومن المعلوم أنّه لو بقي حيّاً لانتفع بوجوده

١. غافر: ٢٨ ـ ٣٤.

موسىٰ والمؤمنون أكثر، وهذه هي التقية الّتي جاء بها القرآن الكريم وأفتىٰ بها الفقهاء صيانة للنفس والنفيس.

وقد عمل بها مؤمن آل فرعون، وذكر القرآن قصته ليكون أُسوة للآخرين .

لمّا عزم فرعون علىٰ قتل موسىٰ ﷺ حاول مؤمن آل فرعون دفع الشر عنه، وعرض مقاله بصورة النصح لفرعون وملئه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾، وهو استفهام إنكار مشعراً بأنّه لا يجوز في منطق العقل قتل إنسان بحجة إيمانه بالله سبحانه خصوصاً إذا كان إيمانه مقروناً بالدلائل والبينات: ﴿وَ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الّتي تدل على صدق دعواه.

وأضاف: لو افترضنا أنّه كاذب في دعوته، فوَبالُ ذلك عليه وحده ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾، وفي الوقت نفسه يُحتمل أن يكون الرجل صادقاً في دعوته، فعندئذ يصيبكم بعض ما أوعدكم به من أنواع العذاب: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذِي يَعِدُكُمْ﴾. وهذا القول مبالغة منه في التحذير، فإنّه إذا حذّرهم من بعض العذاب، أفاد أنّه مهلك مخوف، فما بال كلّه؟ إلى ما فيه من الإنصاف وإظهار عدم التعصّب .[1] ثم إنّه ختم كلامه هذا بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

وظاهر الآية أنّه من تتمة كلام مؤمن آل فرعون، فهو يريد أنّ الله لا يترك في هذه الدنيا المسرف المتجاوز عن الحدّ في المعصية والكذّاب على ربه، فلو كان موسى كاذباً في ادّعاء نبوته فقد تجاوز عن الحد، فالله يفضحه لأنّه تجاوز عن

١. تفسير المراغي: ٢٤ / ٦٥.

الحدّ، نظير قوله سبحانه: ﴿وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[1] فالكاذب إذا تجرّد عن خوارق العادات الّتي تجذب النفوس إلى الداعي ربما لا يأخذه سبحانه في الدنيا ويكون حسابه على الله يوم القيامة وأما إذا تسلح بالمعجزات والبيّنات فمقتضىٰ حكمة الله سبحانه أن يفضحه ويقطع وتينه لئلا يغرّر بالناس ويُضلّهم.

وحصيلة نصحه أنّ أمر موسى لا يخلو عن وجهين:

لو كان صادقاً يصبكم وعيده.

وإن كان كاذباً يفضحه سبحانه.

فالتسرّع في قتله ليس لصالحنا، ولا يقبله العقل السليم .

ثم إنّه أكد ذلك الكلام بتعبير آخر وهو أنّه لا تغرّنّكم عظمتكم ومُلككم، فإنّ المُلك أمر زائل : ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ ولكن لو كان موسى صادقاً في دعوته فالملك الظاهر لا يدفع عن الإنسان غضب الله سبحانه وعندئذ فمن يكون ناصرنا عند نزول العذاب ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ .

وبعين الله أن حجة مؤمن آل فرعون كانت حجة قوية ونصيحة رصينة لأنّه رسم للقوم مستقبل أمرهم وهو أن المستقبل لا يخلو عن أحد أمرين إما فضح موسىٰ من جانب الله سبحانه لو كان كاذباً، أو نزول العذاب علينا وإبادة مُلكنا لو كان صادقاً، فالعقل الحازم يحكم بترك التعرّض له.

إنّ هذا الأسلوب الهادئ الحكيم في التحذير من مغبّة تكذيب موسىٰ عليه السلام

---

١. الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦.

وقتله، يثير تساؤلات عن صحة موقف فرعون وملئه من موسىٰ، وطريقتهم في معالجة هذه القضية، ولذا ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مخاطباً الملأ، وكأنّه يدافع عن سياسته وقراره بتصفية موسىٰ ﷺ ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

إنّه يُعلن لهم أنّ ما يقوم به يأتي في إطار رؤيته الصائبة للأُمور، ووفق ما يرتضيه لنفسه، وأنّه لا يسوقهم إلّا لما فيه خيرهم ومصلحتهم.

ثم أخذ هذا المؤمن يُعرب عن شفقته على قومه، فحذّرهم بأسَ الله تعالىٰ في الدنيا ﴿وَقَالَ الذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾، أراد بها الجماعات الّتي تحزّبت على أنبيائها بالتكذيب. ثم أشار في الآية التالية إلى هؤلاء الأحزاب وقال:

﴿مِثْلَ دَأْبِ [1] قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، فالجملة عطف بيان ليوم الأحزاب، والآية تدل على أنّ قوم فرعون كانوا عالمين بما حلّ بقوم نوح، الذين أُهلكوا بالطوفان المعروف، وما حلّ بقوم عاد وثمود لقرب دارهم من البلاد المصريّة فقد عمّهم العذاب لا ظلماً واعتداءً عليهم، بل جزاءً لأعمالهم وإشراكهم بالله وتكذيبهم لأنبياء الله.

ثم حذّرهم عذابَ الآخرة ﴿وَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ وهو يوم النشر والحساب، إنّما سمّي ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ لأنّ الظالمين ينادي بعضهم بعضاً بالويل والثبور، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النارَ، وأصحابُ النار

---

١. الدَّأْب: العادة، يقال: دأَب يدأب دأباً، فهو دائب في عمله إذا استمرّ فيه. والعادة تكرّر الشيء مرة بعد مرة. التبيان: ٩ / ٧٥.

أصحابَ الجنة حسب ما ورد في سورة الأعراف.[١]

ثم شرح ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ بقوله: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ التولّي عبارة عن الرجوع إلى الطريق الّتي أتى منها، هارباً ممّا واجهه فيها ولكن لا ينفعهم الإدبار، وكما يقول: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي مانع من عذاب الله ﴿وَ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ فمن لم يتدبر في آيات الله ولم يعتبر بما حلّ بالأقوام البائدة المشركة فلا يكون مستحقاً للهداية، والآية بمنزلة قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٢] فإضلاله سبحانه كناية عن عدم هدايته نتيجة فسقهم وإعراضهم عن بيّناته. فالله سبحانه لا يزيغ القلوب إلّا بعد أن زاغت القلوب ولا يُضلّهم إلّا بعد أن فسقوا وخرجوا عن الطاعة، فمثل هؤلاء لا يستحقون الهداية.

ثم بيّن أنّ موقفهم السيِّء من موسىٰ عليه السلام، هو استمرار لموقف أسلافهم من يوسف عليه السلام، حيث ارتابوا في أمره، ولم يصدّقوا بدعوته ـ على الرغم من وضوح الحجج والبراهين الّتي جاء بها ـ إلى أن مات، ثم زيّنت لهم أهواؤهم نسج هذه المقالة الكاذبة، وهي أنّ الرسل قد انقطعوا بموته، ومن هنا أباحوا لأنفسهم تكذيب من يأتي بعده منهم ﴿وَ لَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾[٣].

وليس هذا الصدود عن الحق بأمر عجيب، فبمثل هذا الخذلان والارتكاس

١. الأعراف: ٤٤.
٢. الصف: ٥.
٣. غافر: ٣٤.

في الضلالة، يخذل الله كلَّ مسرف مرتاب.. منهمك في المعاصي، شاك في التوحيد والنبوة ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾.

سياسة التمويه والتزوير

إنّ السياق الموجود في آيات سورة غافر لو دلّ على تسلسل الحوادث وتتابعها، فإنّ فرعون لجأ ـ بعد نصح المؤمن من آل فرعون ـ إلى سياسة تزوير الحقائق، وحاول أن يموّه على الحاضرين ببطلان دعوة موسى إلى آله العالمين وذلك بعد الاستماع إلى حوار مؤمن آل فرعون معه، فطلب من وزيره هامان أن يبني له بناءً مرتفعاً يصعد به إلى السماء، لينظر إلى إله موسى، فقال: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ ثم فسر تلك الأسباب بقوله: ﴿أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ﴾.

والأسباب جمع السبب: وهو ما يُتوصَّل به إلى مكان بعيد، فأُطلق السبب على الطريق، فأراد فرعون بالوقوف على الصرح المشيّد أن يتعرف على طرق السماوات حتّى تنكشف له خفايا السماء وينتهي الأمر إلى إله موسى، فيرى هل هو موجود فيها أو لا.

ولكنّه قبل أن يبنىٰ الصرحُ، ويُشرفَ عليه، أصدر حُكمَه في إله موسى، فقال: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ وهذا هو ديدن كلّ متكبّر، ينقاد لِهَواهُ ولإغواء الشيطان، إذ يزيّنان له أعماله السيئة، فيتمادىٰ في طغيانه وفساده، ويُعرض عن طريق الخير والفلاح، ولم يكن فرعون بِبِدْع في ذلك ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

ثم أرشد سبحانه إلى أن ما اقترحه على وزيره من بناء الصرح حتّى يطّلع إلى إله موسى، كان كيداً يريد به التلبيس على أفكار مَن حوله وخداعهم كما يقول: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي في هلاك وخسار مقطوع لا ينفعه.

إنّ سياسة فرعون في التمويه على البسطاء واستغفالهم، اتّبعها الظالمون على مرّ العصور، والتاريخ يعيد نفسه، فهذا هو «خروشوف» يسأل رائد الفضاء الأوّل «غاغارين» بعد عودته من الرحلة الفضائية، واستقباله له، يسأله ساخراً: هل رأيت الله في السماء؟ فأجاب غاغارين بالنفي. والسائل والمسؤول هناك يعلمان (كفرعون) بأنّ إله العالمين ورب السماوات والأرض ليس جسماً ولا جسمانياً ـ ليس كمثله شيء ـ حتّى يكون في السماوات أو الأرض، ويستدل بعدم مشاهدته على عدم وجوده، ولكن حاول السائل (كسلفه فرعون) خداع الناس، وتلبيس الأمر عليهم. ويالالأسف اقتنع بقول رائد الفضاء من كان حوله من الساسة والعسكريين، أتباع الاتجاه المادي.

الحوار الثاني:

﴿وَ قَالَ الذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَ إِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾.

﴿تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾[1].

***

تقدم الحوار الأوّل لمؤمن آل فرعون وكان مؤثراً إلىٰ حدٍّ حاول معه فرعون أن يقلّل من أثره وذلك بطلبه من هامان وزيره أن يبني له صرحاً لعله يطّلع إلى إله موسى من خلال الفحص والتجسس في أطراف السماوات، ومن المعلوم أنّه كان اقتراحاً تافهاً، لأنّ موسىٰ عليه السلام كان ممّن ينزّه الله سبحانه عن المكان والجهة، ولكنّه موّه في كلامه وحمله علىٰ موسىٰ. وعند ذلك رأىٰ مؤمن آل فرعون أنّ الوقت مناسب للاستدلال على صحة نبوة موسىٰ بشكل أصرح، ولذلك نرىٰ أنّ هذا الحوار كان أوضح وأقرب إلى تحقيق الهدف من الحوار الأوّل.

ابتدأ مؤمن آل فرعون كلامه بذكر أمر تتوق إليه النفوس وتتشوّق إليه الأسماع ﴿اتَّبِعونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وهذا أمر يستحسنه كل إنسان سواء

---

١. غافر: ٣٨ ـ ٤٥.

أكان موحداً أم مشركاً، لكنه وضعه في هذا الإطار، وهو أن سبيل الرشاد عبارة عن عدم الاعتداد بالحياة الدنيا ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ يتمتع بها الإنسان أيّاماً قلائل ثم يزول:

اليوم ترشفُ زهوَها — وغداً تعالج داءَها
ماإن حمدتَ صباحَها — إلّا ذممتَ مساءها
يا ناعماً حتّى كأنـ — ـكَ لم تخفْ بأساءها
لا تطلبنّ بها البقا — ءَفقد عرفتَ فناءها[١]

وأمّا النعم الباقية والمستقرة، فهي نعم الحياة الأخروية ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

والإنسان في فوزه وسعادته وخسرانه وشقائه في دار القرار رهن عمله في هذه الدنيا ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ والجزاء بالمثل مقتضىٰ العدل الإلهي حيث لا يظلم ولا يجور ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وفي كلامه إشارة إلى أمرين:

أ. إنّ الإيمان أساس السعادة، والكفر أساس الشقاء.

ب. إنّه سبحانه يجزي المسيء بمقدار عمله، وأمّا المحسن فيجزيه أضعافاً مضاعفة، وبلا حساب.

ثم أخذ هذا المؤمن يتدرج في إبداء مقاصده ويصرّح أكثر عن دعواه، فيؤكد أنّ مآل التوحيد هو النجاة ومآل الشرك هو النار، وأنّه هناك فرق بين دعوتي

---

١. ديوان السيد حيدر الحلّي: ٢ / ٦٥.

ودعوتكم ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي حقاً أنّ ما تدعونني إليه من عبادة غير الله، ليس له دعوة في الدنيا إذ لم يُعهد أن أرسل نبياً إلى الناس، يدعوهم إلى عبادته، ولا في الآخرة إذ لا رجوع إليه، ولكني أدعوكم إلى الله سبحانه الّذي له دعوة في الدنيا حيث دعاكم إلى عبادته ببعث الرسل ودعمهم بالحجج والبينات، كما أنّ له دعوة في الآخرة كما يقول: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ والمسرف هو المتعدي طور العبودية.

ثم قال واعظاً ومحذّراً: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ عندما يحلّ بكم العذاب وتحدق بكم الأهوال، وتعلمون أنّي كنت ناصحاً لكم. ثم أعرب عن اتصاله العميق بالله تعالى، ولجوئه إلى كنفه، فقال ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ﴾ فهو حسبي ونعم الوكيل ﴿إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

لم تجدْ هذه الكلمات الصادقة، والنصائح البالغة آذاناً صاغية لدى الطاغية فرعون وأعوانه، بل كادوا له، وأرادوا به سوءاً، ولكنّ جارَ الله آمن [١] ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾، حيث وقاه سبحانه من :

أ. شرّ آل فرعون، لأنّه أظهر إيمانه بموسىٰ عليه السلام وكان عليهم أن يقتلوه أو يصلبوه كما صلبوا زوجة فرعون المؤمنة.

ب. نجاته من المصير السيّئ الذي حاق بآل فرعون، حيث لم يغرق معهم في البحر.

---

١. قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:... من استنصحَ اللهَ وُفّقَ، ومن اتّخذ قولَه دليلاً هُدي للّتي هي أقوم، فإنّ جارَ اللهِ آمن، وعدوَّه خائف. نهج البلاغة: ٢٠٥، الخطبة ١٤٧.

دعاء موسىٰ على فرعون وملئه

لقد اقتضى العدل الإلٰهي أن لا يؤدّب سبحانه عباده إلّا بعد إتمام الحجة عليهم ببعث الأنبياء والرسل إليهم، قال سبحانه: ﴿ وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[١] وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[٢].

ومن هنا بعث سبحانه الكليم إلى فرعون وقومه ليصدّهم عن عبادة غير الله أوّلاً وعن استعباد بني إسرائيل ثانياً، ولكنهم تمرّدوا واستمروا على عتوّهم وعنادهم، وسعوا إلى إطفاء نور الله بقتل موسىٰ الكليم، وإخلاء أرض مصر من بني إسرائيل بالقتل والنفي والإزعاج كرهاً، كما يقول سبحانه: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾[٣].

فالآية تحكي عن أنّ فرعون كان عازماً على استفزازهم واستئصالهم من الأرض، ففوجئ بالغرق.

وكان موسىٰ عليه السلام قد اجتهد في النصح لفرعون وقومه، وأراهم الآيات البينات، وألقىٰ عليهم الحجج الواضحات، وحذّرهم بأسَ الله وانتقامه، ولكنّهم أصرّوا على عنادهم ومكابرتهم، وأوغلوا في مُنابذته، فلما يئس عليه السلام من استجابتهم لدعوته، ومن صَرْفِهم عن غيّهم وطغيانهم، التجأ إلى ربّه، ودعا عليهم بهذين الأمرين:

١. أن يُذهبَ بأموالهم وزينتهم الّتي أغدقها عليهم سبحانه، وأن يمحقَها

---

١. الإسراء: ١٥. ٢. القصص: ٥٩. ٣. الإسراء: ١٠٣.

ويَزيلَها، لأنّهم استغلّوها في إضلال الناس وإغوائهم، وصَرعوا ببريقها نفوسَ الكثيرين ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ﴾[١].

قال الشيخ محمد جواد مغنية: نزلت هذه الآية في زمن لم يكن الناس يعرفون شيئاً عمّا تحتويه قبور الفراعنة، ثم كشف الحفر والتنقيب فيها عن هذه الأموال والزينة الّتي نصّ عليها القرآن، وهذا شاهد محسوس لا يقبل الشك والريب في أنّ القرآن وحي من علّام الغيوب.[٢]

٢. أن يشدّ على قلوبهم القاسية، ويزيدَها قسوةً، ويختمَ عليها، فلا ينفذ إليها نور الإيمان، إلى أن تحلّ ساعة العذاب الإلهي، وعندئذ لا ينفعهم إيمانهم ولا تُقبل توبتهم ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[٣].

استجاب الله تعالى هذه الدعوة الّتي رفعها موسى عليه السلام، وشاركه فيها أخوه هارون ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيما وَ لاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[٤]. وبذلك أذعن موسى وأخوه هارون على أن القوم سيهلكون وكانوا متربّصين لوعد الله سبحانه وكيفية إنجاء بني إسرائيل وإبادة آل فرعون، وهذا ما تذكره الآيات التالية:

---

١. اللام في ﴿لِيَضِلُّوا﴾ للعاقبة لا للغاية، بمعنىٰ أن هذه الأموال انتهت إلى إضلال عباد الله عن سبيلك، كما في قوله سبحانه: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾. فإنهم التقطوا موسىٰ عليه السلام ليكون قرّة عين لهم، ولكن آلَ أمره إلى أن صار عدوّاً لهم.

٢. التفسير الكاشف: ٤ / ١٨٦. ٣. يونس: ٨٨.

٤. يونس: ٨٩ قال المفسّرون: كان هارون يُؤَمِّن على دعاء أخيه، أي يقول آمين بمعنى استجب، والمُؤَمِّن داعٍ.

٦

هلاك فرعون وجنوده

١. ﴿وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾.[١]

٢. ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا تَرَاءا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.[٢]

٣. ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾[٣].

٤. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[٥].

٥. ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً

---

١. الشعراء: ٥٢ ـ ٥٦. ٢. الشعراء: ٦٠ ـ ٦٢.
٣. طه: ٧٧. ٥. طه: ٧٨.

وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾.(١)

٦. ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾(٢).

لمّا تنكّر فرعون وكبراء قومهِ لدعوة موسىٰ ونصائحه لهم، ولم يعتبروا بالآيات المفصّلات الّتي أنزلها عليهم ربُّ العالمين، ومَضوْا علىٰ رأيهم في قتله ﷺ واضطهاد بني إسرائيل، أمر الله سبحانه نبيّه موسىٰ ﷺ أن يقود بني إسرائيل، ويهاجر بهم ليلاً، وأخبره بأنّ فرعون سيتعقّبهم بجنده، ليمنعهم من الرحيل عن مصر ﴿وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾.

فأسرىٰ ﷺ بهم خُفية، متوجّهاً إلى ساحل البحر (٣)، فلّما بلغت فرعونَ أنباءُ مسيرهم، استشاط غضباً، وبادر إلى إرسال من يجمع له الجند من

---

١. يونس: ٩٠ـ ٩٢. ٢. الإسراء: ١٠٣.

٣. قال الشيخ عبد الوهاب النجار: اعتقد أن خليج السويس كان يمتد من تلك الأزمان إلى البحيرة المرة أو يقرب منها، وفي هذا الخليج كان عبورهم. وأضاف: وبين يدي أطلس تاريخي للأُستاذ محمد رفعت، رسم فيه طريق عبور بني إسرائيل بين السويس وبين البحيرة المرة، ورسم خطين يدلّان على أن خليج السويس كان متصلاً بالبحيرة المرة. وأحسب أنّه على صواب. قصص الأنبياء: ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

يُذكر أن خليج السويس، هو أحد فرعي الطرف الشمالي للبحر الأحمر، والفرع الآخر هو خليج العقبة،وتقع شبه جزيرة سيناء بين الخليجين.

مدائن مصر ليتّبعوهم ويمنعوهم من الهجرة ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾.

ثم أراد أن يبرّر هذه الدعوة إلىٰ تحشيدهم، والّتي قد تومئ إلى قلقه واضطرابه، وهو ـ كما يدّعي ـ الربُّ الأعلى القاهر لغيره، فقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ أي أصحاب موسىٰ ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ لا يُعبأ بهم، غير أنهم يثيرون غضبنا ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ بمخالفتهم لنا وتمرّدهم علينا، ولكننا على الدوام مستعدون لكل أمر، متحرّزون، غير غافلين عنه ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾.

وما أن بزغت شمس الصباح حتّى لحق بهم فرعون وجنوده ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾. وفي هذه اللحظات الّتي تقاربت فيها الفئتان بحيث يرى كل منهما الآخر، في هذه اللحظات ضاقت الدنيا بأعين بني إسرائيل وأحسّوا بالخطر وهو يحدق بهم، فاستغاثوا بموسىٰ ﷺ ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

وهنا يتجلّىٰ إيمان موسى ﷺ بربّه، وتتأكد ثقته بوعده ﴿قَالَ كَلَّا﴾ لن يُدركوننا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.... ويُرشدني إلى طريق النجاة. وقد تحقّق ذلك بمعجزة إلهية ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾[1] فضربه ﴿فَانْفَلَقَ﴾... وانشقّ عن طريق فيه، وارتفع الماء على جانبَيْه كالجبل العظيم ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾.

سلك الإسرائيليون الطريق الّذي فُتح لهم، وعبروا من الشاطئ الغربي إلى الشاطئ الشرقي. ولما رآهم فرعون وجنودُه، ساروا في أثرهم، فانطبق البحر

١. الشعراء: ٦٢.

عليهم وأغرقهم. قال تعالى ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً﴾ أي حاولوا اللحوق بهم للاستمرار في بغيهم وعدوانهم على موسى وقومه، ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ ورأىٰ (فرعون) الأمواج العاتية تدفعه هو وجمعه من مكان إلى آخر، وأحسّ بعجزه وهلاكه وانّه على مسافة قدم واحد من الهلاك ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وإنّما شبّه إيمانه بإيمانهم للظفر بما ظفروا به بإيمانهم فأُجيب بنداء سماوي: ﴿آلْآنَ﴾ أي أتؤمن بالله في هذا الحين وقد أدركك العذاب وغشاك موج البحر ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وصرفت أيامك في معصيته وسفكت دماء المستضعفين، فعندما تشاهد سوء مصيرك تتظاهر بالإيمان، كلا لا يقبل ذلك منك، وهذه أيضاً من سُنن الله تبارك وتعالىٰ، فانّه لا يقبل الإيمان النابع من الخوف من العذاب، قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ لما طلب فرعون قبول إيمانه وإنقاذه من الهلاك، أُجيب بأنّه سبحانه ينجّي بدنه لا نفسه، فالآية تدل على أن للإنسان وراء البدن شيئاً آخر وهو ما يعبر عنه بالروح تارة والنفس أُخرىٰ، فالله سبحانه نجّىٰ بدنه، وأخرجه من البحر حتّى يكون عبرةً للأجيال.

ذكر الأُستاذ أحمد يوسف أحمد أفندي في كتابه «فرعون موسى.. قصة

---

١. غافر: ٨٤ـ ٨٥.

الولادة والرسالة والخروج»: أن منفتاح بن رعمسيس الثاني هو فرعون الخروج، الّذي أُرسل إليه موسى وهارون عليهما السلام لإخراج بني إسرائيل من مصر، وهو الّذي لحق بموسىٰ عند البحر وغرق، وقد عُثر على جثته في قبر (امنتحتب الثاني) بالأقصر في سنة (١٩٠٠ م)، وظهر من آثار قبر منفتاح أنّه لم يكن مُهَيّأً كما يجب لدفن ملك مثله، لأنّ موته لم يكن منتظراً، فلم يُهيّأ له قبر خاص، فيكون العثور على جثته (وهي اليوم بالمتحف المصري) مصداقاً لقول القرآن الكريم ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾.[١]

ما هو الموروث وما هو المدمّر؟

هاهنا سؤال وهو: أنّه يظهر من الآيات الواردة في سورة الدخان أنّ آل فرعون هلكوا في البحر وبَقي ما تركوه، فورثه قوم آخرون كما قال سبحانه: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾[٢].

ويظهر ممّا ورد في سورة الأعراف أنّه دُمِّر ما تركه آل فرعون ولم يبقَ منه شيء قال سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[٣].

فكيف يتم التوفيق بينهما ؟

---

١. انظر: قصص الأنبياء للنجار: ٢٠١ ـ ٢٠٣، مع الأنبياء في القرآن الكريم لطبّاره: ٢٤١.

٢. الدخان: ٢٥ ـ ٢٨.

٣. الأعراف: ١٣٧.

أقول: إنّ ما ورثه الآخرون، غير ما دُمّر فالمورث هو الزروع والبساتين والأشجار فقد بقيت كما كانت وورثها الآخرون. والمدمَّر هو عروشهم وزخارفهم وما استمتعوه من الأمتعة ولذلك قال: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾.

مَن الوارث لما خلّفه آل فرعون؟

وهناك سؤال آخر وهو لا شكّ أنّ آل فرعون بعد أن غرقوا في البحر تركوا جنات وعيوناً، وزروعاً كما مرّ.

ويذكر سبحانه أنّ هذه النعم ورثها قوم آخرون قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾[١].

والمراد بهم هم الذين استولوا على بلاد مصر بعد هلاك الفراعنة.

وفي الوقت نفسه يذكر سبحانه أنّ بني إسرائيل استولوا على مشارق الأرض ومغاربها ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[٢]، وطبع الحال يقتضي أنّهم ورثوا تلكم الجنات والزروع.

فكيف يحصل التوفيق بينهما؟

أقول: المراد هو مشارق الأرض ومغاربها الّتي انتقلوا إليها لا مشارق أرض الفراعنة ومغاربها بشهادة أنّه يصفها بقوله ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ كما قال: ﴿وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾

---

١. الدخان: ٢٨.
٢. الأعراف: ١٣٧.

وهذه قرينة على أنّ المراد بهذا المكان هو أرض فلسطين الّتي يصفها سبحانه في مكان آخر بهذا اللفظ: ﴿سُبْحَانَ الذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾(١).

وهناك شاهد آخر على أنّ المراد بها هي مشارق الأرض الموعودة ومغاربها هو قوله في نفس الآية: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي انّه سبحانه أنجز وعده بإرجاعهم إلى الأرض الموعودة ولذلك نرى أن موسى يخاطب قومه بقوله: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾(٢).

وهنا سؤال ثالث: وهو أنّ ظاهر قوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾(٣).

أنّ قوماً غير بني إسرائيل ورثوا الأُمور الأربعة المذكورة في الآية.

وفي الوقت نفسه أن ظاهر قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٤) ان بني إسرائيل ورثوا نفس الأُمور الّتي ورثها الآخرون، فكيف يتمّ التوفيق بينهما؟

أقول: أُجيب عن ذلك بالأجوبة التالية:

---

١. الإسراء: ١.
٢. المائدة: ٢١.
٣. الدخان: ٢٥ ـ ٢٨.
٤. الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩.

الأوّل: إنّ بني إسرائيل ورثوا كنوز آل فرعون فقط، قال سبحانه **﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾**[١] والضمير يرجع إلى الكنوز، لا إلى ما قبلها، حيث إنّ بني إسرائيل حين أزمعوا الخروج قد احتالوا على القبط، فاستعاروا حلي نسائهم، وحملوها معهم.[٢]

وهذا القول لا نرتضيه لأُمور:

١. لا يوجد دليل من الآيات الكريمة على هذا التخصيص.

٢. إن بني إسرائيل كانوا مضطهدين أذلّاء خائفين، فكيف يمكنهم استعارة هذه الكميات الهائلة من الحلي (الّتي عبّر عنها القرآن الكريم بالكنوز) من قوم ينظرون إليهم بعين الحقد والعداء والازدراء؟

٣. إن استعارة الحلي بهذه الكميات الهائلة، ممّا يلفت النظر، ويثير الريب، وهذا لا يتفق مع خروجهم سرّاً، وحرصهم على الرحيل خُلسة.

الثاني: إنّ المراد من إيراث بني إسرائيل، هو إبقاؤهم في مقابل إهلاك فرعون يعني: «أهلكنا فرعون وجنوده وأبقينا بني إسرائيل بعدهم فكانوا هم الوارثين»[٣]، لا إيراثهم الأُمور المذكورة.

الثالث: إنّ الله تعالىٰ أورث بني إسرائيل مثل ما كان لفرعون وقومه، ـ لا

---

١. الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩.

٢. انظر: التحرير والتنوير: ١٦ / ١٦٦.

٣. الميزان: ١٥ / ٢٧٧.

عينه ـ حيث إنّهم لم يعودوا إلى مصر بعد خروجهم منها ولكنّه سبحانه ملّكهم فيما بعد جنات وعيوناً مماثلة لها في أرض فلسطين، وامتدّ نفوذهم في عهد داود وسليمان إلى شرق الأردن وسوريا ولبنان إلى شط الفرات.[١]

قال الشيخ المراغي: وفي هذا بيان، لأنّ حالهم تحوّل من الاستعباد والرقّ إلى الترف والنعيم من الجنات والعيون والمقام الكريم.[٢]

٧

الإقامة في سيناء

شملت عناية الله ورحمته بني إسرائيل، فأنقذهم من الذلّ والاستعباد، وفتح لهم آفاقاً جديدة من الحياة في صحراء سيناء، بعد أن جاوز بهم البحر، وأغرق عدوَّهم فرعون وجنده. وهنا برزت مشكلتان:

١. إنّ العقائد الوثنية كانت سائدة في تلك المنطقة، ولم يكن بنو إسرائيل من حيث التفاعل مع دعوة موسىٰ عليه السلام فكرياً ونفسياً وروحياً قد بلغوا درجة تمنعهم من التأثر بهذا النوع من العقائد.

٢. إنّ الأرض الّتي وصلوا إليها، كانت صحراوية، تفتقر إلى المياه، وتخلو من البنيان والعمران، ومن هنا أحسّوا بصعوبة العيش فيها، حيث لا زروع توفّر لهم أقواتهم، ولا ظلال يستريحون إليها من حرّ الهاجرة.

وهاتان المشكلتان تحدّثت عنهما الآيات التالية:

---

١. قصص الأنبياء للنجار: ٣٢١.

٢. انظر: التبيان في تفسير القرآن: ٤ / ٥١٥؛ تفسير المراغي: ١٩ / ٦٧، التفسير الكاشف: ٥ / ٤٩٨.

المشكلة الأُولى:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1].

***

كان المترقب من أُمّة أهلك الله عدوَّهم، وأنقذهم من الاستعباد والاضطهاد هو إخلاص العبادة لله والانقطاع إليه، ولكنهم ما إن جاوزوا البحر، وأصبحوا على ساحله الشرقي، ومرّوا على قوم يعبدون الأصنام، حتّىٰ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ وهذا يدلّ علىٰ أن دعوة التوحيد لم تترك أثراً واضحاً في نفوسهم، وأنّهم لا يزالون يتخبّطون في جهلهم وماديتهم بسبب ابتعادهم عن الوحي السماوي ووقوعهم تحت أسر القبط الوثنيين سنين متطاولة، ولذا جابههم موسىٰ عليه السلام بشدة، و ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.. تجهلون مفاسد عبادة الأصنام أوّلاً، ونعمةَ ربكم فيما صنع بكم ثانياً، وعظمةَ ربكم تعالىٰ وصفاته ثالثاً.

ثم أخذ عليه السلام بإبطال أعمال الوثنيين، فقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ[2] مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أنّ طريقة هؤلاء الوثنيين طريقة هالكة وأعمالهم

---

١. الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠.

٢. المُتَبَّر: من التَّبار، وهو الهلاك.

باطلة، لا يُجزَون بأعمالهم شيئاً، وقد سعد من أعرض عنهم وعن سبيلهم وشقي من مال إليهم.

ثم: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي أطلب غير الله إلهاً مع أنّه فضّلكم على العالمين، وأنقذكم من الذلّ فكيف نعدل عنه إلىٰ غيره ؟

المشكلة الثانية:

١. ﴿ وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1].

٢. ﴿وَ إِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَ لاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2].

٣. ﴿وَ قَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَماً وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3].

***

١. البقرة: ٥٧.
٢. البقرة: ٦٠.
٣. الأعراف: ١٦٠.

تقدّم أنّ بني إسرائيل بعد أن وطئوا أرض سيناء واجهوا عدة مشاكل، منها حرّ الشمس اللافح في تلك الصحراء المجدبة، فأنعم الله تعالىٰ عليهم بأن جعل الغمام يُظلّلهم، ليقيهم حرّها ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ .

ومنها الجوع، جاء في التوراة: «فتذمّرت جماعة بني إسرائيل كلها على موسى وهارون في البرّيّة وقال لهما بنو اسرائيل ليتنا متنا بيد الربّ في أرض مصر حيث كنّا نجلس عند قدر اللحم ونأكل الطعام يشبعنا في حين انكم اخرجتمانا إلى هذه البريّة لتميتا هذا الجمهور كله بالجوع» .[١] فمنّ الله سبحانه عليهم بإنزال المنّ والسلوىٰ. والمنّ: مادة تتزهّر على أوراق بعض الأشجار، طعمها حلو، وقيل في معناه غير ذلك.[٢]

وأما السّلوىٰ، فهو طائر برّي لذيذ اللحم، كان يغطي الأرض، فيقتنص منه كل إنسان ما يحتاجه بسهولة ويسمىٰ هذا الطائر أيضاً السُّمانَى.

وقد ورد في التوراة ذكر هاتين النعمتين، ويتبيّن منها أنهم كانوا يصنعون من المنّ خبزاً. وإليك بعض فقراتها الّتي تتحدّث عن ذلك:

(... فكلّم الربّ موسى قائلاً سمعت تذمّر بني إسرائيل. كلّمهم قائلاً: في العشيّة تأكلون لحماً، وفي الصباح تشبعون خبزاً. وتعلمون أني أنا الرب إلٰهكم.

فكان في المساء أن السلوىٰ صعدت وغطّت المحلّة. وفي الصباح كان سقيط النّدىٰ حوالي المحلّة... فلما رآه بنو إسرائيل قالوا بعضهم لبعض مَن هو، لأنهم لم يعرفوا ما هو. فقال لهم موسى هو الخبز الّذي أعطاكم الربّ لتأكلوا....

١. التوراة، سفر الخروج، الإصحاح: ١٦.

٢. انظر: مجمع البيان: ١٢ / ١١٦.

... اخبزوا ما تخبزون، واطبخوا ما تطبخون... ودعا بيت إسرائيل اسمَه منّاً. وهو كنَوْر الكُزبُرة أبيض وطعمهُ كرِقاق العسل).[١]

استسقاء موسى عليه السلام لقومه

١. ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٢].

٢. ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٣].

***

تقوم الحياة الدنيوية على أُمور ثلاثة: الطعام والمسكن والماء، وحينما نزل بنو إسرائيل الساحل الشرقي للبحر رزقهم الله تعالى المنَّ والسلوىٰ، وظلّل عليهم الغمام، وبذلك ارتفعت الحاجتان الأوّليتان وبقيت الثالثة، وهذا هو ما تذكره الآيتان المتقدمتان. ويظهر من قوله في الآية الثانية: ﴿إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ أنّ بني إسرائيل طلبوا من موسى الماء للسقيا، فدعا عليه السلام ربّه أن يسقيهم وهذا هو الّذي يظهر من

١. التوراة، سفر الخروج، الإصحاح ١٦.
٢. البقرة: ٦٠.	٣. الأعراف: ١٦٠.

التوراة حيث جاء فيها؛ ثُمَّ رحلت جماعةُ بني اسرائيل كلها من بريّة «سين» مرحلة مرحلة على حسب أمر الرب، وخيّموا في رفيديم. ولم يكن هناك ماء يشربه الشعب. فخاصم الشعب موسى وقال: «أعطونا ماءً نشربه» فقال لهم موسى: لماذا تخاصمونني ولماذا تُجربون الرب؟ وعطش هناك الشعب إلى الماء وتذمّر على موسى وقال: لماذا أصعدتنا من مصر؟ ألتقتلني أنا وبنيَّ ومواشيَّ بالعطش؟ فصرخ موسى إلى الرب قائلاً: ماذا أصنع إلى هذا الشعب؟ قليلاً ويرجمني» فقال الرب لموسى: مُرّ أمامَ الشعب وخذ معك من شيوخ إسرائيل وعصاك الّتي ضربت بها النهر خذها بيدك واذهب... فتضرب الصخرة، فانّه يخرج منها ماءٌ فيشرب الشعب. ففعل موسى كذلك على مشهد شيوخ إسرائيل.(١)

استجاب الله سبحانه دعاء موسىٰ عليه السلام فقال له: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ والمراد بها العصا الّتي جاء بها من مَدين والّتي عندما سأله الله عنها قال: ﴿هِيَ عَصايَ أَتَوَكأُ عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلىٰ غَنَمي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرىٰ﴾(٢).

وهي ذات العصا الّتي ألقاها فصارت ثعباناً تلقف ما ألقاه السحرة، وتعريف الحجر باللام إشارة إلىٰ حجر خاص واقع في جبل ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ قوله فانفجرت عطف على محذوف أي ضرب فانفجرت منه تلك العيون .

وانما تفجرت اثنتا عشرة عيناً ليعلم كل سبط وفريق مشربهم ، ويظهر ممّا

---

١. سفر الخروج: ١٧ / ٦؛ الكتاب المقدس: ١٨١ ـ ١٨٢.

٢. طه: ١٧ ـ ١٨.

ورد في سورة الأعراف أنّ بني إسرائيل انقسموا إلى اثنتي عشرة فرقة قبل الاستسقاء، كما يقول: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾[١]، وظاهر الآية أنّ هذا التقطيع كان منّة من الله سبحانه عليهم، وهذا ما عليه التوراة فقد جاء في سفر العدد الإصحاح الأوّل «وكلّم الرب موسى في برّية سيناء في خيمة الموعد في اليوم الأوّل من الشهر الثاني من السنة الثانية لخروجهم من مصر قائلاً أحصوا كل جماعة بني إسرائيل بعشائرهم وبيوت آبائهم...الخ» [٢].

ثم خوطبوا بقوله سبحانه ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تسعوا في الأرض فساداً وإن كان العثيّ لا يكون إلّا فساداً ولكن يجوز أن يكون كل فعل ظاهره الفساد وباطنه المصلحة، فبيّن أنّ فعلهم هو العثيّ الّذي هو فساد ظاهراً وباطناً.

وانّما أمر الله سبحانه بالأكل والشرب مع النهي عن الإفساد، لأنّ الإنسان المتمتع الفارغ عن العمل يكون على عتبة الفساد، ونعم ما قيل:

إن الفراغ والشباب والجِدة ... مفسدة للمرء أيّ مفسدة

وأمّا الآية الثانية أي ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً... الخ﴾ فمضمونها قريب من مضمون الأولىٰ ولكنها تحوي مجموع ما منّ الله به علىٰ بني إسرائيل بعد نزولهم أرض سيناء، فأشار إلىٰ أنّه سبحانه أعطاهم ما تتقوّم به

١. قطّعناهم: صيّرناهم قِطَعاً وفِرقاً، كل فرقة تنتمي إلى سبط من الأسباط الاثني عشر ليعقوب عليه السلام. والسبط: ولد الولد ذكراً أو أنثىٰ، ويغلب علىٰ ولد البنت.

٢. الكتاب المقدس.

الحياة الدنيوية من طريق الإعجاز والكرامة، أمّا الماء فبقوله: ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾، وأمّا الوقاية من الحرّ والبرد، فأشار إليه بقوله: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ وأمّا الطعام، فقال فيه: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ وبذلك اكتمل قوام الحياة ولم يبق عذر لبني إسرائيل في ما يأمرهم به موسىٰ ﷺ، ولكن نرى أنّه سبحانه يحثهم على الطاعة ويحذّرهم من العصيان بقوله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾[١].

وفي هذه الآيات تلميح إلى ما يرتكبه بنو إسرائيل من الجرائم في مستقبل حياتهم وعدم تقديرهم لنعم الله سبحانه، وكفرانهم بها.

نزول التوراة في الميقات

١. ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٢].

٢. ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ

---

١. طه: ٨١.

٢. الأعراف: ١٤٢.

فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾[١].

***

بعد أن استتب الأمر لبني إسرائيل (في المنطقة الّتي نزلوا بها) من الناحية المادية، حان الوقت لإعدادهم روحياً وتربيتهم دينياً من حيث العقائد والأحكام حتّى يكونوا أُمّة كأُمّة إبراهيم ﷺ، وهذا رهن نزول شريعة على الكليم ضمن كتاب جامع لكلا الأمرين، ولهذه الغاية أمر الله سبحانه موسىٰ ﷺ، بالتوجّه إلىٰ ميقات ربّه ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً﴾ والميقات حسب ظاهر الآية وإن كان ثلاثين ليلة إلّا أنّه كان في الواقع ثلاثين ليلة وثلاثين نهاراً، وإنما خُصّ الليل بالذكر لأن الروح تكون في هذا الوقت أكثر استعداداً لتلقي الحالات المعنوية، بخلاف النهار فإنّ النفس تكون مشغولة فيه بأُمور الحياة وما فيها من أحداث، وبما أنّ الإنسان في الليل يكون أكثر استعداداً للاتصال بالعوالم الروحية أمر سبحانه نبيه ﷺ بالقيام بالليل، حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً *... إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾[٢]. وقد ذكر المفسرون أنّ المراد بثلاثين ليلة مجموع شهر ذي القعدة الحرام وقد ذكر موسى لقومه أنّه سيغيب مدة ثلاثين ليلة ولكن بعدما تمت الليالي المذكورة أمره سبحانه بإتمام الميقات بعشر ليال أُخر ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وحينئذٍ أُعطي الألواح الّتي كُتبت فيها التوراة.

وفي هذه الآية نكتة وهي وقوع البداء في إخبارات الأنبياء والأولياء، فها هو

١. الأعراف: ١٤٤ ـ ١٤٥.
٢. المزمل: ١ و٢ و ٦.

موسى الكليم قد حدّد ميقاته لقومه بثلاثين ليلة مع أنّه سبحانه أمر بإتمامها إلى أربعين ليلة، وما هذا إلّا لأن موسىٰ علم بالمقتضي ولم يقف على المانع فأخبر بمقتضاه بصورة الجزم، ولكن عاق العائق عن تحققه وجعله أربعين ليلة.

فالله سبحانه من وراء الأُمور يعلم المقتضي والمانع وما ينتهي إليه الأمر من أوّله، وأمّا النبي فهو يخبر حسب ما يقف عليه من الأسباب المنتهية إلى ما أخبر، دون أن يقف على ما يزيل تأثير هذه الأسباب ويصيّرها أربعين ليلة، وهذا هو البداء الّذي يعتقده الشيعة وهو من الله سبحانه إبداء ما أخفاه وليس بداءً في الحقيقة.

وأمّا بالنسبة للمخبر والسامع فهو بداء، أي ظهر لهم ما خفي عليهم.

وعلىٰ كل تقدير، فقد خلّف موسىٰ عليه السلام في غيابه هارون أخاه عليه السلام: ﴿ **وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ فقد استخلفه في قومه وأمره بالإصلاح ومجانبة سبيل المفسدين، وفي هذا التحذير إشعار بأن موسىٰ عليه السلام كان عارفاً بطبيعة بني إسرائيل، متوجّساً من نكوصهم وارتدادهم.

سؤال وجواب

إنّ هارون كان مثل موسىٰ نبياً وطرفاً للوحي، كما يحكي عنه سؤال موسىٰ في هذا الصدد، حيث قال: ﴿**وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾ أي اجعله نبياً مثلي وقد استجيبت دعوته كما يحكي عنه قوله سبحانه: ﴿**قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى**﴾ وعندئذ يتوجه السؤال التالي:

إذا كان الأخوان ـ موسى وهارون ـ في سماء النبوة كالفرقدين في السماء الدنيا فكيف يكون هارون خليفة لأخيه، والخلافة عن شخص تعرب عن فرعية المستخلَف وأصالة المستخلِف؟

والجواب، هو أنّ هارون حاز المرتبتين كما حازهما موسىٰ، وهما:

أ. مقام النبوة حيث صارطرفاً للوحي.

ب. منصب الرسالة وهو تبليغ ما أُوحي إليه من العقيدة والشريعة.

ولكن كان لموسى مقام ثالث وهو مقام الإمامة والقيادة، ولذلك جعل هارون خليفة عن نفسه في هذا المنصب لا في النبوة والرسالة، وإلى ما ذكرنا يشير الطبرسي بقوله: إنّما أمر موسى عليه السلام أخاه هارون بأن يخلفه وينوب عنه في قومه مع أنّ هارون كان نبياً مرسلاً، لأنّ الرئاسة كانت لموسى عليه وعلى أُمّته ولم يكن يجوز أن يقول هارون لموسى مثل ذلك. وفي هذا دلالة على أنّ منزلة الإمامة منفصلة من النبوة وغير داخلة فيها، وإنّما اجتمع الأمران لأنبياء مخصوصين، لأنّ هارون لو كان له القيام بأمر الأُمّة من حيث كان نبياً لما احتاج فيه إلى استخلاص موسىٰ إيّاه وإقامته مقامه.[1]

اصطفاء موسىٰ بالتكليم

إنّ الله سبحانه اصطفىٰ موسىٰ عليه السلام علىٰ سائر الناس بأمرين:

قال سبحانه: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

---

١. مجمع البيان: ٢ / ٤٨٣.

أ. «برسالاتي».

ب. «بكلامي».

والمراد بالرسالات هو ما حمله موسىٰ من الأوامر والنواهي الإلٰهية ومن المعارف والحكم والشرائع ليبلغها الناس.

والمراد بالكلام هو ما شافهه به سبحانه من غير واسطة مَلَك، وإنّما اصطفاه سبحانه بالتكليم من بين الناس الموجودين في زمانه أو الأعمّ من الموجودين في زمانه وفي القرون الآتية مِن غير الأنبياء، وما ذلك إلّا لأنّ التكليم لا يختص بموسىٰ عليه السلام بل يعمّ غيره، كما يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[١] فقد ذكر سبحانه طرقاً ثلاثة لتكليمه تعالى وهي:

أ. ﴿إِلَّا وَحْياً﴾ وهو الإلقاء في القلب بلا واسطة.

ب. ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ سماعُ كلامهِ من خلف ساتر يسمع الصوت ولا يرى المتكلم.

ج. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ كأمين الوحي الحامل لبلاغه وأوامره ونواهيه.

وظاهر الآية أنّ القسم الثاني غير خاص بنبي واحد.

ثم إنّه سبحانه يأمر موسىٰ عليه السلام بأخذ ما أنزل إليه مقروناً بالشكر ويقول: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

---

١. الشورى: ٥١.

مكانة التوراة بين الكتب السماوية

إنّ الإنسان المعاصر كلما قرع سمعه اسم التوراة ينتقل ذهنه إلى التوراة الموجودة حالياً بين اليهود، والّتي وقع فيها التحريف والتزوير، وملئت بالعجائب والغرائب ، إلّا أنّ الله سبحانه وصف التوراة الّتي أُنزلت على موسى عليه السلام بهذه الأوصاف : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. واللوح صحيفة معدّة للكتابة فيها، وسمّي لوحاً لأنّه يلوح ويظهر بما فيه من الخط وأصله من لاح البرق: إذا لمع.

ثم إنّ «من» في قوله: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تبعيضية متعلقة بـ ﴿كَتَبْنَا﴾ ومفعول الفعل محذوف دل عليه فعل كتبنا أي كتبنا مكتوباً من كل شيء، ويجوز أن يكون «من» اسماً بمعنىٰ بعض فيكون منصوباً على المفعول به بـ﴿كَتَبْنَا﴾ أي كتبنا له بعضاً من كل شيء، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] وظاهر الآية أنّ التوراة لم تستكمل جميع ما يحتاجه البشر من المعارف والشرائع إلى يوم القيامة .

ويكشف عن ذلك أنّه سبحانه بعدما يذكر الكتابين في سورة المائدة، يقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[2]، غاية الأمر أنّها كانت شريعة كاملة في جانبي العقيدة والشريعة في زمانها، أي أنّها تلبّي حاجات ذلك الزمان، ولذا قال سبحانه: ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ

١. النمل: ١٦.

٢. المائدة: ٤٨.

شَيءٍ﴾ يحتاجون إليه في الدين في جانبَيْ الأحكام والمعارف.

ثم أمره سبحانه أن يأخذ الألواح بجدٍّ وعزيمة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ وذلك بالتزام العمل بما جاء فيها، وهو نظير قوله سبحانه: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[1]، ونظير قوله سبحانه مخاطباً بني إسرائيل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾[2].

ولكي تنتفع الأُمّة بالمنهج الإلٰهي المرسوم لها، عليها أن تستهدي به وتتّبعه ولا تحيد عنه ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾. ولكنّ اليهود لم يأخذوا بهذه الوصية، بل خالفوا التوراة، ونبذوا أحكامها الّتي لا تتّفق مع مصالحهم الذاتية الضيقة، وحرّفوا كَلِمها عن مواضعه، وانتقَوْا منها ما لا يتعارض ورغباتهم، ولذا ندّد الله سبحانه بهم، وقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾[3].

جدير بالإشارة أنّ صيغة «أحسن» في قوله : ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ مجردة عن التفاضل، أي بمعنىٰ حَسنها، لأن عامة ما ورد في التوراة لازمة الأخذ، ونظيره قوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[4].

ويحتمل أن يكون المراد بأحسنها إلىٰ ما دونه، ألا ترىٰ أن استيفاء الدَّين حَسَن، وتركه أحسن .[5]

---

١. مريم: ١٢.
٢. البقرة: ٦٣.
٣. البقرة: ٨٥.
٤. الزمر: ١٧ ـ ١٨.
٥. التبيان في تفسير القرآن: ٤ / ٥٤٠.

خصائص التوراة

وصف الله سبحانه التوراة بصفات سامية، نشير إليها :

١. ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١].

ولعل المراد بالفرقان معاجزه الّتي يفرق بها الحق عن الباطل.

٢. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[٢].

وقبل تفسير الآية نشير إلىٰ سبب نزولها:

روي عن الإمام الباقر عليه السلام وجماعة من المفسرين ان امرأة من خيبر ذات شرف بينهم زنت مع رجل من أشرافهم وهما محصنان، فكرهوا رجمها، فأرسلوا إلى يهود المدينة وكتبوا اليهم أن يسألوا النبي عن ذلك طمعاً في أن يأتي لهم برخصة، فانطلق قوم منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا محمد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أُحصنا ما حدّهما؟ فقال: وهل ترضون بقضائي في ذلك؟ قالوا: نعم، فنزل جبرائيل بالرجم، فأخبرهم بذلك، فأبوا أن يأخذوا به، فقال جبرائيل: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه له. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدكاً يقال له ابن صوريا؟ قالوا: نعم. قال: فأي رجل هو

---

١. البقرة: ٥٣. ٢. المائدة: ٤٤.

فيكم. قالوا أعلم يهودي بقي على ظهر الأرض فقال له النبي ﷺ: إني أنشدك الله الّذي لا إله إلّا هو الّذي أنزل التوراة على موسى وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون وظلّل عليكم الغمام وأنزل عليكم المنّ والسلوىٰ، هل تجدون في كتابكم الرجم علىٰ من أحصن؟ قال ابن صوريا: نعم والّذي ذكّرتني به لولا خشية أن يحرقني رب التوراة إن كذبت أو غيّرت ما اعترفت لك، ولكن أخبرني كيف هي في كتابك يا محمد؟ فوصف له رسول الله ﷺ حكم الرجم، فقال النبي ﷺ فماذا كان أول ما ترخصتم به أمر الله؟ قال: كنّا إذا زنى الشريف تركناه وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحدّ، فلما اعترف ابن صوريا بعدم التزام اليهود بما جاء في التوراة، قالت اليهود له: ما أسرع ما أخبرته به وما كنت لما أتينا عليك بأهل، ولكنك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك. فقال: إنّه أنشدني بالتوراة، ولولا ذلك لما أخبرته به، فأمر بهما النبي ﷺ فرُجما عند باب مسجده.(١)

وعلى ضوء هذا فقد وصف سبحانه التوراة بالصفات التالية:

أ. ﴿فِيهَا هُدىً﴾ أي بيان للحق ودلالة على الأحكام.

ب. ﴿نُور﴾ وضياء لكل ما تشابه عليهم وجلاء لما أظلم على بني إسرائيل.

ج. ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ فالتوراة تكون مصدراً لمن يحكم من النبيين ولعل المراد أنبياء بني إسرائيل الذين جاءوا من بعد موسى، ووصف النبيين بالذين أسلموا لأجل أنّ الإسلام دين لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ

---

١. مجمع البيان: ٢ / ١٩٣ ـ ١٩٤ (بتلخيص).

﴿الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2] فهؤلاء النبيون يحكمون للذين هادوا وهم اليهود، فكأنّ التوراة صارت مصدراً لحكم الأنبياء في تلك الفترة إلىٰ بعثة نبي الإسلام ﷺ.

د. ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ والربّانيون جمع الرَّبّاني وهو العالم المنسوب إلى الرب المتوغّل في الربوبية، كالشعراني لكثير الشعر.

و «الأحبار» جمع حَبْر وهو العالم في الملة الإسرائيلية. فهم أيضاً يحكمون بما حفظوا من كتاب الله، وهو التوراة. والتعبير عن الحفظ بالاستحفاظ كأنّ الكتاب كان أمانة عندهم ثم إنّ قوله: ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ الضمير يرجع إلى النبيين والربانيين والأحبار أي كان هؤلاء شهداء على كتاب الله.

ثم إنّه سبحانه خاطب اليهود بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ وكأنّه ترغيب لهم في بيان حكم الله من دون تغيير وتحريف ولذلك يقول: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وهذه الصفات تحكي عن أنّ الكتب السماوية عامة كانت في غاية الإحكام والاستحكام لو لم تتطرق إليها يد الدس.

---

١. آل عمران: ١٩.

٢. آل عمران: ٦٧.

بنو إسرائيل وطلب رؤية الله تعالىٰ

دلت آيات الذكر الحكيم والعقل الحصيف على امتناع رؤية الله في الدنيا والآخرة، ذلك أنّه سبحانه ليس بجسم ولا جسماني، ولا متحيّز، والرؤية تتطلب كل ذلك كما حُقّق في محله، ولذلك نجد القرآن الكريم يتلقّى هذه المسألة بالإنكار والتنديد كلّما مرّ عليها، يقول سبحانه: ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ**﴾[١] ومن المؤسف جداً أن جمّاً غفيراً من الأشاعرة وعامّة أهل الحديث يلتزمون برؤية الله تعالىٰ في الآخرة، اغتراراً بالروايات المندسة من قبل أهل الكتاب في الأحاديث الإسلامية. ولو أنهم طالعوا العهدين لوقفوا على أنّ الرؤية فكرة يهودية مستوردة اغترّ بها البسطاء والسُّذّج من المحدّثين وتبعهم الأشاعرة تجنّباً عن اتهام ما ورد في الصحيحين، وإلّا فإمام الحرمين والغزالي والرازي ومن جاء بعدهم من فطاحل الأشاعرة ـ لولا هذه الأحاديث ـ أنبل من أن يلتزموا بإمكان رؤية الله في الآخرة رؤية حسيّة، والتفصيل في محله.

قلنا: إنّ الرؤية فكرة يهودية مستوردة، تشهد بها الآيات التالية:

١. ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**﴾.

﴿**ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾.[٢]

---

١. النساء: ١٥٣.

٢. البقرة: ٥٥ـ ٥٦.

٢. ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾(١).

٣. ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

***

لمّا استعد موسىٰ عليه السلام للذهاب إلى الميقات اختار سبعين رجلاً من خيار القوم للحضور معه هناك حتّى يشهدوا على نزول التوراة: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا﴾ فلما سمعوا الكلام قالوا لن نؤمن بأنّه كلام الله سبحانه لك حتّى نرى الله جهرة، أخذاً بالقياس الباطل وهو أنّ إمكان سماع الكلام ملازم لإمكان رؤية الذات غافلين عن أنّ كلامه فِعلُه لا ذاتُه، فرؤية الفعل لا تكون دليلاً على جواز رؤية الذات.

ولمّا كان طلبهم أمراً نكراً عاقبهم الله سبحانه بالصاعقة كما قال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ

---

١. الأعراف: ١٥٥.

٢. الأعراف: ١٤٣.

تَنْظُرُونَ﴾، ففي هذه الآية تصريح بعقابهم بالصاعقة، وفي آية أُخرى ما يدل على تأديبهم بالرجفة كما يقول: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا﴾ فلمّا علّقوا إيمانهم علىٰ رؤية الله جهرة عوقبوا بالرجفة كما يقول: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ ولا تعارض بينهما، لأنّ الرجفة نتيجة الصاعقة وقد فُسِّرت الصاعقة بالصيحة فتلتها الرجفة . فلمّا شاهد موسىٰ عليه السلام أبدانهم صرعىٰ على الأرض دعا الله سبحانه أن يحييهم بعد موتهم فقال معتذراً: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [1] أي لو شئت أهلكت هؤلاء السبعين من قبل هذا الموقف، وأهلكتني معهم، فالآن ماذا أقول لبني إسرائيل إذا رجعتُ إليهم؟

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ﴾ معناه النفي وإن كان بصورة الإنكار، والمعنىٰ أنّك لا تهلكنا بما فعل السفهاء منّا، فنسألك رفع محنة الهلاك عنا ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ .

والمراد بما فعله السفهاء هو كلمة الكفر وسوء الأدب والعناد والإهانة بمقام ربهم. فكأنّ الكليم يمهِّد الكلام شيئاً فشيئاً، لإنزال رحمته سبحانه وغلبة رحمته على غضبه، وذلك بالجمل الماضية فتارة يقول:

١. ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ .

٢. ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ .

٣. ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ﴾.

٤. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾.

---

١. الأعراف: ١٥٥.

فأنت الّذي سبقتْ رحمتُك غضَبك وليس من دأبك أن تستعجل المسيئين من عبادك بالعقوبة أو تعاقبهم بما فعل سفهاؤهم، وأنت الّذي أرسلتني إلى قومي ووعدتني أن تنصرني في نجاح دعوتي، وهلاكُ هؤلاء المصعوقين يجلب عليّ التهمة من قومي.

إلىٰ هنا تم بيان طلب القوم رؤية الله تعالىٰ بأُمّ أعينهم وما أصابهم غِبَّ ذلك من الصاعقة والرجفة. والله سبحانه إجابة لطلب موسىٰ، أحياهم كما قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ثم إنّ الكليم ﷺ طلب رؤية الله تعالىٰ لنفسه والسؤال الّذي يُطرح هنا. هل طلب ذلك باختياره ومن عند نفسه، استجابة لدواعٍ ومبرّرات تخصّه، أو أنّه سأل الرؤية من أجل قومه الذين ألحّوا عليه في هذا الطلب حتّى تحلّ رؤيته لله مكان رؤيتهم فيؤمنوا به بعد إخبارهم بالرؤية.

لاشك أنّ الأوّل لا تصح نسبته إليه، لأنّه ﷺ أجلّ من أن يجهل امتناع رؤيته تعالىٰ بالبصر، وأنّه سبحانه محيط بكل شيء ولا يحيط به شيء، كما أنّه ﷺ رأىٰ جزاء من سأل الرؤية فكيف يُبادر هو إلى السؤال؟ فالثاني إذاً هو المتعيّن، وفي نفس الآية قرائن تدل علىٰ أنّ سؤاله كان بإصرار القوم وإلحاحهم، وكفىٰ في القرينة قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ﴾ حيث عدّ السؤال من فعل السفهاء، ومعه كيف يصح له الإقدام بلا ملزم ومبرّر أو بلا ضرورة وإلجاء؟ وبما أنّ الله سبحانه يعلم بأنّه لم يُقدم على السؤال إلّا بإصرار قومه حتّى يبكّتهم ويسكتهم، فإنّه تعالىٰ لم يوجّه إلى الكليم أيّ مؤاخذة، بل خاطبه بقوله: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾.

وهناك كلام للإمام الطاهر علي بن موسى الرضا عليه السلام يعرب عن صحة ما ذكرناه، وأنّ سؤال الكليم لم يكن من جانب نفسه، بل من جانب قومه. قال الإمام عليه السلام: إنّ كليم الله موسى بن عمران عليه السلام علم أن الله، تعالىٰ عن أن يُرى بالأبصار، ولكنّه لما كلّمه الله عزوجل وقرّبه نجياً، رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله عزوجل كلّمه وقرّبه وناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتّى نسمعَ كلامه كما سمعت.. ثم إنّ الرواية بعد ذكر تفاصيل القصة جاء فيها قوله عليه السلام: فقالوا لن نؤمن لك حتّى تسأله، فقال موسىٰ عليه السلام: يا ربّ قد سمعتَ مقالة بني إسرائيل وأنت أعلم بصلاحهم فأوحى الله جل جلاله إليه: يا موسى اسألني ما سألوك فلن أُؤاخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسىٰ عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾.[1]

وأُجيب بقوله تعالىٰ: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾.

علّق سبحانه رؤيته باستقرار الجبل، الّذي علم أنّه لم يستقر، وهذه طريقة معروفة في استبعاد الشيء لأنّهم يعلقونه بما يعلم أنّه لا يكون.

والمراد من التجلّي هو رفع الحجب بين عالم المادة والعوالم العلوية الأُخرى الّتي لها تأثير في العوالم السفلية، فإذا لم يكن للجبل قدرة التحمّل لهذا التجلّي فكيف بالإنسان؟ فبما أنّ إمكان الرؤية كان معلّقاً باستقرار الجبل، وهو بعد لم يستقر فبانتفائه ينتفي الشرط.

ويحتمل أن يراد من التجلّي هو تجلّيه سبحانه بآثاره وأفعاله فإذا كان الجبل

---

١. توحيد الصدوق: ١٢١ ـ ١٢٢.

وبالتالي الإنسان عاجزاً وفاقداً للطاقة في مقابل تجلّيه بفعله وأثره فأولىٰ أن يكون عاجزاً في مقابل تجلّيه بذاته ونفسه.

وبعبارة أُخرى: إنّ لله سبحانه تجلّيات بفعله وأفعاله، فالله سبحانه تجلّىٰ لنا بآثاره الأرضية والسماوية وكان للإنسان استعداد لأن ينظر إليها، ولكن ربما يكون لآثاره وأفعاله قوة قاهرة لا يتحمّلها الموجود المادي كالجبل والإنسان، فإذا ضعف عن المقابلة بتجلّي الذات عن طريق أفعاله فأولىٰ أن لا يكون له استعداد أمام تجلّي الذات مباشرة.

وقد صُعق موسىٰ وسقط مغشيّاً عليه من هول ما رأىٰ من اندكاك الجبل وعلم أنّه لو توجه إليه هذا التجلّي والظهور لمَا أطاقه وتحمّله.[1] ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ أي رجع إليه وعيُه بعد زواله قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ لاأعود إلى ذلك السؤال وأنا أوّل المؤمنين بأنّك منزّه عن أن توصف بالرؤية.

ومن هنا يُعلم أن الميقات الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ هو نفس الميقات الوارد في الآية الأُخرى، أعني قوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ ولم يكن لموسىٰ عليه السلام مع قومه أي ميقات غير هذا.

بقي هنا سؤال وهو أنّه إذا كان في المقام ميقات واحد احتضن حادثتين:

---

١. وللعلّامة السيد الطباطبائي تعليل طريف لصعقة موسىٰ، وهو أنّه عليه السلام رأى آيات هائلة ولم يصعقه منها شيءٌ ولم يدهشه، منها تحوّل العصا إلى ثعبان مبين، وفلق البحر، ورفع الجبل فوق رؤوس بني إسرائيل كأنّه ظُلّة، فالذي أصعقه إذاً إنّما هو ما تمثّل له من معنىٰ ما سأله وعظمة القهر الإلهي الّذي أشرف أن يشاهده ولم يشاهده هو، وإنّما شاهد الجبل فآل أمره إلى ذاك الاندكاك العجيب الّذي لم يستقر معه مكانه ولا طرفة عين. الميزان: ٨ / ٢٤٣.

الأُولى: طلب القوم رؤية الله تعالىٰ وامتناعهم عن الإيمان به إلّا بحصول الرؤية.

الثانية: طلب موسى الرؤية لنفسه، فطبع الحال يقتضي أن يتقدم السؤال الأوّل ويتأخّر الثاني مع أنّنا نرى العكس حيث جاء طلب موسى ضمن الآية ١٤٣ من سورة الأعراف وطلب القوم ضمن الآية ١٥٥، فما هو الوجه في هذا التقديم والتأخير؟

والجواب: أنّه سبحانه شرع بذكر ما يرجع إلى موسىٰ شخصياً من آية ١٠٣ إلى ١٥٦ حيث افتتح القصة بقوله: ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ فَظَلَمُوا**﴾[1].

يقول: ﴿ **وَ اكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً** ﴾[2]، ولأجل ذلك قدّم طلب موسى الرؤية علىٰ طلب القوم، لأنّ الأوّل يرجع إلى نفس موسىٰ والثاني إلى قومه.

وبذلك يعلم أنّ الآية تدل على امتناع الرؤية البصرية في الدنيا والآخرة وأنّ التأبيد بـ«لن» في قوله: ﴿**لَنْ تَرَانِي**﴾ لإفادة هذا المعنىٰ.

وهنا كلام لصاحب الكشاف لا يخلو ذكره من فائدة، قال:

«**فإن قلت:** كيف طلب موسىٰ ﷺ ذلك وهو من أعلم الناس بالله وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز، وبتعاليه عن الرؤية التي هي إدراك ببعض الحواس،

---

١. الأعراف: ١٠٣.

٢. الأعراف: ١٥٦.

وذلك إنّما يصحّ فيما كان في جهة،وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون في جهة.

قلت: ما كان طلب الرؤية إلّا ليبكِّت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضُلّالاً، وتبرّأ من فعلهم، وليلقمهم الحجر؛ وذلك أنّهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم،وأعلمهم الخطأ ونبّههم على الحقّ، فلجّوا وتمادوا في لجاجهم، وقالوا: لابدّ، ولن نؤمن حتى نرى الله جهرة. فأراد أن يسمعوا النصّ من عند الله باستحالة ذلك،وهو قوله: «لن تراني» ليتيقّنوا وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة، فلذلك قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾.

فإن قلت: فهلّا قال: أرهم ينظروا إليك؟

قلت: لأنّ الله سبحانه إنّما كلّم موسىٰ ﷺ وهم يسمعون، فلمّا سمعوا كلام ربّ العزّة أرادوا أن يري موسى ذاته فيبصروه معه، كما أسمعه كلامه فسمعوه معه، إرادة مبنية على قياس فاسد، فلذلك قال موسىٰ:﴿أَرني أَنظر إليك﴾ ولأنّه إذا زجر عمّا طلب وأنكر عليه في نبوته واختصاصه وزلفته عند الله، وقيل له: لن يكون ذلك، كان غيره أولىٰ بالإنكار، ولأنّ الرسول إمام أُمّته فكان ما يخاطب به أو ما يخاطب، راجعاً إليهم، وقوله: ﴿أَنظر إليك﴾ وما فيه من معنى المقابلة التي هي محض التشبيه والتجسيم، دليل على أنّه ترجمة عن مقترحهم،وحكاية لقولهم، وجلّ صاحب الجمل أن يجعل الله منظوراً إليه، مقابلاً بحاسة النظر، فكيف بمن هو أعرق في معرفة الله تعالىٰ من واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظّام وأبي الهذيل والشيخين وجميع المتكلّمين.

فإن قلت: ما معنى «لن»؟

قلت: تأكيد النفي الذي تعطيه «لا» و ذلك أنّ «لا» تنفي المستقبل، تقول: لا أفعل غداً، فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غداً. والمعنى أنّ فعله ينافي حالي، كقوله: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلو اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ ، فقوله: ﴿لاٰ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارَ﴾ نفي للرؤية فيما يستقبل و ﴿لن تراني﴾ تأكيد و بيان، لأنّ المنفي مناف لصفاته.[1]

العودة إلى الوثنية

بينما كان النبي موسىٰ عليه السلام يقضي الليالي الأربعين بعيداً عن قومه، ليتلقّىٰ رسالة السماء، إذ أنبأه سبحانه بأنّ قومه قد ضلّوا، ورجعوا على الأعقاب، واستجابوا لداعي الجهل، فاتخذوا العجل الّذي صنعه السامري من حُليّهم إلهاً لهم، يعبدونه من دون الله!!

وهذا النكوص والارتداد يعبّر عن مدىٰ إخلادهم إلى الأرض وركونهم إلى عالم المادة، ويكشف أيضاً عن عدم تغلغل عقيدة التوحيد في أعماقهم، ومن هنا تاقت نفوسهم إلى الوثنية وتقاليدها، والّتي عاشوا في ظلالها وتأثروا بها في مصر ردحاً من الزمن .

وإليك الآيات الكريمة الّتي تحدّثت عن هذا الموضوع الخطير:

١. ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾[2].

٢. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ

---

١. الكشاف: ١ / ٨٩ـ ٩٠، ط. دار المعرفة ـ بيروت.

٢. البقرة: ٥١.

وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١).

٣. ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾(٢).

٤. ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(٣).

٥. ﴿وَ مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾.

﴿قَالَ هُمْ أُولاَءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُ﴾.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوعِدِي﴾.(٤)

لقد صنع السامريّ من حُلي قومه ﴿عِجْلاً جَسَداً﴾ والعجل هو ولد البقرة، وقوله ﴿جَسَداً﴾ أي مجسداً لا روح فيه ومع ذلك كان ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ أي صوت،

---

١. البقرة: ٩٣.
٢. الأعراف: ١٤٨.
٣. الأعراف: ١٥٠.
٤. طه: ٨٣ـ٨٦.

حيث صنعه بطريقة معينة، تجعل له خواراً كخوار الثيران، ولما رأىٰ ذلك بنو إسرائيل، اغترّوا به وتكالبوا عليه، فهبطوا بذلك إلى الحضيض، وأسفّوا أيّ إسفاف، وظلموا أنفسهم بالشطب على عقولهم، والارتكاس في حمأة الضلالة، ومن هنا أزرىٰ عليهم سبحانه حيث لم يبصروا حقيقة العجل ﴿**أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ**﴾.

موقف موسىٰ عليه‌السلام من رِدّة قومه

قلنا: إنّ الله تعالىٰ أخبر نبيّه موسىٰ عليه‌السلام ـ وهو في الميقات ـ بارتداد قومه وعكوفهم علىٰ عبادة العجل.

وكان سبحانه قد مهّد لإعلامه بقصة العجل بهذا السؤال: ﴿**وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى**﴾.. لقد قَدِمَت وحدكَ، في حين يُفترض أن تأتي بصحبة جماعة من قومك، فما الّذي جعلك تتقدّمُهم؟

﴿**قَالَ**﴾ موسىٰ عليه‌السلام مجيباً ربّه: ﴿**هُمْ أُولاَءِ عَلَى أَثَرِي**﴾... آتونَ علىٰ أثري، وما تقدّمتُهم إلّا قليلاً، ثم بيّن سبب ذلك بقوله: ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾.. وهكذا يستعجل العاشق لقاء حبيبه، شوقاً إليه، وطمعاً في نيل المزيد من رضاه.

وبينما نجد موسىٰ عليه‌السلام يسارع إلى الطاعة والإيمان، نرىٰ قومه يجمحون في الشقاق والعصيان، ويسقطون في أول اختبار وامتحان، بعد غياب موسىٰ عنهم، ﴿**قَالَ**﴾ تعالىٰ مخاطباً نبيّه موسىٰ عليه‌السلام: ﴿**فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُ**﴾.

رجع موسىٰ إلى قومه بعد انقضاء الليالي الأربعين، وهو يمور غَضَباً

ويتقطّع حزناً، كما يقول تعالىٰ: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً﴾.

وكيف لا يكون كذلك، وقد طُعن في صميم رسالته الإلهية ودعوته الربّانية، بانسياق قومه وراء تقاليد وثنية، وتهافتِهم علىٰ عبادة شيءٍ تافه حقير!!

لقد هاله أن يراهم ينحدرون ذلك الانحدار، وقد اشتروا الضلالةَ بالهدىٰ، واختاروا الغيَّ على الرشد، واستبدلوا الشقاء بالسعادة، والظلام بالضياء، وتنكّروا لعقيدة التوحيد الّتي أنقذتهم من الأسر والاضطهاد، ورفعتْ شأنهم، وأسبغت عليهم ضروب النِّعم، والّتي من المؤمَّل أن تصنع منهم أُمّة عزيزة مقتدرة، تسعىٰ إلى الإطاحة بالجبابرة الذين يعيثون الفساد في الأرض المقدسة.

ومن هنا ثار غضب موسى عليه السلام، وواجه الموقف بقوة وحزم، ينطويان علىٰ حزن شديد، فأنّب قومه أوّلاً بهذه الكلمات: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ أي بئس ما عملتم خلفي وبئس الفعل فعلكم حين بدّلتم، ونكصتم عن عقيدتكم بعد ذهابي إلى ميقات ربي ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ الّذي لأجله واعدني لميقاته، وهو نزول التوراة، فطلبتموه قبل بلوغ أجله [1]: وهذا المعنى يومئ إليه قوله عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾، وما فارقتكم إلّا أربعين ليلة، فما هو المبرّر لهذا الانقلاب والتحوّل؟

ثم طرح الألواح جانباً ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ﴾، وهي الّتي ظل أربعين يوماً في الميقات لتقبّلها، الأمر الّذي يعكس مدى الغضب الّذي استبدّ به من أجل الله

١. انظر الميزان: ٨/ ٢٥٠، ونقل فيه تفاسير أُخرىٰ لقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، منها: المعنىٰ أعجلتم عما أمركم به ربكم، وهو انتظار رجوع موسىٰ، حافظين لعهده فبنيتم على أنّ الميقات قد بلغ آخره، ولم يرجع إليكم فغيّرتم هذا.

والعقيدة، ويكشف عن عظم الجريمة الّتي ارتكبها قومه، وكبر المعصية الّتي اقترفوها.

ثم واجه أخاه القائم مقامه في غيبته بالشدة والعنف فأخذ برأسه مهيمناً عليه يجرّه إليه ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾. وهذا تعبير ناطق عن خطورة الموقف وأنّه كيف تسرب الشرك إلى قومه مع كونه بين ظهرانيهم.

وعند ذلك اعتذر هارون وقال: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ أي ان القوم الذين تركتني بين ظهرانيهم اتخذوني ضعيفاً وهمّوا بقتلي وقرُب أن يقتلوني لشدة إنكاري عليهم ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ﴾ أي لا تسرُّهم بفعلك هذا، ولا تجعلني مع القوم الظالمين أي مع عبدة العجل.

الأعذار والنتائج

١. ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِي﴾[1].

٢. ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِي﴾.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾.

---

١. طه: ٨٧.

ثم خاطبهم موسىٰ بقوله : ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الذِي لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.(١)

٣ . ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢).

٤. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٣).

***

لما ندّد موسىٰ بقومه بسبب اتخاذهم العجل إلهاً وأوعدهم بقوله: ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أقرّ عُبّاد العجل علىٰ أنفسهم بالارتداد ونقض العهد، ولكنّهم حاولوا الاعتذار عن ذلك، ف ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي بإرادتنا واختيارنا ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ أي أثقالاً من حُلي آل فرعون ـ كما قيل ـ ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ فطرحنا تلك الحلي ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ ما كان معه من الحلي، ثم صاغ الجميع علىٰ هيئة العجل، والضمير في قالوا يرجع إلى كبار القوم منهم، معتذرين عن العمل الفظيع الّذي أقدموا عليه .

---

١ . طه: ٩٥ ـ ٩٨.　٢ . الأعراف: ١٥٢ ـ ١٥٣.

٣ . البقرة: ٥٤.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ﴾ ﴿فَقَالُوا﴾ وهم السامري ومَن تبعه ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ موسىٰ إلهه هذا، وذهب يبحث عنه في الطور!![1]

وفي قوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ دلالة علىٰ أنّ كيفية صنع العجل كانت خفيّة على الناس في غير مرأىٰ منهم حتّىٰ فاجأهم بإظهاره وإراءته.

حوار موسىٰ عليه السلام مع السامري

موسىٰ: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِي﴾... ما شأنك؟ وما الذي دعاك إلى ما صنعت؟ وأصل الخَطْب: الجليل من الأمر.

السامري: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾.

هذه الآية من الآيات المبهمة، ولم يرد مضمونها في سائر الآيات حتّى يتضح المراد منها ولذلك اختلفت كلمة المفسرين فيها، ولنقدم تبيين مفرداتها.

قد ورد في الآية أفعال أربعة وأسماء ثلاثة، أمّا الأُولىٰ فقوله:

١. بَصُرْتُ ٢. لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ٣. قَبَضْتُ ٤. فَنَبَذْتُهَا.

وأمّا الأسماء فهي ﴿قَبْضَةً﴾، ﴿أَثَرِ﴾، ﴿الرَّسُولِ﴾ فمن المفسرين من حملها على معانيها اللغوية، ومنهم من حملها على المعاني المجازية، وإليك تبيين معانيها الحقيقية:

---

١. وقيل: ضمير نسي يعود إلى السامري، والمعنىٰ أنّه ترك ما كان عليه من الإيمان، فأتىٰ بما أتىٰ وأضلّ القوم.

«بصر» بكلتا صيغتيه في الآية: بمعنى الرؤية بالعين ولكن رؤية دقيقة على نحو يصير الإنسان بصيراً، كما في قوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾[1] أي رأت أُخت موسىٰ أخاها عن بُعد وهم لا يشعرون أنّها أُخته .

«قبضت» : بمعنىٰ أخذ الشيء بغلق الراحة عليه ضد البسط .

و «نبذتها»: بمعنىٰ الإلقاء والطرح. كما في قوله: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[2].

وأمّا الأسماء: فالقبضة: المرّة من القبض وأريد به المقبوض، والأثر : ما يتركه الماشي من صورة قدمه في الرمل أو التراب. والمتبادر من الرسول هو الإنسان المرسل من الله سبحانه لهداية الناس، وقلّ ما يستعمل في الملك المرسل لإنفاذ عمل كما في قوله سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[3].

وأقلّ منه استعماله في من يحمل كلاماً عن شخص إلى شخص كما في قوله في سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ﴾[4].

إلى هنا تمّ بيان مفردات الآية على وفق المعاني الحقيقية، أمّا تفسيرها، فجاء على وجوه ثلاثة:

التفسير الأوّل: ويعتمد على اعتبار الأثر الّذي قبض منه السامري، أثر فرس جبرئيل، وقد رووا في شأن ذلك هذه القصة:

---

١. القصص: ١١. ٢. الصافات: ١٤٥.

٣. الأنعام: ٦١. ٤. يوسف: ٥٠.

إنّ السامري فتنه الله فأراه الله جبرئيل راكباً فرساً فوطئ حافر الفرس مكاناً فإذا هو مخضرّ بالنبات. فعلم السامري أنّ أثر جبرئيل إذا أُلقي في جماد صار حياً. فأخذ قبضة من ذلك التراب وصنع عجلاً وألقى القبضة عليه فصار جسداً، أي حياً، له خوار كخوار العجل، فعبر عن ذلك الإلقاء بالنبذ.

أقول: هذا الّذي ذكروه لا يوجد في كتب الإسرائيليين ولا ورد به أثر من السنة وهي أقوال لبعض السلف ولعلّها تسرّبت للناس من روايات القصاصين.[١]

إنّ هذا التفسير مضافاً إلى أنّه ليس له مصدر صحيح، يخالف ظاهر الآيات السابقة، وذلك:

أوّلاً: يقول سبحانه: ﴿**فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ**﴾ فالمخرج هو جسد وإن شئت قلت: تمثال العجل، لا العجل الحيّ.

وثانياً: إنّ مقتضى القصة أنّه سبحانه سلّط المشرك على أمر خارق للعادة، يعجز عن مثله سائر الناس، ومن المعلوم أنّ هذا النوع من التسليط يوجب إضلال الناس وهو أمر قبيح، تعالىٰ عن ذلك علوّاً كبيراً.

ثم إنّ تفسير الرسول بالمَلَك على خلاف الظاهر كما مرّ، فهذا التفسير لا ينطبق علىٰ ظاهر الآية أوّلاً ولا يوافق حكم العقل ثانياً.

التفسير الثاني: وهذا التفسير مبني على حمل الأفعال والأسماء على غير معانيها الحقيقية سوى لفظ الرسول.

---

١. التحرير والتنوير: ١٦ / ١٧٤.

أمّا الأفعال فقد يفسّر قوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا﴾ بقولهم: علمت مالم يعلموا، قال في الكشاف: والمعنىٰ علمت ما لم تعلموه وفطنت مالم تفطنوا له. وقوله ﴿قَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ بأخذ شيء من شرائع موسىٰ، وقوله: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ بـ: تركتها وخالفتها.

وأمّا الأسماء: فالقبضة بمعنى شيء من التعاليم، والأثر هو الشريعة، فمعنى الآية : ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا به﴾ أي عرفت أن الّذي عليه القوم ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أي شيئاً من دينك فنبذتها أي طرحتها ولم أتمسّك بها، وتعبيره عن موسى بلفظ الغائب على نحو قول من يخاطب الأمير: ما قول الأمير في كذا؟ ويكون إطلاق الرسول منه عليه نوعاً من التهكم حيث كان كافراً مكذباً به علىٰ حدّ قوله تعالى حكاية عن الكفرة: ﴿ يَا أَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمجْنُونٌ﴾(١).

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّه لو كان المراد ما ذكر، فاللازم أن يذكر أخذه بالشريعة قبل علمه بعدم صحّتها، كأنْ يقول: قبضت قبضة من أثر الرسول وشريعة موسىٰ، ولمّا علمتُ ما لم يعلموا وأنّه ليس بحق نبذتُها وتركتها، مع أنّ الموجود في الآية تقدُّم الإبصار والعلم بعدم صحة الشريعة، على قبضها وأخذها.

وثانياً: أنّ التعبير عن موسىٰ عليه‌السلام وهو مخاطب بلفظ الغائب بعيد جدّاً.

وثالثاً: أن الظاهر من خطاب موسىٰ له: ﴿انْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾ أنّه كان عابداً للصنم منذ زمن بعيد وظاهر هذا التفسير أنّه كان موحّداً ثم صار وثنياً بإبصاره بما لم يبصروا في غياب موسىٰ .

---

١. الحجر: ٦.

التفسير الثالث: ما احتمله السيد الطباطبائي قال: ويمكن أن يُتصوّر للآية معنىً آخر بناء على ما ذكره بعضهم أن أوزار الزينة الّتي حملوها كانت حلي ذهب من القبط، أمرَهم موسىٰ أن يحملوها وكانت لموسىٰ أو منسوبة إليه، وهو المراد بأثر الرسول، فالسامري يصف ما صنعه بأنّه كان ذا بصيرة في أمر الصياغة والتقليب، يحسن من صنعة التماثيل ما لا علم للقوم به فسوّلت له نفسه أن يعمل لهم تمثال عجل من ذهب فأخذ وقبض قبضة من أثر الرسول وهو الحُليّ من الذهب فنبذها وطرحها في النار وأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار، وكان خواره لدخول الهواء في فراغ جوفه وخروجه من فيه على ضغطة صناعية.

ثم أورد السيد الطباطبائي نفسه بعض الملاحظات على هذا التفسير قائلاً: ويبقى الكلام على التعبير عن موسىٰ وهو يخاطبه بالرسول، وعلى تسمية حُليّ القوم أثر الرسول، وعلىٰ تسمية عمل العجل، تسويلاً نفسانياً.(١)

إنّ الآيات الواردة في القرآن الكريم أمّا بيِّنة المراد واضحة المقصود، لا يحتاج المفسر في تفسيرها إلى غير الإمعان في مفرداتها وجُمَلها، وأمّا مُجْمَلة المراد، مردّدة المعنىٰ، لكن يمكن رفع إبهامها بآية أُخرى وردت في نفس الصدد، وفي كلا الموردين يتجسد قوله سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾(٢).

ومع ذلك كلّه فقد ورد في القرآن الكريم آيتان كانتا واضحة المقصود في زمن النزول، ثم طرأ عليهما الإجمال بالابتعاد عن زمان الوحي وذلك لزوال القرائن الحالية الموجودة في وقت النزول، إحداهما هذه الآية، والأُخرى قوله

---

١. الميزان: ١٤ / ١٩٧.
٢. المائدة: ١٥.

سبحانه: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[١].

فعلى المحققين إمعان النظر في هاتين الآيتين، عسىٰ أن يقفوا علىٰ مغزى المراد منهما.

معاقبة السامري

لقد جوزي هذا الضالّ المُضلّ بعقوبتين: الطرد والإبعاد، والعيش في عزلة عن أبناء المجتمع، فلا يخالطهم ولا يخالطونه، ولا يمسّ أحداً منهم، ولا يمسّه أحد منهم في أي شأن من شؤون الحياة. هذا هو الجزاء في الدنيا الّذي ورد علىٰ لسان موسىٰ عليه السلام ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾.[٢]

وقيل: إنّه ابتُلي بوسواس، فكان يتوحّش ويفرّ من كل من يلقاه وينادي (لا مساس). قال السيد الطباطبائي: وهو وجه حسن لو صحّ الخبر.

أمّا جزاء الآخرة، فقد ذكره بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ﴾.

قال في الكشاف: أي لن يخلفكَ الله موعدَه الّذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض، ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا، فأنت ممّن خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

---

١. النمل: ٨٢.

٢. المساس: مصدر ماسّه بمعنىٰ مسّه، و (لا) نافية للجنس، فيكون النفي بمعنى النهي: لا مساس يعني لا تمسّوا، كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: لا ضرر، أي لا تضرّوا، كما هو أحد الاحتمالات في تفسير الحديث.

ثم إنّ موسىٰ عليه السلام خاطب السامري بقوله: ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾[١]، فقام بحرق العجل ونسفه في البحر، لأجل قلع مادّة الفساد وتحقير المعبود الّذي اغترّ به السُّذَّج من قومه، وإطلاعهم علىٰ حقيقته، وهي أنّه لا يملك دفع الضرّ عن نفسه، فضلاً عن غيره.

ثم خاطب عليه السلام قومه بقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[٢].

فالآية تصف إله العالمين بوصفين: الوحدانية وسعة العلم، أمّا الأُولىٰ فلأجل التنديد بالوثنية والشرك الّذي هو موضع الآية، وأمّا الثانية أي سعة العلم، فلغاية أن يقف كل إنسان علىٰ أنّ لأعماله حساباً خاصّاً، وأنّه سبحانه لا يعزب عنه شيء.

إلى هنا تم الكلام في موضعين: أحدهما حوار موسىٰ مع قومه وأخيه، والثاني حواره مع السامري، وبقي الكلام في أمر ثالث، وهو معاقبة المرتدين علىٰ أدبارهم، وهذا ما نذكره تالياً:

عقوبة المرتدّين

إنّ العمل الّذي صدر عن بني إسرائيل كان جريمة شنعاء، لم يكن بالإمكان الاستهانة بها أو السكوت عنها، حتّى ولو ندم القوم، وأنابوا إلى ربهم، ورجعوا

١. (ظَلْتَ): أصله ظَلَلْتَ، بمعنىٰ أقمتَ، حُذفت منه اللام الأُولى للتخفيف. و (لَنُحَرِّقَنَّهُ): لنذيبنّه في النار حتّى يفسد شكله ويصير قطعاً. و (لننسفنّه في اليمّ): لنذرينّه ونفرّقنّه في البحر.

٢. طه: ٩٨.

إلى التوحيد، لأنّ ترك العاصي وغضّ الطرف عنه ـ وإن تاب ـ دون أن يندّد به أو يؤخذ بعصيانه يوجب تسرّب العصيان إلى المجتمع وشيوع المنكرات فيه. وعلى هذا الأساس، عوقب المرتدّون من بني إسرائيل، حسبما ورد في هاتين الآيتين:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾. نعم، سيلحقهم عذاب الله وتحلّ بهم نقمته، وسيُلبسهم ثوب الذلّ والخزي في الدنيا.

وهكذا يُجزى المفترون على الله، الكاذبون عليه، كل الكاذبين، لا فرق بين بني إسرائيل وغيرهم.

٢. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

لقد أمرهم الله سبحانه أن يقتل بعضهم بعضاً ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[2] بمعنى أن يتولّى الشخص الّذي لم يضلّ بعبادة العجل، قَتْل الّذي ضلّ به. وهكذا ـ كما يقول الطبرسي والرازي ـ جعل الله سبحانه توبتهم بنفس القتل، بحيث لا تحصل التوبة إلّا بالقتل.

---

١. البقرة: ٥٤.

٢. هذا التعبير يشبه قوله تعالى في سورة النور: ٦١ ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، أي ليسلّم بعضكم على بعض.

وهذا الحكم لا يبدو قاسياً أو غريباً لمن وعىٰ أخطار هذا الارتكاس وتداعياته على الفرد والمجتمع في الأبعاد الفكرية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها. فيالها من كارثة قاصمة أن يعود الإنسان إلى الجاهلية، وإلى أسر المادة والأوهام والخزعبلات، وأن يتنكّر لنعم الله تعالى وآلائه، ويُزري بعقله، ويهدر كرامته بنفسه، ويتخلّىٰ عن مكانته العظمىٰ الّتي شرّفه الله بها، باعتباره خليفته في أرضه.

وذكر بعض المفسرين استناداً إلى أخبار وردت في هذا الشأن، أنّ بني إسرائيل استسلموا لهذا الأمر، وبدأوا بتنفيذه، ثم رُفع عنهم، وتاب الله عليهم (بعد أن قُتل عدد من المرتدّين)، وذلك لاستسلامهم للقتل، الّذي هو آية على ندمهم، فجعل سبحانه قتل بعضهم قتلاً للجميع.

وقد عُدّ هذا الأمر أمراً امتحانياً نظير ما وقع في قصة رؤيا إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، إذ وافاه قوله سبحانه: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾[1] بعد أن امتثلا الأمر الإلهي، واستسلما لطاعته تعالىٰ. ولما دلت القرائن على استسلام بني إسرائيل للقتل، عمّهم العفو.

ويظهر من التوراة أنّه سبحانه كتب عليهم القتل غير أنّ موسىٰ تشفّع فيهم إليه.

وقال الرب لموسى: قد رأيت هذا الشعب، فإذا هو شعب قاسي الرقاب، والآن دعْني ليضطرم غضبي عليهم فأفنيهم، وأما أنت فأجعلك أمة عظيمة...

---

١. الصافات: ٥.

فاسترضى موسى الرب إلهه، وقال: يا رب لِمَ يضطرم غضبك على شعبك الّذي أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد قديرة ولِمَ يتكلم المصريون قائلين: إنّه أخرجهم من هاهنا بمكر ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض. ارجع عن اضطرام غضبك واعدل عن الاساءة إلى شعبك فعدل الرب عن الإساءة الّتي قال إنّه ينزلها بشعبه» .[1]

حديث خُرافة

لم يكتف القرآن الكريم بتنزيه هارون عليه السلام عن الدعوة إلى الوثنية، بل يتضح منه أنّه نصح لبني إسرائيل بالتزام الطاعة، وحذّرهم من الانجرار وراء فتنة السامري، وعانىٰ كثيراً من أجل صدّهم عن عبادة العجل، حتّى خاف على نفسه من القتل، كما مر في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾[2].

هذا ما يعرضه لنا القرآن الكريم من موقف هارون عليه السلام إزاء الفتنة. أمّا التوراة، فحديثها عنه حديث خرافة، إذ نسبت إليه الدعوة إلى الوثنية ، وهذا من أعجب الأُمور، إذ كيف يقوم نبي كهارون، الّذي آزر أخاه في طريق الدعوة إلى التوحيد، وحمل معه هموم الرسالة، كيف يقوم بالدعوة إلى الوثنية في غياب أخيه الّذي لم يدم غيابه إلّا أربعين ليلة؟! هذا ما تتحدّث عنه التوراة، كما في سفر الخروج، الإصحاح: ٣٢: ورأى الشعب أن موسى قد تأخّر في النزول من الجبل فاجتمع

---

١. العهد العتيق، سفر الخروج، اصحاح ٣٢.

٢. الأعراف: ١٥٠.

الشعب على هارون وقالوا له: «قم فاصنع لنا آلهة تسير امامنا، فإن موسى، ذلك الرجل الّذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقال لهم هارون: أنزعوا حلقات الذهب الّتي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها فنزع كل الشعب حلقات الذهب الّتي في آذانهم وأتوا بها هارون فأخذها وصبها في قالب وصنعها عجلاً مسبوكاً فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل الّتي أصعدتك من أرض مصر فلمّا رأى هارون ذلك، بنىٰ مذبحاً أمام العجل، ونادىٰ قائلاً: غداً عيد للرب فبكّروا في الغد وأصعدوا محرقات وقربوا ذبائح سلامية، وجلس الشعب يأكل ويشرب ثم قام يلعب.

فقال الرب لموسى: هلمّ انزل فقد فسد شعبك الّذي أصعدته من أرض مصر.

هذا ونظائره يدل بوضوح علىٰ أنّ يد الدسّ والتحريف قد امتدّت إلى التوراة، وتلاعبت بها كثيراً، وقد بلغت بهم الصلافة درجة نسبوا معها الدعوة إلى الشرك وعبادة العجل إلى الأنبياء المعصومين، الذين لم يُبعثوا إلّا لمقارعة الشرك والظلم، وهداية الناس، ودعوتهم إلى التوحيد.

٨

الحيرة في صحراء سيناء

كان الكليم عليه السلام يواجه في مسير هداية قومه مشاكل وعوائق عديدة، أخيرها ارتداد جمّ غفير منهم إلى الوثنية، وقد عالجها علىٰ ما عرفت في الفصل المتقدم.

وكان سبحانه قد وعد الله إبراهيم الخليل وأولاده أن يكونوا أئمة [1]، لهم السلطة والقوة والمنَعة. وتحقيق ذلك في زمن الكليم رهن السير إلى الأرض المقدّسة (فلسطين)، حتّى يرفع عروش الملك ويثبّت قوائمها.

غير أنّ أُمّة الكليم الذين جاءوا معه من مصر قد أَلِفوا الذلّ والهوانَ والمسكنةَ، فلما أمرهم عليه السلام بالزحف إلى الأرض المقدسة والإقامة فيها، جبنوا وتخاذلوا، وردّوا عليه بهذا الجواب، الّذي يندىٰ منه الجبين: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾[2] وكأنّهم خلقوا للأكل والشرب.

وهذا الفصل يتضمن بيان هذا المقطع من حياة بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

---

١. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. البقرة: ١٢٤.

٢. المائدة: ٢٤.

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.(١)

لما كان التقدّم إلى النِّزال، يستدعي شحذ النفوس وتقوية العزائم لاسيما بالنسبة إلى قوم كبني إسرائيل، الذين عُرفوا بتململهم وتقلّب أطوارهم، لذا عمد موسىٰ عليه السلام إلى تذكيرهم بالنِّعم الّتي أسبغها الله تعالىٰ عليهم، لعله يعزّز بذلك ثقتهم بأنفسهم، ولعلّهم يؤدّون حقّ بعض هذه النِّعَم، الّتي لخّصها في ثلاث جمَل قصيرة:

الأولىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ ففي تاريخهم وبين ظهرانيهم العديد من

١. المائدة: ٢٠ ـ ٢٦.

الأنبياء. وهذه أجلّ النعم الّتي يمنّ بها تعالىٰ على عباده، فهم صلوات الله عليهم مقابس أنوار الهداية، ومناهل العلم والمعارف، وسحائب الفضل والإحسان.

الثانية: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾ حيث إنّ من شؤون الإمامة المتجسدة في إبراهيم عليه السلام ومَن بعده من الأنبياء، هو السيادة على الآخرين، وقد وصف الكل ملوكاً باعتبار طائفة منهم. وقيل: المراد بجعلهم ملوكاً، هو انّه تعالى جعلهم مستقلين، مالكين لأنفسهم، بعد أن كانوا أُسراء بأيدي آل فرعون.

الثالثة: ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ حيث آتاهم الشريعة الصحيحة الواسعة الهدى، واستنقذهم من الذلّ والعبودية، وظَلَّل عليهم الغمام، ورزقهم المنّ والسلوىٰ إلى غير ذلك من النعم الّتي خُصّ بنو إسرائيل بها.

هذه النعم تقتضي أداء الشكر لمُنعِمها وإطاعة أمره، ولذلك أمرهم موسىٰ عليه السلام بدخول الأرض المقدسة وقال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا﴾ بالسعي في أسبابه ﴿الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ والكتابة كناية عن كون التهيّؤ للدخول ورفع الموانع أمراً مفروضاً عليهم ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ أي لا ترجعوا عن الأرض الّتي أُمرتم بدخولها، لأنّ ارتداد الجيش على الأعقاب من أكبر أسباب الانخذال، ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي خاسرين في الدنيا والآخرة.

فماذا كان جواب القوم علىٰ هذا التذكير وهذه الوصية؟ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾ أي أن في الأرض المقدسة جماعة شديدي البأس والبطش ﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا﴾ مقاتلين حتّى يخرجوا منها ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

والآية تكشف عن المستوى الّذي بلغه القوم في تحمل الذل والهوان، بحيث يمتنعون عن تحمّل أية مسؤولية في مستقبل أمرهم حتّى تتبدّل حياتهم من العيش في الصحراء إلى الحياة في الأماكن العامرة والمقدسة، وكأنّهم ينتظرون مَن يُقاتل نيابة عنهم، فيحرّر لهم الأرض المقدّسة، ويعطيهم مفاتيحها، ليدخلوها دون جهاد وآلام ودماء وجراح .

قال المفسرون: لما عبر موسى وبنو إسرائيل البحر، وهلك فرعون، أمرهم الله سبحانه بدخول الأرض المقدسة فلمّا نزلوا على نهر الأردن خافوا من الدخول، فبعث موسى من كل سبط رجلاً، وهم الذين ذكرهم الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ فعاينوا من عظم شأنهم وقوتهم شيئاً عجيباً، فرجعوا إلى بني إسرائيل فأخبروا موسىٰ عليه السلام بذلك فأمرهم أن يكتموا ذلك. ولما فشا الخبر في الناس أظهر بنو إسرائيل العجز، فقالوا إنْ دخلنا عليهم تكون نساؤنا وأهالينا غنيمة لهم.

إزاء هذا التقاعس عن الواجب، والرضابالقعود، انبرىٰ شخصان صالحان، يبثّان العزيمة في نفوس القوم، ويحرّضانهم على الجهاد ﴿قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله تعالىٰ ﴿أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالطاعة والتوفيق لما يرضيه ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ واغزوهم في عُقر دارهم ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾.

لم تُجدِ هذه الكلمات نفعاً، فقد ضُربت على القوم الذلّة والمسكنة، ولذا كرّروا الجواب بنحو أفظع، و ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ .

لمّا سمع النبي موسىٰ عليه السلام هذا القول المُنكر الدالّ على الجبن وسوء الأدب والوقاحة، توجّه إلى ربّه شاكياً، معتذراً عن صدود قومه عن أمره، و ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾، فنحن مستعدّان للطاعة والبذل والتضحية، ولا أملك أمر غيرنا. ثم طلب من الله سبحانه أن لا يؤاخذهما بجرم القوم، فقال: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾. أي لا تؤاخذنا بأفعالهم، لأنّ المقام كان مظنة نزول العذاب، فطلب النجاة لو عمّهما العذاب. وأمّا كيفية مؤاخذة هؤلاء القوم الكافرين للنعمة فهو ما تُبيّنه الآية التالية:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

لقد عوقبوا بسبب عصيانهم وتخاذلهم بالحرمان من دخول الأرض المقدسة وتملّكها مدة أربعين سنة، يقيمون خلالها في صحراء سيناء متحيّرين، (لا يهتدون إلى طريق الخروج، ولا يدرون أين المصير)[١].

وثمة تبرير لطيف لإبقائهم أربعين سنة في الصحراء، يذكره النجار في قصصه، قال رحمه الله:

والعلماء يقررون: انّ حضانة العِلْم خمس عشرة سنة؛ فإذا ابتدأت أُمّة تتعلم فانّها تجني ثمرة العلم بعد خمس عشرة سنة. وأمّا حضانة الأخلاق فمدتها أربعون سنة فإذا أخذت الأُمّة تستمسك بالأخلاق فإنّها لا تجني الثمرة إلّا بعد أربعين سنة. لذلك أراد الله تعالى أن يبقي بني إسرائيل في البريّة أربعين سنة، حتّى يفنىٰ الجيل الّذي نشأ في الذل والاستعباد وينشأ جيل أَلِف الحرية ولم تذله

١. التفسير الكاشف: ٣ / ٤٤.

العبودية. وهكذا حال بني إسرائيل، فإنّ الجيل الّذي ولد في الذل وكبر حتّى مرن عليه هلك في البرية، وجاء الجيل الّذي كان صغيراً أيّام عبوديتهم في مصر والّذي نشأ أو ولد في البرية في الحرية والعزة، فلم يبال بأُولئك الناس ودخل عليهم بلادهم مع يوشع بن نون فتىٰ موسىٰ، فملَكها.[1]

لجاج بني إسرائيل وعنادهم

عرَض القرآن الكريم صوراً من لجاج بني إسرائيل وعنادهم، كشفت عن أنّهم أُمّة صعبة متمرّدة على الحق، ناكثة للعهد، لا تتأثر بالمواعظ والنصائح بسهولة، ولا تُطيع إلّا بالقهر والقوة. وإليك نماذج من عنادهم ولجاجهم.

١. رفع الطور فوقهم للإخافة

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2].

خاطب الله سبحانه في هذه الآية بني إسرائيل بالأُمور التالية:

﴿و﴾ اذكروا **﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾** أي عهدكم بالتزام العمل بما كُلِّفتم به، ونصوص هذا الميثاق قد وردت في آيات أُخرىٰ، كما في قوله تعالىٰ **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي**

---

١. قصص الأنبياء: ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

٢. البقرة: ٦٣ ـ ٦٤.

﴿الْقُرْبى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[١].

٢. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾[٢] وذلك بزعزعته ورفعه فوقهم كالظُّلَّة ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾[٣]. قال الشيخ المراغي: وكانت هذه الآية ـ يعني آية رفع الجبل فوقهم ـ بعد أخذ الميثاق لكي يأخذوا ما أُوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد، لأنّ رؤية ذلك ممّا يقوّي الإيمان، ويحرّك الشعور والوجدان.[٤]

٣. ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ يعني التوراة بجدّ وعزيمة، ويقين لاشك فيه.

٤. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي احفظوا ما في التوراة من الحلال والحرام ولا تنسوه.

ومع أنّ سبحانه أخذ منهم المواثيق، لكنّهم نبذوا العهد الّذي أخذه الله منهم وأعرضوا عنه كما قال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي بعد إعطاء المواثيق ﴿فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ وتفضله بالتوبة بعد نكثكم الميثاق الّذي واثقتموه ﴿لَكُنْتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾.

---

١. البقرة: ٨٣.

٢. الطور: لغةً هو الجبل. وقيل: إنّه اسم جبل بعينه، ناجى الله سبحانه عليه موسىٰ عليه السلام.

٣. الأعراف: ١٧١.

٤. تفسير المراغي: ١ / ١٣٦.

٢. التحايل في معصية الله

﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[١].

***

التشريع السماوي تابع لملاكات ومصالح ومفاسد مكنونة في الفعل المأمور به أو المنهي عنه، فما دام جوهر الفعل وواقعه موجوداً فالحكم يتبعه ولا يرتفع الحكم بتغيير شكل الفعل وصورته، ولذا ذهب فقهاء الشيعة وجمع من فقهاء السنّة إلى ممنوعية فتح الذرائع، الّذي ربما يغير فيها الشكل دون المادة والجوهر.

يقول ابن قيّم الجوزية: إنّ هؤلاء المحتالين الذين يُفتون بالحيل الّتي هي كفر أو حرام، ليسوا مقتدين بمذهب أحد من الأئمة، وانّ الأئمةّ أعلم بالله ورسوله ودينه وأتقىٰ له من أن يفتوا بهذه الحيل، فقد قال أبو داود في سننه: سمعتُ أحمد وذكر أصحاب الحيل يحتالون لنقض سنن رسول الله، وقال في رواية ابن الحارث الصانع: هذه هي الحيل الّتي وضعوها، عَمِدوا إلى السنن واحتالوا لنقضها.[٢]

---

١. الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٦.　　٢. اعلام الموقعين: ٣ / ١٩١.

وقد استقصينا الكلام في موضوع فتح الذرائع الّذي يعتبر من مصادر التشريع عند الفقهاء، في كتابنا **«مصادر الفقه الإسلامي»**[١].

ويُعلم من الآيات المتقدمة أنّ بني إسرائيل هم الذين فتحوا هذا الباب حيث أمر الله سبحانه طائفة منهم يجاورون البحر ويسكنون شاطئه [٢] أن يجتنبوا الصيد يوم السبت وكان السمك ظاهراً على وجه الماء آنذاك دون الأيام الأُخرىٰ، فعمدوا إلى فتح الذرائع بإلقاء الشِّباك في الماء يوم السبت حتّى يقع فيها السمك ثم لا يخرجون الشبكة من الماء إلىٰ يوم الأحد. وربما قيل اتخذوا الحياض فكانوا يسوقون الحيتان إليها ولا يمكنها الخروج منها فيأخذونها يوم الأحد، وكأنّهم يحاولون بذلك أن يجمعوا بين الوصول إلىٰ رغباتهم وهي صيد السمك الكثير، وامتثال نهيه سبحانه عن الاصطياد يوم السبت، غافلين عن أن الحكم لا يدور على الصُّوَر والأسماء بل على الواقع والمسمّيات، إذ كان الهدف اختبارهم في ترك الصيد يوم كان فيه متوفراً وهو لا يتم إلّا بالابتعاد عن البحر بتاتاً لا بإلقاء الشبك ولا بإيجاد الحياض على شاطئه والإخراج يوم الأحد، ولكنّهم دخلوا من باب الحيلة، فعذبهم الله سبحانه بمسخهم قردة .

وهذه القصة [٣] ـ كما نقل الطبرسي ـ كانت في زمن داود ﷺ، ولكنها تكشف عما جُبل عليه بنو إسرائيل من التلاعب بأحكام الله سبحانه، ومعاندة الحق، والمسارعة إلى الإثم والعدوان، ومن هنا صحّ إدراجها في عداد لجاجات

---

١. مصادر الفقه الإسلامي ومنابعه: ٢٨٠ (ط. دار الأضواء).

٢. قيل: إنّهم أهل (أيلة). وقيل: أهل طبرية.

٣. يأتي شرحها مفصّلاً في القسم الثاني المُخصَّص لقصص غير الأنبياء، وتحت عنوان (أصحاب السبت).

بني إسرائيل، وكذلك هو الشأن في سائر قصصهم، وإن لم يكن بعضها قد حدث في زمن الكليم عليه السلام.

***

٣. التبديل والتغيير عناداً ومكابرة

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[١].

هاتان الآيتان تحكيان بإيجاز قصة تتعلق ببني إسرائيل وهي أنّ الله تعالىٰ أمرهم أن يدخلوا القرية خاضعين لله مخبتين متذلّلين، وأن يقولوا عند دخولهم ما يستوجبون به الغفران وحطّ الذنوب .

ولكنّهم بدّلوا القول الّذي أُمروا أن يقولوه، وأخذوا يقولون ما يخالفه، فحلّ بهم عذاب الله.

هذا مفاد الآيتين، والسؤال: هل أنّ هذه القصة هي نفس القصة الّتي وردت في سورة المائدة [٢]، والفرق بينهما بالإجمال هنا والتفصيل هناك كما عليه ابن عاشور في تفسيره [٣] إذ جعل جميع الآيات منصبّة على قضية واحدة؟

أو أنّها قصة أُخرى وقعت بعد رحيل موسىٰ عليه السلام عند دخولهم الأرض المقدسة بقيادة «يوشع بن نون» ؟

---

١. البقرة: ٥٨ ـ ٥٩. ٢. الآيات ٢١ ـ ٢٦. ٣. التحرير والتنوير: ١ / ٤٩٦.

ونحن نميل إلى أنها قصة أُخرى غير تلك القصة الّتي وردت في سورة المائدة، ويؤيد ذلك خلوّ الأخيرة من هذين الأمرين:

١. تبديل القول الّذي أُمروا به بشيء آخر.

٢. نزول العذاب من السماء عليهم لأجل ذلك التبديل.

وها نحن نشرع في بيان القصة على ضوء الرأي الثاني، فنقول:

أُمر بنو إسرئيل بدخول القرية، والمراد بها ـ كما ورد في الأخبار ـ بيت المقدس [1]: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ وفي الإشارة إلى القرية «بهذه» دلالة على قربها من مكانهم. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي أين شئتم «رغداً» موسَّعاً عليكم مستمتعين بما شئتم من طعام القرية بعد المنّ والسلوى ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾، وهو أحد أبواب بيت المقدس (يُدعىٰ باب حطّة) مع الالتزام في حال الدخول بشيئين:

أ. **سُجَّداً**.

ب. **القُولُ حِطَّةٌ** .

أمّا الأوّل فالمراد به الخضوع والخشوع لله سبحانه، شكراً لنعمة دخول الأرض المقدسة بعد مُضي أربعين سنة على تيههم في الصحراء . وأمّا الثاني ـ أعني: القول «حطة» ـ فلأجل طلب حط الذنوب والاستغفار منه فمعنىٰ الجملة ادخلوا من الباب المعيَّن خاضعين متواضعين طالبين من الله غفران الذنوب وحطَّها، لكي يغفر الله ذنوبكم ويزيد نعمه عليكم، ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

---

١. وقيل: أريحاء، ورجّح ابن عاشور ـ الّذي يذهب إلى وحدة القصتين ـ أنها حبرون.

هذا ما أمرهم الله سبحانه به ؛ بَيْد أنهم كعادتهم في التمرد والمكابرة والعناد، أعرضوا عن هذا القول الّذي يستمطر الغفران والرحمة، وبدّلوه بقول منكر، استوجب سخط الله ونقمته عليهم. ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾ أي عذاباً ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ .

هذا كله يرجع إلى القول بتعدد القصة، وأمّا لو قلنا بأنّها نفس القصة الأُولى الّتي حدثت في حياة موسى فيكون المراد بقوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أمراً آخر، فُهِم من بعض الأخبار المتعلّقة بالقصة المذكورة، ومفادها أن موسىٰ عليه السلام أرسل اثني عشر رجلاً إلى الأرض المقدسة، للاستطلاع ومعرفة خبر أهلها، فلمّا رجعوا أشاعوا ـ باستثناء اثنين منهم ـ في بني إسرائيل مذمة الأرض وصعوبة الحياة فيها، ووصفوا قوة أهلها وجبروتهم، فخاف القوم وجبنوا عن الدخول، فحرمهم الله تعالى منها أربعين سنة، وأنزل عذابه على العشرة المثبّطين، لأنّهم بدّلوا القول الّذي أمر موسىٰ عليه السلام بإعلانه في القوم، وهوالترغيب في دخول القرية، وتهوين أمر العدو.

٤. إبطاؤهم في ذبح البقرة

١. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

٢. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

٣. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ

فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَشِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾.

٤. **﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.**

٥. **﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾**[1].

***

هذه الآيات تحدّثنا عن قصة، ذكرها المفسّرون، خلاصتها: أنّ بني إسرائيل قتلوا رجلاً منهم، وتدافعوا فيه، كلٌّ يبرّئ نفسه، ويُلصق التهمة بسواه، ولم تكن هناك بيّنة تكشف عن القاتل، فأوحى الله تعالى إلى نبيّه موسىٰ ﷺ أن يذبحوا بقرة، ويضربوا القتيل بجزء من جسدها، فتعود إليه الحياة بإذن الله، ويُخبر عن قاتله .

وما أن قال لهم موسىٰ: **﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾** ـ وهم بعد لم يعرفوا غايته، ولم تتضح لهم علاقته بتشخيص القاتل ـ حتّى تحرّكت طبيعتهم الملتوية المشككة المتمردة المعاندة، متجلّية في موقفهم منه **﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾** وفي أسئلتهم الكثيرة المتشددة، كما يأتي لاحقاً.

بهذه العبارة الطافحة بسوء الأدب **﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾** جابهوا نبيّهم، الّذي

---

١. البقرة: ٦٧ ـ ٧٣.

رأوا صدقه وجِدّه في أمر الوحي والرسالة، وحرصه عليهم ومداراته لهم ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فأفعل ما لا ينبغي أن أفعله، وأن استعمل السخرية في مقام تبليغ أوامر الله تعالىٰ.

ثم توالت أسئلتهم عليه:

١. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ الصفات المميزة لها ؟

فأُجيبوا: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ لا مُسِنَّة ولا فتيّة ﴿عَوَانٌ﴾ أي في منتصف السنّ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي بين ما ذُكر من السّنين .

٢. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ أي فهمنا أنها عوان بين الفارض والبكر ولكن ما هو لونها؟ فأجيبوا بـ ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ أي شديد الصفرة [1] ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾.. تعجب الناظرين وتغرّ بحسنها. ولعل هذا اللون من أحسن ألوان البقر .

٣. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ .

لم يقتنع هؤلاء اللاجّون المماطلون بما بيّنه لهم من صفاتها، بل أوغلوا في الاستفسار عنها، وأعادوا السؤال مرة أُخرىٰ بحجة أنّ البقر بهذا اللون وهذه السنّ كثير.

فأُجيبوا: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ أي لم يذلّلها العمل بإثارة الأرض بأظلافها ﴿وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي لا يستقىٰ عليها الماء

---

١. يقال عند تأكيد شدة الألوان: أصفر فاقع، وأحمر قانٍ، وأسود حالِك، وأخضر ناضر، وأبيض يَقِق.

فتسقي الزرع ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ بريئة من العيوب. ويحتمل ان يراد مسلمة من «الشيه» وهو وجود اللون المخالف في نقطة من نقاط بدنها كما يقول: ﴿لاَشِيَةَ فِيهَا﴾ أي ليس بها لون يخالف لونها.[١]

فلما تمت أسئلتهم، وانقطعت معاذيرهم: ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

وأرادوا بالحق، الأمر الّذي لا تردد واحتمال فيه لا ما يقابل الباطل، وكأنّهم قالوا: جئت بالبيان الكامل ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ فيه اختصار، والتقدير: فظفروا بالبقرة المنعوتة فذبحوها ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي أنّهم ذبحوها بعد جهد شديد، إذ لم يكونوا مستعدين لذلك أول الأمر، فلما تمت عليهم الحجة ولم يروا محيصاً ولا مفراً قاموا بالذبح.

روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنّهم أُمروا بأدنىٰ بقرة، ولكنّهم لمّا شدّدوا علىٰ أنفسهم شدّد الله عليهم.[٢]

وروي عن الإمام علي الرضا عليه السلام أنّ رسول الله موسى بن عمران عليه السلام قال لبعض أصحابه: إنّ هذه البقرة لها نبأ، فقال: وما هو؟ قال: إنّ فتىً من بني إسرائيل كان بارّاً بأبيه وإنّه اشترى تبيعاً[٣]، فجاء إلى أبيه، ورأىٰ أنّ الأقاليد[٤] تحت رأسه،

١. والشية: العلامة وهي: من وشي الثوب إذا نسجه ألواناً، فإذا كان الحيوان ذو لونين، فيقال في الفرس: إنّه أبلق، وفي الغنم: كبش أدرع، وفي الغراب: أبقع، أي مختلط اللونين.

٢. مجمع البيان: ١ / ١٣٥.

٣. التبيع: ولد البقرة في أوّل السنة.

٤. الأقاليد: جمع إقليد، وهو المفتاح. وفي بعض النسخ: المقاليد، وهو بمعناها.

فكره أن يوقظه فترك ذلك، فاستيقظ أبوه، فأخبره فقال له: أحسنت، خذ هذه البقرة، فهي لك عوضاً لما فاتك. فقال له رسول الله موسىٰ بن عمران عليه السلام: انظروا إلى البِرّ ما بلغ بأهله .[1]

***

فلمّا تم ذبح البقرة حان الوقت لئن يقوم موسىٰ عليه السلام بإجابة ما سألوه وهو تعيين القاتل بشخصه، وهذا ما تذكره الآية التالية: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

***

اسند فيه القتل إلى بني إسرائيل وإن كان القاتل واحداً باعتبارهم أُمّة واحدة في مواقفها وميولها وطبيعتها الجاحدة المتمردة، بل أن القرآن يسند ما ارتكبه بنو إسرائيل في الأعصار السابقة إلى اليهود الذين عاصروا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّهم اقتفوا آثارهم، ونسجوا علىٰ منوالهم. وهذا الأسلوب مُتّبع في أكثر الآيات الواردة في سورة البقرة نظير: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا... ﴾[2].

﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾: والتدارُؤ تفاعل من الدرء وهو الدفع حيث يدافع كل

١. عيون أخبار الرضا: ٢ / ١٤، الحديث ٣١.

٢. البقرة: ٩٣.

فريق عن نفسه ويدّعي البراءة ويتهم غيره وعلى ذلك ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: أي ما يكتمون من الحقائق.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ فهو بيان لإخراج ما يكتمون، وقد حُذف ما هو معلوم بالقرينة وهو: فذبحوها فقلنا...، فضربوا القتيل ببعض البقرة فعادت الروح إليه وصار حياً وتكلّم، ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ يوم القيامة. ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾: وأي آية أكبر من إحياء الموتىٰ. كل ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

فإذا ضمت الآيات الواردة في سورة البقرة (الآيات ٦٧ إلى ٧٣) يعلم أن هناك قصّة واحدة والآيات كسبيكة واحدة بصدد تبيينها وهو أن بني إسرائيل سألوا موسى لأن يدفع الفتنة بتعيين القاتل، فأمر بذبح البقرة فذبحت البقرة فأمر بضرب القتيل ببعض البقرة فأحيا الله القتيل وقال ما قال، وبذلك أثبت قدرته على إحياء الموتىٰ، وأرى من آياته ما أرىٰ.

***

هذا ما يحكيه القرآن الكريم حول ذبح البقرة، وأمّا التوراة فقد ورد في التثنية ما هذا لفظه:

«إذا وجد قتيل في الأرض الّتي يعطيك الربّ إلهك ايّاها لترثها مطروحاً في الحقل لا يعرف من قتله فليخرج شيوخك وقضاتك ويقيسوا المسافة منه إلى المدن الّتي حول القتيل. فايّة مدينة كانت أقرب إليه، يأخذ شيوخُ تلك المدينة عِجلة من البقر لم يحرث عليها ولم تجرّ بالنير، وينزل بها شيوخ تلك المدينة إلى واد لم ينضب ولم يفلح ولم يزرع، ويكسرون عنقها على الوادي... فانهم يغسلون

أيديهم على العِجلة المكسورة العنق على الوادي:...[١]

وأنت ترىٰ أنّ الوارد في القرآن يغاير ما في التوراة، ولكن بعض المفسّرين كصاحب المنار حاول أن يوحّد بين القصّتين.[٢]

وممّا يلاحظ علىٰ هذه المحاولة أنّ في الآية إشارات لايمكن تطبيقها علىٰ ما في التوراة:

١. ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي ضرب القتيل ببعض البقرة، مع أنّ الموجود في التوراة هو غسل اليد على العِجلة، فمن غسل برئ من الاتهام.

٢. ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَىٰ﴾ وظاهره أن الله سبحانه يحيي الموتى يوم البعث مثلما أحيا القتيل في هذه الواقعة، وليس في التوراة شيء عن إحياء الموتىٰ.

٣. ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ وهذه الجملة تُشعر بأنّ هناك آية معجزة وخارقة للعادة، وهذا ينطبق علىٰ ما هو المشهور من ذبح البقرة وضرب القتيل ببعض جسدها، فعاد إليه الروح ونطق باسم قاتله، وليس في التوراة ما يشير إلى ذلك.

هذا وقد تأثر ابن عاشور في تفسيره بفكرة صاحب المنار في تفسير ما يرجع إلى ذبح البقرة، لكنّه استظهر أنّ هناك قصتين ـ وقد جنحَ إلى هذا الرأي الشيخ النجارمن قبل ـ[٣] أولاهما: قصة ذبح البقرة، المصدَّرة بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ

١. التوراة ـ سفر تثنية ـ الاصحاح ٢١.

٢. المنار: ١ / ٣٥١.

٣. قصص الأنبياء: ٢٦٠ ـ ٢٦١.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، والأُخرىٰ: قصة القتيل، المبدوءة بقوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ...﴾**.

وإليك ما قاله في هذا الصدد:

فالذي يظهر لي أنّهما قصتان أشارت الأُولىٰ، وهي المحكية هنا إلى أمر موسى إياهم بذبح بقرة، وهذه هي القصة الّتي أشارت إليها التوراة في السفر الرابع وهو سفر التشريع الثاني (تثنية) في الإصحاح ٢١، أنّه «إذا وجد قتيل لا يعلم قاتله...».[١] القصة الثانية قوله: **﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾**.

قال: تصديره بإذ على طريقة حكاية ما سبق من تعداد النعم والألطاف ومقابلتهم إيّاها بالكفر والاستخفاف يومئ إلى أنّ هذه قصّة غير قصة الذبح، ولكنّها حدثت عقب الأمر بالذبح، لإظهار شيء من حكمة ذلك الأمر الّذي أظهروا استنكاره عند سماعه إذ **﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾** وفي ذلك إظهار معجزة لموسىٰ عليه السلام.[٢]

يلاحظ عليه: أنّه إذا كان ما ورد في المقطع الثاني، هو قصّة ثانية حدثت بعد القصّة الأُولى ولم يكن عند الأمر بالذبح أي قتل ولا تدارؤ، يلزم أن يكون الأمر بذبح البقرة أمراً بلا غاية واضحة ، ويصحّ قول بني إسرائيل: **﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾**. والأظهر ما عليه المشهور أنّ مجموع ما في المقطعين يرجع إلى أمر واحد .

نعم يبقى الكلام في تغيير الخطاب، ففي المقطع الأوّل الراجع إلى ذبح

---

١. التحرير والتنوير: ١ / ٥٢٩. ٢. نفس المصدر: ١ / ٥٤٢.

البقرة يخاطب النبيّ ﷺ فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أي اذكر يا محمد، وفي المقطع الثاني الّذي يعالج فيه مشكلة القوم يخاطب بني إسرائيل أنفسهم ويقول: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ فما هو الوجه في ذلك؟

هذا ما كشف عنه السيد الطباطبائي، بقوله: إنّ قصة البقرة غير مذكورة في التوراة الموجودة عند اليهود اليوم، فكان من الحري أن لا يُخاطَبوا بهذه القصة أصلاً، أو يخاطبوا به، بعد بيان ما لعبت به أيديهم من التحريف. فأعرض عن خطابهم أوّلاً بتوجيه الخطاب إلى النبي، ثم بعد تثبيت الأصل، عاد إلى ما جرىٰ عليه الكلام ـ في نفس السورة ـ من خطابهم المتسلسل.[1]

قارون الباغي، المتهالك على المال

من أشد الأُمور مضاضة، وأكثرها إيلاماً للنفس، أن يعمد إنسان إلى ظلم أهله وذوي قرباه، وأن يقف في صف أعدائهم، الذين يضطهدونهم ويذيقونهم ألوان العذاب:

وظلم ذوي القربىٰ أشدّ مضاضةً ... على المرء من وَقْع الحسام المُهنَّدِ[2]

هذا ما حدث فعلاً لبني إسرائيل، حيث برز من بينهم رجل ذو ثراء واسع ونفوذ كبير، وهو قارون، الّذي قيل إنّه ابن عمّ موسىٰ عليه السلام، غير أنّه كان ثالث ثلاثة ممن تصدّوا من الطغاة لموسىٰ عليه السلام وكذّبوا بدعوته، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

١. الميزان في تفسير القرآن: ١ / ٢٠٠.

٢. قائله: طرفة بن العبد.

مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[١].

وكان قارون ذا ثروة طائلة، بعثت في نفسه الزهو والغرور، فبغىٰ على قومه، وتطاول عليهم، واستأثر بالأموال، وسخّرها لأهوائه وشهواته وأغراضه الشريرة. وهذا ما تعرضه لنا الآيات الكريمة التالية:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

﴿وَابْتَغِ فِي مَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾[٢].

***

١. غافر: ٢٣ ـ ٢٤.
٢. القصص: ٧٦ ـ ٨٠.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ أي كان من بني إسرائيل ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ أي استطال عليهم وظلمهم، و (مَن نال استطال)[١] كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام، وقارون كان في غاية الثراء والغنىٰ ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ [٢] لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ . نعم، كانت مفاتح (خزائن أو مفاتيح الخزائن) أمواله المدَّخرة، تُثقل وتُرهق المجموعة من أقوياء الرجال .

ولأجل ردعه عن بغيه وفساده، نصح له العقلاء من بني إسرائيل بنصائح خمس:

١. ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.
٢. ﴿وَابْتَغِ فِي مَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾.
٣. ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾.
٤. ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾.
٥. ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وإليك شرحها.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ «الفرح» يطلق على السرور كما في قوله تعالى: ﴿وَ فَرِحُوا بِهَا﴾ ويُطلق على البَطَر، وهو الفرح المُفرط المذموم كما في قوله سبحانه: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٣]. والإنسان الّذي يُبطره الثراء، ويستخفّه الغنىٰ، ويزدهيه المال، يتعامىٰ عن رؤية مساوئه ومعايبه،

---

١. نهج البلاغة: ٥٠٧، الحكمة ٢١٦.

٢. مفاتح: جمع مِفتح: الخُزانة، أو المفتاح المعروف، وجمعه مفاتيح.

٣. الرعد: ٢٦.

ويذهل عن تهذيب نفسه، وتقويم سلوكه، الأمر الّذي يُفضي به إلى الشقاء والخسران المبين .

﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.. المفرطين في الفرح، المغروين بزخارف الدنيا.

﴿وَابْتَغِ فِي مَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ أي اطلب الدار الآخرة وهو كناية عن طلب نعيمها ودرجاتها، بما آتاه الله من الأموال بإنفاقها في الموارد الّتي تخدم الإنسان وتبني الحياة وترضي الله تعالىٰ .

﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ النصيب هو الحظّ وهو كناية عن أن نصيبك من الدنيا بالنسبة لما جمعته من الكنوز قليل جداً، فجمع هذه الأموال الطائلة دون أن تنتفع بأكثرها علىٰ خلاف العقل.

﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾، وهو من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأنّه داخل في ﴿وَابْتَغِ فِي مَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ والكاف في قوله (كما) للتعليل مثل قوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾[1] وحذف متعلق الإحسان إفادة للعموم ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ بانغماسك في ملذّاتك وبذخك وإسرافك وغرورك وتطاولك على الناس، مستعيناً بما آتاك الله من مال، وما اكتسبت به من جاه ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

قال رسول الله ﷺ: من طلب الدنيا مُكاثراً مفاخراً، لقي الله وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافاً، وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة، ووجهه كالقمر ليلة البدر.[2]

---

١. البقرة: ١٩٨.
٢. التفسير الكاشف: ٢ / ١٠٩.

صلافته تجاه الناصحين

لم يكترث قارون لهذه النصائح البالغة، ووقف منهاموقف المتباهي بغناه، المغترّ بثروته، المُعجَب بمواهبه في كسبها وحيازتها، الجاهل بتصاريف الدهر وتقلّباته، ولذا ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ بهذه العبارة القصيرة ردّ هذا المُترف المفسد على نصائح المؤمنين المخلصين من قومه: إن ما يمتلكه من ثروات طائلة وما يدّخره من كنوز، إنّما هو نتيجة نبوغه ومهارته، وثمرة عمله ومعرفته بطرق الكسب وتنمية الثروة، ومن هنا جاز له ـ كما يرى ـ أن يتمتع بحرية التصرّف فيها كما يشاء، وأن يستغلّها في تحقيق منافعه وتلبية رغباته كما يحبّ ويهوى. وهذا هو منطق جميع المغترين بالدنيا، الحريصين على تكديس الأموال دون أن يعبأوا بآهات ودموع وآلام الآخرين ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١].

ولماكان ردّ قارون بهذه العبارة ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ من غير إسناد الإيتاء إلى الله سبحانه، فيه نوع إعراض عن ذكره تعالى وإزراء بساحة كبريائه، جاءه الجواب من الله سبحانه بصيغة الاستفهام التوبيخي[٢] ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾.

---

١. الزمر: ٤٩ ـ ٥٠.

٢. الميزان في تفسير القرآن: ١٦ / ٧٨.

والمراد: لو كان السبب لجمع الأموال والكنوز هو علمه وقدرته، وليس بإيتاء الله سبحانه لزم أن تنجيه تلك الأموال وتدفع عنه الشر والبلاء وقد أشار سبحانه إلىٰ ذلك بقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاَءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾[1].

ثم إنّ قارون لم يقتصر علىٰ هذا الجواب المعبّر عن جهله وغروره بل أصرّ علىٰ تجسيده عملياً، ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ مستعرضاً مظاهر ثرائه الفاحش، وترفه الناعم، لإرضاء شعوره بالغرور والعظمة، وتكريس مكانته الاجتماعية، وتحقيق رغبته في إخضاع الناس وفرض إرادته عليهم من خلال ثروته.

انقسم الناس إزاء هذا الاستعراض المُغري إلى صنفين:

١. صنف اغترّ بما لقارون من الزينة وهم الذين كانت الدنيا أكبر همّهم ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، ولكنهم لا يعلمون أنّه كم من شخص حظّه في السحاب، وعقله في التراب، كما يقول المثل العربي.

لقد خطف بريق الزينة أبصار هذا الصنف، فعمي عن رؤية حقيقتها ومآلها. ومن هنا تمنّوْا ما تمنّوْا. وهؤلاء هم الجهلاء بحقيقة الدنيا، وما في الآخرة من النعم الدائمة.

٢. وصنف آخر يقابلهم، كان ينظر إلى الدنيا بعين البصيرة، ولا تستخفّه

---

١. الزمر: ٥١.

مظاهرها الخدّاعة الّتي لا تلبث أن تختفي وتزول. وهذا الصنف هم أهل العلم بالله الذين يتطلّعون إلىٰ ما عند الله فحسب، ويعلمون أن ما عند الله خير وأبقىٰ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ وهذه الحقيقة، حقيقة أن ما عند الله أفضل ممّا أوتي قارون لا يدركها إلّا القليل من الناس كما يقول: ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ والصابرون هم المتلبسون بالصبر عند الشدائد وعلى الطاعات وفي مقابل المعاصي.

***

لم تشأ الحكمة الإلهية أن تدع البغي والاستكبار والتطاول على العباد ليستمر طويلاً، بل شاءت أن تُنهي حياة هذا المترف المفسد بالطريقة الّتي تتجلّىٰ فيها قدرة الخالق وعظمته، وضعف المخلوق وتفاهة ما يملكه من مظاهر القوة المادية الّتي يتحصّن بها، ليكون هذا المصير عبرة للمعتبرين ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[1].

تدل الفاء في قوله ﴿فَخَسَفْنَا﴾ على أنّ الخسف به وبداره كان عقيب خروجه على قومه بزينته، والخسف انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها ومعنى الآية خسفنا الأرض مصحوبة مع قارون وداره، فصار قارون وداره

١. القصص: ٨٠ـ ٨٢.

مخسوفين مع الأرض الّتي هو فيها لقد هلك مع ثروته فلم يُغنِ عنه ما جمع من مال، ولم يَحمِه أنصار، ولم تنفعه قوّته من دون الله في درء العذاب عنه ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾.

هي الدنيا تقول بملء فيها — حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي

فلا يغرركُمُ حُسنُ ابتسامي — فقولي مُضحكٌ والفعل مُبكي

(كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ، وَذِي أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْرَدَّتْهُ ذَلِيلاً!) [1].

وتزول الغشاوة عن أعين هؤلاء الذين خُدعوا به وبمظاهر الثراء؛ وتنفتح أعينهم علىٰ نهاية الكافرين والمفسدين، من موقع النهاية الفظيعة للظلم والطغيان [2] ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

ثم إنّه سبحانه يلخّص ما في هذه القصّة من العبر والعظات بهذه الآية: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [3].

ابتدأ الآية بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ تعظيماً لها وتفخيماً لشأنها ﴿الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ كناية عن الجنّة ونعيمها، فالدار الآخرة نصيب من تحلّىٰ بصفتين:

---

١. نهج البلاغة: ١٦٥، الخطبة ١١١.

٢. الحوار في القرآن: ٣٤٥.

٣. القصص: ٨٣.

١. ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ﴾.. لا يتكبرون على الحق ولا على الخلق.

٢. ﴿ وَلَا فَسَاداً﴾ أي ولا يريدون فساداً في الأرض بارتكاب المعاصي والآثام، يقول سبحانه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[١].

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي العاقبة المحمودة لمن تحلّىٰ بالتقوى الّتي هي نتيجة عدم الاستعلاء والفساد في الأرض.

والحق، أنّه يدخل تحت هذه الآية ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ...﴾ كلُّ عاملٍ وساعٍ إلى تحصيل المال والمنصب والجاه واستغلالها كأدوات للفساد، كل ألوان الفساد كالغش، والاحتكار، واللهو والعبث والإسراف في الملذات، وسلب حقوق الآخرين، والاستعلاء والترفّع على الناس (وهو في مقدمتها) وغير ذلك .

ولاشكّ في أن طلب الرئاسة هومطية التكبّر والاستعلاء، ومن هنا قال الإمام أبوالحسن علي الرضا عليه السلام: ما ذئبان ضاريان في غنم قد غاب عنها رعاتها بأضرّ في دين مسلم من حبّ الرئاسة .[٢]

---

١. الروم: ٤١.

٢. رجال الكشي: ٤٢٤. وانظر: بحار الأنوار: ٧٠ / ١٥٤، الحديث ١٣.

٩

موسى الكليم والعبد الصالح

قصة لقاء موسىٰ بالعبد الصالح لم ترد في القرآن الكريم إلّا في سورة الكهف، وهي غير مذكورة في التوراة، والمراد بموسى فيها هو ابن عمران، نبي بني إسرائيل الشهير، الّذي ذُكر اسمه في القرآن أزيد من ١٣٠ مرة، ولو أُريد به غيره لضُمّت إليه قرينة صارفة، وكون القصة غير مسطورة في التوراة لا يعتبر دليلاً علىٰ أنّ المقصود به غير ابن عمران .

تتحدث القصة عن رحلة، قام بها موسىٰ عليه السلام بأمر الله تعالىٰ، للقاء عبد من عباده الصالحين المجهولين، الذين اختصّهم سبحانه بعنايته ووهبهم من لدنه علماً بالغيب، للوقوف علىٰ ما يختفي وراء ظواهر الأحداث من حكم إلٰهية خفيّة، الأمر الّذي يعمّق من تجربة أصحاب الرسالات والرساليين، ويجعلهم أكثر أناة ودقة في الحكم على الأشياء .

والقصة حافلة بالغرائب والأسرار، وانسجاماً مع ذلك خلت عن ذكر زمان ومكان وقوعها (باستثناء ذكر مجمع البحرين)، كما لم تكشف عن اسم الفتىٰ الّذي رافق الكليم عليه السلام في رحلته، ولا حتّى عن اسم ذلك العبد الصالح العالم الّذي قصده موسىٰ عليه السلام للتعلّم منه.

انطلق موسىٰ عليه السلام مع فتاه (وكان يحمل معه حوتاً) ،وسارا نحو مجمع

البحرين، ليلتقي هناك الرجل الصالح، وذلك في موضع منه حدّده له الله تعالىٰ بعلامة، هي فقدان الحوت فيه، فحيث يُفتقد الحوت، فالرجل الصالح هناك، ثم أحسّا بالتعب، وكانت هناك صخرة علىٰ شاطئ البحر فأويا إليها ليستريحا هنيهة. ويبدو ان موسى نام وبقي فتاه يقظان، فاذا بالحوت يضطرب ويأخذ طريقه في البحر ويغور فيه، والفتى يشاهده ويتعجب من أمره، وقد نسي أن يُخبر موسىٰ عليه السلام بفقدان الحوت، حتّى تركا الموضع الّذي أقاما فيه للاستراحة، فأخذ موسى بالسير حتّى جاوز مجمع البحرين، ولما شعرا بالتعب والجوع، أمره موسىٰ بالإتيان بالطعام (وهو الحوت)، وعندئذ تذكّر فتاه ما شاهده من أمر الحوت وأنّه افتقده عند الصخرة الّتي أويا إليها، فلمّا سمع موسى ذلك قال: ذلك ما كنا نطلب، فلنرجع إلى المكان الّذي افتقدنا فيه الحوت، فإننا سنجد العبد الصالح هناك.

وإليك الآيات الكريمة الّتي تحدّثت عن هذه القصة:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً﴾.

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾[١].

***

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾.[٢]

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ جملة معطوفة على قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾[٣] وكأنّ القصة معطوفة على قصة أُخرىٰ متقدمة، والمعنىٰ: اذكر يا محمد ﷺ! ﴿إذ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ يوشع بن نون ـ كما جاء في الروايات ـ وهو ابن أُخت موسىٰ، وتلميذه المختصّ به، ووصيّه علىٰ بني إسرائيل: لا أزال أسير حتّى أبلغ مجمع البحرين سريعاً أو أصل إليه بعد مضي زمن طويل.

وهذا القول يعبّر عن التصميم الأكيد لموسىٰ عليه السلام لبلوغ غايته، وفيه شحذ لعزيمة فتاه لتحمّل مشقة المسير، الّذي قد يستدعي زمنا طويلاً، فليستعد له ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾.

الفاء للتفريع، أي فسارا حتّى بلغا مجمع البحرين، وضمير التثنية في ﴿بَيْنِهِمَا﴾ يرجع إلى البحرين أي محلاً يجمع بين البحرين، والحوت[٤] هو الّذي أُمر موسى باستصحابه ليكون مكان افتقاده دليلاً على تواجد العبد الصالح هناك، ونسب النسيان إلى موسىٰ وفتاه مع أنّ الثاني هو الناسي، لأنّ

١. الكهف: ٦٠ ـ ٦٤.

٢. الفتىٰ: الشاب الحدَث، والمراد به هنا التابع والخادم. ولا أبرح: لا أزال. والحُقُب: الزمن الطويل.

٣. الكهف: ٥٠.

٤. الحوت: السمك صغيراً كان أو كبيراً.

موسىٰ عليه السلام هو القاصد وكان عليه أن يتعاهده ويسأل عنه .

وظاهر الآية أنّ الحوت اضطرب واتخذ لنفسه طريقاً في البحر، والسرب هو النفق، فهل اضطرابه آية رجوعه إلى الحياة؟ وعلى كل تقدير فقد أخذ الحوت نفقاً في البحر وذهب تحت الماء ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً**﴾.

استيقظ موسى ـ كما يبدو ـ من نومه، وغفل فتاه أن يخبره بأمر الحوت، فلذلك استأنفا السير وتجاوزا مجمع البحرين، إلى أن تعبا، وأحسّا بالجوع، وعندئذ التفت موسىٰ عليه السلام، و ﴿**قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً**﴾، والنصب هو التعب، وعندئذ تذكّر فتاه قضية الحوت فقصّ علىٰ موسىٰ ما رآه بأُمّ عينه، وقال: ﴿**أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً**﴾.

وحاصل ما أجابه:

أرأيت حين وصلنا إلى الصخرة ونزلنا هناك، فإنّي فقدت الحوت، وكان عليّ أن اذكر لك قصّته، ولكن الشيطان أنساني أن أذكرها لك، ولو ذكرها له لما جاوز موسىٰ ذلك المكان الّذي فُقد فيه الحوت، ولما ناله النصب في سفره.

﴿**وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً**﴾، فاعل الفعل هو الحوت وهو أنّ الحوت غار في الماء بصورة عجيبة، وعند ذلك خاطبه موسى بقوله: ﴿**ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً**﴾ أي قال موسى: ذلك ماكنّا نطلب من العلامة فرجعا وعادا إلى الطريق الّذي انطلقا منه ويقصان آثارهما ويتبعانها حتّى انتهيا إلى مدخل الحوت.

إلىٰ هنا تم المقطع الأوّل من هذه القصة، وستوافيك المقاطع الثلاثة المتمّمة له، ولكن بقي الكلام فيما هو المراد من مجمع البحرين وملتقاهما. وقد ذُكرت هنا وجوه عديدة، بعضها بعيدة بالنسبة إلى الظروف الّتي عاشها موسىٰ ﷺ، والوسائل المتاحة له في السير، وأفضلها ـ كما نرىٰ ـ الوجهان التاليان:

١. إنّه ملتقى البحر الأبيض المتوسط (وكان يسمىٰ بحر الروم) والبحر الأحمر.

٢. إنّه مجمع خليجَي العقبة والسويس في البحر الأحمر. وكان بنو إسرائيل يقيمون بهذه المنطقة بعد خروجهم من مصر.

والإمعان في قوله: ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أو ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ يدل على وجود نقطة برّية فاصلة بين البحرين، ولعلّه ينطبق على منطقة قناة السويس الّتي كانت برّاً فاصلاً بين البحرين، فحفرت القناة واتصل البحران: المتوسط والأحمر. والله الأعلم.

***

لحظة اللقاء:

﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾.

﴿قَالَ سَتَجِدُني إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾.

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾[١].

الآيات تحكي عن لقاء موسىٰ بالعبد الصالح في مجمع البحرين، وطلب الإذن منه بمرافقته، ليعلّمه ما يزيد في رشده، والعبد الصالح يستجيب لطلبه، لكن يشترط عليه أن لا يسأل عن أفعاله وأعماله حتّى يحدّثه بها، يقول سبحانه: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا﴾[٢] يصفه سبحانه بقوله: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ لدنيّاً من عند الله سبحانه يفيضه على المستعدّين من عباده.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ وانتصب رُشداً على المفعولية أي تعلمني ما به الرشد والخير. فأجابه العبد الصالح: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ وقد استعمل كلمة ﴿لَنْ﴾ الدالّة على تأبيد النفي.

ثم قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾. والخُبر: العلم، والمعنىٰ: لا يحيط به خبرك وعلمك. وكأنّ ما يقوم به العالم من الأعمال سيكون علىٰ غير نسق العادة، والّتي لا يتحملها إلّا الأمثل فالأمثل، العالم ببواطن الأعمال

---

١. الكهف: ٦٥ ـ ٧٠.

٢. ورد في روايات الفريقين أنّ هذا العبد الصالح هو الخضر، وقيل: إن الخضر لقب، واسمه بليا بن ملكان، واختلفوا: هل هو نبيّ أو وليّ؟

وواقعياتها. لكن موسىٰ وعده بالصبر، فقال: ﴿سَتَجِدُني إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ وعده بالصبر ولكن قيّده بالمشيئة، ولذلك لم يكذب عندما لم يصبر، كما أنّه قيّد عدم عصيانه بالمشيئة أيضاً... وعلى ذلك لم يخالف الوعد لانتفاء المشيئة.

لم يكتفِ العالِم بهذا الوعد من موسى عليه السلام، بل زاد كلامَه بياناً بهذا الشرط : ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ أي فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء تشاهده من أمري، تشقّ عليك مشاهدته. وإحداث الذكر في ﴿أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ هو الابتداء بالكلام من غير سابقة، وعلى ذلك كان علىٰ موسىٰ أن يصبر حتّى يبتدأ هو بالكلام، ويكشف عن علل وأسرار تصرّفاته وأعماله.

***

وبدأت الرحلة:

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾.

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾.

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[1].

هذه الآيات تتكفل ببيان ما صدر من العبد الصالح من الأفعال التي صعب على موسىٰ عليه السلام رؤيتها دون أن يسأل عن عللها وأسبابها، وهي أُمور ثلاثة غريبة لا توافق بظاهرها الشرع والعقل .

﴿فَانْطَلَقَا﴾ يمشيان على شاطئ البحر ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ وجرت بركّابها ﴿خَرَقَهَا﴾ الرجل الصالح بشكل، يُعرّض السفينة ومَن فيها لخطر الغرق .

استغرب موسىٰ عليه السلام من هذا التصرف، و ﴿قَالَ﴾ مستنكراً ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ أي أمراً منكراً.

﴿قَالَ﴾ الرجل الصالح ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ أي ألم أقل

---

١. الكهف: ٧١ ـ ٧٨.

لك حين رغبت في اتباعي إنّك لا تطيق ما أقوم به من الأعمال؟ ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عليه السلام معتذراً مستقيلاً ﴿لَا تُؤَاخِذْني بِمَا نَسِيتُ﴾... لا تَلُمْني وتعاتبْني بنسيان الوعد وغفلتي عنه ﴿وَلَا تُرْهِقْني مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾.. لا تكلّفني مشقة، ولا تعاملني بالعسر، ولا تضيّق عليَّ الأمر في صحبتك.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ﴾.. تابعا مسيرهما بعد هبوطهما من السفينة، فلقيا غلاماً، فبادر الرجل الصالح إلى قتله. فانتفض موسىٰ مستنكراً، و ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً﴾ أي طاهرة من الذنوب، ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي لم تَقتل نفساً فيُقتصّ منها ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾ أمراً منكراً في الشرع والعقل.

لم يجد الرجل الصالح أمام هذا الاعتراض إلّا ان يذكّره بالشرط مرة أُخرىٰ، فالتفت إليه وقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾؟ وهنا أبدىٰ موسىٰ عليه السلام ندمه لما صدر عنه، و ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَاحِبْني﴾ فاتركني واحرمني من مصاحبتك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُني﴾ أي من قِبلي ﴿عُذْراً﴾ في مفارقتك لي.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ أي طلبا منهم الطعام ضيافة ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ما أشدّ بخل هؤلاء!! بل ما أصلد وجوههم إذ يغلقون أبوابهم في وجه الضيف الجائع الغريب!!

ثم واصلا مسيرهما في نفس القرية ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ أي يشرف على الانهدام ﴿فَأَقَامَهُ﴾ العبد الصالح، فتعجب موسىٰ من

قيامه بهذا العمل دون مقابل لأُناس كانوا قد رفضوا منذ قليل ضيافتهما وهما جائعان، ولذا! ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ لكي نشتري به طعاماً نسد به جوعتنا فـ ﴿قَالَ﴾ الرجل الصالح: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ لا أصاحبك من بعد لأنّك خالفت الشرط، ومع ذلك ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ وأخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ أي تفسير الأعمال الّتي قمتُ بها وأنت تنكرها.

إلى هنا تم المقطع الثالث من الآيات المتضمنة لتفصيل لقاء موسى مع عبد من عباد الله الصالحين.

***

وانكشف الغطاء:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾

﴿وَأَمَّا الْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً)

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾[1].

---

١. الكهف: ٧٩ ـ ٨٢.

كان ظاهر الأعمال الثلاثة الّتي قام بها صاحب موسىٰ عليه السلام، يثير العجب والاستنكار، لذا راح يفسّرها ويكشف له عن أسرارها، ويبيّن أنها كانت على مُرّ الحق، وأنّه لا يعرف ما وراءها إلّا المطّلع على حقائق الأشياء، العارف بالمصالح الواقعية.

١. ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ الّتي خرقتُها ﴿ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ﴾ بها ﴿ فِي الْبَحْرِ﴾ ويتعيّشون بها ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أُحدث فيها عيباً ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صحيحة غير معيبة ﴿غَصْباً﴾ من أصحابها.

لقد أوقع العبد الصالح بهؤلاء المساكين ضرراً خفيفاً بإحداث عيب في سفينتهم، من أجل أن يدفع عنهم ضرراً شديداً، وهو أخذ سفينتهم من قِبل ملكٍ ظالم كان يأمر بغصب كل سفينة صالحة للاستعمال.

قال السيد الطباطبائي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾: وراء بمعنى الخلف، لكن ربّما يُطلق على الطرف الّذي يغفل عنه الإنسان وفيه من يريده بسوء أو مكروه وإن كان قدّامه، أو فيه ما يعرض عنه الإنسان، أو فيه ما يشغل الإنسان بنفسه عن غيره، كأن الإنسان ولّىٰ وجهه إلى جهة تخالف جهته، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾[١]، وقال: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[٢]، وقال: ﴿وَ اللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ﴾[٣].[٤]

---

١. المؤمنون: ٧.
٢. الشورىٰ: ٥١.
٣. البروج: ٢٠.
٤. الميزان في تفسير القرآن: ١٣ / ٣٤٧.

٢. ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾.

وهنا يميط العبد الصالح اللثامَ عن الوجه الخفيّ لقتله هذا الغلام من غير ذنب ظاهر صادر عنه: إنّ أبَوا هذا الغلام كانا مؤمنين، أمّا هو فلديه قابلية للانحراف، واستعداد لأن يصبح في مستقبل أيامه شرّيراً طاغياً، وخشيةً من أن يُرهق والديه ـ بعد أن يكبر ـ بطغيانه وفساده وكفره، قتله العبد الصالح، الّذي واصل حديثه، كاشفاً عن جانب آخر من ستر الغيب: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً﴾.. أن يرزقهما بدل ابنهما القتيل ولداً خيراً منه صلاحاً وإيماناً ﴿وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ أي أوصل للرحم والقرابة فلا يرهقهما.(١)

٣. ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ مالٌ مدفون تحت هذا الجدار المُتداعي، فلو تُرك وهذا حاله لانهار وسقط، وظهر الكنز وضاع، ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ يبلغا الوقت الّذي يقدران فيه على حفظ مالهما ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ بأنفسهما ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ يُصيب بها من يشاء، حسبَ ما تقضي به حكمته.

وهكذا امتد الأثر الطيب لصلاح الأب حتىٰ شمل ولديه، فنفعهما وحفظ لهما كنزهما من الضياع، وفي هذا الصدد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه

---

١. كذا فسّره في الميزان: ١٣ / ٣٤٨، وفسّر غيره الزكاة هنا بالطهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة، والرُّحم بالرحمة والعطف على والديه. انظر تفسير البيضاوي: ٢ / ٢٠.

قال: إنّ الله ليُصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده، ويحفظه في دويرته ودويرات حوله، فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على الله. ثم ذكر الغلامين، فقال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾ ألم تر أنّ الله شكر صلاح أبويهما لهما؟[١].

وعن الإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام أنّه قال لبعض الخوارج في كلام جرىٰ بينهما: بِمَ حفظ الله الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما، قال: فأبي وجدّي خير منه، فقال: قد أنبأنا الله أنّكم قوم خصمون.[٢]

أقول: بل هم ـ أعني أهل البيت عليهم السلام (أزمّةُ الحقِّ، وأعلام الديـن، وألسنة الصدق)[٣]، وقد شهد لهم الجميع حتىٰ معاوية بقوة الحجة وفصاحة اللسان، وكان يقول (أي معاوية) لمن يريد أن يخاصم الإمام الحسن عليه السلام: لا تفعل فإنّهم قوم أُلهموا الكلام.[٤]

ثم إنّ الرجل الصالح يقرِّر أنّه ليس له من أمر هذه الأعمال شيء، وإنّ كل ما فعلته من الأُمور ﴿مَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي ليس عن نفسي، ولا من قبل نفسي ولكنّي فعلته بأمر الله، وما ذكرت لك من الأسرار هو: ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ أي المصالح الّتي سببت قيامي بهذه الأعمال.

إلى هنا تم تفسير المقاطع الأربعة الّتي تتعلق بحوار موسىٰ عليه السلام مع الرجل الصالح، وبقيت هنا أُمور، تستفاد من الآيات المذكورة:

---

١. تفسير العياشي: ٣ / ١٠٦، الحديث: ٦٣.

٢. تفسير الكشاف: ٢ / ٤٠٠.

٣. نهج البلاغة: ١٢٠، الخطبة ٨٧.

٤. وفيات الأعيان: ٢ / ٦٨.

الأوّل: تقسيم الحجة إلى ظاهر وغير ظاهر

الإمعان في الآيات المتقدمة يثبت أنّ لله سبحانه بين عباده حججاً ظاهرة يبلغون رسالات الله إلى الناس وحججاً غير ظاهرة لا يعرفهم الناس ومع ذلك فهم يقومون بتنفيذ أوامره سبحانه بينهم حسب المصالح.

وقد التقىٰ النوعان من الأولياء في مكان واحد: أحدهما موسى بن عمران، والآخر صاحبه المؤقت ، العبد الصالح العالم ، الّذي صحبه في سفره برّاً وبحراً.

إن هذا الولي الإلهي كان مغموراً خفياً على نحو لم يكن يعرفه نبي عظيم كموسى بن عمران ـ فضلاً عن غيره ـ وإنّما تعرّف عليه بإرشاد من الله سبحانه، واستفاد من علمه خلال مرافقته إيّاه.

وعلىٰ ضوء ذلك لا إشكال في أنّ يكون بين أئمة أهل البيت عليهم السلام (وهم حجج ظاهرة يعرفهم الناس)، حجة غائبة لا يعرفه الناس وهو يعرفهم، كإمامنا المهدي المنتظر (عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف).

وفي ذلك يقول الإمام علي عليه السلام: لا تَخْلو الأرضُ من قائمٍ للهِ بحُجّةٍ، إمّا ظاهِراً مَشْهوراً أو خائِفاً مَغْموراً، لئلّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وبيِّناتُهُ.[١]

وحريٌّ بنا ـ ونحن نتحدث عن الأولياء المغمورين ـ أن نذكر هنا كلمة ذهبية للإمام محمد الباقر عليه السلام، تضيء لنا معالم الطريق في كيفية السلوك مع الله

١. نهج البلاغة: ٤٩٧، باب الحكم، الرقم ١٤٧.

تعالىٰ ومع الناس، قال عليه السلام لابنه جعفر الصادق عليه السلام: إنّ الله خبأ ثلاثة في ثلاثة أشياء: خبأ رضاه في طاعته، فلا تحقرنّ من الطاعة شيئاً، فلعلّ رضاه فيه؛ وخبأ سخطه في معصيته، فلا تحقرنّ من المعصية شيئاً، فلعلّ سخطه فيه؛ وخبأ أولياءه في خلقه، فلا تحقرنّ أحداً، فلعله ذلك الوليّ .(١)

الثاني: الولي الغائب يعيش بين الناس

إن غيبة الولي ليس بمعنى الانفصال عن المجتمع والعيش فيما وراء هذا العالم، بل هي بمعنىٰ أنّه يعرف الناس ويعيش بينهم، ولكنهم لا يعرفونه، وهو في هذا كصاحب موسىٰ، فقد كان مرةً في مجمع البحرين وأُخرى في السفينة، وثالثة في القرية .

كل ذلك شاهد على أنّ حياته بين الناس كحياتنا بينهم، والحجاب الحائل بينه وبين الناس هو حجاب عدم التعرف عليه، ولكن ذلك لا يمنع من تشرُّف فريق من الأبرار والأتقياء الذين يتمتعون باللياقة والأهلية بلقاء هذا الولي ورؤيته والاستفادة من إرشاداته وعلومه، كما استفاد موسىٰ عليه السلام من إرشادات العبد الصالح.

الثالث: التصرف حسب المصالح

إنّ للولي الغائب تصرفات في أموال الناس ونفوسهم حسب مصالحهم، وأنّ غيبة الإمام لا تعني أنّه إمام ليس له شأن سوىٰ انتظار أمر الله بالظهور، بل هو

---

١. الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ٨٩٥، كشف الغمة: ٢ / ٣٦١، بحار الأنوار: ٧٥ / ١٨٧، الحديث ٢٧.

في أصل الغيبة مصدر التصرفات التي تصب في صالح المجتمع البشري، وإنْ كان الناس لا يرونها، شأنه في هذا شأن صاحب موسىٰ فإنّه خرق السفينة بمرأىٰ ومسمع من صاحبها وركّابها، وتصرّفه هذا كان نافعاً إذ بدون ذلك الخرق سيقوم الملك الجبار بمصادرتها. وكان لهذا الولي ولاية تكوينية إلى حد أنّه قتل غلاماً دون أن يقف عليه أحد، فكأنّه كان يتصرف في العيون والأسماع، وعلىٰ ضوء ذلك فالإمام المهدي (عج) كصاحب موسىٰ يتصرف في أُمور الأُمة حسب مصالحهم دون أن يقف على تصرفه الناس. من هنا ورد في الروايات: أنّ مثله مثل الشمس خلف السحاب لاترى عينها ولكن تبعث الدفء والنور إلى الأرض وساكنيها »[1].

هذا بعض ما يستفاد من الآيات المتقدمة.

---

١. كمال الدين، للشيخ الصدوق: ٤٨٥، الباب ٤٥، الحديث ٤.

خلاصة قصة موسىٰ ﷺ

ولد في مجتمع، فرّقه الطاغية إلىٰ فئات متناحرة متباينة، وفي أحضان طائفةٍ منه مستعبدة مقهورة، وفي جوّ محفوف بالأخطار والأهوال، حيث يُذبح الأبناء حين الولادة.

كان هذا الوليد هو موسىٰ ﷺ، الّذي اضطرب قلب أُمّه خوفاً وهي تضعه، فألهمها سبحانه أن تلقيه في صندوق وتقذفه في البحر، وبشّرها بنجاته، واصطفائه لرسالته، قائلاً لها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾.. دعي الخوف، واطرحي عنك الهموم، فلن يمسّه سوءٌ أبداً ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وشاء القدر أن يجري الماء بالصندوق، فيلتقطه آل فرعون ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾، فيقوّض مُلكهم وعروشَهم، ويملأ بالهمّ والغمّ صدورَهم.

أُصيب الطاغية فرعون بالذهول، وهو يرىٰ في قصره وليداً قد نجا من الذبح، ولكن العناية الإلهية ألقت محبّته في القلوب، فبادرت امرأة الطاغية إلى استعطاف زوجها، ودغدغة مشاعره بهذه الكلمات: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ بعد أن حُرمنا من الأولاد، فكان لهذه الكلمات وقع في نفسه، فاستجاب لرغبتها.

أمّا الأُمّ، فظلّت قلقة حائرة متلهّفة إلىٰ وليدها، الّذي تجهل ما حلّ به، فأرسلت أختها لتقتصّ أثره، وتلتمس خبره، فانصاعت لهذا الأمر، وذهبت تفتش

عنه في حذر شديد، إلىٰ أن وقع بصرها عليه من بعيد .

وأخذتْ تراقب الأوضاع، فعلمتْ أنّ أخاها يَعاف المرضعات جميعاً، فاغتنمت هذه الفرصة، لتقول لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

وهكذا تحقق الوعد الإلهي بإعادة الطفل إلى كنف أُمّه ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وهكذا نَعِمَ موسىٰ بالحضن الدافئ، وعُني بتربيته في البلاط الفرعوني، الّذي لبث فيه سنين.

ودخل عليه السلام المدينة بعد أن كبر واشتدت قواه ووهبه الله تعالىٰ ﴿حُكْماً وَعِلماً﴾، دخلها في وقتٍ، خلت فيه أزقّتها من الناس ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هٰذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهٰذا مِنْ عَدُوِّهِ﴾.. أحدهما إسرائيلي، والآخر فرعوني، فسأله الإسرائيلي النصرة، فضرب موسىٰ خصمه ضربة كان حتفه فيها ﴿فَوَكَزَهُ مُوسىٰ فَقَضىٰ عَلَيْهِ﴾ .

وحزّ في نفسه أن تُفضي وكزته إلى القتل في ظرف غير مناسب، فـ ﴿قَالَ هٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ﴾ .

وكما هو شأن الصدّيقين الذين يستعظمون ما يصدر عنهم خلاف الأَوْلىٰ، ﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿رَبِّ إِنّي ظَلَمْتُ نَفْسي فَاغْفِرْ لِي﴾ ما فَرَط مني ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

ثم قال، وهو في ظل الشعور بنفحات الغفران والرضىٰ، والشعور بوجوب

الشكر والوفاء، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾.

وبينما كان عليه السلام يسير في المدينة ـ في اليوم الثاني ـ خائفاً من انكشاف أمره، فإذا بصاحبه الإسرائيلي يستنجد به في موقف يتنازع فيه مع فرعوني آخر، فأنّبه موسىٰ عليه السلام علىٰ هذه التصرّفات الّتي تثير المشاكل، وتستفزّ الأعداء.

ولكن موسىٰ عليه السلام الممتلئ صدره غيظاً من الفرعونيين، لا يستطيع أن يتصامم عن نداء المظلومين، فهمّ أن يبطش بالفرعوني، فـ ﴿قَالَ يَا مُوسىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُنَ جَبّاراً فِي الأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

وطار خبر موسىٰ عليه السلام إلى رجال البلاط الفرعوني، فسارعوا إلى تداول الأمر، ولما علم أحد المؤمنين بنتيجة المداولات، انطلق نحو موسىٰ، وقال له: ﴿إِنَّ الْمَلأَ يَـأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ ويتشاورون بسببك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

قَبِل عليه السلام نصيحته ﴿فَخَرَجَ مِنْها خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ أن يدركه جند فرعون، ولسانه يلهج بالدعاء ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَومِ الظَّالِمِينَ﴾، وقلبه يخفق بالأمل بأنّ الله تعالىٰ سيرشده طريق النجاة، وهو يتوجّه تلقاء (مَدْيَنَ).

بلغ عليه السلام ماءً لمدين، فوجد عنده جمعاً من الرعاة يستقون منه لمواشيهم، وآلمه أن يرىٰ هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن الماء، فتقدّم نحوهما مستوضحاً، فـ ﴿قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾، فلا نزاحم الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ يضعفُ عن هذا العمل، فيرسلنا اضطراراً.

تأثّر ﷺ لحال هاتين الفتاتين، فتقدّم وسقىٰ لهما غنمهما، ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ ليتّقي حرَّ الهجير، بعد أن أجهده التعب وأنهكه الجوع، وراح يناجي ربّه بهذه الكلمات الرقيقة: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ .

ولم يمضِ وقت طويل، حتّى جاءته إحدى الفتاتين، وهي ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾، لتنقل إليه دعوة أبيها له، ليكافئه علىٰ سقيه لهما.

استجاب ﷺ للدعوة، وحدّث الشيخ بقصّته مع فرعون وقومه، فطمأنه الشيخ قائلاً: ﴿لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فلا سلطان لهم علينا.

أثارت شخصية موسىٰ ﷺ ومآثره ارتياحاً لدى الشيخ وابنتيه، فانبرت إحداهما قائلة: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ .

استحسن الأب هذه الفكرة، وقدّمها لموسىٰ من خلال هذا العرض: أن يزوِّجه إحدى ابنتيه علىٰ أن يخدمه ويرعىٰ له ماشيته مدة ثماني سنوات، فإن زادها سنتين، فتفضُّلٌ منه .

ثم عاد ﷺ إلى مصر مع أهله بعد انقضاء مدة العقد المُبرم بينه وبين الشيخ، ولمّا أخذ يقطع الصحراء، ضلّ طريقه في ليلة مظلمة شاتية، فأخذ يتلفّت، فرأى ناراً تضيء من جانب الجبل، فلمّا أتاها، سمع هذا النداء: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾.

ثم أراه آيتين خارقتين، وأمره بالذهاب بهما إلى الطاغية فرعون وملئه لإبلاغهم رسالة السماء:

الأُولى: تحوّل عصاه إلى حيّة تسعىٰ، والثانية: تحوّل يده إلى يد بيضاء لامعة

من غير مرض بعد إدخالها في جيب قميصه ثم إخراجها منه.

تلقّىٰ موسىٰ عليه السلام هذه المسؤولية الإلهية الكبرىٰ، وحرصاً منه علىٰ أدائها كاملة، استعرض عليه السلام المصاعب الّتي تعترضها، وسأل ربّه أن يذلّلها له: ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً﴾ فهو أقدر علىٰ إظهار الحقّ وقطع ألسنة المجادلين ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.

ولم تتأخر الإجابة، فقد أعطاه تعالىٰ سُؤْله، وبلّغه مُناه.

التقىٰ موسىٰ وأخوه هارون عليهما السلام مع فرعون، لُينهيا إليه هذه الرسالة: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾، ثم دار بين الطرفين حوار طويل.

في البدء، أظهر الطاغية أنّه يجهل ربَّ موسىٰ وهارون، فـ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُما يَا مُوسَى﴾، فردّ عليه بهذا الجواب المختصر الشافي: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ﴾.. ربنا الّذي (أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً)[١] ثم أرشدهم إلى غاياتهم المخلوقين لأجلها.

لم يجد فرعون ما يردّ به علىٰ خصمه، فأراد أن يُحرجه بهذا التساؤل الّذي يثير مشاعر الآخرين: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ كقوم نوح وعاد وثمود الذين كانوا يعبدون الأصنام من دون الله.. هل كانوا ضالّين حسب زعمكما؟

---

١. نهج البلاغة: ٤٠، الخطبة ١.

تنبّه موسىٰ عليه السلام لهذا الشّرك الّذي نُصب له، فتجنّب الوقوع فيه بهذا الردّ: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى﴾.

ولمّا عجز الطاغية عن مواجهة موسىٰ عليه السلام في هذا الحوار وغيره ﴿قَالَ﴾ لمن حوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، ثم لجأ ـ كما هو شأن الطغاة ـ إلى التهديد، قائلاً: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونينَ﴾.

وهنا، حيث لم ينفع الجدل والحوار، جاء أوان الآيتين الخارقتين: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.

أصرّ الطاغية على عناده ومكابرته، فـ﴿قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ وماذا يبتغي بسحره؟ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

ويُقابَل التحدّي بمثله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾، ويتمّ اللقاء بين السحرة وموسىٰ في يوم عيد، يحتشد فيه الناس.

وقبل أن تبدأ المباراة، حذّرهم موسىٰ عليه السلام من عذاب الاستئصال، قائلاً: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرى﴾.

وسرىٰ بينهم نزاع خفيّ، ولكن الغلَبة كانت للصوت الداعي للمواجهة، وعلىٰ إيقاع هذا الصوت، تقدّم السحرة، فلما ألقوْا حبالهم وعِصِيَّهم خُيِّل للناظرين أنّها حيّات تتلوّىٰ، ثم ألقىٰ موسىٰ عصاه، فإذا هي حيّة كبرىٰ، تبتلع بسرعة كلّ ما صنعوا من مكر وتمويه ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾.

ولم يَعُد في وسع السحرة ـ وقد هالهم ما رأوا ـ إلّا أن يخرّوا ساجدين لله ربِّ العالمين .

تميّز فرعون غيظاً وحقداً، وهو يرىٰ عُدّته الّتي جهد في تحشيدها لمواجهة تحدّي خصمه.. يراها تتحطّم أمام عينيه في لحظة سريعة، ولم يبقَ منها باقية.

وممّا زاد في حَنَقه، افتضاح أمره أمام الجموع الّتي سمعت صوت الإيمان بربِّ العالمين لا بربوبية فرعون، يرتفع لأوّل مرة من ألسنة السحرة المهرة، ورأت جباههم الّتي كانت تخضع ذليلة للطاغية، تعنو الآن لله العزيز القهار.

وأحسّ بأنّه طُعن في كبريائه وجبروته، فجنّ جنونه، و ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾!! فهذا الخروج عن إرادتي ، جاء إذاً عن تآمر مُبيَّت مع موسىٰ، و ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾.

ولكي يشفي غيظه، ويداوي جرحه، زمجر وقال: ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾.

لم يأبه السحرة لهذا التهديد بالعذاب الفظيع، و ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالذِي فَطَرَنَا﴾.. لقد أيقنا بالحقّ، وتذوّقنا طعم الإيمان ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾، واصنعْ ما يحلو لك، فحُكمك لا يعدو هذه الدنيا الفانية.

ثم توجّهوا إلى ربّهم قائلين: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

وراح أعوان الطاغية ـ بعد ذلك ـ يتملّقونه، ويظهرون له قلقهم من النشاط

الّذي يقوده موسىٰ قائلين: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾!!، فطمأنهم فرعون بأنّه سيستخدم معهم سياسة البطش والإذلال، فارتاع لذلك بنو إسرائيل، فحاول موسىٰ أن يهدِّئ من رَوْعهم بهذا البلسم: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا﴾ وأنْ يضيء لهم شمعة على طريق النصر، بقوله: ﴿إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ولكنهم ـ وقد خمدت هممُهم لطول فترة إذلالهم ـ تبرّموا، و ﴿قَالُوا﴾ لموسىٰ ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾، فأشعل لهم عليه السلام شموعاً أُخرىٰ على الطريق، بقوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

وينفذ نور الإيمان إلى بيت فرعون، فيصادف قلباً طاهراً، هو قلب (آسية) زوج الطاغية، فيضيء جوانبه، ويهتزّ الطاغية لهذا الحدث، فيأمر بالتنكيل بها، فلما أوشكت روحها أن تصعد إلى بارئها، ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وإزاء تمادي آل فرعون في الطغيان، شاء الله سبحانه أن يبتليهم بفنون العذاب لعلهم يرجعون، فأصابهم بالجدب والقحط، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، وكانوا كلما نزل بهم نوع من العذاب، قالوا لموسىٰ: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، بَيْد أنّهم كانوا ينقضون عهدهم في كلّ مرّة.

وضاق الطاغية بموسىٰ ذرعاً، وأراد أن يُظهر جبروته، فقال لرجال حاشيته ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾.

وهنا وقف رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، يدعوهم بنبرة وادعة إلى الالتزام بمنطق العقل في الحكم على موسىٰ ودعوته، قائلاً: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وأخذ يعظهم، ويحذّرهم بأس الله في الدنيا وعذابه في الآخرة، ويُعرب عن حرصه وشفقته عليهم، بقوله: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، وقوله: ﴿مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾.

لم يكتفِ قومه بالإعراض عن مواعظه ونُذُره، بل أرادوا به شرّاً، ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ .

وأمام إصرار فرعون وقومه على التكذيب بدعوة موسىٰ عليه السلام، واضطهاد بني إسرائيل، خرج بهم عليه السلام ليلاً بأمر الله تعالىٰ، لِيَعبُرَ بهم إلى الجانب الآخر من البحر.

ولمّا سمع الطاغية بنبأ هذه الهجرة، استشاط غضباً، وقرّر ملاحقتهم، ثم سار بجنده في أثرهم، فلما اقترب منهم، وَجِلتْ قلوب بني إسرائيل، وتعلّقت نظراتهم بموسىٰ: أين الخلاص الّذي وعدتنا به؟

ولكن موسىٰ الواثق بربّه، المطمئن إلىٰ وعده، أخبرهم بأنّه تعالىٰ سيُرشده إلى طريق النجاة، وقد تحقق ذلك بمعجزة إلهية، إذ أوحىٰ الله سبحانه إليه بأن يضرب بعصاه البحر، فضربه، فانشقّ الماء، وظهر فيه طريق، فسلَكَه بنو إسرائيل حتّىٰ وصلوا إلى الشاطئ الثاني، وأراد فرعون وجنده أن يتبعوهم، سالكين الطريق نفسه، فغمرهم الماء، وغرقوا أجمعين.

وهكذا كتب الله النجاة لبني إسرائيل، ولكنهم أخذوا يثيرون المشاكل في وجه موسىٰ عليه السلام، وأوّلها أنهم مرّوا ـ بعد عبورهم البحر ـ على قوم يعبدون الأصنام، فأحبّوا أن يقتدوا بهم، فـ ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾!! فانتهرهم عليه السلام ،ووصفهم بالجهل.

وجاء الأمر الإلهي بأن يذهب موسىٰ عليه السلام إلى ميقات ربّه لتلقّي الشريعة (التوراة)، فذهب عليه السلام بعد أن استخلف في قومه أخاه هارون، وأوصاه بقوله: ﴿**اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾.

وبينما هو في الميقات، أخبره الله تعالىٰ بارتداد قومه عن عقيدة التوحيد وعكوفهم علىٰ عبادة العجل الّذي صنعه السامري من حُليّهم.

ولمّا تمّ ميقات ربّه وهو أربعون ليلة، رجع إليهم ﴿**غَضْبَانَ أَسِفاً**﴾، وخاطبهم بهذه الكلمات الّتي تقطر حزناً وألماً: ﴿**بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي**﴾، وتوجّه إلى أخيه وعاتبه بشدة بعد أن أخذ يجذبه من لحيته وشعر رأسه، متّهماً إياه بعدم اتخاذ الموقف الصائب في أيام الفتنة، فبيّن له هارون عليه السلام دوره في معالجتها، والأخطار الكبيرة الّتي أحدقت به في تلك الظروف العصيبة.

ثم التفت إلى السامري، وسأله عن هذا الأمر العظيم الّذي جاء به، فأطلعه على ما سوَّلت له نفسه منه، فقضىٰ عليه السلام بطرده وإبعاده عن المجتمع، ثم قام عليه السلام بحرق العجل وتذرية بقاياه في البحر.

أما جزاء بني إسرائيل لكي تُقبل توبتهم من جريمة الارتداد والهُويّ إلى الحضيض، فهي القتل لأنفسهم، إذ يتولّىٰ من لم يعبد العجل قتلَ الذي ظلم نفسه بعبادته.

ونقف أمام حدث جسيم آخر، وهو الأمر بدخول فلسطين (الّتي كان الله قد وعدهم الإقامة فيها)، وتحريرها من دنس الطغاة، وانتدابهم لهذا التكليف الشاق يتطلب تعبئة النفوس روحياً، والنبيّ القائد موسىٰ عليه السلام، يعلم ما ينتاب قومه (بني إسرائيل) من ضعف وخوف، لذا راح يذكّرهم بنعم الله تعالىٰ عليهم، ويدعوهم إلى استحضار ما في تاريخهم من صفحات بيضاء: ﴿**يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ**﴾، وهذه النِّعم الجسام تستدعي شكراً عملياً، يتجسد في الطاعة والامتثال لأوامر الله تعالىٰ، ومنها السير نحو الأرض المقدسة.

أحجم القوم عن الاستجابة لدعوة موسىٰ عليه السلام، وعبّروا عن روحهم الانهزامية بهذا القول: ﴿**إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا**﴾.

في ذلك الجوّ المُثقل بالذلّة والهوان، والمُشبَع بالخوف والاضطراب، ارتفع صوتان، صوتان فقط، يحضّان على الجهاد، ويدعوان إلى اقتحام الميدان ﴿**ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾.

لم تنفع كلمات هذين المؤمنين المتّقدة بحرارة العزيمة والإيمان، في تحريك هِمَم القوم الخامدة، بل ردّوا بكل صلافة ووقاحة، و ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ**﴾!!

وهكذا اختار القوم لأنفسهم هذا الطريق المُفضي إلى مصير قاتم، بإيثارهم العافية، وإعراضهم عن الجهاد الَّذي يُسنّي لهم درب المجد والعزة والكرامة، فكان جزاؤهم الحرمان من تملّك الأرض المقدسة مدة أربعين سنة، يقضون خلالها حياتهم تائهين متحيّرين، لا يهتدون إلى الغرض المقصود سبيلا.

ويعرض لنا القرآن الكريم قصة البقرة، الَّتي تكشف عن تعنّت بني إسرائيل ولجاجهم ومماطلتهم في امتثال أوامر الله تعالىٰ ورسوله، ومفادها: أن رجلاً منهم وُجد قتيلاً بينهم، ولم يُعرف قاتلُه، فحصل نزاع بينهم، واتّهم بعضهم فيه بعضاً، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه السلام بأن يذبحوا بقرة، ويضربوا القتيل بجزء من جسدها، فيحيا القتيل بإذن الله تعالىٰ، ويُخبرهم باسم القاتل، فلم يذعنوا لهذا الأمر، بل راحوا يثيرون السؤال تلو السؤال عن البقرة وأوصافها، ولم تطاوعهم أنفسهم على ذبحها إلّا بعد أن انقطعت معاذيرهم، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾!!

ونلتقي أيضاً بقصة العبد الصالح المغمور، الَّذي وهبه الله تعالى من لدنه علماً، ينفذ به إلى ما وراء ظواهر الأشياء، فيعرف أسرارها وخفاياها، وقد أمر الله تعالىٰ نبيّه موسىٰ أن يرحل إليه، فالتقىٰ به عليه السلام في (مجمع البحرين)، وطلب منه الإذن بمرافقته، للاستزادة من علمه، فأجابه العبد الصالح: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾، ثم بيّن له السبب الموجب لعدم إمكانية الصبر، بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ولم تعرفه معرفة تامة؟

وعده موسىٰ بالصبر والطاعة المطلقة، فاشترط عليه العبد الصالح أن لا يسأله، إذا اتّبعه، عن أي شيء يفعله، بل ينتظر إلى أن يبتدِئ هو بالكلام، ويميط

اللثام عن سرّه وحكمته، فسارا معاً، فخرق العبد الصالح السفينة الّتي كانا يركبانها، ثم قتل غلاماً بغير ذنب اقترفه، ثم تبرّع ببناء جدار مُشرف على الانهيار، في قرية أبىٰ أهلها أن يضيّفوهما، وكان موسىٰ في كلّ مرّة يعترض ويحتجّ على تصرّف العبد الصالح، وهو يذكّره بمّا قاله له في بداية اللقاء: ﴿**إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً**﴾ إلى أن جرى الاعتراض على التصرّف الأخير، وعندئذ ﴿**قَالَ**﴾ العبد الصالح لموسىٰ عليه السلام ﴿**هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**﴾، ثم أخذ يكشف الحُجُب عن أسرار ماقام به من أعمال، وما يختفي وراءها من مصالح، مقرّراً أن ما فعله كان بأمر الله، الّذي أطلعه على جانب من علم الغيب.

هذه هي خلاصة قصة نبي عظيم، زخرت حياته بجلائل الأعمال وغرر المآثر، فقد خاض صراعاً مريراً ضد الطغيان والفساد، وجاهد طويلاً من أجل عقيدة التوحيد ونهج السماء، وتحمّل مصاعب جمّة في سبيل تحرير أُمته، وصنع حياة جديدة لها، تعمر بالهدىٰ والإيمان، وترفل بالعزة والكرامة.

ثم ودّع عليه السلام دنياه، بقلب مكلوم، طافح بالحزن والأسىٰ علىٰ أُمّته التائهة في الصحراء، بسبب لجاجها وعنادها ونكثها للعهود، وعدم جهادها في طريق الأرض المقدّسة.

الدروس والعِبَر

في قصة موسى ﷺ، دروس وعبر جمّة، استخلص المفسّرون وأصحاب القصص القرآني، طائفة منها.

وها نحن نذكر جانباً منها، عسىٰ أن ينتفع القارئ الكريم بأضوائها:

١. إن الخضوع والاستسلام ـ لفترة طويلة ـ للظلم والاستبداد، ولسياسة البطش والفتك، يطمس في الأُمة الكثير من سماتها وصفاتها الإيجابية، ويُفقدها الإرادة والقدرة على الإصلاح والتغيير، ويسلبها الشعور بوطأة الذلّ والهوان:

من يَهُن يَسْهُلِ الهوانُ عليهِ ... ما لِجُرحٍ بميِّتٍ إيلامُ[1]

وهذا ما حدث بالفعل لبني إسرائيل، فتاريخهم الحافل بالدماء والدموع والكبت والقهر، قد خلق لهم تصوراً موهوماً بأنّ واقعهم المرّ الّذي يقاسونه، هو حقيقة ثابتة لا يَسَعهم تغييرها.

هذا التصور الّذي استمرأوا معه الذلّ، وجمّد عقولهم، وأخمد عزائمهم، وأذوىٰ تطلّعاتهم وآمالهم، وجعلهم أُمّة مشلولة ضائعة، قد كلّف موسىٰ ﷺ الكثير من المتاعب والمعاناة والآلام، وهو يحاول أن يوقظ شعورهم بالكرامة، وينفخ فيهم روح العزيمة، ويرتفع بهم إلى مستوى أُمّة، ذات كيان مستقل، متحرر من الهيمنة والظلم، قائم على العدل والمساواة.

---

١. قائله، المتنبي.

٢. يلجأ الطغاة، حين يفشلون في مواجهة القوى الّتي تتحدّاهم بالحجة والبرهان، وتنجح دعواتهم في اجتذاب القلوب، واكتساب الأنصار، يلجأون إلى تشويه سمعة تلك القوىٰ والتجنّي عليهم من ناحية، وإلى خداع الناس من ناحية أُخرى بادّعاء الحرص عليهم، والظهور بمظهر المدافع عنهم والمحامي عن مصالحهم.

وهذان الأسلوبان اعتمدهما الطاغية فرعون، ويتمثّلان في قوله للملأ حوله وهو يحذرهم من موسىٰ ﷺ: **﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾**،وفي قوله لموسىٰ والسحرة الذين آمنوا به عن قناعة: **﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾**.

٣. كان (آل فرعون) يستغيثون بموسىٰ ﷺ بعد كل بلاء يُصيبهم، ويَعِدونه، إذا رُفع عنهم، بالإيمان بنبوّته، وإرسال بني إسرائيل معه، بيد أنّهم كانوا ينكثون وعدهم في كل مرة، ويعودون إلى سيرتهم الأُولىٰ.

وهذا يؤكد أن طبيعة الظالمين اللئيمة، هي التعالي والاستطالة والتنمّر في أيام القوة واليُسر والرخاء، والتذلّل والتملّق والاستنعاج في أوقات الضعف والعسر والشدة.

من هنا، ينبغي عدم الانخداع بتوسّلهم، وتَبصبُصهم، ولَقلقةِ ألسنتهم بالتوبة والرجوع عن المعاصي والآثام، بل لابدّ من التزام الحذر منهم، ريثما تكشف الأيام عن صدق نواياهم من خلال حسن سيرتهم، وجميل أفعالهم.

٤. إن الأُمّـة الّتي ترغب عن المقاومة والجهاد، وتُخلد إلى الأرض، وتؤثر الحياة الرخيصة، سوف تصبح أُمّة ضائعة، حائرة، متفكّكة، ذليلة الجانب.

وهي لن تجد الأمن والسلام، إذ تبحث عنهما في الخنوع والاستسلام

ولن تنعم بالراحة والهناء، وهي تنأىٰ عن الجدّ والاجتهاد

ولن تَنال العزّ، وهي تستهلك أيامها في الشهوات والملذات

ولن تُدرِك الرقيّ والعُلىٰ، وهي تخشىٰ مواجهة الصعاب، فصعبُ العُلىٰ في الصعب والسَّهل في السَّهلِ.(١)

وفي هذه القصة، تتجلّىٰ لنا النهاية القاتمة لبني إسرائيل، إذ عاشوا أربعين سنة في صحراء سيناء، وهم تائهون، حائرون، محرومون من نعمة الاستقرار وبناء الحياة الكريمة، بسبب جُبنهم وتخاذلهم، وتقاعسهم عن الجهاد، طلباً للعافية والسلامة.

قال أمير المؤمنين علي ﷺ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱلْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْجَنَّةِ، فَتَحَهُ ٱللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ. وَهُوَ لِبَاسُ ٱلتَّقْوىٰ، وَدِرْعُ ٱللهِ ٱلْحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ (٢) ٱلْوَثِيقَةُ فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً (٣) عَنْهُ أَلْبَسَهُ ٱللهُ ثَوْبَ ٱلذُّلِّ، وَشَمِلَهُ ٱلْبَلَاءُ، وَدُيِّثَ (٤) بِالصَّغَارِ

١. شطر بيت للمتنبي، وأوله: ذَريني أنلْ ما لا يُنال من العُلىٰ

٢. جُنَّتُه: وقايته، والجُنَّة: كل ما استترتَ به.

٣. رغبة عنه: زُهداً فيه.

٤. دُيِّث: من ديَّثَهُ أي ذلّلَهُ.

وَٱلْقَمَاءَةِ [١]، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ [٢]، وَأُدِيلَ ٱلْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ ٱلْجِهَادِ، وَسِيمَ ٱلْخَسْفَ [٣]، وَمُنِعَ النَّصَفَ [٤] [٥].

٥. يسعى المترفون الطاغون في كثير من الأحيان ـ إلى تحقيق مصالح وأهداف إضافية، يتوخّونها من الأموال الطائلة الّتي في حوزتهم، وذلك باستغلال الاعتبارات الزائفة الّتي يسبغها أغلب الناس على أصحاب المال والثروة، والّتي تُستوحىٰ من خارج نطاق دور المال ووظيفته في الحياة.

والنموذج الحيّ لهذا الاستغلال البشع، هو (قارون) الّذي قام باستعراض كبير لزينته وأمواله، لكي يشبع غروره وزهوه أمام المخدوعين بالمال، ويعزّز مقامه الاجتماعي أكثر، ويضاعف استغلاله وظلمه للآخرين.

ومن هنا يجب تصحيح المقاييس في المجتمع، ولفت نظره إلى القيم والاعتبارات الحقيقية الّتي يوزن بها الأفراد، والّتي تتجسّد بمقدار عطائهم ونفعهم للناس، فقيمة كل امرئ ما يحسنه، كما يقول الإمام علي عليه السلام .

وما أصدق الشاعر أبا فراس الحمداني، حين يقول:

غِنى النفس لمن يعقـ ـل، خير من غنى المالِ
وفضل الناس في الأنفـ ـس، ليس الفضل في الحالِ

---

١. القماءة: الصَّغار والذل.

٢. الإسهاب: ذهاب العقل أو كثرة الكلام. وروي: بالأسداد: جمع سد، أي الحُجُب.

٣. سيم الخَسْف: كُلِّف الذلّ والمشقة.

٤. النَّصَف: العدل.

٥. نهج البلاغة: ٦٩، الخطبة ٢٧.

٦. إنّ المتحمّل لمسؤولية الدعوة إلى الله والمبادئ والقيم الرسالية، لا يدبّ إليه اليأس من وصول كلمته إلى كلّ موقع ومكان، لأنّ كلمته بما تحمل من حق وصدق وواقعية، قادرة على اختراق كل الحواجز مهما تعدّدت، وبدت سميكة، وستجد مَن يسمعها ويتلقّفها ويهفو لها، وإن سادت أجواء الكبت والظلم والطغيان، وتعالىٰ ضجيج اللهو والعبث والفساد، ما دامت هناك نفوس طيبة، وصدور سليمة.

وفي هذه القصة، نجد كلمة الحق والإيمان تقتحم كل الأسوار لتنساب إلى قصر أعتى الجبابرة (فرعون) بل إلى حجرته، فتمسّ شغاف قلب امرأته (آسية)، الّتي استحالت إلى شعلة إيمان وعزم وثبات، عجز الطاغية ـ بكل ما أُوتي من وسائل القوة والسطوة والإغراء والإغواء ـ عن إطفائها، أو التقليل من توهّجها.

كما انسابت هذه الكلمة إلى أروقة قصر فرعون، لتجتذب قلب (مؤمن آل فرعون)، الّذي كان يكتم إيمانه، حرصاً منه على الذود عنها وحمايتها من أعاصير الطغيان، وذلك بأسلوب ينمّ عن ذكاء وعلم وحكمة وبُعد نظر.

٧. إنّ الإنسان المتحلّي بالصلاح، المُزدان بالاستقامة، يقطف ثمار صلاحه واستقامته في الدنيا والآخرة: أمناً وطمأنينةَ نفسٍ في الأُولىٰ، ونعيماً ورضواناً من الله في الأُخرىٰ.

وقد تمتد الآثار الطيّبة لصلاحه إلىٰ من يحبّ ممّن يرتبط معه بعلاقة خاصة، فتقرّ عينه، وتندىٰ روحه، وهو يشعر بأن آثار صلاحه قد انتفع بها أبناؤه

الذين كان يسعىٰ من أجل أن يوفّر لهم ما يبعث على سعادتهم وهنائهم واستقرارهم.

وهذا الدرس نستلهمه من قصة العبد الصالح، الّذي اتّبعه موسىٰ ﷺ ليسترشد بعلمه، حيث أقام ـ بأمر من الله تعالىٰ ـ جداراً يوشك على الانهيار، بُغيةَ حفظ الكنز المدفون تحته من الضياع، وكان هذا الكنز مُلكاً لغلامين يتيمين، وكان أبوهما صالحاً، فأراد سبحانه ﴿أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ رحمةً منه تعالىٰ بعباده المُحتاجين إلىٰ لطفه ورعايته.

١٥

النبي داود عليه السلام

النبي داود من أنبياء بني إسرائيل . حاز مقام الإمامة بعد النبوة، فصار نبياً ملكاً مدبراً لأُمورهم . ورد اسمه في القرآن الكريم (١٦) مرة[1]، وذكرت قصته في السور التالية: البقرة، الأنبياء، النحل، سبأ، ص، وقد تضمنت سورتا «البقرة» و«ص» ممّا يرجع إلى حياته أكثر من السور الباقية.

شارك عليه السلام في قتال العمالقة [2] وتمّ الفتح علىٰ يديه، فصار ذلك سبباً لبلوغه المناصب العليا، ولأجل التعرف على سيرته وجهاده في تبليغ دعوته، نذكر شيئاً ممّا يرجع إلى قصة هذه الحرب .

دخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة بقيادة يوشع بن نون، وسكنوا فيها، وقسّم ذلك القائد الأراضي بينهم، وكان هو القاضي في اختلافاتهم وخصوماتهم، وبقي الأمر على هذا المنوال بعد رحيله، إذ وليَ أمرهم قضاة منهم من غير أن يكون لهم ملك أو سلطان، وكان الأنبياء مرشدين لأُولئك القضاة، وقد يكون النبي قاضياً في بعض الأحيان.

وكانت تقع ـ في أثناء تلك الفترة ـ حروب واشتباكات بينهم وبين العمالقة،

---

١ . البقرة: ٢٥١، النساء: ١٦٣، المائدة: ٧٨، الأنعام: ٨٤، الإسراء: ٥٥، الأنبياء: ٧٨و ٧٩، النمل: ١٥و ١٦، سبأ: ١٠و ١٢، ص: ١٧و ٢٢و ٢٤و ٢٦و ١٣٠ .

٢ . وهم الكنعانيون الّذين أخرجهم بنو إسرائيل من أرض فلسطين.

يَغْلِبون فيها تارة ويُغلبون أُخرىٰ، وقد أُسِرت ـ في بعض الحروب ـ جماعة من بني إسرائيل بيد هؤلاء العمالقة.

وكان عند بني إسرائيل التابوت الّذي أنزله الله علىٰ أُمّ موسىٰ فوضعت فيه ابنها وألقته في البحر، وكانوا يعظّمونه ويتبرّكون به، فلما حضرت موسى الوفاة وضع فيه الألواح ودرعه وما كان عنده من آثار النبوة، وأودعه عند وصيه يوشع بن نون، فلم يزل بنو إسرائيل في عزٍّ وشرف ما دام التابوت عندهم، ولما حصل اشتباك بينهم وبين العمالقة غلبوهم وأخذوا منهم التابوت الّذي كانوا يحملونه في الحروب وما ذلك إلّا بسبب استخفافهم به، فصار ذلك سبباً لذلتهم وهوانهم.

ولأجل الخروج من المهانة، طلبوا من أحد أنبيائهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون في سبيل الله معه، حتّى يستردوا الأراضي المغتصبة منهم، ويطلقوا سراح أُسرائهم.

فاستجاب الله دعوتهم، فبعث لهم طالوت ملكاً، ليقاتلوا تحت قيادته، ولكنهم اعترضوا وجادلوا نبيهم في شأنه، كما هو مسطور في القرآن الكريم.

وكان داود أحد قواد جيش الملك، ثم بزغ نجمه بعد قتلِهِ عدوَّ الله جالوت. وفي ظل الشجاعة والجهاد آتاه الله المُلك والحكمة وعلَّمه ممّا يشاء.

هذا هو سرد إجمالي للأحداث الّتي سبقت ورافقت اشتهار اسم داود، وتعريف مختصر به في ضوء ما ذكره بعض المفسرين [1] وما دلّت عليه بعض الآيات النازلة في هذا الشأن. وإليك الآيات الّتي أشارت إلى تلك الأحداث:

١. انظر: مجمع البيان: ١ / ٣٥٠؛ قصص الأنبياء للنجار: ٣٠٣، وفيه: أن بني إسرائيل مكثوا (٣٥٦) سنة بعد موسىٰ عليه السلام، وليس فيهم ملك.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلاَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١].

***

وإليك تفسير الآيات:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ﴾.. الأشراف ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ﴾ رحيل ﴿مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾، قيل: هو صمويل، وقيل: شمعون ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ وكان سبب سؤالهم استذلال الجبابرة لهم لمّا ظهروا عليهم وغلبوهم على قسم من ديارهم وسبوا كثيراً من ذراريهم بعد أن كانت الخطايا في

١. البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٤٨.

بني إسرائيل قد فشت، وعظمت فيهم الأحداث، ونسوا عهد الله تعالىٰ .

وما سألوا ملكاً إلّا ليصبح أميراً عليهم تنتظم به كلمتهم ويجتمع أمرهم ويستقيم حالهم في جهاد عدوهم ﴿قَالَ﴾ نبيهم ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾.. لعلكم إن فُرض عليكم القتال ألّا تفوا بما تقولون، وتجبنوا فلا تقاتلوا ﴿قَالُوا﴾ الملأ ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾.. لأيّ سبب نترك القتال في سبيل الله ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ وقد غصبت أوطاننا وسبيت أولادنا فلماذا نرغب عن القتال، وقد صرنا أذلّاء؟ فلا سبيل لاسترجاع عزّنا وخلاصنا من الذل إلّا القتال في سبيل الله ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾وبعث الله لهم ملكاً لكي يقاتلوا معه أعداءهم ﴿تَوَلَّوْا﴾ تولىٰ أكثرهم ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ ولم يستجب إلّا القليل منهم ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ الذين تخلفوا عن الجهاد، وظلموا أنفسهم بمعصية الله تعالىٰ.

٢. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ أي جعله ملكاً، وكان طالوت من ولد بنيامين بن يعقوب ﴿مَلِكاً﴾ أي أميراً على الجيش، فعند ذلك قام الأشراف من الناس، فقالوا ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ وقد تضمن هذا الكلام اعتراضين :

الأوّل: أنّهم أَولىٰ بالمُلك منه، وقد ذكر المفسرون أنّ نسب طالوت ينتهي إلى «بنيامين» ولم يكن هو نبيّاً ولا من أولاده من هو نبيّ.

الثاني: انّه إنسان فقير لا مال له، والمَلك لابد له من المال حتّى يصرفه في سبيل أهدافه، وكأنّ القوم يرون أنّ الملاك في من يتولىٰ القيادة وشؤون الحرب أمران:

١. عراقة النسب .

٢. الثروة والمال.

وهنا ؛ بيّن لهم نبيّهم أهليته لهذا المنصب، للأُمور التالية:

١. اصطفاء الله له عليهم.

٢. سعة علمه.

٣. كفاءته وشجاعته.

قال هذا النبي : ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ اختاره عليكم ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ أي فضيلة وسعة ﴿فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ إذ انّه كان أعلم بني إسرائيل في وقته وأجملهم، وأتمّهم وأعظمهم جسماً وأقواهم شجاعة، فلذلك نال مقام الملك من الله سبحانه ﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فالله مالك الملك يعطي الملك من يشاء ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ﴾.. واسع الفضل ﴿ عَلِيمٌ﴾ بمن ينبغي أن يؤتيه الملك.

كان بنو إسرائيل كثيري اللجاج والعناد مع أنّ نبيّهم (صمويل) أكّد بأنّ الله عيّن طالوت ملكاً من عنده، وأنّه اصطفاه عليهم وزاده بسطةً في العلم لتدبير أُمورهم وسياسة شؤونهم، وبسطةً في الجسم ليكون أعظم خطراً في القلوب، وأقوىٰ على المقاومة وممارسة الحرب، إلّا أنّهم لم يخضعوا لأمر نبيهم ووقفوا منه ـ كما هو دَيدنهم ـ موقف الجحود والعناد، ومع ذلك فقد شملتهم عناية الله تعالىٰ، إذ أيّد المَلِك بآية باهرة يثبت بها أنّه مبعوث من الله سبحانه، وهذه المعجزة هي أن يأتيهم طالوت بتابوت العهد (بعد إن كان بيد العمالقة عدة شهور، كما يقول المؤرخون)، وإليه يشير قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ

﴿يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ أي التابوت الّذي مضى شرحه، وقد وصف التابوت بأوصاف ثلاثة:

أ. ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ والسكينة فعيلة بمعنى الاطمئنان والهدوء، وقد كان من بركة التابوت أنّه إذا كان بينهم في حرب أو سلم كانت نفوسهم واثقة بحسن المنقلب.

ب. ﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ روي أنّه كان فيه بقايا من آثار الألواح والثياب الّتي لبسها موسى وأخوه هارون، وعصاه. قال الطبرسي: والبقية جائز أن تكون بقية من العلم أو شيئاً من علامات الأنبياء.(١)

ج. ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وكفىٰ بذلك شرفاً له وكرامة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

الدين والسياسية: لا ينفكّان عن بعضهما

مُني الدين بمحنة كبرىٰ على يد الإنسان الغربي، بسبب ما طرأ عليه من تحريف وتزوير وما أُلصق به من خرافات وأساطير، جعلته بمنأىٰ عن الحق والصدق، وعن تلبية حاجات الإنسان ومتطلّباته، وبسبب سوء استغلاله من قبل الكنيسة الّتي أفسدت وطغت وتجبّرت وكبّلت الناس بقيودها المصطنعة، إلى غير ذلك من الأسباب الّتي دفعت الإنسان الغربي إلىٰ مقاومته مقاومة عنيفة، وإلى المناداة بفصله عن السياسة بل عن مسرح الحياة في كافة جوانبها، والاقتصار منه على بعض الشعائر، الّتي تُترك للفرد حرية ممارستها في داخل الكنيسة.

---

١. مجمع البيان: ٢ / ١٨٤.

هذا الشعار: فصل الدين عن السياسة أو الدولة، انتقل إلى الديار الإسلامية، بسبب نفوذ الغرب، وسيطرته عليها، وقد روّجت له: الفئات السائرة في ركاب الاستعمار والمتبنّية لسياسته ومخططاته، ودعاةُ العلمانية وأنصارها، الذين يسعَون إلى الاستئثار بالسلطة، وتطبيق القوانين والأنظمة الوضعية، وإبعاد الإسلام وعلمائه عن ميدان الحياة العامة، والطّبقةُ المخدوعة بالغرب، المبهورة بإنجازاته المادية، فتنكّرت للإسلام، جهلاً به، أو أنّها لا تعرفه إلّا معرفة سطحية، ولو أنهم أدركوا حقيقة الإسلام، ومايمتاز به من شمولية وعمق لما تفوّهوا بمثل هذا الشعار.

فالإسلام نظام متكامل، يعالج مختلف شؤون الحياة، وينسجم مع الفطرة الإنسانية، ويحقق لها مصالحها المادية والروحية، ويكفل لها سعادتها في الدنيا والآخرة، من خلال ما تزخر به شريعته من نصوص وأحكام في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والقضائية والدولية، وغيرها.

إنّ تحكيم الإسلام في واقع الحياة، ليس أمراً خاضعاً لاختيار الإنسان، بل هو أمر إلهي، أكده القرآن الكريم والسيرة النبوية والخلافة العلوية وآثار أئمة أهل البيت عليهم السلام، قال تعالىٰ مخاطباً النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[1]، وقال: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ**﴾[2].

---

١. الجاثية: ١٨.

٢. الأحزاب: ٣٦.

إنّ السياسة مشتقة من ساس يسوس سياسة أي تدبيراً، والسياسة الّتي هي تدبير أمر المجتمع في ظل أحكامه سبحانه كانت هي الغاية من بعث الأنبياء والمرسلين، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ الْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1] وقيام الناس بالقسط هي الغاية من إرسال الرسل، وهو فرع وجود دولة قوية مؤمنة بالقسط الّذي هو رمز العمل بالأحكام السياسية والاجتماعية ولذلك كانت السياسة والديانة من عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى العصور المتأخرة مجتمعتين لا تنفكان عن بعضهما.

نعم عندما قامت الثورة الفرنسية في وجه الكنائس والبابا وأعوانه حاولوا فكّ الدين عن السياسة انتقاماً منهم، وأشاعوا تلك الفكرة، فخصّوا أعمال الكنائس بالأمور العبادية ، وفَصلوها عن كل ما يمتّ إلىٰ إدارة المجتمع آجلاً وعاجلاً، ثم سرت هذه الفكرة إلى البلاد الإسلامية، ـ كما ألمعنا سابقاً ـ وربّما استند بعض من يدعون إلى فصل الدين عن السياسة إلى ما ورد في الآيات موضع البحث هنا، حيث كانت أُمور الدين مفوضة إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل، وأمّا شؤون السياسة والحرب والصلح فقد كانت بيد ملك اسمه طالوت، ولم يكن نبياً، بل ولد وتربىٰ في بيت لم يُبعث فيه أي نبيّ، لأنّه كان من أولاد بنيامين ولم يوجد فيهم في العصور المتقدمة إلى يعقوب أي نبي.

ولكن الاستظهار باطل جداً، وذلك لأنّ المَلك الّذي تولّى الشؤون السياسية

---

١. الحديد: ٢٥.

قد عيّنه نبيهم بأمرٍ من الله سبحانه، حيث قال: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾ فكان مُلكه وسلطته من شؤون نبيهم «صمويل» فهو الّذي سمّاه ملكاً ودعا الناس إلى طاعته والسير في ركابه، غاية ما في الأمر أن المصالح قد اقتضت حينذاك إلى تقسيم إدارة شؤون المجتمع، ففوَّض بعضها إلى النبي، وفوَّض بعضها الآخر إلى الملك، وأين ذلك من فصل الدين عن السياسة؟!

***

إنّ اعتراض القوم على اختيار طالوت ملكاً كان مبنياً على أمرين:

١. أحقّيّتهم بالملك منه، إذ في بيوتهم نور النبوة.

٢. كونه فقيراً وهم أغنياء.

أمّا الاعتراض الأوّل فمبني على السياسية العرقية، فإنّ السياسة الدينية ليست أمراً موروثاً حتّى يرثه الابن عن الأب بملاك الوراثة وإنّما هي خاضعة للمصالح، فربما تقتضي المصلحة تفويض التدبير إلى رجل عالم شجاع وإن لم يكن من بيوت الأنبياء، كما هو الحال في طالوت الّذي يصل نسبه إلى بنيامين بوسائط كثيرة، ولم يكن في أولاده مَن تشرّف بالنبوة.

وأُخرى تكون المصالح خلاف ذلك بإعطاء السلطة لبيوت الأنبياء عليهم السلام كما هو الحال في داود وابنه سليمان وهما من ملوك بني إسرائيل ؛ وبذلك يُعلم أنّ الإمامة عند الشيعة الإمامية ليست بملاكات الوراثة بل بملاكات خاصة مذكورة في محالّها، وقد تجتمع هذه الملاكات في أحد المعصومين مع الوراثة.

مسير طالوت إلى جهاد العدوّ

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَ جُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1].

***

لمّا تقدم الجيش بقيادة طالوت في طريقه إلى ميدان المعركة، امتحنهم الله تعالىٰ بنهر كان أمامهم وكانوا يَشكُون من قلة الماء وخوف التلف من العطش، فاختبرهم بالامتناع عن شرب ماء هذا النهر، فمن أمسك نفسه وتحمّل العطش، فقد أثبت بصبره وثباته أنّه من أصحاب طالوت، وأمّا من شرب منه حتّى ارتوىٰ،

---

١. البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥٢.

فقد أثبت بعدم ثباته أنّه ليس من أصحاب الجهاد والقتال ولا يليق أن يُعتدّ به، وقد استُثني: ﴿مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ .

فلما وردوا الماء توفرت دواعيهم إلى الشرب منه عطشاً وشهوة إلّا القليل منهم، وبذلك ثبت أنّ كثيراً منهم ليسوا من رجال الحرب والدفاع، لأنّهما رهن الصبر على الشدائد، والقوم كانوا يفقدون هذه المزية ، فمنعهم طالوت عن مصاحبته.

ثم واصل طالوت السير مع أصحابه المختبَرين ، فلمّا وصلوا إلى ميدان الحرب وتقابل الجيشان أظهر جيش طالوت المختبَرون العجزَ لقلة عددهم وكثرة عدد العدو، ومع ذلك كان فيهم من يشجّع على الحرب مستدلين بأنّه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله سبحانه، وفي تلك الحرب غير المتوازنة صار النصر حليف بني إسرائيل حيث قُتل رأس عدّوهم (جالوت) بيد أحد قادة بني إسرائيل، أعني: داود عليه السلام.

هذا مجمل القصة وإليك تفسير تلك الآيات:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ وتجاوز مساكنهم وقراهم الّتي خرجوا منها ﴿قَالَ﴾ طالوت ﴿إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ أي مختبركم وممتحنكم به ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ﴾ من النهر وهو كناية عن شرب مائه ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي ليس من أصحابي وممّن يتبعني ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي ومن لم يطعم من ذلك الماء، والطعم هو الذوق ويستعمل في الماء والطعام ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي من أوليائي ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فهو من أصحابي، والاستثناء راجع إلى منطوق

الجملة الأُولىٰ، وهي: فمن شرب منه فليس مني، إلّا من اقتصر علىٰ شرب مقدار ملء كفّه.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وهم الذين لم يخالفوه ﴿قَالُوا﴾ أي بعضهم لبعض ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾. لقد هالتهم كثرتهم، فأحسّوا بالضعف والهزيمة الروحية، فانبرت الفئة القليلة المؤمنة، تخاطبهم بما يوحي إليها إيمانها الصادق وإرادتها الصُّلبة المستمدة منه ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللهِ﴾ أي الخُلّص الذين تيقّنوا لقاء الله وتوقّعوا ثوابه ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ﴾ أي فرقة ﴿قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ هزمت فرقة كثيرة ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ ونصرته ﴿وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي مع الثابتين في ميدان الحرب والدفاع، ولم تُزلزل أقدامَهم كثرة الأعداء وقوّتهم.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَ جُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

وهكذا اتجهت هذه الفئة المؤمنة (طالوت والذين آمنوا معه) إلىٰ بارئها حين برزت ﴿لِجَالُوتَ وَ جُنُودِهِ﴾ ليفيض عليها الصبر الّذي تحتمل به شدائد الحرب، وتطلب منه التوفيق للثبات في ميدان المعركة، فلا تضطرب أو تتراجع خوفاً ورعباً، وتستمد منه العون على بلوغ أهدافها الإلهية في جهاد الكافرين وتحقيق النصر الحاسم عليهم.

لقد استجاب الله سبحانه دعاء هؤلاء المؤمنين ذوي النيّات الصادقة والإيمان الخالص والعزم الراسخ، وأخذ بأيديهم إلى النصر، فهزموا الأعداء وكسروا شوكتهم ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ﴾ .

أمّا الموقف البارز في هذه المعركة، فهو مصرع قائدهم الجبار (جالوت) على يد داود ﷺ، الّذي منحه الله تعالىٰ بعد ذلك مُلك بني إسرائيل، واختاره للنبوة، ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من أُمور الدين والدنيا.

طالوت بين القرآن الكريم، والعهد القديم

أشاد القرآن الكريم بشخصية (طالوت) ومواقفه، وبيّن مزاياه الّتي اختاره الله من أجلها ملكاً علىٰ بني إسرائيل ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَ زَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ﴾، كما تحدّث عن قوة إرادته وثباته مع الفئة القليلة المؤمنة من جنوده في ميدان المعركة، وهم يواجهون عدواً شرساً يملك من العُدّة والعدد الشيء الكثير.

وبكلمةٍ، إن القرآن الكريم ذكر عنه كل خير، ولم يذكره بسوء أبداً.

أمّا سِفْر صموئيل الأوّل، فقد أثنىٰ على طالوت (الّذي سُمّي فيه شاول) في البداية، ثم أخذ يذكر عصيانه ومخالفته للربّ، الّذي خلعه من منصبه، كما ورد ذلك على لسان صموئيل تحت فقرة: **الربّ ينبذ شاول.**

(فكان كلام الربّ إلى صموئيلَ قائلاً: «إنّي ندمتُ على إقامتي شاوُل مَلِكاً، لأنّه ارتدّ عن اتّباعي ولم يعمل بأمري». فغضب صموئيل وصرخ إلى الربّ كلّ ليله).

ثم أسهب هذا السِّفْر في الحديث عن حسد شاول لداود بعد انتصاره الكبير علىٰ (جالوت) واشتهار أمره بين الناس، ومحاولات شاول لاغتياله والتخلص منه، واضطرار داودﷺ إلى الهرب منه .

وهذا الأسلوب المقيت القائم على انتقاص الأنبياء والعظماء، ووصمهم بكل قبيح، هو الأسلوب المتَّبع عند اليهود، وقد طفحت به التوراة الرائجة (المحرّفة)، الّتي دنّست ساحة الأنبياء والعظماء، ونسبت إليهم اقتراف الآثام وارتكاب الفواحش والمحرَّمات من الزنىٰ والكذب والمكر وسفك الدماء وشرب الخمور، ولم تُبقِ لهم أية حرمة وكرامة.

وهذا يدلّ على أنّ هذه الكتب لا تمتّ إلى الوحي بصلة، وأنّ القرآن الكريم الّذي نزّه ساحة جميع الأنبياء وخلا عن التناقضات والاختلافات، هو الكتاب السماوي الوحيد الّذي صانه الله تعالىٰ من التحريف والتزوير والاختلاف، وبهذا استحق أن يكون مرجعاً لتمييز الحق من الباطل، ويصبح رقيباً وحافظاً وشاهداً على سائر الكتب، كما قال تعالىٰ: **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾**[١].

ونحن لا نريد هنا أن نستعرض الموارد الّتي وقع فيها التحريف والتزوير في العهدين: القديم والجديد، ولا أن نكشف عن التناقضات الّتي حفلا بها، ولكن نرىٰ من المفيد أن نورد في هذا المقام بعض عبارات سِفْر صموئيل الثاني، الّتي تتعلق بما ألمّ بداود عليه السلام من حزن عميق، وألم مُمضّ، بعد أن بلغه نبأ مقتل شاول (طالوت):

(فأمسك داود ثيابه ومزّقها، وكذا جميع الرجال الذين معه. وناحوا وبكوا وصاموا إلى المساء على شاوُلَ ويوناتان ابنه وعلى شعب الربّ وبيت إسرائيل، لأنّهم سقطوا بالسيف... ورثى داود شاول ويوناتان ابنه بقصيدة الرثاء هذه. وأمر بأن تُعَلَّم بني يهوذا...

---

١. المائدة: ٤٨.

بهاءُ إسرائيلَ قتيلٌ على روابيك
كيف سقطت الأبطال
....
يا جبال الجلبوع لا يكن عليكم ندىً
ولا مطرٌ ولا حقول خصيبة
لأن هناك تلطَّخَ تُرسُ الأبطال
تُرس شاول لم يُمسحْ بدُهنٍ
بل بدم القتلىٰ وشحم الأبطال
قوسُ يوناتان لم يرجعْ إلى الوراء
وسيف شاول لم يرتدّ خائباً

وجاء تحت فقرة:

بلاغ إلى أهل يابيش

وأُخبر داود فقيل له: «إنّ أهل يابيش جِلعاد هم الذين دفنوا شاول» فأرسل داود رسلاً إلى أهل يابيش جلعاد، وقال لهم: «مباركون أنتم لدى الربّ، لأنكم صنعتم هذه الرحمة إلىٰ سيّدكم شاول ودفنتموه، والآن ليصنع الربّ إليكم رحمةً ووفاءً...).

هذه العبارات الّتي تمور بصدق الشعور ونبل العاطفة، وتزخر بالتقدير

والوفاء، تكشف عن العلاقة الحميمة الّتي تربط بين داود وطالوت، وتضع علامات استفهام كثيرة على الأخبار الّتي وردت في سفر صموئيل الأوّل بشأن تلك العلاقة، والّتي نقلها بعض المؤلفين في قصص الأنبياء، وكأنّها حقائق مُسلّم بها.[١]

مكانة داود ﷺ في القرآن الكريم

﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾[٢].

﴿وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾[٣].

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾[٤].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[٥].

﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.[٦]

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٧].

﴿وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

---

١. انظر على سبيل المثال: قصص الأنبياء للنجّار، ومع الأنبياء في القرآن الكريم لطبّاره.

٢. النساء: ١٦٣.

٣. البقرة: ٢٥١.

٤. الأنبياء: ٨٠.

٥. سبأ: ١٠.

٦. سبأ: ١٠ ـ ١١.

٧. ص: ٣٠.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[١].

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[٢].

هذه الآيات ترسم معالم شخصية عظيم من العظماء الإلهيين، بلغ الكمال الإنساني بصفاته وخصائصه الروحية والنفسية، وقد منحه الله تعالىٰ الملك والحكمة والعلم، وآتاه الزبور، وخصّه بنِعَمه الجسيمة الّتي تفوق حدّ التصور. وإليك التفصيل:

١. قد بلغ داود من السمو الروحي درجة صار بها مؤهّلاً لتلقّي الوحي الإلهي، يقول سبحانه: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾. ولكتابه هذا وما فيه من المضامين دويٌّ بين الكتب السماوية.

وقد بشّر في زبوره بانحسار الظلم والعدوان عن المجتمع البشري، وإحلال العدل والسلام محلّهما. هذا التبشير حكاه الله سبحانه عن الزبور في القرآن الكريم، فقال: ﴿وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ ﴾[٣].

---

١. ص: ١٧ ـ ٢٠.
٢. الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩.
٣. الأنبياء: ١٠٥.

وممّا يجب ذكره أنّ هذا النص موجود في الزبور حالياً، جاء فيه:

فـإنّ الأشـرارَ يُسـتَأصلـون وأما الذين يرجون الربَّ فالأرضَ يرثون

الشرّير عن قليل لا يكون تبحث عن مكانه فلا يكون

أما الوضعاء فالأرضَ يرثون وبسلامٍ وفيرٍ ينعَمون[1]

٢. انّ الله سبحانه يعطي الولاية لبعض عباده المتقربين إليه بالطاعات، فقد ورد عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: ـ في حديث ـ إن الله جل جلاله قال: ما يتقرب إليّ عبد من عبادي بشيء أحب إليّ ممّا افترضت عليه، وإنّه ليتقرب إليّ بالنافلة حتّى أُحبّه، فإذا أحببته كنتُ سمعَه الّذي يَسمع به، وبصرَه الّذي يُبصر به، ولسانه الّذي ينطق به، ويدَه الّتي يبطش بها، إنْ دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته.[2]

٣. إلانة الحديد بيده

وقد بلغ النبي داود بجهاده المتواصل في سبيل الله وطاعاته وعباداته إلى حد صارت إرادته مظهراً لإرادة الله سبحانه إنْ دعا أجابه، وإنْ سأل أعطاه، يشهد بذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ فصار في يده كالشمع يعمل به ما يشاء من غير أن

١. الكتاب المقدس: ١١٦٣ ـ ١١٦٤، سِفْر المزامير، المزمور ٣٧ (٣٦).

٢. الوسائل: ج ٤، الباب ٤ من أبواب أعداد الفرائض، الحديث ٦.

يدخله النار ولا أن يضربه بالمطرقة ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أي قلنا له اعمل من الحديد دروعاً تامّات ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾.

السَّرد نسج الدروع ولذا يقال لصانعها سرّاد، و «تقديرها» جعلها على قدر الحاجة، متناسبة الحَلَق.

وأشار القرآن إلى ذلك أيضاً، بقوله : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ وهي عمل الدروع ﴿لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ لغاية حفظ الإنسان في ساحة الحرب. وهذا لو دل على شيء فانما يدل على أنّ الصنعة إذا كانت في صالح الإنسان وحفظه فهي صنعة إلٰهية، وأمّا إذا كانت الغاية الفتك بالإنسان وتدمير الحضارة فهي على خلاف ذلك.

٤. تسبيح الطير والجبال معه

يقول سبحانه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾.[١]

إنّ هذه الأُمور الخارقة من إلانة الحديد بيده وتسبيح الجبال والطيور معه منبعثة من كمال نفساني يكون مصدراً لمثل هذه الأُمور، حتّى أنّ المعاجز الصادرة من الأنبياء هي فعل نفوسهم البالغة حدّ الكمال، فحيثما أرادوا فِعْل شيء، ترافقهم إرادة الله سبحانه كما يرافقهم ما بينهم وبين الطبيعة من العلل والمدبرات، وكل ذلك لا ينافي التوحيد في الخالقية والتدبير، فإنّ عالمَ الكون عالمُ الاسباب والمسببات والسبب الحقيقي هو الله تعالىٰ، وأمّا غيره فالجميع مجاري فيضه.

---

١. الأنبياء: ٧٩.

وما جاء في هذه الآيات يعود إلى كمالات داود المعنوية، وأما الكمالات الظاهرية فقد أوتي المُلك والحكمة ليسوس المجتمع بالعدل، ويدبر أمره تدبيراً إلهياً لا عوج فيه ولا أمتا، يقول سبحانه: ﴿وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾(١) ويقول أيضاً: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾(٢) أي قوينا ملكه بالحرس والجنود والهيبة وكثرة العدد والعُدَّة ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة ﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ أي العلم بالقضاء والفصل في الخصومات على أساس العدل، فكان مَلِكاً قديراً، ونبياً عظيماً، وقاضياً عادلاً، وفي الوقت نفسه كان ذا صوت حسن يقرأ الزبور بصوت جميل.

خليفة الله في الأرض

١. ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾(٣).

٢. ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

---

١. البقرة: ٢٥١.　　٢. ص: ٢٠.

٣. ص: ٢٦.

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[١].

٣. ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾.

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[٢].

داود ونصبه للقضاء بين الناس

إنّ منصب القضاء منصب إلهي لا يناله أحد إلّا بإذن من الله سبحانه، لأنّ القاضي يتصرف في الأموال والنفوس وليس لأحد التصرف فيها كيفما يشاء، وإنّما يختص ذلك بخالق الإنسان فإن خالقه أولىٰ بالتصرف فيه وفي أمواله.

ولأجل ذلك يعتبر في صحّة القضاء ونفوذه كونه مأذوناً من قبل الله سبحانه إمّا مباشرة كأنبيائه ورسله أو غير مباشرة كالمأذونين من قبلهم، ولذلك يقول الإمام

---

١. ص: ٢١ ـ ٢٥.　　٢. الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩.

علي عليه السلام لشريح: يا شريح قد جلست مجلساً لا يجلسه إلّا نبي أو وصي نبي أو شقي.[١]

وفي رواية أُخرى عن الصادق عليه السلام أنّه قال: اتقوا الله فإنّ الحكومة إنّما هي للإمام العالم بالقضاء، العادل في المسلمين لنبيٍ أو وصي نبي.[٢]

والله سبحانه آتىٰ هذا المنصب رجلاً، وصفه في كتابه المجيد بقوله: ﴿اذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٣]، فقد نعته بوصفين:

أ. **ذَا الأَيْدِ**: ذا القوة علىٰ طاعة الله والأعمال الصالحة.

ب. **إِنَّهُ أَوَّابٌ**: كثير الرجوع إلى ربّه في أُموره كلها، للفوز بمرضاته تعالىٰ.

ووصفه في آية أُخرى فقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطَابِ﴾[٤].

فمثل هذا الإنسان يليق به أن يكون خليفة لله في أرضه، فيقضي بين الناس بالحق ولا يتّبع الهوىٰ، كما قال:

﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ وكأنّ قوله: ﴿وَ لاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ إشارة إلى تخلية نفسه عمّا يسيء من الرذائل، كما أنّ قوله: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ إشارة إلى تحلية النفس باتّباع الحق.

---

١. الوسائل: ١٨، الباب ٣ من أبواب صفات القاضي، الحديث ٢.

٢. الوسائل: ١٨، الباب ٣ من أبواب صفات القاضي، الحديث ٦.

٣. ص: ١٧.

٤. ص: ٢٠.

اختبار داود عليه السلام

إنّ الإنسان مهما بلغ من السمو والكمال، لابدّ أن يتعرّض في الأُمور المهمة للاختبار والتمحيص، وقد اختبر الله داود قبل ان ينصبه للقضاء بالحادثة التالية:

بينما كان داود عليه السلام جالساً في محرابه [١] إذ دخل عليه خصمان من غير استئذان، متخطّيان السور، للتقاضي عنده، فارتاع لهذه المفاجئة، فبادرا إلى طمأنته، ثم عرض أحدهما القصة عليه، قائلاً: إنّ الشخص الآخر يملك تسعاً وتسعين نعجة، وهو يملك نعجة واحدة، فأراد الآخر أن يضمّ هذه النعجة إلىٰ نعاجه، ويجعلها في كفالته، فلا يزال يخاطبه في ذلك، حتّى غلبه في جداله ، وقد ألقىٰ صاحب النعجة الواحدة كلامه علىٰ وجه هيّج به رحمة النبي داود وعطفه.

فقضىٰ عليه السلام طبقاً لكلام المُدّعي من دون الاستماع إلى كلام المُدّعىٰ عليه، وقال: ﴿**لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ**﴾.

ولمّا تنبّه إلى أنّ ما صدر منه كان غير لائق بساحته، وأنّ رفع الشكوىٰ إليه كان فتنة وامتحاناً له منه سبحانه، ندم علىٰ ذلك ﴿**فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ**﴾.

وهنا اختلف المفسرون في تحديد جنس الخصمين، هل كانا بشرين أو

---

١ . المحراب: مجلس الأشراف الّذي يُحارب دونه لشرف صاحبه، ومنه سُمّي المصلىٰ محراباً، وموضع القبلة أيضاً محراب. التبيان في تفسير القرآن: ٨/ ٥٥١.

من الملائكة؟ الراجح هو الثاني للقرائن التالية:

١. استعمال القرآن لكلمة التسوّر قال تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ والمراد به الارتقاء إلى أعلى السور، ومن المعلوم أنّ دار شخصية كداود يكون محفوفاً بالحرس، فكيف يمكن للبشر أن يتسور ذروة الحائط ولا ينتبه له أحد؟!

٢. خطابهما لداود بقولهما: ﴿لاَ تَخَفْ﴾ مع أنّ هذا الخطاب لا يصدر من الرعية بالنسبة إلى الملك، بل هو أشبه بكلام ضيوف إبراهيم حيث قالوا له: ﴿ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[1].

٣. بما أنّ طرح الدعوىٰ كان اختباراً من الله سبحانه، ويهدف إلىٰ تعليمه كيفية القضاء، فأولىٰ أن يكون المرسَل ملكاً لا بشراً.

لو كان معصوماً فلماذا استغفر

دلَّ قوله سبحانه : ﴿اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾ على أنّ داود ندم على قضائه ولذلك طلب المغفرة، فعندئذ يطرح السؤال التالي:

انّه لو كان معصوماًفلماذا استغفر؟

ويمكن الجواب بوجوه ثلاثة:

أوّلاً: أنّ قضاءه لم يكن قضاء باتاً خاتماً للشكوىٰ، بل كان قضاء على فرض السؤال، وإنّ من يملك تسعاً وتسعين نعجة ولا يقتنع بها ويريد ضم نعجة أخيه إليها، ظالم لأخيه، وكان المجال بعد ذلك بالنسبة إلى المعترض مفتوحاً وإن

---

١. الحجر: ٥٣.

كان الأولىٰ والأليق بساحته هو أنّه إذا سمع الدعوىٰ من أحد الخصمين، أن يسأل الآخر عمّا عنده فيها، ولا يتسرع في القضاء ولو بالنحو التقديري.

وإنّما بادر إليه لأنّه ﷺ فوجئ بالقضية ودخل عليه الخصم بصورة غير عادية فلم يظهر منه التثبت اللائق به.

ولمّا تنبّه إلى ذلك وعرف أنّ ما وقع، كان فتنة وامتحاناً من اللّه بالنسبة إليه، ندم وتضرّع إلى الله وسأله المغفرة، تداركاً لما صدر منه ممّا كان الأولىٰ تركه، من جانب، وشكراً وتعظيماً لنعمة التنبّه الذي حصل له بعد الزلّة مباشرة، من جانب آخر.

وثانياً: انّ من الممكن أن يكون قضاؤه قبل سماع كلام المدّعىٰ عليه، لأجل انكشاف الواقع له بطريق من الطرق وانّ الحق مع المدّعي (هذا إذا كان الخصمان بَشَرين)، فحَكم طبقاً لعلمه بواقع الحادثة، لا طبقاً للبيّنة الّتي تقتضي استماع كلام المدّعىٰ عليه. نعم الأولىٰ به حتىٰ في هذه الصورة ترك التسرع في إصدار الحكم، والقضاء بعد الاستماع، ولمّا ترك ما هو الأولىٰ بحاله استغفر لذلك، ومن المعلوم أنّ ترك الأولىٰ من الأنبياء ذنب نسبي وإن لم يكن ذنباً علىٰ وجه الإطلاق.

وبعبارة أحد الأعلام: إن كلا الأسلوبين القضائيين: أعني طلب البيّنة، والحكم طبقاً للعلم، كانا جائزين له، غير أن متابعة العلم كان هو الأسلوب المرجوح في الشريعة الإلهية، لأنّه يتعذر استعماله دائماً ولكل أحد.. وكان من الراجح استعمال الأسلوب القضائي العام، وهو طلب البيّنة دائماً وبلا استثناء، حتىٰ لو كان خاطئاً أحياناً، ليستقيم القضاء علىٰ وتيرة واحدة عنده وعند غيره من الناس.

إذاً، فقد استعمل النبي داود عليه السلام الأُسلوب المرجوح في هذه الواقعة، وعرف بعد ذلك أن هذا كان امتحاناً، لأن الحادثة من موارد اختلاف الأسلوبين كما أشرنا، وكان الراجح استعمال الأسلوب الآخر، فخرّ راكعاً وأناب.[١]

وثالثاً: لمّا كانت الشكوىٰ مرفوعة إليه من قبل الملائكة، ولم يكن ذلك الظرف ظرف التكليف، كانت خطيئة داود في ظرف لا تكليف فيه، كما أنّ خطيئة آدم عليه السلام كانت في الجنة ولم تكن الجنّة دار تكليف، ومع ذلك كلّه لمّا كان التسرع في القضاء بهذا الوجه أمراً مرغوباً عنه، استغفر داود وأناب إلى اللّه استشعاراً بخطر المسؤولية، بحيث يعدّ ترك الأولىٰ منه ذنباً يحتاج إلى الاستغفار.

أضف إلى ذلك أنّه سبحانه امتحنه وابتلاه قبل أن يوليه القضاء والحكم بين الناس، والدليل عليه أنّ قصة الخصمين وردت في القرآن قبل قوله سبحانه: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ فلم يكن هناك قضاء حقيقي بل صورة تخاصم وصورة قضاء، فلو خالف الضابطة في باب القضاء فلا يُعدّ معصية.

زلّة لا تُستقال

وممّا يخجل القلم من نقله، ما شاع بين المحدثين في شأن هذين الخصمين، وهو أن داود عليه السلام قال: يا رب قد أعطيتَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الذِّكر ما لو وددتُ أنّك أعطيتني مثله. قال الله عزوجل: «إنّي ابتليتهم بما لم أبتلك

---

١. الشهيد السيد محمد محمد صادق الصدر، موسوعة الإمام المهدي، تاريخ ما بعد الظهور: ٥١٣ ـ ٥١٤ (ط. دار التعارف).

به، فإن شئت ابتليتك بمثل ما ابتليتهم به، وأعطيتك كما أعطيتهم» قال: نعم. قال له: فاعمل حتّى أرىٰ بلاءَك.

فكان ما شاءالله أن يكون وطال ذلك عليه، فكاد أن ينساه، فبينما هو في محرابه، إذ وقعت عليه حمامة فأراد أن يأخذها فطارت على كوّة المحراب، فذهب ليأخذها فطارت فاطّلع من الكوّة فرأىٰ امرأة تغتسل، فأعجبه حسنها وخلقها، فلما رأت ظله في الأرض جلّلت نفسها بشعرها، فزاده ذلك أيضاً بها إعجاباً، وكان قد بعث زوجها على بعض بعوثه فكتب إليه أن يسير إلى مكان كذا وكذا.. مكان إذا سار إليه قتل ولم يرجع، ففعل، فأُصيب، فخطبها داود ﷺ، فتزوجها.[١]

هذه الرواية (وما شابهها)، هي صياغة ملخّصة ومحسّنة لقصة فاضحة موجودة في سِفْر صموئيل الثاني (الإصحاح الحادي عشر) تتحدث عن ممارسة داود ﷺ للفاحشة!!!

وهكذا تتسرب الإسرائيليات إلى كتب المفسرين عن طريق مستسلمة أهل الكتاب، الذين حدّثوا بها، وتلقّاها بعض المحدثين غفلةً، باعتبارها حقائق راهنة، أو عن وعي لإرضاء الفاسقين من الحكّام والولاة، الذين يتلقّفون مثل هذه القصص والأخبار الّتي تنال من كرامة الأنبياء ومقاماتهم الرفيعة، لتبرير ظلمهم وفسادهم ولهوهم وعبثهم.[٢] وإليك إحدىٰ فقرات هذه القصة البشعة، كما

---

١. الدر المنثور: ٧ / ١٥٧ ـ ١٥٨.

٢. انظر ما كتبناه في ج ١، ص ٣٦٩ تعليقاً على الروايات الّتي تفسّر همّ يوسف ﷺ في قوله تعالى ﴿وهمّ بها﴾ بالعزم على ارتكاب الفاحشة.

وردت في السفر المذكور: وسمعت امرأة أورِيّا أنّ أُورِيّا زوجَها قد مات، فناحت على زوجها ولمّا تمّت أيام مناحتها أرسل داود وضمّها إلى بيته فكانت زوجةً له وولدت له ابناً. وساء ما صنعه داود في عيني الربّ.[١]

وقد علّق الطبرسي علىٰ هذه القصة بقوله: هذا ممّا لا شبهة في فساده فإنّ ذلك ممايقدح في العدالة، فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله الذين هم أُمناؤه علىٰ وحيه وسفراؤه بينه وبين خلقه بصفة من لا تقبل شهادته، وعلىٰ حالة تنفّر عن الاستماع إليه والقبول منه جلّ أنبياء الله في ذلك.[٢]

وقد روي عن أمير المؤمنين ﷺ أنّه قال: «لا أُوتي برجل يزعم أنّ داود تزوج امرأة أوريا إلّا جلدته حدّين، حدّاً للنبوة وحدّاً للإسلام».[٣]

وكأنّ من يروي هذه الخرافة شاء أن يطبّق موضوع القضاء على القصة، وهي أنّ داود ﷺ كان له تسع وتسعون زوجة ولم يكتف بهن حتّى ضم إليهن زوجة أوريّا. نعوذ بالله من وساوس الشيطان الرجيم.

قضاء داود وسليمان في الحرث

عرض لنا القرآن الكريم قصة الحُكم في مسألة الحرث (الزرع) بهذا الشكل الموجز: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾[٤].

١. الكتاب المقدس: ٥٩٢.
٢. مجمع البيان: ٤ / ٤٧٣.
٣. مجمع البيان: ٤ / ٤٧٢.
٤. الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩.

وقد تناولت الروايات هذه القصة بشيء من التفصيل، وإليك مضمون ما جاء فيها:

أقبل رجلان، أحدهما صاحب زرع، والآخر صاحب غنم، إلى داود عليه السلام للتقاضي عنده، فقال الأوّل: إنّ غنم هذا قد نفشت في زرعي، أي رعته ليلاً، فلم تُبقِ منه شيئاً، فحَكَم داود عليه السلام ـ بعد أن ثبت له ذلك ـ لصاحب الزرع أن يأخذ غنم خصمه عِوضَ ما أفسدته من زرع، فلمّا علم سليمان، قال لأبيه: الحُكم أن يأخذ صاحبُ الزرع الغنمَ، وصاحب الغنم الأرضَ، فينتفع بها الأوّل، ويتعهّدها الثاني إلى أن ينمو الزرع ويصبح كماكان، ثم يردّ كلّ منهما إلى خصمه ما تحت يده، فأقرَّ داود عليه السلام حكم ولده، الّذي ألهمه الله تعالى وجهاً آخر في القضاء ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمانَ﴾.

إنّ قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ يدلّ على أنّ ما قضيا به كان قضاءً صحيحاً جابراً للضرر من طريقين، وكان قضاء داود حقاً لأنّه مستند إلى تحميل المُتسبِّبين في إهمال الغنم مسؤولية ما لحق بالزرع من ضرر، وإلزامهم بدفع الغرامة، كما أن حكم سليمان كان حقاً، لأنّه مستند إلىٰ إعطاء الحق لذويه مع إرفاق المحقوقين باستيفاء مالهم إلىٰ حين، فهو يشبه الصلح .

وبتعبير آخر : إنّ الضرر الوارد على أصحاب الحرث يساوي قيمة الغنم الّتي تفرّقت في الزرع وأتلفته، وعلىٰ هذا الأساس قضىٰ داود قضاءً باتاً، وأمّا حكم سليمان فإنّما كان مبنياً علىٰ أساس أنّ فوائد الغنم في سنة كاملة تساوي ما تضرّر به أصحاب الحرث، فلو أخذوا الغنم واستفادوا من ألبانها وأصوافها لمدة سنة، فإنه يساوي الضرر الوارد عليهم.

والفرق بين القضاءين أنّ أصحاب الحرث يملكون الأصل، وبالتبع يملكون منافعها، فيكون القضاء قضاءً باتاً غير تدريجي بخلاف ما قضىٰ به سليمان فالأصل يبقىٰ علىٰ ملك أصحاب الغنم، وإنّما تنقل المنافع إلىٰ أصحاب الحرث، فيكون جبر الخسارة برفق ولين وبصورة تدريجية.

خلاصة قصة داود عليه السلام

ذاق بنو إسرائيل من بعد موسى ولفترة طويلة ألواناً من القهر والذلّ والهوان، لعصيانهم وخذلانهم، ونبذهم لشريعتهم ووصايا أنبيائهم، إذ شُنّت عليهم الحروب والغارات، وتوالت عليهم الهزائم والنكسات، وقاسوا مفارقة الأبناء والبلاد.

استفاق القوم من غفلتهم على أثر هذه الويلات، وبعث فيهم واقعُهم المهين حماساً وانفعالاً بضرورة العودة إلى الله، وانتهاج سبيل الجهاد والنضال، ليخلعوا عنهم أثواب الخنوع والذلة، ويلبسوا حُلل الكرامة والعزّة، فـ ﴿قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾ قيل: إنّه صموئيل: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾.

ولكن هذه الصحوة لن تظّل مشتعلةً في النفوس، ولن تصنعَ حياةً جديدة، ما لم ترتكز على إيمان خالص، وعقيدة راسخة، وإرادة قوية على التغيير، وصبر على احتمال المكاره والأهوال، ومن هنا ﴿قَالَ﴾ لهم نبيُّهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾، فـ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾.

وفعلاً، حصل ما توقّع نبيُّهم ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾.

وكان سبحانه قد جعل المُلك والقيادة لـ(طالوت) فاعترض القوم بحجّة أنّهم ﴿أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ فهم أعرق منه نسباً، وأنّه ﴿لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾

فهو قليل ذات اليد، ولكن نبيّهم ردّ عليهم بأنّ الله قد اختاره عليكم، وميّزه بصفتين تؤهّلانهِ لهذا المقام، وهما: القدرة العلمية، والقدرة الجسمية ﴿قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.

أراد طالوت ـ وقد سار بجنوده للقاء العدو ـ أن يمتحن صدقهم، ورصيدهم من العزم والطاعة والصبر، فـ ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ﴾ وارتوىٰ ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أمّا مَن لم يذُقْ منه ومن لم يشرب منه إلّا بمقدار ما يملأُ منه الكفَّ، فإنّه مني، كما قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾.

أخفق أكثرهم في هذا الامتحان، إذ أقبلوا على النهر ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾.

ثم واصل طالوت والذين آمنوا معه مسيرهم، إلى أن التقوا بجيش العدو الّذي يقوده (جالوت)، فلما رأوا كثرتهم، ارتاعوا منهم، ووهنت عزائمهم، و ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾.

وهنا انبرى المخلصون منهم، الذين (عَظُمَ ٱلْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ)[1]، فقالوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾ الّذي يؤيد بنصره مَن ينصره، ويصبر علىٰ مضض الجراح.

ثم زحفت هذه الفئة القليلة إلى الميدان، وصبرت للجلاد، وكان في طليعتها (داود) عليه السلام الّذي كان على يده مصرع قائدهم الشهير (جالوت)، وبمصرعه ولّىٰ جنوده الأدبار.

---

١. نهج البلاغة: ٣٠٣، الخطبة ١٩٣.

ثم شاء الله تعالىٰ ـ بعد أن علم منه الاخلاص والصدق ـ أن يهبَ داود المُلك، ويمنَّ عليه بالنبوة، ويؤتيه (الزبور) الّذي فيه مواعظ وأذكار وتسابيح لله.

كما خصّه سبحانه بتسخير الجبال معه يسبِّحن، وترجيع الطير معه حينما يرتّل الزبور بصوته الرخيم، وإلانة الحديد له، وتعليمه صناعة الدروع.

في ظل المزايا والمواهب الّتي تحلّىٰ بها داود، والنصر والتأييد والتمكين الإلهي، أقام عليه السلام لبني إسرائيل دعائم دولة ذات هيبة وقوة (ترسّخت وامتدّت أكثر في عهد ولده سليمان)، تحكمها قوانين السماء العادلة.

ولأجل أن يجسّد عليه السلام العدالة بأجلىٰ صورها، ولا يزيغ عنها قيد أنملة، اختبره سبحانه بهذه القضية: بينما كان عليه السلام في محرابه، إذ فوجئ بخصمين يقفان أمامه، كانا قد أتياه من أعلى السور، فذُعر منهما، فطمأناه، ثم عرض أحدهما القصة عليه ليقضي بينهما بالحق ولا يتجاوزه، وقال: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، فخاطبني فيها، طالباً مني أن أُعطيها إياه وأجعلها تحت كفالته، ولم يزل بي حتّى غلبني في نقاشه وجداله.

فلامستْ كلمات هذا المدّعي قلب داود وأثارت عواطفه، فقال من دون أن يستمع لكلام المُدَّعىٰ عليه: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾، ثم فطن إلى أن ما وقع، كان امتحاناً له من الله سبحانه، ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ لتعجّله في الحكم ﴿وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾.

لم تتأخر إجابة هذا العبد المتّصل قلبُه بالله، العائد إليه في كل شؤونه ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

وعرض لنا القرآن الكريم بإيجاز قضية الزرع الّتي حكم فيها داود وابنه سليمان عليهما السلام، ومفادها (كما يستخلص من الروايات): أنّ رجلين تقاضيا عند داود عليه السلام، أحدهما صاحب زرع، والثاني صاحب غنم، فأهمل الثاني غنمه فتفرّقت في الزرع، ورعته ليلاً حتّى أتلفتْه، فقضىٰ داود بأن يُعطي الثاني غنمه للأوّل تعويضاً له عما تحمّله من خسارة (وكان ثمن رقاب الغنم مساوياً لما أفسدته الغنم من الزرع، كما قالوا)، ولكنّ الله تعالىٰ ألهم سليمان وجهاً آخر للحكم بينهما ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمانَ﴾، وهو أن ينتفع صاحب الزرع بالغنم، ويتعهّد صاحبُ الغنم الأرض ويزرعها، إلى أن يصبح الزرع كهيئته الأُولىٰ، ثم يردّ كلٌّ منهما إلى خصمه ما تحت يده، فأمضىٰ داود حُكم ولده، وقد شهد الله تعالىٰ أنّه رزقهما العلم والسَّداد في الحكم ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾.

لقد بذل داود عليه السلام جهوداً جبارة في سبيل تحرير بني إسرائيل، والارتفاع بهم إلى مستوىٰ أُمّة ذات كيان مستقل، ونظام مستمَد من وحي السماء، يرتكز على دعائم الحق والعدل، ويعمر بالخير والسعادة، يقودهما ويسهر عليهما رجل (وهو داود عليه السلام) اجتمعت فيه مؤهلات الزعامة الدينية والدنيوية، فأنعم الله عليه بالمُلك والنبوة، وجعله خليفة في الأرض، موصياً إيّاه بترجمة هذا الشعار في واقع الحياة: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

الدروس والعبر

١. إن من يُوكَل إليه أمرُ تدبير شؤون الناس، والفصل بين المتخاصمين منهم، ينبغي أن يتمتع بأسمى الصفات، وأبرزها العدل.

فالعدل قوام الحياة السعيدة الكريمة الآمنة، والمجتمع الّذي يراعي حاكمه فيه موازين العدل، مجتمع قوي متماسك، تُشيع بين أبنائه روحَ الثقة والوئام والسلام، لشعورهم بأنّ حقوقهم مُصانة، وكراماتهم محفوظة، لا يُسمح لأحد بسلبها والتجاوز عليها.

ولا ريب في أنّ الحاكم غير العادل، الّذي يميل مع أهوائه وشهواته، ويفتح النوافذ أمام الأساليب الرخيصة والملتوية كالرشوة والشفاعة وألوان التزلّف والتملّق، إنما يدفع بالأفراد إلىٰ سلوك طريق الفساد والانحراف، وبالمجتمع إلى الفوضىٰ والتفكّك والانهيار.

وقد شاء الله سبحانه أن يختبر داود عليه السلام وهو الّذي أُوتي الحكمة وفصل الخطاب، أن يختبره في مسألة دقيقة (مسألة النِّعاج)، قبل أن يحمّله هذه الأمانة الثقيلة ويجعلَه خليفة في الأرض، ليرشده إلى وجوب التثبّت، وعدم المبادرة إلى إصدار الحكم قبل استيفاء الشروط اللازمة لذلك.

ولما نجح عليه السلام في هذا الاختبار ـ إذ استغفر ربّه لمّا عجّل في حكمه ولم يسأل المدّعي البيّنةَ علىٰ ذلك ولم يُقبل على المدّعىٰ عليه (كما روي ذلك عن الإمام علي الرضا عليه السلام) ـ استخلفه سبحانه، وقال له: ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً

فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ وهو سبيل الحق والعدل.

ومن هنا قال رسول الله ﷺ في حديث رواه الترمذي بسنده عن علي عليه السلام: (إذا تقاضىٰ إليك رجلان، فلا تقضي للأوّل حتّى تسمع كلام الآخر، فسوف تدري كيف تقضي) .

وكان النبي محمد وأهل بيته صلوات الله عليهم، المثل الأعلىٰ لتحرّي العدل وتجسيده في أقوالهم وسيرتهم العطرة.

ومن أروع ما ورد في هذا المجال، قول أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر رضي الله عنه، في عهده الخالد، الّذي كتبه إليه لما ولّاه مصر:

ثم اخترْ للحُكم بين الناس أفضلَ رعيّتك في نفسك، ممن لا تَضيقُ به الأُمور، ولا تُمَحِّكُهُ الخصوم، ولا يتمادىٰ في الزَّلّة، ولا يَحْصَرُ من الفَيءِ إلى الحقِّ إذا عَرَفَهُ، ولا تُشرفُ نفسُهُ على طَمَع، ولا يكتفي بأدنىٰ فَهمٍ دون أقصاه، وأوقفَهم في الشبهات، وآخَذَهم بالحجج، وأقلّهم تبرُّماً بمراجعة الخَصم، وأصبرَهم على تكشُّف الأُمور، وأصْرَمَهم عند اتِّضاح الحُكم، ممّن لا يَزدهيهِ إطراءٌ، ولا يَستميلُه إغراءٌ.[1]

٢. إنّ داود عليه السلام كان ينشد رضى الله تعالى في أقواله وأفعاله وأحكامه،

١. نهج البلاغة: ٤٣٤، قسم الكتب والرسائل، رقم الكتاب ٥٣. و (تُمَحِّكُهُ الخصوم): تجعله ماحكاً لجوجاً، يقال: محك الرجل: إذا لجَّ في الخصومة، وأصرَّ على رأيه. و (لا يَحْصَر): لا يعيا في المنطق. و (الفَيء إلى الحق): الرجوع إلى الحق. و (التَبرُّم): الملل والضجر. و (أصرمهم): أقطعهم للخصومة وأمضاهم. و (لا يزدهيهِ إطراء): لا تستخفّه زيادة الثناء عليه.

ويلتجئ إليه سبحانه في كل أُموره وشؤونه، ولم يبعثه سلطانه العزيز، وحكمه النافذ، وملكه الواسع على الزهو والغرور، أو التنكّب عن طريق العدل، بممارسة الظلم، أو بخس حقوق الناس ، أو وضع الأُمور في غير مواضعها الّتي حدّدها سبحانه .

فلقد كان له عليه السلام من سلامة القلب والضمير (لصلته الوثيقة بالله تعالى وعبوديته الصادقة له) ما يحدوه إلى امتثال أوامره ونواهيه، والمُسارعة إلى مغفرته ورحمته، ومحاسبة نفسه لأدنىٰ هنة لا تليق بمقامه **﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾**.

بهذه الشجاعة الّتي لا تقلّ عن شجاعته في مواجهة الأعداء في ميادين الوغىٰ، كان عليه السلام يواجه نفسه ويضبطها، وينأىٰ بها عن الظلم ومتابعة الهوىٰ.

وهذا الدرس البليغ المستخلص من حياة النبي داود عليه السلام ينبغي أن يتذكّره الرساليون خصوصاً الزعماء وأرباب المناصب الرفيعة، فقد يغفلون في زحمة أعمالهم، وتحت وطأة ما يثيره موقعُهم من شعور بالأبّهة والزهو والغرور، يغفلون عن محاسبة أنفسهم، وتقويم مسيرتهم، وتشخيص نقاط ضعفهم وسلبياتهم، وقد يدفع بهم هذا الشعور إلى أكثر من ذلك، فيكابرون ويصرّون علىٰ مواقفهم وتصرفاتهم الخاطئة، وربما تُزيّن لهم أنفسُهم تبريرَ هذه الأعمال وتوجيهها، وعندها يصمّون آذانهم عن سماع أيّ نقد، وقبول أية نصيحة.

وهكذا يظلمون أنفسهم بإيرادها موارد الهلكة، ويظلمون الناس، ويتطاولون علىٰ حقوقهم وكراماتهم، وما أحسن قول الشاعر:

إذا المرء أعطىٰ نفسَه كلَّ شهوةٍ ... ولم يَنْهَها، تاقتْ إلى كلّ باطلِ

٣. لقد بلغ نبي الله داود عليه السلام في ظل الجهاد المتواصل مع العدوّين: الخارجي، والداخلي أي النفس، بلغ مرتبة صار فيها مظهراً لإرادة الله سبحانه ومشيئته، فكما أنّ إرادته تعالىٰ إذا اقتضت إلانة الحديد يتحقق المراد، فهكذا أصبحت إرادة داود عليه السلام، فكان الحديد بيده أداة طيّعة لإرادته، يصنع منه ما يشاء بلا مطرقة ولا نار.

٤. إنّ الله سبحانه خاطب داود عليه السلام بقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ والمراد به صنع الدرع علىٰ تقدير خاص وبشكل متقن ومتناسب لينتفع بها الإنسان مدة طويلة، وعلىٰ قدر حاجته إليها ، وهذا لو دلّ علىٰ شيء لدلّ على أن الإنسان إذا عمل شيئاً، فعليه أن يتقنَه ويُحكمَ صُنعه.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه لما مات إبراهيم ابنه هملتْ عينه بالدموع. ثم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: تدمعُ العينُ ويحزن القلبُ، ولا نقول ما يُسخط الرب. وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون. ثم رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قبره خللاً فسوّاه بيده. ثم قال: إذا عمل أحدكم عملاً فليتقنه، ثم قال: إلحقْ بسلفك الصالح عثمان بن مظعون .(١)

٥. إنّ داود عليه السلام، قد أذعن للرأي الأصوب، ولم يُصرّ علىٰ رأيه (رغم صوابه) في قضية الزرع، فعندما تبيّن له أن حُكم ابنه سليمان أصوب من حكمه فيها، خضع له، ولم يتردّد في قبوله وإمضائه على الرغم من كثرة البواعث الداعية إلى الاغترار والاعتزاز برأيه، كغزارة علمه، واتّساع مُلكه، ورفعة منصبه، وأبوّته، وسنّه.

وهذا درس لنا، نحن الذين نُعجَب بآرائنا ومواقفنا وإن كان خاطئةً ومُجانِبةً

---

١. بحار الأنوار: ٢٢ / ٢٦٤ رقم ٥.

للحق والعدل، لنمتلك إرادة مراجعة المسيرة، وشجاعةَ الاعتراف بالخطأ وتصحيحه، ولكي نؤثر الحجة والبرهان، على داعي الهوىٰ وتزيين الشيطان.

٦. إن القائد المؤهّل لممارسة دوره، لا يعبأ كثيراً بالانفعالات العاطفية الّتي يُبديها جنوده وأتباعه لاقتحام ميادين الحرب والجهاد، ما لم يسبر نفوسهم، ويقف علىٰ صدق عزمهم وتصميمهم علىٰ خوض الشدائد، ومدىٰ طاعتهم وانقيادهم للأوامر الصادرة إليهم.

ومن هنا تتأكد الحاجة إلى اختبارهم عملياً، ووضعهم على محكّ التجربة، ليتميّز الصادق من الكاذب، وذو الايمان الراسخ والاعتقاد الثابت، من صاحب الإيمان المتزلزل والاندفاع الطارئ.

فطريق الكفاح والجهاد، طريق شائك مُجهد مهول، يتطلّب السيرُ فيه صبراً وثباتاً وتضحية واحتمالاً للمشاقّ، ولابد للقائد أن يكون علىٰ بيّنة من أمر جنوده في هذه الصفات، لئلا يُفاجَأ (إذا لم يتحلَّوْا بهذه الصفات) بتخاذلهم وخَوَرهم وهزيمتهم في وقت الشدة وعند احمرار البأس، فإنّ أشدّ ما يثبّط عزائمَ الجند ويوهن قوّتهم، هو وجود الخائفين المرتجفين، الذين يلوذون بالفرار عند احتدام القتال، في صفوفهم.

هذا ما نستفيده من تجربة القائد الإلهي طالوت مع بني إسرائيل، الذين انضمّوا تحت لوائه لاسترداد أراضيهم وتحرير أسراهم، فلما سار بهم، أراد أن يمتحنهم في شرب الماء، ليعرف مدىٰ صبرهم وطاعتهم له، فقال لهم: ﴿إِنَّ اللهَ

مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾.

وكانت النتيجة أن فشل أكثرهم في هذا الامتحان ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾.

ولمّا اقتربوا من أعدائهم، هالتهم كثرتهم (وهذا هو الامتحان الثاني) فانقسموا إلىٰ فريقين، عبّر أحدهما عن جُبنه وخوفه من المنازلة ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، في حين أعرب الآخر عن شجاعته وتصميمه على المواجهة، وعن أمله بالنصر ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾.

٧. ثمّة شرطان أساسيان للقيادة والزعامة، وهما:

الأوّل: الكفاءة العلمية بفنون الإدارة وشؤونها حسب الظروف والمقتضيات المختلفة، وبما أنّ المجتمعات رهن التحول والتغيّر فتختلف كيفية التدبير حسب اختلاف الظروف.

الثاني: الكفاءة الجسمية والصحة البدنية، فالإنسان المريض وطريح الفراش لا يستطيع أن يفكر تفكيراً صحيحاً، فكيف يقوم بالتدبير؟ وإلىٰ ذلك أشار قوله سبحانه: ﴿وَ زَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ﴾وبذلك أهمل ذكر سائر الخصوصيات الّتي ربما يدّعى اعتبارها في القائد.

٨. إنّ الصبر والثبات في ميادين الحرب وطريق الأهداف المقدّسة هو الّذي يؤدّي إلى النجاح والنصر للمجاهدين فالصبر بهذا المعنىٰ من الأُصول السامية للإسلام، أمر به سبحانه في غير واحدة من الآيات.

وأمّا من فسّر الصبر في الإسلام ـ كالماركسيين ـ بصبر العمّال على ظلم أرباب العمل، أو صبر الفلاحين على ظلم الاقطاعيين، وزعموا أنّهم أوجدوا بذلك ثغرة في حقوق الإسلام، فهو افتراء عليه، فالإسلام دعا إلى العدل والإنصاف، وفي الوقت نفسه أمر بعدم الاستسلام للظلم والذلة. وشعار المسلمين قوله سبحانه: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[١] وهذا ليس معناه أنّ ادعاء كل عامل علىٰ صاحب العمل ادعاء صحيح وموافق للعدل أو ادعاء كل مزارع علىٰ صاحب الأرض كذلك، بل معناه دعوة الكل إلى العدل والإحسان وترك الاستسلام للظلم.

٩. إنّ من فوائد الجهاد تطهير الأرض من ظلم الكافرين والمشركين كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾.

وهذا لايعني أنّ الحرب أمر مطلوب بذاته، حتّى يُبرَّر به صنع الأسلحة الفتاكة، وإنّما الحرب وسيلة لتطهير الأرض من الشرك والظلم وأنواع الفساد.

وفي الحديث المروي عن الإمام جعفر الصادق عليه‌السلام إيماء إلى ما ذكر، قال عليه‌السلام: «تمنّوا الفتنة ففيها هلاكُ الجبابرة وطهارةُ الأرض من الفسقة».[٢]

إنّ الفتنة تطلق ويراد بها أحد المعاني الثلاثة التالية:

أ. الفتنة: الامتحان والابتلاء كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٣].

---

١. البقرة: ٢٧٩.

٢. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ٢ / ٣٩، طبع عام ١٣٠٣ هـ.

٣. التغابن: ١٥.

ب. الفتنة : الاضطرابات وعمل الغوغائيين، وهم الذين يُنهضون الناس دون أن يكون لهم هدف سامٍ أو غرض صحيح، بل الغاية ايجاد الشغب والتفرقة بين الناس والانتفاع من هذا الجو، ولذلك نرىٰ أنّ الإمام علياً عليه السلام يصف الغوغاء بقوله: هم الذين إذا اجتمعوا غلبوا، وإذا تفرّقوا لم يُعرفوا. وقيل بل: قال عليه السلام: هم إذا اجتمعوا ضرّوا وإذا تفرّقوا نفعوا. فقيل له: قد عرفنا مضرّة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم؟ قال: يرجع أصحاب المِهن إلى مهنتهم فينتفع الناس بهم كرجوع البنّاء إلى بنائه، والنسّاج إلىٰ مَنْسجه، والخبّاز إلى مَخْبزه .[1]

فعلى العاقل أن يجتنب هذا النوع من الفتن، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: كن في الفتنة كابن اللبون لا ظَهْرٌ فيُركبَ، ولا ضَرْعٌ فيُحلبَ .[2]

ج. الفتنة : الثورة والانتفاضة المقدسة ذات الأهداف السامية، وهذا هو الّذي أراده الإمام الصادق عليه السلام في كلامه السابق: تمنّوا الفتنة، ففيها هلاك الجبابرة وطهارة الأرض من الفسقة.

١٠. يصح التبرك بآثار الأنبياء والأولياء، فأنت ترىٰ أنّ بني إسرائيل كانوا يعتزّون بتابوت موسىٰ عليه السلام وكانوا يحملونه في الحروب ويتبرّكون به، وقد بلغ من القداسة إلى حدٍ أنّ الملائكة حملته عند إرجاعه من العمالقة إلىٰ بني إسرائيل.

---

١. نهج البلاغة: قسم الحِكَم، الرقم ١٩٩.

٢. نهج البلاغة: ٤٦٩، قسم الحِكَم، الرقم ١، و(ابن اللَّبُون): ابن الناقة إذا استكمل سنتين.

١٦

سليمان بن داود عليه السلام

إنّ سليمان عليه السلام من الأنبياء العظام، ذوي المنزلة الرفيعة والمقام الكريم عند الله تبارك وتعالىٰ، وقد خصّه سبحانه بفضله العميم ونعمه الجسيمة حتّى أنّه سخّر له الجن والطير والقوىٰ الطبيعية.

ذُكر اسمه في القرآن الكريم ست عشرة مرة في ست سور [١].

ويمكن تلخيص ما ورد في القرآن حول حياته، في محاور، أهمها :

١. صفاته السامية.

٢. استعراضه للخيل.

٣. ابتلاؤه وامتحانه.

٤. طلبه المُلك، الّذي لا نظير له.

٥. تسخير الجن والطيور والقوى الطبيعية.

٦. عبوره وادي النمل وسماع كلام النملة.

٧. قصة الهدهد وملكة سبأ.

٨. خاتمة حياته.

---

١. البقرة: ١٠٢، النساء: ١٦٣، الأنعام: ٨٤، الأنبياء: ٧٨، ٧٩، ٨١، النمل: ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٠، ٣٦و ٤٤، سبأ: ١٢، ص: ٣٠، ٣٤.

١

صفاته السامية في القرآن

١. ﴿وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَ حُسْنَ مَآبٍ﴾[١].

٢. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً وَقَالاَ الْحَمْدُ للهِ الذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.[٢]

٣. ﴿وَ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٣].

***

أضفى الله سبحانه علىٰ نبيّه سليمان ـ فيما تقدّم من الآيات ـ أجمل الصفات، الّتي جعلته متميزاً بين الأنبياء بصفات خاصة، كما أنّ له أيضاً صفات أُخرىٰ يشترك فيها مع الأنبياء. وإليك أهم الصفات، والنِّعم الّتي خُصّ بها:

١. قربُه من الله سبحانه وكرامته لديه، وحسن مآله في الآخر والثوبة لديه ﴿وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَ حُسْنَ مَآبٍ﴾.

٢. علمه الغزير، الّذي تلقّاه من الله سبحانه، وهو مع أبيه في هذا المضمار

---

١. ص: ٤٠.

٢. النمل: ١٥ ـ ١٦.

٣. ص: ٣٠.

سواء، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً﴾.

٣. أُلهم ﷷ العلمَ بمنطق الطير، وفهم كلامها، قال ﷷ: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾، فهو أول من رفع الستر عن أن للطير لغةً تتفاهم بها.[1] كما خُصّ ﷷ بمعجزة أُخرىٰ، وهي معرفة لغة النمل وكلامها الّذي تتخاطب به، حيث سمع تحذير النملة لأبناء جنسها ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2].

فأدرك سليمان قولها، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا﴾.

٤. سخّر له سبحانه وتعالىٰ الريح والجن، وأسال له عين القطر (أي النحاس المذاب)، يقول سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾[3].

٥. إن الغاية عنده ﷷ، هي طلب رضا الله سبحانه، وكان الملك والسلطة

---

١. تتصل الطيور بعضها مع بعض بعدة طرق مختلفة، أهمها الاتصال الصوتي من الحنجرة بوساطة النداء والتغريد. وتستخدم الطيور في الغالب نداءها كإشارات لطيور أُخرى، وتنادي صغار الطيور بإحدى الطرق لتخبر والديها أنها جائعة، وبطريقة أُخرىٰ لتخبرهما بأنها جريحة أو خائفة، بينما يستخدم الطائر كامل النضج نداءً محدداً ليميّز به شريكه، ونداءات أُخرى ليميز بها كل مجموعته من الطيور، وقد تحذّر النداءات المجموعةمن الخطر، ومثل هذا النداء عادة ما ينبّه أو يحذّر أكثر من نوع واحد من الطيور، ويبدو للأذن الإنسانية ان تغريد كل الطيور من أحد الأنواع، له الصوت نفسه، ولكن في الواقع يختلف صوت كل طائر عن صوت الطيور الأُخرى من النوع نفسه، وحتّى في المستعمرات المزدحمة، يستطيع الوالدان ان يتعرّفا على صوت فراخهما، كما تستطيع الفراخ التعرّف على أصوات والديها. عن الموسوعة العربية العالمية: ١٥ / ٣٨٦ ـ ٣٨٧ (ط. الثانية).

٢. النمل: ١٨.

٣. سبأ: ١٢.

أداتين لكسب رضاه، كما قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾[1].

هذه بعض صفاته وكمالاته وسيأتي شرح ذلك في الفصول التالية إن شاء الله تعالى.

٢

سليمان واستعراض الخيل

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الأَعْنَاقِ﴾[2].

إنّ بيان مفاد الآيات الكريمة، هو رهن تفسير مفرداتها وجُمَلها أولاً، وإليك التفصيل:

١. ﴿الْعَشِيِّ﴾: مقابل الغداة، وهو آخر النهار بعد الزوال.

٢. ﴿الصَّافِنَاتُ﴾ جمع الصافنة: وهي الخيل الواقفة على ثلاث قوائم، الواضعة طرف السنبك الرابع على الأرض حتّى يكون على طرف الحافر.

٣. ﴿الْجِيَادُ﴾ جمع جواد، وهي السراع من الخيل، كأنّها تجود بالركض.

٤. ﴿الْخَيْرِ﴾ ضد «الشر» وقد يطلق على المال كما في قوله سبحانه: ﴿إِنْ

١. النمل: ١٩.

٢. ص: ٣٠ـ ٣٣.

تَرَكَ خَيْراً﴾ والمراد به هنا (الخيل) والعرب تسمّي الخيل خيراً، وسمّىٰ النبيُّ زيد الخيل بـ «زيد الخير» وقال ﷺ: «الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة» وكيف لا تكون خيراً، وهي لم تزل تُعدّ وسيلة الحياة في عامة الحضارات.

٥. ﴿حُبَّ الْخَيْرِ﴾ : بدل عن المفعول المحذوف، وتقديره إنّي أحببت الخيل حبَّ الخير، ويريد أنّ حبي للخيل نفس الحب للخير، لأنّ الخيل كما عرفت وسيلة نجاح الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية، خصوصاً عند الجهاد مع العدو والهجوم عليه، ويحتمل أن يكون ﴿حُبَّ الْخَيْرِ﴾ مفعولاً لا بدلاً عن المفعول.

٦. ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ : بيان لمنشأ حبّه للخير وسببه، وأنّ حبه له ناشىء عن ذكر ربّه.

وتقدير الجملة: أحببت الخير حبّاً ناشئاً عن ذكر الله سبحانه وأمره، حيث أمر عباده المخلصين بالإعداد للجهاد ومكافحة الشرك وقلع الفساد بالسيف والخيل، ولأجل ذلك قمتُ بعرض الخيل، كل ذلك امتثالاً لأمره سبحانه لا إجابة لدعوة الغرائز التي لا يخلو منها إنسان، كما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ والْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1].

وتجد نظير تلك الدعوة في الذكر الحكيم، قال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[2].

---

١. آل عمران: ١٤.
٢. الأنفال: ٦٠.

٧. فاعل الفعل في قوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي الصافنات الجياد، والمقصود أنّ الخيل أخذت بالجري حتى غابت عن بصره.

٨. الضمير في قوله: ﴿رُدُّوهَا﴾ يرجع إلى الخيل التي تدل عليها الصافنات الجياد، والمقصود أنّه أمر بردّها عليه بعدما غابت عن بصره.

وهنا يطرح السؤال التالي، وهو: أنّه لماذا أمر بالرد، وما كان الهدف منه؟ فبيّنه بقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الأَعْنَاقِ﴾ أي شرع يمسح سيقانها وأعناقها بيده، حبّاً وإكراماً واستحساناً لها.

إلى هنا اتضحت معاني مفردات الآية وجملها، وعلىٰ هذا تكون الآيات هادفة إلى تصوير عرض عسكري قام به أحد الأنبياء ذوي السلطة والقدرة في أيّام ملكه وقدرته.

وعلى ضوء ما ذكرنا يتضح مغزى الآيات وهو أنّ النبي سليمان عليه السلام قام في عشيّة يومٍ بعرضٍ عسكري، حيث أجرى الفرسانُ الخيلَ بين يديه إلى أن غابت عن بصره، فأمر أصحابَه بردّها عليه، حتّى إذا ما وصلت إليه، شرع يمسح أعناقها وسيقانها، تعبيراً عن سروره بها واستحسانه لها. ولم يفعل ذلك لجهة إظهار القدرة والسطوة أو للبطر والشهوة، بل إطاعة لأمره سبحانه وذكره، حتّى يقف الموحّدون علىٰ وظائفهم، ويستعدوا للكفاح والنضال ما تمكنوا، ويهيئوا الأدوات اللازمة في هذا المجال.

هذا هو المفهوم من الآيات وليس في هذا الفعل أي شيء يضادّ عصمة الأنبياء، بل يدلّ علىٰ أنّ الملك أو القائد يجب أن يقوم بعروض عسكرية، ليطمئن إلى وسائل قوّته الّتي يعدّها لميادين الجهاد.

تفسير خاطئ للقصة

وثمّة تفسير آخر للآيات ، لا يقبله العقل ولا ينسجم مع منطق الوحي ولا ظاهر الآيات، ويبدو عليه تأثير الإسرائيليات الّتي تسربت إلى كتب الحديث، قالوا: إنّ سليمان عليه السلام استعرض خيلاً له في العشيّ ففاتته صلاة كان يصليها قبل الغروب، فقال ردوها عليّ. فردوها عليه فجعل يضرب أعناقها وسيقَانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه.[1]

وهذا التفسير ممّا نقده العلماء المحقّقون، الذين ينزّهون المعصومين عن كل ما يمسّ ساحتهم المقدسة، قال السيد المرتضى: ظاهر الآية لا يدّل على إضافة قبيح إلى النبيّ، والرواية إذا كانت مخالفة لما تقتضيه الأدلّة لا يُلتفت إليها لو كانت قويّة ظاهرة، فكيف إذا كانت ضعيفة واهية؟ والّذي يدلّ على ما ذكرناه على سبيل الجملة أنّ الله تعالى ابتدأ الآية بمدحه والثناء عليه، فقال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وليس يجوز أن يثني عليه بهذا الثناء ثم يتبعه من غير فصل بإضافة القبيح إليه، وأنّه تلهىٰ بعرض الخيل عن فعل المفروض عليه من الصلاة، والّذي يقتضيه الظاهر أنّ حبّه للخيل وشغفه بها كان عن إذن ربه وأمره وبتذكيره إيّاه، لأنّ الله تعالى قد أمرنا بإرباط الخيل وإعدادها لمحاربة الأعداء، فلا ينكر أن يكون سليمان عليه السلام مأموراً بمثل ذلك[2].

هذا ما ذكره السيد المرتضىٰ، ونحن نعرض هذه الرواية الواهية على نفس

---

١. نقله أكثر المفسرين في تفاسيرهم إمّا بالقبول أو بالرد.

٢. تنزيه الأنبياء: ٩٥. ونقله العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ١٤ / ١٠٣.

الآيات، ليتّضح منه أنّها لا تنطبق على ظاهرها، وقد أشار إلى بعض ما ذكرنا السيد المرتضىٰ في كلامه .

ظاهر الآيات لا يلائم الرواية

إنّ في نفس الآيات قرائن وشواهد تدلّ علىٰ بطلان هـذه الروايـة، التـي اعتُمدت في التفسير، وإليك بيانها:

١. انّ الذكر الحكيم يذكر القصة بالثناء عـلى سـليمان ويـقول: ﴿وَوَهَـبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ فأُسلوب البلاغة يقتضي أن لا يذكر بعده ما يناقضه ويضادّه، فأين وصفه بحسن العبودية والرجوع إلى اللّٰه فـي أُمـور ديـنه ودنياه، من انشغاله بعرض الخيل وغفلته عن الصلاة المفروضة عليه؟! وقد مرّت هذه القرينة في كلام السيد المرتضى.

ولو فرضت صحة الواقعة، فلازم البلاغة ذكرها في محل آخر، لا ذكرها بعد المدح والثناء المذكورَين في الآية.

٢. انّما يصح حمل قوله: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ على ما جاء في القصة إذا تضمن الفعل ﴿أَحْبَبْتُ﴾ معنى الترجيح والاختيار ، والتقدير : أحببت حب الخير مقدّماً إيّاه على ذكر ربّي ومختاراً إيّاه عليه. وهو يـحتاج إلى الدليل.

٣. ولو قلنا بالتضمين، فيجب أن يقال مكان ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ «علىٰ ذكر ربي»، أي أحببت حب الخير واخترته على ذكـر اللّٰـه، كـما فـي قـوله سـبحانه:

﴿فَاسْتَحَبُّوا العَمَى على الهُدَى﴾[١] ، وقوله تعالى: ﴿إنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإيمان﴾[٢].

٤. انّ ضمير الفعل في قوله تعالى: ﴿تَوَارَتْ﴾ يرجع إلى الصافنات المذكورة في الآية، وعلى التفسير المفروض يرجع إلى الشمس، وليست مذكورة في الآية، ودلالة لفظ ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ عليها ضعيفة جداً.

٥. الضمير في قوله: ﴿رُدُّوهَا﴾ ـ على المختار ـ يرجع إلى الصافنات، وعلى التفسير المفروض يرجع إلى الشمس، وهي غير مذكورة.

٦. انّ الخطاب في قوله: ﴿رُدُّوهَا﴾ على المختار متوجه إلى رؤساء الجنود وهو واقع موقعه، وعلى التفسير المنقول عن بعضهم[٣] يكون متوجهاً إلى الملائكة، وهو لا يصدر إلّا ممن له علو واستعلاء كخالقها، لا من مثل سليمان بالنسبة إليهم.

٧. لا شك أنّ للصفوة من عباده سبحانه ولاية تكوينية ومقدرة موهوبة على التصرّف في الكون بإذنه سبحانه، لغايات مقدّسة لإثبات نبوّتهم وكونهم مبعوثين من اللّه سبحانه لهداية عباده، وتدلّ عليها آيات كثيرة تعرضنا لبعضها في كتابنا مفاهيم القرآن[٤] . ولم يكن المقام هنا مناسباً للتحدّي حتى يتوصل إلى الإعجاز والتصرّف في الكون بالأمر برد الشمس، فإنّ الصلاة الفائتة لو كانت مفروضة فجبرانها بقضائها، ولو كانت مسنونة فلا إشكال في فوتها، فلم يكن

---

١. فصلت: ١٧. ٢. التوبة: ٢٣.

٣. نسبه الطبرسي إلى «القيل» كما مرّ.

٤. لاحظ الجزء الأول: ٤٤٤ـ ٤٤٦.

هناك لزوم للتصرّف في الكون وأمر ملائكة اللّه بردّها حتى يأتي بالصلاة المسنونة.

٨. لو كان المراد من ﴿رُدُّوهَا﴾ طلب رد الشمس من ملائكته سبحانه، فاللازم أن يذكر الغاية من ردّها بأن يقول: حتى أتوضّأ وأُصلي، وليس لهذا ذكر في الآية، بل المذكور قوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الأَعْنَاقِ﴾، وهذا يعرب عن أنّ الغاية المترتبة على الرد هي مسح السوق والأعناق، لا التوضّؤ والصلاة.

٩. انّ تفسير المسح بالقطع، تفسير بلا دليل، إذ المتبادر من المسح هو إمرار اليد عليها لا قطعها وضربها بالسيف ، ولو كان هذا هو المراد ممّا ورد في القصة، فالأنسب أن يقول: فطفق ضرباً بالسوق، لا مسحاً.

١٠. انّ التفسير المذكور ينتهي إلى كذّاب الأحبار، وهو كعب الذي لم يزل يدسّ في القصص والأخبار بنزعاته اليهودية، ومن أراد أن يقف على دوره في الوضع والكذب وغير ذلك في هذا المجال، فليرجع إلى أبحاثنا في الملل والنحل، وإلى كتاب «أضواء على السنّة المحمديّة» للشيخ محمود أبوريّة المصري.

١١. إنّ قتل الخيل (التي عبّر عنها سليمان نفسه بالخير) بحجة أنّ الاشتغال بعرضها صار سبباً لفوت الصلاة. هو أشبه بعمل المسرفين، الذين طاشت عقولهم، وقست قلوبهم، وجفّت مشاعرهم، فكيف يُقدم عليه عبد أوّاب شكور، قد آتاه الله المُلك والعلم والنبوة، وفضّله على كثير من عبّاده المؤمنين؟

وفي الختام نلفت نظر القارئ إلى ما ذكره «سيد قطب» في تفسير هذه الآيات، قال:

أمّا قصة الخيل: انّ سليمان ﷺ استعرض خيلاً له بالعشي، ففاتته صلاة كان يصليها قبل الغروب، فقال: ردّوها عليّ، فردّوها عليه، فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربّه.

وفي رواية: روي أنّه جعل يمسح سوقها وأعناقها إكراماً لها، لأنّها كانت خيلاً في سبيل اللّه.

ثم قال: وكلتا الروايتين لا دليل عليها، ويصعب الجزم بشيء منها.(١)

والعجب من الأستاذ قطب أنّه أعطى الروايتين مكانة واحدة مع أنّ الأُولىٰ تضادّ حكم العقل، وسيرة الأنبياء والعلماء، لذلك يسهل الجزم ببطلانها، وأمّا الثانية فهي تنطبق على ظاهر الآيات كمال الانطباق، وهو المروي عن حبر الأُمّة ابن عباس.

وقد نقل الرواية الأُولىٰ عن أُناس كانوا لا يتحرّزون من الأخذ عن الأحبار المستسلمين، فنقلها الطبري في تفسيره، عن السدي وقتادة، حتى أنّ الطبري مع نقله أُولى الروايتين اختار قول ابن عباس واستوجهه، وقال: إنّ نبي اللّه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالاً من ماله بغير سبب سوىٰ أنّه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها.(٢)

ولا يقصر عنه ما نقله السيوطي في «الدر المنثور» من الأساطير حول هذه الخيول، فروى عن إبراهيم التيمي أنّه قال: كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة، فعقرها؛ وفي الوقت نفسه نقل قول ابن عباس في تفسير المسح: ظل سليمان يمسح أعراف الخيل وعراقيبها.(٢)

---

١. في ظلال القرآن الكريم: ١٠٠/٢٣. ٢. تفسير الطبري: ١٠٠/٣.

٢. الدر المنثور: ٣٠٩/٥.

٣

الفتنة الّتي امتحن بها سليمان

يحكي القرآن الكريم ضمن آيتين انّه سبحانه قد امتحن سليمان بإلقاء جسد علىٰ كرسيّه، وقد اختلفت الروايات حول هذا الامتحان، وإليك الآيتين والأسئلة المثارة حولهما:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[١].

وتوضيح مفاد الآيات، يترتب على البحث عن الأُمور التالية:

١. ما هي الفتنة التي امتحن بها سليمان؟

٢. ما معنى طلب المغفرة مع التمسّك بحبل العصمة؟

٣. لماذا يطلب لنفسه الملك؟

٤. لماذا يطلب ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده؟

وسيوافيك تفسير السؤال الثالث والرابع في الفصل التالي.

أمّا السؤال الأوّل: فليس في الآيات الواردة في المقام ما يكشف عن حقيقتها.

---

١. ص: ٣٤ـ ٣٥.

وأمّا الروايات، فقد نقل أهل الحديث حول تبيين الفتنة روايات يلوح منها أنّـها إسرائيليات، بثّها أحبار اليهود بين المسلمين، وقد ابتلي بها المسلمون فـي كثير من المجالات التفسيرية والتاريخية والعقائدية وغيرها، ورجاؤنا مـن اللّـه سبحانه أن يقيّض جماعة من العلماء المحقّقين ويوفّقهم لتصفية الكتب الإسلامية منها وتنقيحها وتهذيبها.

ولكن من بين هذه الروايات ما يمكن أن يُركن إليه ، وهو مـا قـيل: كـان لسليمان ولد شاب ذكي كان يحبّه حبّاً شديداً، فأماته اللّه على بساطه فجأة بـلا مرض، اختباراً من اللّه تعالى لسليمان وابتلاء لصبره في إماتة ولده، وألقى جسمه على كرسيه.[١]

ولا شك أنّ الابتلاء بموت الولد الشاب من أعظم الابتلاءات، والصبر في هذا المجال وتفويض الأمر إلى اللّه سبحانه آية كمال النفس، فلم يكن الهدف من الابتلاء إلّا أن يتفتح الكمال المركوز في ذاته، حتى يخرج من القوّة إلى الفعل، وقد مرّ الكلام في فلسفة الابتلاء عند البحث عن ابتلاء إبراهيم بالكلمات.

قال سيد قطب عند تفسيره لحادثي الصافنات الجياد، والجسد الّذي أُلقي على كرسي سليمان: كلتاهما إشارتان لم تسترح نفسي لأي تفسير أو رواية ممّا احتوته التفاسير والروايات عنهما، فهي إمّا إسرائيليات منكرة، وإما تأويـلات لا سند لها. ولم أجد أثراً صحيحاً أركن إليه في تفسيرها وتصويرهما سوىٰ حديث صحيح في ذاته، ولكن علاقته بأحد هذين الحادثين ليست أكيدة. وهذا الحديث هو ما رواه أبو هريرة عن رسول اللّه ﷺ، وأخـرجـه البـخاري فـي صـحيحه

---

١. تنزيه الأنبياء: ٩٩، الطبعة القديمة.

مرفوعاً، ونصه: «قال سليمان: لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل اللّٰه، ولم يقل «إن شاء اللّٰه»، فطاف سليمان عليهن، فلم تحمل إلّا امرأة جاءت بشِقّ رجل، والذي نفسي بيده: لو قال إن شاء اللّٰه لجاهدوا في سبيل اللّٰه فرساناً أجمعون».

وأضاف: وجائز أن تكون هذه هي الفتنة التي تشير إليها الآيات، وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشِّقّ، ولكن هذا مجرد احتمال.(١)

ونحن نعجب من استراحة نفسه إلى هذا الأثر الّذي اعتبره صحيحاً في ذاته، ولم يعدّه من الإسرائيليات المنكرة!! فهو من رواية أبي هريرة، الّذي كان ـ على حدِّ تعبير الشيخ محمود أبوريّة ـ أكثر الصحابة وثوقاً بكعب الأحبار، وأخذاً عنه، وانقياداً له، وقد استطاع هذا اليهودي (كعب الأحبار) ـ والكلام مازال لأبوريّة ـ بوسائله الشيطانية أن يدسّ من الخرافات والأوهام والأكاذيب في الدين ما امتلأت به كتب التفسير والحديث والتاريخ، فشوّهتها وأدخلت الشك إليها، ومازالت تهددّنا بأضرارها.(٢)

أما الجواب عن السؤال الثاني، فالظاهر أنّ سليمان ﷺ كان له في ابنه رجاء أو أُمنية، فأماته الله تعالىٰ وألقاه علىٰ كرسيه، حتىٰ يوقفه علىٰ أنّ حق العبودية تفويض الأمر إلى اللّٰه والتسليم إليه، ولعل هذا المقدار من الرجاء وعقد الأُمنية على الولد يُعدّ نحواً من انقطاع عن اللّٰه إلى الولد.

وهو وإن لم يكن معصية ولكن الأليق بحال الأولياء غيره، ولأجل ذلك لما

١. في ظلال القرآن الكريم: ٩٩/٢٣.

٢. انظر: أضواء على السنة المحمدية: ١٥٦ (الطبعة الثانية).

استشعر بوظيفته التي يوجبها مقامه، أناب إلى الله ورجع إليه وطلب المغفرة كما يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ .

وقد تكرر منّا أنّ طلب المغفرة ليس دليلاً على العصيان وصدور الذنب، بل كل فعل أو ترك صدر من الرجال العارفين بحقيقة الربوبية وعمق العبودية، وكان الأَولىٰ والأليق خلافه، استوجب طلب الغفران، وإن لم يكن معصية وخلافاً في منطق الشرع، ولأجل ذلك نجد أولياء الله لم يزالوا مستغفرين كل يوم وليلة لسعة استشعارهم بعظمة الوظيفة في مقابل عظمة الخالق.

وأمّا السؤال الثالث والرابع فيأتي فيهما الكلام في الفصل التالي إن شاء الله تعالىٰ.

٤

طلَبُه المُلك، الّذي لا نظير له

دعا سليمان ربّه أن يعطيه ملكاً متميزاً لا نظير له، وتسأل: هل كان عليه السلام يؤمن بمقولة طلب السلطة على الناس، الّذي هو مذموم؟ والجواب: إن المُلك المطلوب لم يكن مقصوداً لذاته، لأنّ مثل هذا الملك لا ينفك عن الظلم والإفساد والإذلال وهضم الحقوق، وهو ما أُشير إليه في الآيتين الكريمتين : ﴿إنَّ المُلُوكَ إذا دَخَلُوا قَريةً أفْسَدُوها وجَعَلُوا أعِزَّةَ أهْلِها أذِلَّةً وكَذلِك يَفعَلُون﴾[1]، و ﴿أمّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البَحْرِ فَأَرَدْتُ أنْ أعِيبَها وكانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ

---

١. النمل: ٣٤. ٢. الكهف: ٧٩.

﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾[٢]، وتاريخ أكثر الملوك والسلاطين في الماضي والحاضر، يضجّ بممارساتهم القمعية والدموية، وأعمالهم الإجرامية .

إنّ سليمان عليه السلام لم يطلب مُلك الجبابرة هذا الغارق في الظلم والآثام ، وإنّما طلب الملك الذي يقيم به منهج الله في الأرض، ذلك المنهج الّذي يُحرر الإنسان من القهر والاستعباد، ويكفل له السعادة والعيش الكريم، ويوفّر له مصالحه الحقيقية، وفق موازين العدل، ومَن كان هذا هدفه ـ وقد أُوتي العلم والحكم وتشرّف بالنبوة والوحي ـ لا يسأل الملك لذات الملك؛ بل لتلك الغاية النبيلة.

ولأجل أنّ المتبادر من المُلك ـ في أذهان العامة ـ هو السلطة الجائرة، نجد الذكر الحكيم عندما يصف الله بـ ﴿المَلِك﴾ يردفه بـ ﴿القُدُّوس﴾ للإشارة إلى أنّ ملكه وسلطانه يفترقان عن ملك وسلطان غيره ، فهو في عين كونه مَلِكاً للعالَم، قدّوس منزّه عن كل عيب وشَين، وعن كل بغي وظلم، فهو: ﴿المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِن﴾[١].

نقل أهل السِّيَر أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: «لست بمَلك» مع أنّه كان حاكماً إلهياً، ورئيس دولة إسلامية أسّسها منذ بدء وروده المدينة، ومراده من ذلك إبعاد نفسه عمّا يتبادر إلى أذهان العامّة عند سماع ذلك اللفظ، وأنّه ليس من تلك الزمرة، بل حاكم إلهي يسعىٰ لصالح الأُمّة حسب القوانين الإلهية.

وبالجملة: ثمة فرق بين السلطة التي تستخدمها الغرائز المادية، والسلطة التي تراقبها النبوّة، ويكبح جماحها الخوف من الله، والعشق لرضوانه، والذي طلبه

١. الحشر: ٢٣.

سليمان في الآية إنّما هو الثاني، وهو عمل إلهي وخدمة للدين وعمل مقرّب، دون الأوّل.

ولأجل أن لا تذهب أذهان الصحابة إلى المعنى المتبادر من لفظ «الملك» قام رسول الله ﷺ بتوضيح ما طلب سليمان لنفسه من الله سبحانه وقال: «أرأيتم ما أُعطي سليمان بن داود من ملكه؟ فإنّ ذلك لم يزده إلّا تخشُّعاً، ما كان يرفع بصره إلى السماء تخشُّعاً لربّه».[(١)]

وقد أوضحنا حقيقة السلطة الإسلامية التي دعا إلى استقرارها الكتاب والسنّة، وملامحها وأهدافها، فلاحظ[(٢)].

ومن هنا يعلم وجه قوله: **﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾**، فإنّه لم يقل ذلك ضنّاً وبخلاً على الغير، وإنّما قال ذلك، باعتبار أنّ الملك الذي طلبه لا يصلح (في منطق العقل والشرع) أن يمارسه إلّا هو، أو من هو نظيره في العلم والإيمان، وذلك لأنّه سبحانه يبيّن ملامح هذا المُلك، بقوله: **﴿فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْري بأمرِهِ رُخَاءً حَيثُ أصابَ * والشياطِينَ كُلَّ بَنّاءٍ وَغوّاصٍ * وآخَرِينَ مُقرَّنِينَ فِي الأصفادِ * هَذَا عَطاؤنا فَامْنُن أَوْ أَمْسِكَ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وإنَّ لَهُ عِندَنا لَزُلْفىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾**[(٣)] فالآيات ـ الواردة بعد طلب الملك ـ بحكم «الفاء» في قوله **﴿فسخّرنا له﴾** تدل على أنّه لم يطلب مطلق المُلك، وهو السلطة التي يصح أن يمارسها المتعارف من الناس خصوصاً إذا كانوا من

---

١. روح البيان: ٨/٣٩.

٢. لاحظ الجزء الثاني من مفاهيم القرآن: الفصل الأوّل: ١١ ـ ٧٢.

٣. ص: ٣٦ ـ ٤٠.

الصلحاء، وانّما طلب من القدرة ما يصل بها إلى حدّ تسخير الريح والجن والطير. ومثل هذه القدرة لا تصحّ في منطق العقل أن تقع في متناول المتعارف من الناس، لأنّ وجودها في متناول غير المعصوم يؤدي إلى الاستعلاء والطغيان وتجاوز الحدود وادّعاء الربوبية، إلى غير ذلك من عظيم الفساد، وإنّما تكون مقرونة بالصلاح والفلاح إذا مارسها نبي عارف بعظمة المسؤولية أمام اللّه أوّلاً، وأمام العقل والوجدان ثانياً، وأمام الخلق ثالثاً.

ولأجل ذلك قال: ﴿لَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ ويريد منه الإنسان المتعارف غير المتمسّك بحبل العصمة، وغير المتحلّي بالنبوة، فإنّ هذا الملك ـ لما عرفت ـ لا ينبغي لأحد، وإنّما ينبغي لسليمان ومن يكون بمنزلته من الصيانة والعصمة.

وإلى ما ذكرنا يشير السيّد المرتضى (المتوفّى ٤٣٦ هـ) ويقول: إنّما التمس أن يكون ملكه آية لنبوته، ليتبين بها عن غيره ممّن ليس بنبي .[١]

وقال الزمخشري (المتوفّىٰ ٥٣٨ هـ): كان سليمان عليه السلام ناشئاً في بيت الملك والنبوة، ووارثاً لهما، فأراد أن يطلب من ربّه معجزة، فطلب علىٰ حسب إلفه مُلكاً زائداً على الممالك زيادة خارقة للعادة، بالغة حدّ الإعجاز، ليكون ذلك دليلاً علىٰ نبوّته، قاهراً للمبعوث إليهم، وأن يكون معجزة حتّىٰ يخرق العادات، فذلك معنىٰ قوله: ﴿لَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾.[٢]

---

١. تنزيه الأنبياء: ١٠٠.

٢. الكشّاف: ٣ / ٣٢٩.

٥

تسخير الجن والطيور والقوىٰ الطبيعية

لسليمان عليه السلام

دلت الآيات الكريمة أنّه سبحانه قد أفاض على سليمان مُلكاً لم يُر مثله في السابق ولم يلحقه لاحق، حيث سخر له العوامل الثلاثة التالية:

١. الريح، حيث ذللّها له، فهي تجري بأمره إلى أية جهة يريد .

٢. الجنّ، وكانوا يعملون له ما يشاء من أعمال.

٣. النحاس المذاب، وكان ينبع كما ينبع الماء من العين .

وإليك التفصيل :

أوّلاً: تسخير الريح

١. ﴿ وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْري بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ التي بَارَكْنَا فِيهَا وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيءٍ عَالِمِينَ﴾ (١).

٢. ﴿وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَ رَوَاحُهَا شَهْرٌ وَ أَسَلْنَا لَهُ عَـيْنَ

---

١. الأنبياء: ٨١

الْقِطْرِ وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[١].

٣. ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[٢].

دلت الآيات الكريمة على أنّه سبحانه سخر له الريح، التّي وصفها بالعاصفة (وهي الريح الشديدة) تارة، وبالرُّخاء (وهي الريح الليّنة) تارة أُخرىٰ، وتسأل: هل ثمة تناقض بين الوصفين ؟

والجواب: يجوز أن يكون الله سبحانه جعلها عاصفة تارة ورخاء أُخرىٰ بحسب ما أراد سليمان .[٣]

ويمكن أن يقال: إنّ الريح المسخرة لسليمان كانت بذاتها عاصفة ولكنها تجري رخاءً بأمره، والشاهد علىٰ ذلك، أنّه سبحانه وصف الريح نفسها بالعصف في قوله: ﴿وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ ولكنه جعل في قوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً ﴾، جعل وصف جريها بالرخاء معلولاً لأمره ومسبّباً عنه، فكأنّه قال سبحانه: فسخرنا له الريح العاصفة لكنّها تجري رخاءً بأمره.

فالعصف صفة للريح في الآية الأُولىٰ، والرخاء في الآية الثانية قَيْد لجريان الريح أي تجري رخاء وما هذا إلّا لأمر سليمان.

ولعله إلىٰ ذلك يشير العلّامة الطباطبائي بقوله: المراد بكون الريح تجري بأمره رخاء، مطاوعتها لأمره وسهولة جريانها على ما يريده عليه السلام فلا يرد أنّ توصيف

---

١. سبأ: ١٢. ٢. ص: ٣٦.

٣. مجمع البيان: ٤ / ٤٤٧.

الريح ههنا بالرخاء يناقض توصيفه في قوله: ﴿ وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْري بِأَمْرِهِ﴾ [١].

ثم إنّه سبحانه ذكر أنّ الريح ﴿تَجْري بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ التي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض فلسطين، حيث كانت مأوىٰ سليمان عليه السلام، ومقرّ مُلكه.

وقد أتمّ سبحانه الآية بقوله: ﴿وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ إشارة إلى أنّ تسخير الريح لمصالح سليمان وأُمته، أثر من آثار علم الله بمختلف أحوال الأُمم والأقاليم، وأن ذلك كان مطابقاً للحكمة والمصلحة.

ثم إنّ تسخير الريح لسليمان، وصيرورتها أداة طيّعة بيده تجري بأمره إلى أي مكان شاء، دليل على وجود الولاية التكوينية لسليمان، حيث بلغ من الكمال مرتبة، صارت فيها القوىٰ الطبيعية مطيعة له بإذن الله تعالى، كإطاعة الأعضاء لإرادة الإنسان، وهذا ليس أمراً بديعاً لمن درس مقامات الأنبياء والأولياء.

هذا، وللمفسرين في كيفية هذا التسخير وفائدته، أقوال، منها:

١. إنّ الريح كانت تحمل سليمان عليه السلام (أو تحمله وتحمل من معه) وتنقله إلى حيث يريد. قال قتادة في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَ رَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾: كانت الريح تقطع به عليه السلام من الغدوّ إلى الزوال مسيرة شهر، ومن الزوال إلى الغروب مسيرة شهر.[٢]

٢. إن الريح تجري وفق مصلحة يدركها سليمان عليه السلام ويحققها بأمر الله. أما

---

١. الميزان: ٢٣ / ٢٠٥.

٢. تفسير المراغي: ٢٢ / ٦٦. وانظر: الكشاف: ٣ / ٢٥٣، والميزان: ١٤ / ٣١٣، والتفسير الكاشف: ٦ / ٢٥٢.

قصة بساط الريح الّذي روي أنّ سليمان كان يجلس عليه هو وحاشيته، فيطير بهم إلى الشام في فترة وجيزة، فلم يذكر القرآن شيئاً عنه، كما لم يرد ذكره في أي أثر مستيقن، وعليه، فالأسلم تفسير تسخير الريح بتوجيهها ـ بأمر الله ـ إلى الأرض المباركة في دورة تستغرق شهراً، طرداً وعكساً.[1]

٣. إنّ معنىٰ تسخيره الريح: خلق ريح تلائم سير سفائنه للغزو أو التجارة، فجعل الله لمراسيه في شطوط فلسطين رياحاً موسمية تهبّ شهراً مُشَرّقة لتذهب في ذلك الموسم سفنه، وتهبّ شهراً مُغَرّبة لترجع سفنه إلىٰ شواطئ فلسطين.[2]

ثانياً: تسخير الجن

١. ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾[3].

٢. ﴿... وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[4].

٣. ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾.

---

١. انظر: في ظلال القرآن: ١٧ / ٤٧، و ٢٢ / ٦٨.

٢. التحرير والتنوير: ٢٢ / ٢٧.

٣. الأنبياء: ٨٢.

٤. سبأ: ١٢.

﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾.

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].

كان النبي سليمان عليه السلام يستخدم بأمر الله تعالىٰ بعض الجنّ، لإنجاز أعمال مهمّة، تساهم في ازدهار مملكته وتعزيز قوّتها، وتيسير شؤون إدارتها وتنظيمها، خدمة لأهدافه الإلهية، وسعياً وراء توفير العيش الكريم لأُمّته، وبذل الإحسان للفقراء والمساكين، فقد استخدم عليه السلام الجنّ، لما يمتازون به من قدرة هائلة على التحرّك والانطلاق، ومهارة عالية في أداء الأعمال وتذليل الصعاب، استخدمهم في تشييد الأبنية الحصينة الفخمة ﴿مَحَارِيبَ﴾، ونحت الصور المُجسّمة ﴿تَمَاثِيلَ﴾، وصنعِ القِصاع الّتي تشبه الحياض في عظمتها واتّساعها ﴿جِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾، والقدور الثابتات في الأرض لضخامتها ﴿قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾. وثَمّة من يغوصون له في البحار، ويستخرجون منها نفائسها كاللؤلؤ والمرجان. ومن يتمرّد من هؤلاء الجن، ويعدل عما أمره الله تعالىٰ به من طاعة سليمان، يذقه سبحانه عذاباً أليماً ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، قيل: هو عذاب النار في الآخرة[٢]، وقيل: في الدنيا[٣].

وذهب ابن عاشور إلى أنّه تشبيه، أي نُذقْه عذاباً كعذاب السعير، أي كعذاب جهنم، وأما عذاب جهنم فإنما يكون حقيقة يوم الحساب[٤].

---

١. ص: ٣٧ ـ ٣٩.

٢. كما في تفسير البيضاوي: ٢ / ٢٥٧، وغيره.

٣. كما في تفسير الميزان: ١٦ / ٣٦٣، وغيره.

٤. التحرير والتنوير: ٢٢ / ٢٩.

قال مؤرخ الفلسفة والحضارة الأمريكي وِل ديورانت (١٨٨٥ ـ ١٩٨١ م): إنّه (يعني سليمان) علّم شعبه فضل القانون والنظام، ومازال بهم حتّى أقنعهم بنبذ الشقاق والحرب، والالتفات إلى الصناعة والسلم، وكان عهد سليمان عهد سلام بحق، ففي حكمه الطويل أفادت (أورشليم)، الّتي اتخذها داود عاصمة له، من هذه السِّلم الّتي لم تألفها من قبل، فزادت ثروتها وضاعفتها.. علىٰ أن سليمان قد استخدم معظم موارده في تقوية دعائم حكومته وتجميل عاصمته، ومن أعماله فيها ترميم الحصن الّذي أُقيمت حوله. وقد أقام فيها كثيراً من الحصون، ووضع حاميات في المواضع ذات الأهمية العسكرية في مملكته.

وقال (متحدّثاً عن الهيكل الّذي بناه سليمان): وكان فيه «مائة حوض من الذهب». وكانت الحجارة الكريمة ترصّع أجزاء متفرقة منه، كما كان ملكان مُغَطَّيان بصفائح الذهب يحرسان تابوت العهد.

وأضاف (واصفاً القصر الّذي بناه): وكانت جدران البناء الرئيسي في القصر مقامة من كتل من الحجارة الضخمة، طول الواحدة منها خمس عشرة قدماً، وكان تزيّنه التماثيل المنحوتة، والنقوش المحفورة، والصور المرسومة علىٰ الطراز الآشوري... علىٰ أن هذا الصرح الضخم لم يبق منه حجر واحد، بل إن موضعه نفسه لا يعرفه أحد على وجه التحقيق.[١]

١. قصة الحضارة: ٢ / ٣٣٢ ـ ٣٣٦.

ثالثاً: إذابة النحاس

أنعم الله تعالى على سليمان عليه السلام بأن أتاح له كميات وافرة من النحاس المصهور، حيث كان يجري كجري الماء من العين ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾.[١]

وهذه الإذابة قد تكون بأمر إلهي خارق للعادة، أو بإرشاده عليه السلام إلىٰ طريقة إسالته وإذابته.

إنّ اهتمام النبي سليمان بالصناعة والفنون، لبناء صرح مملكة قوية مزدهرة، وتطوير البلاد وإعمارها، قد تطلّب استخداماً واسع النطاق للنحاس، الّذي يدخل في صناعات كثيرة.

قال كاتب (سِفْر الأخبار الثاني) من العهد القديم، وهو يعدّد الأدوات المصنوعة من النحاس في بيت الرّب، الّذي بناه سليمان: (العمودين وقالَبي التاجَيْن اللّذين على رؤوس العمودين... وصنعَ القواعد والأحواض الّتي على القواعد، والبحرَ الوحيدَ والثيران الاثني عشر الّتي تحته، والقدور والمجارف والمناشل [٢]. وصنع حورام أبي [٣] جميع أدواتها للملك سليمان، لأجل بيت الربّ، من نحاس مصقول. وسبَكها الملك في بقعة الأردن في أرض خزفيّة، بين

١. سبأ: ١٢.

٢. المناشل: جمع منشال، وهو قطعة معدنية في رأسها عقافة. يُنشل بها اللحم من القدر ونحو ذلك.

٣. حورام أبي: رجل من أهل صور، ماهر في عمل الذهب والفضة والنحاس والحديد والحجر والخشب وغيرها، يزعم كاتب السِّفْر المذكور أنّ حورام (حيرام) مَلِك صور، أرسله إلى سليمان، استجابة لطلبه عليه السلام من أجل بناء بيت للربّ، وبيت لمُلكه.

سُكُوت وصريدة. وصنع سليمان كل هذه الأدوات، وكانت كثيرة جداً، حتّى كان وزنُ النحاس لا يُقدَّر).

وأود أن أشير إلى أنّ المفسّر عبدالكريم الخطيب المصري (المتوفّى ١٤٠٦هـ)، قد كتب تعليقاً عند تفسير قوله تعالى ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾، هذا نصّه:

والنحاس أشدّ من الحديد إباءً على النار.. فهو يحتاج في صهره إلى قوة حرارية أكثر ممّا يحتاج إليه الحديد.

وإذا كان داود قد عرف كيف يُليّن الحديد، فإنّ سنّة التطور تقضي بأن يتعرّف ابنه سليمان على القوة الحرارية الّتي يتمكن بها من إلانة النحاس وصهره.

والتعبير عن الحديد بالإلانة في قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾، وعن النحاس بالسيولة في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ إشارة إلى اختلاف طبيعي كلٍّ من الحديد والنحاس، وأن الحديد يمكن تشكيله بالطرق إذا سُخّن ولان.. أما النحاس، فلا يُنتفع به حتّى ينصهر، ويتحول إلى مادة أقرب ما تكون إلى السوائل.. وهذا ما نجده في قوله تعالىٰ علىٰ لسان ذي القرنين: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾[1].. فالحديد هنا قد عُرض على النار حتّى احمرّ وصار أشبه بالجمر ثم جاء بالقِطرِ ـ وهو النحاس المذاب ـ فأفرغه على هذا

١. الكهف: ٩٦.

الحديد، وصبّه فوقه، كما يصبّ الماء على النار!![١]

أقول: إنّ كلام الأُستاذ الخطيب الآنف الذكر غير دقيق، وفيه أوهام، فدرجة انصهار الحديد أعلىٰ من درجة انصهار النحاس، فالحديد ينصهر عند درجة حرارة (١٥٣٥° م)، بينما ينصهر النحاس عند درجة حرارة (١٠٨٣,٤° م) كما أن للنحاس النقي قابلية عالية للطَّرْق (سهولة التشكيل).[٢]

ثم إنّ قوله تعالىٰ على لسان ذي القرنين ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ ـ الّذي أيّد به الخطيب قوله: إنّ النحاس لا يُنتفع به حتّى ينصهر ـ لا يعني انحصار الانتفاع به بهذا الشكل (أي أن يكون منصهراً).

وعلىٰ أي حال، فهذا هو نبي الله سليمان، وهذه هي قدراته وخصوصيات ملكه، حيث سُخِّرت له الريح والجن والإنس، وما في الأرض من معادن ثمينة، ولكنه كان نبياً معصوماً لايبتغي بذلك إلّا رضا الله وصلاح أُمته، ومن هنا استخدم الجنّ في بناء المحاريب والأبنية المرتفعة، كما استخدم عين القطر وغيرها في صنع الجفان الكبيرة، والقدور الراسيات، والتماثيل، وغير ذلك.

---

١. التفسير القرآني للقرآن: ١١ / ٧٨٨.

٢. للاطلاع على خواص الحديد والنحاس، راجع الموسوعة العربية العالمية: ٩ / ١١١، و ٢٥ / ٢٥٦، وفيه: من المحتمل أنّ أول استخدام للنحاس كان عام (٨٠٠٠ق. م) بوساطة السكان على ضفاف نهري الفرات ودجلة، حيث يقع العراق اليوم. وقد عرفت شعوب الشرق الأوسط منذ سنة (٥٠٠٠ ق. م). كيف تطرّق النحاس النقي. وبحلول عام (٢٥٠٠ ق. م) تقريباً، اكتشف الناس كيف يصهر النحاس ويُسبك مع الزرنيخ. أما عملية خلط الزنك مع النحاس لصنع النحاس الاصفر (الصُفُر) فقد يكون اكتشافه قد تمّ ما بين القرنين الحادي عشر والسابع قبل الميلاد.

٦

سليمان في وادي النمل

١. ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

٢. ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٣. ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾(١).

وتفسير الآيات رهن تبيين معنىٰ بعض مفرداتها:

١. الحشر، قال الراغب: الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها.

٢. الوَزْع: المَنْع والكفّ، يقال وَزَعَه عن الظلم أي كَفَّه، فقوله: ﴿يُوزَعُونَ﴾ إشارة إلى أنهم مع كثرتهم وتفاوتهم لم يكونوا مُهمَلين، بل كانوا مسوسين، بمعنىٰ أن لكل صنف من جنوده وَزَعَة، تردّ أوّلهم علىٰ آخرهم ليتلاحقوا ولا يتفرقوا.

---

١. النمل: ١٧ ـ ١٩.

وهذان اللفظان إن دلّا على شيء فإنّما يدلّان على أن في جيشه كانت طوائف، يسوس كلّ طائفة من ينظمهم ويرتبهم حتّىٰ لا يتفرقوا، ويصل آخرهم بأوّلهم، وهذا الجيش كان مؤلّفاً من الجن والإنس والطير، كما قال: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾. فلما أشرفوا على وادي النمل، صاحت نملة بصوت سمعه سليمان ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوطئهم إياكم، فإنهم لو علموا بمكانكم لم يطأوكم.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن كلام النملة، كان من معجزات سليمان عليه السلام، تماماً كنطق الطير، لأنّ الطير في نفسها ـ كما يقولون ـ ليس لها نطق. وهذا خلاف ظاهر سياق الآية الّتي تتحدث عن أنّ للطير منطقاً علّمه الله سليمان، وقد مرّ بنا ذلك آنفاً، فراجعه [١]، وهو لا ينسجم أيضاً مع ما يلاحظ في حياة كثير من الطيور والحيوان والحشرات من وجود وسائل للتفاهم بينها، ولغات تتخاطب بها.

كما عدّ كثير من المفسرين معرفة النملة بسليمان وجنوده من الخوارق الخارجة عن المألوف. قال بعض المتقدمين منهم: كانت معرفة النمل بسليمان علىٰ طريق المعجزة الخارقة للعادة له عليه السلام علىٰ غيره [٢]، وقال ابن عاشور (من المعاصرين): ويجوز أن يخلق الله لها دلالة، وللنمل الّذي معها فهماً وأن يخلق فيها إلهاماً بأنّ الجيش جيش سليمان على سبيل المعجزة.[٣]

---

١. ص ٢٦٤ (مع الحاشية برقم ١).
٢. نقله الشيخ الطوسي في كتابه: التبيان في تفسير القرآن: ٨/ ٨٤.
٣. التحرير والتنوير: ١٩/ ٢٤٠.

هذا، وللمفسر الكبير الشيخ الطوسي (المتوفّىٰ ٤٦٠ هـ) رأي في هذا الشأن، جدير بالتأمل والملاحظة، قال في معرض تعليقه على تفسير هذا الأمر بالمعجزة: وهذا غير لازم، لأنّه لا يمتنع أن تعرف البهيمة هذا الضرب، كما تعرف كثيراً ممّا فيه نفعها وضرّها، فمن معرفة النملة أنها تكسر الحبة بقطعتين لئلا تنبت؛ إلّا الكزبرة فإنها تكسرها بأربع قطع، لأنّها تنبت إذا كسرت بقطعتين، فَمن هداها إلى هذا، هو الّذي يهديها إلى ما يحطمها ممّا لا يحطمها.[1]

ونحن نجد البحوث العلمية الحديثة قد كشفت عن وجود شعور عند النمل علىٰ نحو يثير الحيرة.

إنّ ذكاء الحيوانات ومهارتها في أعمالها أمر غير خفي على أكثر الناس، فهي تدّخر لشتائها في صيفها، وتبني بيوتاً تناسب حياتها، وهي تعرفها من بعيد، وربما تقطع طريقاً طويلاً ثم ترجع إلى نفس مكانها السابق، كما قد تتنبأ بالحوادث المستقبلية، كل ذلك يثبت أن في عالم الحيوان مجاهيل كثيرة لا يعرفها البشر، وليكن منها قول النملة لجماعتها وسماع سليمان كلامها.

وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى فهمها وشعورها بوجه بليغ، فقال:

«اُنْظُرُوا إِلَىٰ النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لاَ تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ، وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَىٰ أَرْضِهَا، وَصُبَّتْ عَلَىٰ رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَىٰ جُحْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وِرْدِهَا لِصَدَرِهَا. مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا؛ لَا يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ! وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، فِي عُلْوِهَا

١. التبيان: ٨/ ٨٤ـ ٨٥.

وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي ٱلْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً! فَتَعَالَىٰ الَّذِي أَقَامَهَا عَلَىٰ قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَىٰ دَعَائِمِهَا! لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنْهُ عَلَىٰ خَلْقِهَا قَادِرٌ. وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ ٱلدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَىٰ أَنَّ فَاطِرَ ٱلنَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ».[١]

هذا، ويقول الباحثون: إنّ النمل يسمع بوساطة خلايا حسية تسمى الأعضاء الحسية الوترية، توجد على قرني الاستشعار (الملتصقين بمقدمة الرأس) والأرجل والجذع والرأس، وهذه الأعضاء تستجيب لذبذبات الصوت الّتي تمرّ خلال الأرض. ولا يعرف الباحثون، علىٰ وجه التأكيد، ما إذا كان بإمكان النمل سماع الأصوات الّتي تمرّ خلال الهواء.

ويستطيع بعض النمل إصدار أصوات بوساطة عضو الصوت الموجود في منطقة البطن. ويتكون هذا العضو ـ في معظم الحالات ـ من صفّ من النتوءات علىٰ إحدىٰ عُقل البطن، ونقطة صلبة توجد على عقلة أُخرىٰ. ويصدر النمل صريراً أو أزيراً بوساطة حكّ العُقَل بعضها ببعض، وفي بعض الحالات، تكون الأصوات عالية بدرجة كافية، فيسمعها الناس.[٢]

يُذكر أن بعض من لا يتحمّلون التصديق بالأُمور الغيبية حاول تأويل الآية بقوله: إنّ المراد بوادي النمل: الوادي الكثير الناس، كأنّهم النمل في الكثرة.

وردّ النجار على هذا الرأي الّذي نقله عن أحمد زكي باشا، قائلاً: وليس ما

١. نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٨٥.

٢. الموسوعة العربية العالمية: ٢٥ / ٥٢٧.

قاله بشيء، لأنّه ينافيه قولها : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إذ كيف لا يشعر جند سليمان بالناس، وبخاصة إذا كانوا كثيرين كالنمل؟![١]

ثم إنّ سليمان تبسّم ضاحكاً من كلام النملة وقولها، ابتهاجاً بما وهبه الله من النعم الجزيلة، ومنها إدراك كلام النملة، وفهم غرضها. وقيل: تعجباً من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى مصالحها، أو تعجّباً من أنّها عرفت اسمه، وأنّها وسَمتْه وجندَه بالعدل والرحمة، حين قالت ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

ومن هنا سأل الله تعالىٰ أن يوفّقه إلىٰ شكره : ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ فقوله: أوزعني أي ألهمني، كناية عن التوفيق .

ولم يكتف ﷺ في دعائه هذا بالتوفيق إلى شكر النعم الّتي أغدقها الله عليه، بل بالتوفيق إلىٰ شكر النعم الّتي أغدقها سبحانه علىٰ والديه، باعتباره جزءاً منهما، وقد نال كثيراً ممّا نال بسببهما، فكأنّ الإنعام على الوالدين، هو إنعام عليه أيضاً .

ثم إنّ النبي سليمان طلب من الله سبحانه شيئاً آخر وهو أن يوفقه للعمل الصالح، الّذي يرضي الله سبحانه ويقول: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ مشيراً إلى أنّ هذه النعم الظاهرة، والحكومة الواسعة، إنما تهمّني إذا صارت ذريعة إلى العمل الصالح الّذي يؤدي إلى صلاح عامله، كما قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي أن تسلكني في عدادهم.

---

١. قصص الأنبياء: ٣٣٦.

٧

سليمان وخبر الهدهد

كان جيش سليمان متشكلاً من أصناف ثلاثة:

١. الإنس .

٢. الجنّ.

٣. الطيور.

وقد مرّ الكلام عن القسمين الأوّلين في الفصول السابقة، ويقع الكلام في المقام حول الصنف الثالث من جيوشه وهو الطير، وخُصّ بالذكر منها الهدهد الّذي جاء من سبأ بخبر مُحقّق إلىٰ سليمان، وصار مبدءاً للحوادث التالية.

وإليك الآيات :

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾.

﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ الذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[1].

وإليك تفسير بعض المفردات :

١. التَّفَقُّد: التعهّد، لكن حقيقة التفقّد التعرّف علىٰ فقدان الشيء، والتعهّد تعرّف العهد المتقدم.

٢. الهدهد: طائر أصفر ـ وردي اللون، له تاج رائع من الريش علىٰ رأسه، وخطوط سوداء وبيضاء علىٰ جناحيه وذيله[2]. زعموا أنّ سليمان اتخذه في جنده ليدلّه على مواضع الماء، لقدرته على رؤية الماء في باطن الأرض.

٣. سَبَأ: أرض باليمن مدينتها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام[3]، فمن لم يصرف فلأنّه اسم مدينة، ومن صرفه فلأنه اسم البلد فيكون مذكراً سمّى به مذكراً، وسُميت هذه الأرض بهذا الاسم لأنّها كانت منازل ولد سبأ بن يشجُب بن يعرب بن قحطان.

والعرب تقول (تفرقوا كأيدي سبأ وأيادي سبا)، ذلك أن سيل العَرِم فرّق

---

١. النمل: ٢٠ ـ ٢٦.

٢. الموسوعة العربية العالمية: ٢٦ / ٩٣.

٣. المسافة بينهما (١٧٣) كيلومتراً. مجمع بلدان اليمن وقبائلها: ٣ / ٤١٣.

أهل هذه الأرض في البلاد. وسار كل طائفة منهم إلى جهة فضرب العرب بهم المثل، فقيل: (ذهب القوم أيدي سبا وأيادي سبا) أي متفرقين، شبهوا بأهل سبأ لما مزقهم الله تعالى كلَّ مُمزَّق، وأخذت كل طائفة منهم طريقاً.[1]

ويطلق سبأ ويراد به تارة المكان كما في الآية، وقد يراد به أُخرى القوم كما في قوله في سورة سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾[2].

ذكر الأثري الأوربي (غلازران) أنّ دولة سبأ انقرضت سنة (١١٥ ق. م). وقد ذكر مؤرخّو الغرب أنّ سبب انقضائها اندفاع سيل العرم على مُلكها، واجتياحه لثمراتها، فلم يطب لقبائلها العيش هنالك بعد انكسار سدّ مأرب، فتفرقوا.[3]

إذا عرفت ذلك، فلنشرع في سَرد حوادث القصة:

نظر سليمان عليه السلام يوماً إلى الطيور متفقّداً إيّاها، ليعرف أنّ أحداً لم يتخلّف عن موكبه، فلم يجد الهدهد من بينها، ﴿فَقَالَ﴾ مستفهماً متعجباً ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾.. أحاضر هو، ولم يقع عليه بصري ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ من قبل ولم أشعر به؟

ولمّا علم أنّه غائب بغير إذن منه، قال متوعّداً: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً﴾

---

١. انظر: معجم البلدان: ٣ / ١٨١.

٢. سبأ: ١٥ ـ ١٦.

٣. محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين: ٩ / ١٧.

سجناً ونحوه ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ هذا إذا لم يُلقِ بحجة واضحة تبرّر سبب غيابه ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، وما هذا إلّا لأنّ غيابه بغير إذن، يُعدّ عصياناً كبيراً، يستوجب عقاباً قاسياً، وبدونه يسري عدم الانضباط، والتقاعس عن الحضور والواجب إلى الآخرين، وبالتالي شيوع الفوضىٰ في أوساط الجيش، الّذي يجدر بالقائد الناجح المهيب أن يأخذ في أمر تدبيره بسياسة الحزم والصرامة.

لم يلبث سليمان إلّا زماناً يسيراً حتىٰ جاء الهدهد، وقال له اطّلعت علىٰ ما لم تطّلع عليه، وجئتك بخبر عظيم صادق من سبأ ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وكأنّ تقدير الآية انّه بعدما حضر الهدهد سأله سليمان عن وجه غيبته، خاطبه بقوله: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ﴾.

ثم بدأ يعرض النبأ في أربع جُمل، لخّص فيها مواصفات نظام الحكم في تلك الدولة الّتي ألقىٰ بخبرها إلىٰ سليمان، ومعتقدات أهلها الدينية:

أ. ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾. فالنظام فيها مَلَكي، تقوده امرأة، اسمها (كما يقول المؤرخون): بلقيس بنت شراحيل (أو شرحبيل).

ب. ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهر الثراء، وأسباب القوة، ووفرة الإمكانات والقُدرات.

ج. ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، يصف عظمةَ المُلك، وأُبّهة الملكة.

د. ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾.. فهم من عَبَدة الشمس من الوثنيين.

ثم أخذ يبيّن سبب ضلال القوم، وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

أمّا أنّ الشيطان قد صدّهم عن السبيل فواضح، لأنّه قد أقسم أن يزيّن الأعمال القبيحة لبني آدم، قائلاً: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾[1].

وأمّا أنّهم لا يهتدون، فلأنّ الناس علىٰ دين ملوكهم، فما دام الملك يروّج الشرك فهم علىٰ سبيله وصراطه، فلا يصلح الكثير من الناس إلّا بصلاح ملوكهم وأُمرائهم. وقد ورد في الحديث أنّه ﷺ قال: صنفان من أُمّتي إذا صلحا صلحت أُمّتي وإذا فسدا فسدت أُمّتي. قيل: يا رسول الله ومن هما؟ قال: الفقهاء والأمراء.[2]

ولم يقتصر الهدهد بهذا البيان بل قال مندِّداً بغفلتهم عن الله ، حيث تركوا عبادته سبحانه، وهو الّذي يُظهر المخبوء المستور في هذا الكون ويخرجه إلى الوجود (كالمطر والنبات والمعادن)، ويعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال : ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ الذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

ثم ختم كلامه بعد أن بيّن أنّ الأجدر بالطاعة والتعظيم هو القادر المدبّر العالم، ختمه بهذا القول الجليّ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، وهو

١. الحجر: ٣٩.

٢. الخصال: ١ / ٢٦، باب الأثنين، الحديث ١٢.

كناية عن المقام الّذي تجتمع عنده أزمّة الأُمور، وتصدر منه الأحكام الجارية في الملك .[١]

إنّ سياق الآيات المتقدمة يدل على أنّ مضامينها كلها ، ترجع إلى كلام الهدهد، غير أنّ بعض المتوغلين في تفسير المعارف الالهية بالأساليب المادية، فسّر هذه الآيات وفق هذا الأسلوب، وهو أنّ هذا الكلام كان وحياً لسليمان أجراه الله علىٰ لسان الهدهد دون أن يكون لهذا الطائر شعور بما يقول .

وقد استدل على ما قال بأنّ هذا الكلام ليس من دلالة منطق الطير الّذي تعلّمه سليمان، لأنّ ذلك هو المنطق الدال علىٰ ما في نفوس الطير من المدركات، وليس الهدهد قِبَلّ بادراك ما اشتمل عليه القول المنسوب إليه ولا باستفادة الأحوال من مشاهدة الأقوام والبلدان حتّى تخطر في نفسه وحتّى يعبّر عنها بمنطقه الّذي عُلّم سليمان دلالته .[٢]

إنّ ما ذكره، تأويل للآيات بلا موجب وجهة، فلو لم يكن لهذا الطير شعور بما قال فلماذا يهدّده سليمان ويوعده علىٰ غيبته ما لم يأتيه بعذر واضح مقبول لديه ؟ وكيف أجاب سليمانَ بقوله: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾.

كلّ ذلك يدلّ على أنّه كان ذا شعور خاص يسوّغ تكليفه وعقابه عند التخلف، وذا أوصاف خاصة، وهذا لا يعني أنّ جميع الطيور أو الهداهد، هي علىٰ هذه الشاكلة، أو علىٰ هذا المستوىٰ من الإدراك، فقد يكون هدهد سليمان قد خصّه الله تعالى بهذه القابليات دون سائر أبناء جنسه .

١. الميزان في تفسير القرآن: ١٥ / ٣٥٧.

٢. التحرير والتنوير: ١٩ / ٢٤٦.

وربما يقال: كيف يمكن أن يغيب هذا الأمر عن سليمان ويطّلع عليه طير من الطيور؟

وهذا ليس بأمر بعيد، إذ لم يقم الدليل علىٰ أنّ الأنبياء خصوصاً النبي سليمان عليه السلام كان يعلم كل حاضر وغائب.

التحقيق في نبأ الهدهد

١. ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

٢. ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

٣. ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾.

٤. ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

٥. ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

٦. ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾.

٧. ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

٨. ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

٩. ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

١٠. ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

١١. ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.(١)

***

أصغىٰ سليمان عليه السلام إلى كلام الهدهد، ولم يسارع إلى تصديقه أو تكذيبه، بل أراد أن يقف علىٰ حقيقة هذا الخبر الهامّ، ويتأكد من صحته، فبادر إلى كتابة كتاب، وأمر الهدهد أن يذهب به فيلقيه إليهم ، ثم يبتعد عنهم قليلاً ليراقبهم، ويستمع إلى ما يدور من مناقشات حوله: ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

ومع أنّ المخاطب بالكتاب كان هو الملكة، ولكن سليمان قال ألقه إليهم لإشراك الجميع في الدعوة إلى التسليم. ثم أمره سليمان بالتنحّي عنهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وأراد الاستتار منهم حتّى يقف على ردّ فعلهم بالنسبة إلى الكتاب : ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.. ما يرجع بعضهم إلىٰ بعض من القول، وما يجري بينهم من حوار في شأنه.

حمل الهدهد الكتاب (٢)، ورمىٰ به إليهم، فلما وقع في يد الملكة وقرأته،

---

١. النمل: ٢٧ ـ ٣٧.

٢. رُبِّيَ بعض الطيور لحمل الرسائل منذ القدم، وكان حمام الزاجل يحمل الرسائل لقدماء المصريين والفرس منذ (٣٠٠٠) عام. وفي اليونان كان الحمام يحمل أخبار الألعاب الأولیمبية إلى مختلف

أطلعتْ كبار رجال مملكتها علىٰ هذا الأمر الخطير و ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾.

وللمفسرين في سبب وصفها الكتاب بالكريم أقوال، أهمّها:

١. لأنّه كان مختوماً، وقد قيل: «إكرام الكتاب ختمه».

٢. لحسن خطه وجودة لفظه وبيانه، وبتعبير آخر: لغة الكتاب وما تضمّن من محتويات.

٣. إنها سمعت ما لسليمان من الحشمة والعظمة وإنّه يملك الإنس والجن والطير، فسمّته كريماً لأنّه جاء من إنسان كريم، رفيع الجاه بين قومه. وهذا أوجه الأقوال. ثم أخبرتهم بمُرسل الكتاب : ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ﴾.

ثم بيّنت ما فيه بالنحو التالي: ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ بدأ كتابه بالبسملة أوّلاً ثم خاطب الجميع بجملتين :

١. ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ أي لا ترفّعوا ولا تتكبّروا عليّ.

☞ الدول، واستخدم الرومان الحمام لإرسال الرسائل العسكرية. واعتنى العرب بحمام الزاجل لنقل رسائلهم البريدية، وجعلوا لها إدارات تشرف على الحمام في أنحاء الدولة الإسلامية، وعمّال يراقبون وصول الحمام في الأبراج وسفره. وكان أوّل استخدام لحمام الزاجل في الموصل بالعراق، ثم مصر في عهد الفاطميين ثم العباسيين.

وقد استخدم الفرنسيون حمام الزاجل في الحرب الفرنسية ـ الروسية. كما قام الألمان بتدريب الصقور على الإمساك بها. وقد قام حمام الزاجل بخدمة سلاح الإشارة الأمريكي في الحربين العالميتين الأُولىٰ والثانية، وفي الحرب الكورية. ومن الطريف الإشارة إلى أن (وكالة رويتر للأنباء) بدأت عملها سنة (١٨٤٩ م) باستخدام الحمائم لنقل الأخبار بين محطات البرق على حدود ألمانيا وبلجيكا وفرنسا. انظر: الموسوعة العربية العالمية: ٩/ ٥٢٦، و ١١/ ٤٢٧.

٢. ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وأتوني منقادين طائعين.

والكتاب علىٰ وجازته، مشتمل علىٰ جميع ما يدعو له سليمان .

والظاهر من قوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ليس هو أن يأتوا إلىٰ سليمان بعامة أفرادهم، وإنّما المراد هو اتّباع سبيله، والانقياد إلى أمره فيما يدعوهم إليه من الحق.

لما قرأت الملكة الكتاب علىٰ وجوه رجال مملكتها، طلبت منهم أن يُدلوا بآرائهم في هذا الأمر الحسّاس، وأن يُشيروا عليها بما يستصوبونه فيه، مصرّحةً بأنها لن تُمضيَ أمراً ولن تتخذ قراراً إلّا بحضورهم وموافقتهم ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾.

وهنا عبّر الملأ عن موقفهم بهذين الأمرين:

١. إظهار قوتهم وشجاعتهم في ميدان الحرب: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

٢. إظهار تسليمهم وإذعانهم لأمرها: ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

لم تتفاعل الملكة مع موقف الملأ الّذي يميل إلى الاستعداد للقتال، لأنها كانت عارفة بعظمة سليمان وقدرته وحزمه، ولذا أجابتهم بأسلوب يتضمّن تحذيراً لهم من مغبّة خوض الحرب، وحلّاً لما يواجهونه من أخطار، وتمثّل هذا الأسلوب في النقاط التالية:

١. إنّ الدخول في الحرب مع الملوك لا تُحسن عاقبته، وذلك في قولها:

﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ والتاريخ يشهد بذلك.

٢. إنّ الدخول في الحرب ينتج عنه إذلال الأعزة وإذهاب الملك، وأشارت إليه بقولها: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ .

٣. علينا اختبار سليمان وقومه بالمال، فإن كان من الملوك رضي به وأعرض عنا، وأمّا لو كان داعية من الله سبحانه ونبياً سماوياً فلا يعتدّ بالمال ولا يكترث له، وإليه أشارت بقولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

رسل بلقيس وعرشها عند سليمان

١. ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

٢. ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

٣. ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

٤. ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾.

٥. ﴿قَالَ الذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ

أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِي كَرِيمٌ﴾[١].

***

لمّا قرّرت ملكة سبأ إرسال هدية إلى سليمان، أوفدت من يحملها إليه، فلما وصلت إليه رفض أن يقبلها، و ﴿قَالَ﴾ لرسول الملكة مُنكراً عليهم هذا الفعل ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللهُ﴾ من النِّعم الجزيلة ﴿خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ فلا أتطلّع إلى هذا المال الزائل الّذي لا قدر له عندي. ثم قال موبّخاً لهم على سرورهم بهديتهم لاستعظامهم لها وإعجابهم بها[٢]: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

ولم يقتصر ﷺ على ردّ الهدايا، بل توعّدهم وهدّدهم بأنّه سيغزوهم بجيش لا طاقة لهم بمواجهته : ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا﴾ أي من بلادهم ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.. أذلّاء مُهانون.

ثم إنّ القرآن طوىٰ ذيل القصة وهو أن الرسول رجع بالهدية إلى ملكة سبأ، وأخبرها بتهديد سليمان بمهاجمتهم إن لم يأتوا إليه مستسلمين طائعين، وعندئذ لم تجد الملكة أمامها إلّا أن تستجيب للأمر، فارتحلت إليه مع خاصّتها وكبراء قومها.

ولما علم سليمان أنّ موكب الملكة في طريقه إليه، طلب ممّن حوله من كبار أعوانه إحضار عرشها قبل أن تصل إليه: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي

١. النمل: ٣٦ـ ٤٠.

٢. انظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٥ / ٣٦١. وقيل في معناه: بل أنتم تفرحون بما يُهدىٰ إليكم من الهدية لحبّكم زيادة المال.

بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أراد بذلك أن يُريها بعض ما خصّه الله تعالىٰ به من العجائب الدالة علىٰ عظم القدرة وصدقهِ في دعوى النبوة[١].

وهنا انبرىٰ اثنان لإجابة طلبه:

قال الأوّل: إنّه يأتي بعرشها قبل انفضاض مجلسه ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ وكان القائل هو أحد عفاريت الجن و (العفريت) يطلق على العاتي المارد من هذا الصنف. وكأنّ القيام من المقام كناية عن انفضاض مجلس سليمان عليه السلام.

وقال الثاني: إنّه يأتي به بأسرع من ذلك بكثير، وحدّده بوقت، هو قبل ارتداد طرف سليمان إليه ﴿آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾. وارتداد الطرف، هو رجوع تحديق العين من جهة منظورة تحول عنها لحظة. وعبّر عنه بالارتداد، لأنّهم يعبّرون عن النظر بإرسال الطرف وإرسال النظر، فكان الارتداد استعارة مبنية على ذلك[٢]. وقيل غير ذلك.[٣]

ولما رأى سليمان العرش مستقراً عنده، أحسّ بالنعمة الكبيرة الّتي خصّه الله بها دون غيره، فمن اللازم أن يشكرها كما قال: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ ثم أضاف ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

وهنا تُثار عدة أسئلة:

---

١. تفسير البيضاوي: ٢ / ١٧٦. ٢. التحرير والتنوير: ١٩ / ٢٦٤.

٣. انظر التبيان في تفسير القرآن: ٨ / ٩٦ ـ ٩٧.

أوّلها: ما هو الكتاب الّذي أُشير إليه بقوله: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾؟ قال المفسرون المراد به جنس الكتب السماوية أو اللوح المحفوظ. وأضافوا: إنّ هذا القائل كان يعلم اسم الله الأعظم، ذلك الاسم الّذي يخضع له كل شيء ويمنح الإنسان قدرة خارقة للعادة. وقد ثبت في محله أنّه ليس من قبيل الألفاظ والمفاهيم، وإنّما هو كمال نفساني يوجد في الإنسان يصبح بواسطته مظهراً لذلك الاسم الأعظم .

الثاني: من هو هذا الشخص الّذي كان عنده علم من الكتاب؟ والجواب : ليس في الآية شيء يدل على خصوصيته، إلّا أن المذكور في التواريخ أنّه كان وزير سليمان ووصيّه، ويقال كان ابن أُخته. وجاء في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وغيرهم أنّ اسمه: آصف بن برخيا.

الثالث: ان سليمان نفسه كان قادراً علىٰ ذلك العمل فلماذا أوكله إلىٰ غيره؟ والجواب: لعل الوجه أنّه عليه السلام أراد بذلك أن يبيّن مكانة وصيّه ووزيره للجميع في هذه اللحظة الحسّاسة. وهذا ليس ببعيد، فإنّ الأساتذة ربما يطلبون من تلاميذهم أُموراً شاقة، فمن قام بها بأحسن وجه فهو الّذي يُقدَّر.

الرابع: كيف تصرّف سليمان في عرش الملكة، وهي غير راضية وأتىٰ به إلى مملكته؟

والجواب: إنّ قيام سليمان بهذه الأفعال العجيبة لم يكن صادراً عن هوىً، بل كان لغرض الهداية وإرعاب العدو حتّى يستسلم لأمر سليمان ويترك عبادة ما سوى الله وينقاد لعبادته سبحانه.

يُشار إلىٰ أن الّذي قام بهذا العمل العجيب لم يكن عنده علم كلّ الكتاب بل شيء منه ولذلك قال: ﴿قَالَ الذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ لأن «من» في قوله: ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ تبعيضية، وهذا يعني أنّه كان يعلم شيئاً من الكتاب لا كلّه.

نعم دلّ القرآن الكريم أن من بين الأُمّة الإسلامية من عنده علم الكتاب كله، كما قال: ﴿وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[١].

فعن أبي سعيد الخدري أنّه قال: سألت رسول الله ﷺ عن ﴿الذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الوارد في قصة سليمان؟ فقال ﷺ: هو وصي أخي سليمان بن داود فقلت: والآية ﴿وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ عمن تتحدث؟ فقال ﷺ: ذاك أخي علي بن أبي طالب عليه السلام.[٢]

وقد ورد عن طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام ما يشير إلىٰ نزول هذه الآية في شأن علي عليه السلام[٣].

ملكة سبأ في مجلس سليمان

١. ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ﴾.

٢. ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

---

١. الرعد: ٤٣. ٢. ينابيع المودة للقندوزي: ١ / ٣٠٧.
٣. البرهان في تفسير القرآن للبحراني: ٢ / ٣٠٢ ـ ٣٠٤.

٣. ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

٤. ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.(١)

***

مرّ أنّ الملكة لما بلغها تهديد سليمان، أزمعت الحضور بنفسها لديه ، والانقياد لحكمه وسلطانه، ولذلك تجهزت للسفر بركب يليق بمثلها، لكن سليمان أراد أن يجرّب حِذقها وذكاءها فأمر أعوانه بإجراء بعض التغيير على العرش، وذلك بتغيير بعض أوصافه ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي غيّروه عن الحالة السابقة له: ﴿نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ﴾.. أتعلم أنّه هو أم يختلط عليها الأمر بسبب هذا التغيير، فلا تصل إلىٰ معرفته؟

ولما جاءت الملكة بموكبها إلىٰ مجلس سليمان واطّلعت على العرش قيل لها ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ ولم يُقل: أهذا عرشك؟ زيادة في التنكير، فأجابت بما يدلّ علىٰ رجاحة عقلها، و ﴿قالت كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فلم تجزم بأنّه هو نفسه، لاحتمال أن يكون مثله، ولم تنفِ ذلك، لوجود التشابه بينهما، ثم اعترفت بحقيقة أرضت بها سليمان ، وقالت: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ ظاهر السياق أنها من تتمة كلام الملكة، ذلك أنّها لمّا أحسّت أنّ سليمان عليه السلام أراد بإحضار العرش إظهار

---

١. النمل: ٤١ ـ ٤٤. و (التنكير): تغيير الشيء من حال إلى حال. و (الصَّرْح): كلّ بناء عالٍ، ويطلق على الموضع الوسيع المنكشف من غير سقف. و (اللُّجّة): معظم الماء. و (المُمَرَّد): الأملس. و (القوارير): الزجاج.

القدرة الخارقة للتدليل على صدق نبوّته، قالت: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ بقدرة سليمان ﴿مِنْ قَبْلِهَا﴾ أي قبل هذه الحالة، وإنّ قدومنا إلى سليمان، والنزول على حكمه قبل هذه المفاجأة الغريبة (إحضار العرش)، دليل علىٰ انقيادنا وطاعتنا. وقد ترتب على هذا اللقاء إعلان إسلامها وتركها عبادة الشمس.

وهنا يكشف القرآن الكريم عن تأثير تقاليد المجتمع ومعتقداته على الفرد، فالذي صدّ الملكة عن الإيمان بالله، ومنعها من التسليم له، هو أنّها نشأت وعاشت في جوّ مشبع بالكفر ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾

ثم فوجئت وهي تدخل الصرح (وهو القصر المُعدّ للوفود والعظماء) للقاء سليمان عليه السلام، فوجئت بصحنه الّذي يُرىٰ كأنه لُجّة، فلملمت ثيابها، ظناً منها أنّها تريد أن تخوض الماء، فقال لها سليمان أنّ ما تحسبينه ماءً، هو ﴿صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ فلما رأت تلك الآيات الباهرة، الّتي تدلّ على أنّ سليمان مؤيد من عند الله التفتت، و ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بالكفر وعبادة غيرك ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقد حيكت حول قصة سليمان أساطير وخرافات، ومن راجع التفاسير خصوصاً القسم الروائي منها كالدر المنثور وغيره يرىٰ فيها غرائب وعجائب، يحكم العقل ببطلانها وعدم صحتها، وهي من الإسرائيليات الّتي تسرّبت إلىٰ كتب التفسير والحديث.

هذا، ومن يقرأ حياة سليمان في القرآن الكريم يعرف أنّه كان عبداً مؤمناً شاكراً أوّاباً، موصوفاً بالعلم والحكمة، متمتعاً بقدرة فائقة على التدبير والإدارة،

وأنّه كان يبتغي في كل أقواله وأعماله مرضاة الله تعالىٰ.

وإذا ما قرأها في أسفار العهد القديم، فسيجد فيها ما يندىٰ له الجبين، حيث جاء في الإصحاح الحادي عشر من سِفْر الملوك الأوّل ما هذا نصّه: فغضب الرب على سليمان، لأن قلبه مال عن الربّ إله إسرائيل الّذي تراءى له مرتين وأمره في ذلك أن لا يتبع آلهة أُخرىٰ فلم يحفظ ما أمره الرب به فقال الرب لسليمان: «بما أن أمرك هذا، وأنت لم تحفظ عهدي وفرائضي الّتي أمرتك بها فسأنتزع الملك عنك وأسلمه إلى عبدك. إلّا أني لا أفعل ذلك في أيامك نظراً لداود أبيك، بل من يد ابنك انتزعه. ولاأنتزع الملك كله ولكن اعطي ابنك سبطاً واحداً نظراً لداود عبدي ونظراً لأورشيلم الّتي اخترتها».[1]

وعلى كل تقدير، فما قرأناه من الآيات الكريمة وما حولها من التبيين والتفسير والتعليق، يكشف عن قدرات عظيمة لإنسان إلهي، لم يتمتع بها غيره.

والسبيل الوحيد لتفسير هذه الأُمور الخارقة للعادة هو الإعجاز والكرامة، ومن يحاول تفسيرها بالعلل الطبيعية، يقع في وادي التأويل ومهالك التفسير بالرأي.

ونزول هذه الآيات الكاشفة عن قدرة نبي من أنبياء الله، على النبي الأعظم ﷺ وهو في مكة يبعث على تطيب خاطره وتثبيت قلبه، حيث تغلّب عليه السلام علىٰ ملكةٍ عابدة للشمس عن طريق إرسال كتاب بواسطة طير، ومُرسل سليمان عليه السلام هو مُرسل محمد ﷺ، وباعثه إلى الخلق أجمعين، فلا يعجزه تعالىٰ

١. سفر الملوك الأوّل: ١١ / ١٠ ـ ٢٧ ص ٦٥٢ من الكتاب المقدس.

نصره علىٰ قوىٰ الشرك والضلال، وإعانته علىٰ تحطيم الوثنية والأصنام .

ثم إنّ بعض المتقشفين غير العارفين بمقامات الأنبياء والأولياء ربما يستشكلون علىٰ سليمان جمعه للأموال والحرس، وتشييده للمباني الفخمة وغير ذلك، وهذا الإشكال نابع عن تصورّ خاطئ ونظرة سطحية للدنيا، فللإنسان إذا أقبل على الدنيا أو أقبلت عليه، موقفان:

الأوّل: أن يجعل الدنيا أكبر همّه، ويؤثرها علىٰ آخرته، فيتكالب علىٰ حطامها، ويهيم بعشقها، ويغرق في ملاذها. وهذه هي الدنيا الغَرور، الّتي تُعميه وتطغيه، وتصرف وجهه عن طاعة الله.

الثاني: أن يجعلها مزرعة لآخرته، ووسيلة لغايات وأهداف سامية كنشر العدل وبسط التوحيد، وإعانة البائسين، والتزوّد من الخيرات والأعمال الطيّبة. وهذه هي الدنيا المطلوبة الّتي دعا إليها جميع الأنبياء والأولياء. قال الإمام علي عليه السلام في صفة الدنيا : وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ .[1]

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٨٢.

٨

سليمان في ذمة الخلود

إنّ قلم الخلقة قد كتب على جبين كل إنسان الفناء وعدم البقاء وأنّه لا بقاء إلّا لذات الله سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾(١).

إنّ سليمان النبي عليه السلام مع ما أُوتي من القدرة والمُكْنة حتّى سُخّر له الجن والإنس والطيور، قد جرىٰ عليه القضاء المحتوم:

حُكمُ المنيّة في البريّةِ جارِ ... ما هذه الدنيا بدارِ قَرارِ(٢)

وإليك ما يذكره القرآن الكريم عن كيفية موته:

قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾(٣).

والمعنىٰ : إنّا لما كتبنا على سليمان الموت وحان وقته، كان متكئاً على

١. الرحمن: ٢٦ـ٢٧.

٢. قائله، أبو الحسن علي بن محمد التهامي (المتوفىٰ ٤١٦ هـ).

٣. سبأ: ١٤. و (دابّة الأرض) ـ كما يقول المفسرون ـ: هي الأَرَضَة الّتي تأكل الأخشاب، و (المنسأة): العصا. و (خرّ): سقط.

عصاه والجنّ دائبة في أعمالها الشاقة، إلى أن تسلّطت دابة الأرض على عصاه، فقرضتها، فضعفت عن حمله، فخرّ على الأرض، وفي هذا الوقت علمت الجن بموته، وتبيّن لها ﴿أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي في خدمة سليمان وممارسة الأعمال الشاقة، ظانين أنّه حيّ.

وقد أسفر هذا الحادث عن أمرين:

١. إنّ سليمان صاحب الجاه العظيم أجاب دعوة ربّه ومات، وإنّ البقاء لم يكتب لأحد من الناس إلّا لذاته سبحانه. وللإمام أمير المؤمنين عليه السلام كلام جميل في هذا الصدد يقول فيه : فَلَوْ أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَىٰ ٱلْبَقَاءِ سُلَّماً، أَوْ لِدَفْعِ ٱلْمَوْتِ سَبِيلاً، لَكَانَ ذٰلِكَ سُلَيْمانُ بْنُ دَاوُدَ عليه السلام، الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ، مَعَ النُّبُوَّةِ وَعَظِيمِ الزُّلْفَةِ. فَلَمَّا ٱسْتَوْفَىٰ طُعْمَتَهُ، وَٱسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسِيُّ ٱلْفَنَاءِ بِنِبَالِ ٱلْمَوْتِ، وَأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، وَٱلْمَسَاكِنُ مُعَطَّلَةً، وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ. وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً! .[١]

٢. إنّ الجن الّذي كانوا يعملون له أعمالاً شاقة، ما كانوا يعلمون الغيب، ولذا حسبوه حياً مراقباً لأعمالهم.

(فهؤلاء هم الجنّ الذين يعبدهم بعض الناس. هؤلاء هم سخرة لعبد من عباد الله. وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب، وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد!).[٢]

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢ .

٢. في ظلال القرآن: ٢٢ / ٧١ .

خلاصة قصة سليمان عليه السلام

تجلّت مواهب سليمان في أيام أبيه داود الّذي أوتي المُلك والنبوة، وجُعل خليفة في الأرض ليحكم فيها بالحق، إذ ألهمه الله سبحانهُ حكماً آخر في قضية الزرع الّتي رُفعت إلى أبيه، فارتضىٰ عليه السلام حكم ولده فيها، وأمضاه.

وورث عليه السلام أباه داود في الملك، وكرّمه تعالىٰ بالنبوة، وبالقربىٰ والزلفىٰ لديه، وأثنىٰ عليه بأزكى الثناء ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

ثم اتّسع ملكه، وأُعطي قدرة لا نظير لها، بعد أن أجاب الله سؤله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ ليكون آية من آيات الله ودليلاً على صدق نبوّته، ولينعم بأفياء عدله وطيّباتهِ جميعُ رعيّته، فسخّر له سبحانه الريح، وجعلها ﴿تَجْرِي بأمرِهِ رُخَاءً حَيثُ أصابَ﴾.. فلا تعصيه في انطلاقها إلى أية جهة يريد، وذلّل له بعض الجنّ للقيام بالأعمال الّتي تتطلب مهارة وقوة وسرعة كتشييد المباني الفخمة، وصُنع التماثيل وغيرها، والغوص في البحار لاستخراج نفائسها، وعلّمه منطق الطير، وهيأ له سبحانه النحاس المذاب بقوله: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾، فكان ينبع كما ينبع الماء من العين، لتلبية متطلّبات تقدّم المملكة وازدهارها في مجال الفن والصناعات المختلفة، وتحقيق الرخاء والرفاه الاجتماعي.

وثمة مشاهد أربعة في قصة سليمان، سجّلها القرآن الكريم:

١. مشهد العرض العسكري الّذي أقامه عليه السلام مساء ذات يوم لخيوله الكريمة،

والمُعدَّة للجهاد والقتال، ﴿فَقَالَ﴾ شغفاً بها وهي تجري أمام عينيه ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ حبّاً نشأ ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ وأمْرِه، لا إجابة لدواعي الهوىٰ، فلما توارت عن بصره في جريها، قال ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾، فلما عادت أخذ يمسح سيقانها وأعناقها حبّاً واستحساناً لها.(١)

٢. مشهد الفتنة الّتي ابتُلي بها ﷺ، وقد عرضه القرآن بهذه الصورة: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾. لم تتضح حقيقة هذه الفتنة، ولكنها تأتي ـ كما يظهر ـ في إطار الابتلاء الّذي يتعرّض له المخلَصون، حينما يصدر عنهم ما لا يليق بمقاماتهم الرفيعة، ولا يُعدّ من الذنوب والمعاصي.

وقف ﷺ بعد هذه الفتنة، موقف الخاشع المتضرّع المُنيب، مستمطراً عفو الله وغفرانه، وسابغ عطائه.

٣. مشهد الجيش الّذي أمر ﷺ بتعبئته للقيام بإحدى المهام، وضمّ في تشكيلاته طوائف ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾، فلما سار بهم وأشرفوا علىٰ واد فيه نمل كثير، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ منذرةً أبناء جنسها ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ﴾ بوطئهم إياكم ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك.

سمع سليمان ﷺ هذا التحذير الّذي أطلقته النملة، وفهمَ ما تقصده ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا﴾، وغَمره إحساس عميق بعظمة هذه النعمة، ترجمه بهذه

---

١. أخذنا بأحد وجوه التفاسير لهذا المشهد الّذي عرضه القرآن الكريم في ثلاث آيات.

الكلمات الداعية إلى التوفيق للشكر والثناء: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾، فالشكر ترجمان النيّة ولسان الطويّة[١]، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد سأل الله التوفيق لشكر النعمة الّتي منّ بها على والديه، لأنّه عاش أجواءها، وهَطَلت عليه سحائبُها.

٤. مشهد الهدهد الّذي أطلع سليمان على نبإٍ هام، التقطه من مملكة سبأ في بلاد اليمن.

تعهّد سليمان ذات يوم الطيور الّتي بحوزته، فأحسّ بغياب الهدهد، فتوعّده بعقاب شديد أو بالذبح، ما لم يبرّر سبب غيابه بحجة واضحة مقنعة.

لم يمض وقت طويل، حتّىٰ حطّ الهدهد بين يدي سليمان، وأطلعه علىٰ هذا النبأ الهام من سبأ، قائلاً: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ يعني بلقيس بنت شراحيل ـ كما في الأخبار ـ ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أسباب القوة ومظاهر الأبّهة والترف ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ تجلس عليه.

ثم ماذا؟ ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾!!، وهم يعبدونها بتزيين من الشيطان وإغواء منه.

﴿قَالَ﴾ سليمان بعد أن أتمّ الهدهد كلامه: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.. فلابدّ إذاً من اختبار مقالته. وكيف؟

كتب عليه السلام كتاباً، وأمره بأن يحمله إليهم، ثم يتوارىٰ في مكان قريب منهم، ليسمع تحاورهم فيه.

---

١. غرر الحكم، الحكمة: ١٣٠٠.

فضّت الملكة الكتاب، وقرأت ما فيه، ثم أخبرت كبار القادة وذوي الرأي في مملكتها به، وقالت ﴿**إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُوني مُسْلِمِينَ**﴾. إنّه كتاب مقتضَب، استهلّه عليه السلام بالبسملة، وضمّنه أمراً واحداً، أوجزه في عبارتين وافيتين بمقصوده: لا تتكبروا عليّ، وانقادوا إلىٰ ما أدعوكم إليه من الحق.

وهنا حثّت الملكة مَن حولها من الملأ علىٰ إبداء وجهات نظرهم في هذا الموضوع الخطير، قائلة: ﴿**مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ**﴾.. فلا أبتُّ بأمر إلّا بمحضركم واستماع آرائكم فيه.

عبّر الملأ عن موقفهم الدالّ علىٰ قوّتهم ونجدتهم وبسالتهم، وفي ذات الوقت فوّضوا الأمر إليها، معربين عن امتثالهم لقرارها في المنازلة وعدمها.

أحسّت الملكة بميلهم إلى المواجهة العسكرية، فحذّرتهم من أخطارها وتداعياتها، بهذا الكلام الّذي ينمّ عن الحكمة والتجربة: ﴿**إنَّ المُلُوكَ إذا دَخَلُوا قَريةً أَفْسَدُوها وجَعَلُوا أعِزَّةَ أَهْلِها أذِلَّةً**﴾، ورأت أن الأسلوب الأفضل في معالجة الموقف، هو في إرسال هدية إلى سليمان، وترقُّب ردود فعله منها، فإن كان ممن يطلب الدنيا، ويستهويه المال، قَبِلَها، وإن كان من أصحاب المبادئ والقيم المعنوية، رفضها، وعندئذ لا سبيل إلىٰ مقاومته، ودفع خطره عنّا.

وصلت إليه الهدية، فأدرك عليه السلام أنّها رشوة، تُعطىٰ إليه للتراجع عن موقفه المبدئي وهدفه الرسالي، ولذا أبىٰ أن يقبلها، و ﴿**قَالَ**﴾ لرسول الملكة: ﴿**أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ**﴾ ليغرّني بريقُه؟ هيهات ﴿**فَمَا آتَانيَ اللهُ**﴾ من النعم الوفيرة والمواهب الجزيلة ﴿**خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ**﴾.

ثم هدّدهم بأنّه سيغزوهم في عقر دارهم بجيش لَجِب، يعجزون عن مقابلته، ويخرجهم منها ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.. أذلاّء.

استسلمت الملكة للأمر، وسارت بموكبها إلى سليمان، فلما علم عليه السلام بذلك، طلب من أعوانه أن يُحضروا عرشَها قبل أن تصل إليه!! ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾.. ماردٌ ﴿مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ وينفضّ مجلسك.

وهنا انبرى ﴿الذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قائلاً: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾!!

وفي لحظة، رأىٰ سليمان العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾، فاستشعر عظمة هذه النعمة، و ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾.

ثم أمر عليه السلام بتغيير بعض معالم عرشها، ليختبر ذكاءها في معرفته، ويُلفت انتباهها إلىٰ هذا الأمر الخارق، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ إلى بلاط سليمان، ﴿قِيلَ﴾ لها، وقد عُرض عليها العرش: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ فتأمّلته، و ﴿قَالَتْ﴾ من دون نفي ولا إثبات: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾، ولكنها أدركت غرض سليمان عليه السلام من إحضار العرش، وأنّه بصدد إظهار المعجزة الدالة علىٰ نبوّته، فقالت ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ أي قبل هذه المعجزة ممّا تقدّم من الآيات والدلائل ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.. خاضعين منقادين.(١)

ويُعلّل القرآن الكريم صدّها وإعراضها عن الإيمان بوحدانية الله وطاعته،

---

١. قيل إنّ هذا الكلام ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ كان من سليمان لا من الملكة.

بنشوئها في وسط منحرف كافر ﴿**وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ**﴾.

وتنتهي مراسم الاحتفاء بالملكة بمقابلة سليمان ﷺ في قصره، فـ﴿**قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ**﴾، ففوجئت بِبَهْوه الّذي بدا لها لُجّة ماء، فكشفت عن ساقَيها بلملمة أذيالها، شأن من يتّقي ابتلالها وهو يريد خوض ماءٍ، فقال لها سليمان: هذا زجاج شفاف صافٍ ﴿**إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ**﴾، وليس بِركة ماء كما تظنّين.

أيقنت الملكة بربّانية هذه الآية الباهرة وما قبلها من الآيات، وبصدق نبوّة سليمان واتصاله بالله تعالىٰ، فانتفضت، و ﴿**قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي**﴾ ببُعدي عن هذه الآفاق المضيئة، ﴿**وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ**﴾ الّذي أنار لي طريق الإيمان ﴿**لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾.. فلا إله غيرُه، ولا ربَّ سواه.

وقد شاء الله تعالىٰ لهذا النبي الكريم والمَلِك العظيم، الّذي أُوتي من القدرات مالم يؤتَ أحد غيره من البشر، وبلغت مملكته الّتي كانت تضجّ بالحركة والنشاط ذروة المجد، شاء أن تدهمه المنيّة، وهو متكئ علىٰ عصاه، ولم يشعر بموته حتّى الجنّ المسخّرة له، إلّا بعد أن أكلت ﴿**دَابَّةُ الْأَرْضِ**﴾ عصاه ﴿**مِنْسَأَتَهُ**﴾، وخرّ على الأرض!! وما أجمل قول المتنبي:

وما الموتُ إلّا سارقٌ دَقَّ شخصُهُ   يصولُ بلا كفٍّ ويسعىٰ بلا رِجلِ

الدروس والعبر

١. اتّسم سليمان عليه السلام بفضيلة الشكر، فما أن يُغدق عليه سبحانه نعمة من النعم، حتّى اتّجه بقلبه وكلّ كيانه إلى المُنعم جلّ شأنه، وفاض لسانه بكلمات الشكر والحمد والثناء: ﴿الْحَمْدُ للهِ الذِي فَضَّلَنَا...، رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ...، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ...، هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي...﴾.

إنّ هذه الخُلّة الطيبة الّتي تجلّت في سليمان عليه السلام بشكل بارز، تعبّر عن كرم نفسه، وسموّ روحه، وعمق وفائه، وعرفانه للفضل وجميل العطاء.

ولا ريب في أنّ كلّ إنسان مدعوّ للتحلّي بِسِمة الشكر للنِّعم المفاضة عليه، وهو درجات أسماها الشكر بالعمل المرضيّ عند الله تعالىٰ ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ﴾، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما شُكرت النعمةُ بمثل بَذْلِها.[١]

ومن ثمرات الشكر ازدياد النِّعم وترادف المِنَن، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٢]، وقال الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ما فتحَ اللهُ علىٰ عبدٍ باب شكر، فخزنَ عنه باب الزيادة.[٣]

---

١. غرر الحكم، الحكمة: ٩٥٤٥.

٢. إبراهيم: ٧.

٣. الكافي: ٢ / ٩٤ ح ٢.

٢. أرادت ملكة سبأ من خلال تقديم هدية ثمينة لسليمان عليه السلام، أن تليّن موقفه، وتصانعه، وتفقأ بها عينه [(١)]، ولكنه عليه السلام شمّ رائحتها الكريهة، وعرف أنّ وراءها غايةً غير نزيهة، ولذا أبىٰ أن يقبلها، وردّها عليهم بعنف، مؤكداً أنّه لن يتراجع عن تصميمه علىٰ إنجاز أهدافه الربانية، ولن يتزحزح عن موقفه في مناجزة القوم الكافرين.

وعلى الرغم من أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يحثّ على التهادي، ويقول: (تهادوا تحابّوا، فإنّ الهدية تذهب بالضغائن) [(٢)]، إلّا أنّه كان لا يقبل هدية مشرك، انطلاقاً من موقفه الرسالي، قال صلى الله عليه وآله وسلم: (الهدية علىٰ ثلاثة أوجه: هدية مكافأة، وهدية مصانعة، وهدية لله عزوجل) [(٣)].

وفي هذا الاطار الرسالي، يأتي إباء أمير المؤمنين عليه السلام عن قبول هدية أحد أصحابه، ويقول: (وَأَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ:

أَصِلَةٌ، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذٰلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ ٱلْبَيْتِ! فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلٰكِنَّهَا هَدِيَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ! أَعَنْ دِينِ ٱللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ؟ وَٱللهِ لَوْ أُعْطِيتُ ٱلْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَىٰ أَنْ أَعْصِيَ ٱللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي

---

١. قال الإمام علي عليه السلام: الهدية تفقأ عين الحكيم.

٢. بحار الأنوار: ٧٥ / ٤٤ ح ١.

٣. الكافي: ٥ / ١٤١ ح ١.

لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا.[(١)]

٣. إنّ الأُمة الّتي تسير خلف قائد نزيه، أمين علىٰ رسالة السماء، يمتثل أمر الله ونهيه، ويحكّم شريعته في تفاصيل حياتها، هي أُمّة سائرة على الطريق الصحيح، الّذي يوصلها إلى الأمن والاستقرار والرقيّ والرفاه، ويفيض عليها المزيد من الخير والبركة .

ولاشك في أنّ الدِّين إذا قُيِّض له من يرعاه حق رعايته، وتمّ تحكيمه وإقرار شريعته العادلة في حياة المجتمع، قادر على تفجير الطاقات، وتحقيق السعادة، وصنع الحضارة الزاهرة.

وفي قصتنا هذه، بلغت مملكة النبي سليمان عليه السلام في ظل قيادته الرشيدة، وسياسته المرسومة على ضوء المنهج الإلهي، بلغت أوج ثروتها وقوتها ومجدها. وما أروع قول أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذا المجال:

صَيِّرِ الدِّينَ حِصْنَ دَوْلَتِكَ ، وَ الشُّكْرَ حِرْزَ نِعْمَتِكَ ، فَكُلُّ دَوْلَةٍ يَحُوطُها الدِّينُ لاتُغْلَبُ ، وَ كُلُّ نِعْمَةٍ يَحْرُزُها الشُّكْرُ لاٰ تُسْلَبُ.[(٢)]

وبكلمة: إنّ تطبيق النظام الصالح، ووجود الحاكم الصالح، يُفضيان إلى الحياة السعيدة الفضلىٰ، إذا استجاب لهما الناس، وآمنوا بقيادتهما.

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٤. و (الملفوفة): نوع من الحلواء أهداها الأشعث بن قيس الكندي إلى الإمام عليه السلام. و (شنئتها): كرهتها. و (الصِّلة): العطية، و (هَبِلَتْكَ): ثكلتك. و (الهَبول): المرأة الّتي لا يعيش لها ولد. و (أمختبطٌ): أمختلٌ نظام إدراكك. و (ذو جِنّة): من أصابه مسّ من الشيطان. و (تَهْجُر): تهذي. و (جُلْب الشعيرة): قشرتها. و (القضم): الأكل بأطراف الأسنان.

٢. غرر الحكم، الحكمة: ٥٨٣١.

٤. إنّ موقف النبي سليمان عليه السلام من ملكة سبأ وقومها، وسعيه في تحقيق الأمن والرفاه لرعيّته، يدلّان علىٰ أنّه كان يستخدم الحُكم وسيلة إلى الدعوة إلى الله تعالىٰ، وأداة لإقامة العدل، ودفع الظلم.

ومن هنا يتضح أنّ غايته من طلبه الملك الّذي لاينبغي لأحد من بعده، لم تكن من أجل تحقيق الذات، وكسب المزيد من المنافع الشخصية، أو تلبيةً لرغبات النفس في التفوق والاستعلاء والتطاول على الناس، وإنّما كان عليه السلام يتوخّىٰ من ذلك ـ حسبما تفرض طبيعة المرحلة ـ النهوض بواجب قيادة الأُمّة وإرشادها إلى طريق الله، وإنقاذها من الجهل والضلال، وإقامة دعائم الحق والعدل، والقضاء على مظاهر الظلم والجور والاستغلال، ونشر الوئام والسلام.

وقد برز التجسيد الحيّ لهذه الأهداف النبيلة طوال فترة قيادة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم للأُمّة، كما برز أيضاً في فترة خلافة أخيه ووصيّه علي بن أبي طالب عليه السلام، وإليك ما دار بينه وبين تلميذه حَبرِ الأُمة:

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنه دخلتُ علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام بذي قارٍ وهو يَخْصِف نَعْلَه[1]، فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها!

فقال عليه السلام: والله لَهيَ أحَبُّ إليّ من إمرتكم، إلّا أن أُقيمَ حقّاً، أو أدفع باطلاً.[2]

٥. من سمات العالم الحقيقي، هي التواضع وعدم التبجّح بما أصاب من علم في جانب أو جوانب متعددة منه، فآفاق العلم غير محدودة، ولا يمكن لأحد

---

١. خَصَف النَّعْلَ: اطبق عليها مثلَها وخرزها بالمِخْصَف.

٢. نهج البلاغة، الخطبة: ٣٤.

أن يدّعي الإلمام بجميع أسرارها ومجاهيلها، مهما بلغ من الفطنة والذكاء، ومهما بذل من جهد واجتهاد.

والحق، أن العالم ذا النظر العميق والفكر السديد، هو الّذي يحسّ دائماً بأنّه لم يؤتَ من العلم إلّا قليلاً، وأن الجاهل ذا الأفق الضيّق، هو الّذي يشعر بالتعالي، ويحسب أنّه قد عرف أشياء كثيرة، وأحاط بها علماً. وما أصدق قول الشاعر أبي نؤاس، وهو يخاطب أحد الفلاسفة:

فقلْ لمن يدّعي في العلم فلسفةً   حفظتَ شيئاً، وغابتْ عنك أشياءُ

وفي هذه القصة، يبرز النبي سليمان عليه السلام مثلاً يُحتذىٰ به في التواضع والإنصات لما يعلمه الآخرون، فعلى الرغم من أنّ الهدهد جابهه بهذا القول الجريء: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾، فإنّ سليمان وهو النبيُّ الّذي آتاه الله علماً، وألهمه منطق الطير وغيرها، والمَلِكُ الواسع المُلك، المبسوط اليد، الهائل القدرات، فإنّه عليه السلام لم يغضب من هذا القول الّذي يتحدّاه في علمه، ولم يجبهه بالردّ أو يأمر بمعاقبته، بل استمع إليه، ووعد بأنّه سيتحرّى الأمر، ليعرف نصيب مقالته من الصدق ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

١٧ و١٨ و١٩

الأنبياء المذكورون في القرآن إجمالاً

ما مرّ عليك من القصص القرآنية يرجع إلى أنبياء الله ورسله الذين تعرض القرآن الكريم لبيان سيرتهم علىٰ وجه التفصيل، وهناك ثلاثة أنبياء، ذكر القرآن الكريم قصة أحدهم (وهو إلياس) بإيجاز شديد، بينما لم يذكر شيئاً عن الآخرَيْن، (وهما ذو الكفل واليسع)، واكتفىٰ بذكر اسميهما مشفعاً بالثناء، ونحن نوردهم هنا مقتصرين علىٰ تفسير الآيات الواردة في شأنهم مع بعض التوضيح والتعليق، دون أن نخوض في تفاصيل ما جاء حولهم من القصص في كتب التاريخ والتفسير، فإن أكثرها مقطوع السند، ويغلب عليه الضعف ، وهي مأخوذة عن مستسلمة أهل الكتاب وغيرهم، ولذلك لا يمكن الاعتداد بها.

النبي إلياس عليه السلام

١. ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

٢. ﴿وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2].

دعا النبي إلياس عليه السلام [3] قومه إلىٰ عقيدة التوحيد، وإلىٰ نبذ الشرك المتمثل

---

١. الصافات: ١٢٣ ـ ١٣٢.

٢. الأنعام: ٨٥.

٣. هو من ذرية إبراهيم الخليل عليه السلام، وقال المفسرون إن نسبه ينتهي إلى هارون عليه السلام، ونقل صاحب «التفسير الكاشف» عن «قاموس الكتاب المقدس» القول: إن إيليّا اسم عبري، ومعناه إلهي يهوه، والصيغة اليونانية لهذا الاسم هي إلياس، وتستعمل أحياناً في العربية.

يذكر أنّ قصة إيليّا هذا وردت في سِفر الملوك الأوّل من العهد القديم، وكان معاصراً للملك أحآب بن عُمْريَ الّذي مَلك علىٰ إسرائيل في السّامرة من سنة (٨٧٥) إلى سنة (٨٥٣ق. م)، وصنع ـ كما في السفر المذكور ـ الشرّ في عيني الربّ أكثر من كل من تقدّمه، وتزوج إيزابَل بنت أتبَعْل (من كهنة عشتاروت، وقد تولّى السلطة في صور) ملك الصيّدونيّين، وراح يعبُدُ البَعْل ويسجد له، وأقام مذبحاً للبعل في بيت البعل الّذي بناه في السامرة.

وممّا ورد فيه أيضاً: فلما رأىٰ أحآب إيليّا، قال له أحآب: أأنت إيليّا مُعكرُ صَفْوِ إسرائيل؟، فقال له: «لم أُعكِّرْ صَفْوَ إسرائيلَ أنا، بل أنت وبيتُ أبيكَ بترككم وصايا الرب وسَيرِكَم وراء البَعْل».

بعبادة (بعل)[١] والتقرّب إليه، وحذّرهم بأس الله تعالىٰ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

وقد أراد عليه السلام وهو يدينهم ويؤنّبهم بهذا القول: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾، أراد أيضاً أن يستثير عقولهم ويفتح عيونهم علىٰ قضية هامة وواضحة، وهي أن المستحق للعبادة، هو من بيده زمام الخلق والتدبير، والله تعالىٰ وحده مَن يملك هذين الأمرين، فهو أحسن الخالقين، وهو الربّ المدبّر لأمر الخلق أجمعين.

لم يستجب لدعوته عليه السلام من قومه إلّا القليل، وأصرّ أكثرهم على شركهم وعلىٰ تكذيبه، ولم يكترثوا لأقواله ونصائحه، الأمر الّذي عرّضهم لسخط العزيز الجبار، ووعيده ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾، فيمثُلون أمام محكمة الله، لينالوا جزاءهم العادل علىٰ سوء أقوالهم وأفعالهم.

وقد ذكر المفسرون والمؤرخون حول إلياس عليه السلام قضايا مختلفة، يغلب علىٰ أكثرها الضعف، وقد نقلها ابن كثير في تاريخه.[٢]

١. كان للفينيقيين ـ الساكنين في شاطئ البحر الأبيض المتوسط ـ آلهة كثيرة. وكان لكل مدينة بعلها (أي سيّدها) وإلهها الخاص، وهو في اعتقادها جَدّ ملوكها، ومخصب أرضها، فكانت الحبوب والخمور والتين والكتان كلها من عمل بعل المقدّس. وكان بعض اليهود يعظّمون بَعْل، الّذي كان يُرمز إليه بحجارة مخروطية قائمة كثيرة الشبه بلنجا إله الهندوس. قصة الحضارة: ٢/ ٣١٥و ٣٣٩.

٢. لاحظ: البداية والنهاية: ١/ ٣٣٧ـ ٣٣٩.

ذو الكفل عليه السلام

اختلفت أقوال المفسرين في ذي الكفل، هل كان من الأنبياء أو من الصالحين؟ وإليك ما ورد في حقه في الذكر الحكيم:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

﴿وَ اذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ﴾[2].

والإمعان في الآيات يُظهر أنّه كان من الأنبياء بشهادة ورود اسمه بعد اسم إسماعيل وإدريس في سورة الأنبياء، وبعد إسماعيل واليسع في سورة (ص).

وعلى كل تقدير فقد وصفه سبحانه بأنّه من الصابرين والصالحين والأخيار، واجتماع هذه الصفات في شخص واحد يقرّب كونه من الأنبياء.

وأما الكِفْل فهو بمعنى الضِّعف، قيل: سمّيّ به إذ كان له ضِعف ثواب غيره ممن هو في زمانه لشرف عمله.

وفي كتاب النبوة بالإسناد عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام[3] أسأله عن ذي الكفل وما اسمه وهل كان من المرسلين؟ فكتب عليه السلام: انّ الله بعث مائة الف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي، المرسلين منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وإنّ ذا الكفل منهم وكان بعد سليمان بن داود عليه السلام،

---

١. الأنبياء: ٨٥ـ٨٦. ٢. ص: ٤٨.

٣. يعني الإمام محمد الجواد عليه السلام (المتوفى ٢٢٠ هـ).

وكان يقضي بين الناس كما يقضي داود عليه السلام ولم يغضب قط إلّا لله تعالى وكان اسمه عدويا بن إدارين.[١]

وقد أيد ذلك ابن كثير في تاريخه، وقال: الظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنّه نبي عليه من ربه الصلاة والسلام، وهذا هو المشهور. وقد زعم آخرون أنّه لم يكن نبياً وانّما كان رجلاً صالحاً وحكماً مقسطاً عادلاً.

وربما يقال في وجه تسميته بذي الكفل أنّها مشتقة من «الكفالة والتعهّد»، روى ابن جرير عن مجاهد أنّه لم يكن نبياً وانما كان رجلاً صالحاً وقد تكفّل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ويقضي بينهم بالعدل فسمّي ذا الكفل.[٢] ولا عبرة بما قال، لأنّ مجاهد وأمثاله كانوا يأخذون القصص عن الأحبار، وكل ما ذكره ابن كثير وغيره حول هذا النبي غير موثوق به.

وفي العراق مدينة باسم الكِفل، فيها قبر يزار يُنسب إليه.

وقد وقعت في هذه المدينة مناظرة بين أحد علماء الشيعة وأحد علماء النصارى حول نبوة المسيح عليه السلام حيث تمسّك الكتابي ببقاء نبوة المسيح بالاستصحاب، وصارت تلك المناظرة مبدأً لفتح باب في الكتب الأُصولية حول استصحاب النبوة، وقد حققنا الكلام فيه في بحوثنا الأُصولية.[٣]

يُشار إلى أنّ أهل دمشق يتناقلون أنّ له قبراً في جبل قاسيون، المشرف على دمشق.

١. مجمع البيان: ٤ / ٦٠.
٢. البداية والنهاية: ١ / ٢٢٥.
٣. لاحظ المحصول: ٤ / ٢٠٧ ـ ٢١١.

اليسع عليه السلام

ذُكر اليسع في القرآن الكريم مع الأنبياء مرتين :

١. ﴿وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطًا وَ كُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[١].

٢. ﴿وَ اذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ﴾[٢].

والدليل علىٰ انّه كان من الأنبياء مضافاً إلى ذكره معهم عليهم السلام، قوله سبحانه في سورة الأنعام ﴿وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ والمراد من العالمين هو الإنس والجن، أو مطلق الإنسان العائش في البسيطة وإن كان الصحيح عندنا هو الأخير، والتفضيل عليهم آية كونه نبياً، ولم يذكر القرآن الكريم شيئاً من أحواله سوىٰ أنّه من ذريّة إبراهيم الخليل عليه السلام.

وما احتمله بعضهم بأنّ اليسع هو الّذي التقىٰ به موسىٰ على ساحل البحر فطلب منه أن يعلمه ممّا عُلِّم أو انّه (يوشع بن نون) وصيّ موسىٰ عليه السلام، فهو لا يستند إلىٰ دليل، ولا يمكن التعويل عليه.[٣]

---

١. الأنعام: ٨٦.

٢. ص: ٤٨.

٣. ورد اسم (اليشع) أو (أليشاع) في التاريخ اليهودي، وتحدّث عنه سِفْر الملوك الثاني بصورة مفصلة، وفيه أنّه كان في عهد يورام بن أحآب الّذي ملك إسرائيل في السامرة من سنة (٨٥٢) إلى سنة (٨٤١ق. م)، وأنّه خلف إيليّا، الّذي رفعه الله إليه (كما زُعم)، وتوفّي في عهد يوآش بن يوآحاز، الّذي ملك من سنة (٨٠٣) إلى سنة (٧٨٧ق. م).

وجاء في الجزء الثاني من كتاب «قصة الحضارة» (هامش ص ٣٤٣): لقد جهر إليشع في القرن التاسع قبل الميلاد بوجود إله واحد: (هو ذا قد عرفت أنّه ليس إله في كل الأرض إلّا في إسرائيل).

٢٠

النبي يونس عليه السلام

ورد اسم يونس عليه السلام في القرآن الحكيم أربع مرات [١]، وورد بوصفه مرّتين [٢]. والظاهر أنّه من بني إسرائيل ، وقد جاء ذكره في العهد القديم باسم(يونان بن أمِتّاي)[٣] ، وفي الإنجيل باسم (يونان) فقط. [٤]

لم يتعرض القرآن الكريم إلّا لطرف من قصة يونس وقصة قومه، فقد تعرض في سورة الصافات إلى إرساله ثم إباقه وركوبه الفلك والتقام الحوت له، ثم نجاته وإرساله إلى القوم وهدايتهم بدعوته. وفي سورة الأنبياء: تعرض القرآن الكريم إلى تسبيحه في بطن الحوت ونجاته منها.

وفي سورة القلم: تعرض لندائه المكظوم وخروجه من بطنه واجتبائه.

وفي سورة يونس: تعرض لإيمان قومه وكشف العذاب عنهم.

ويمكن تقسيم قصة يونس في القرآن الكريم إلى ثلاثة محاور، وهي:

١. حياته بين قومه داعياً ومبلغاً عن الله رسالاته .

٢. تركه أرض قومه وركوبه الفلك ودخوله في الظلمات بالتقام الحوت له وتسبيحه في بطنها.

---

١ . النساء: ١٦٣، والأنعام: ٨٦، ويونس: ٩٨، والصافات: ١٣٩ .

٢ . الأنبياء: ٨٧، والقلم: ٤٧.

٣ . جاء في سِفْر يونان من العهد القديم، قول يونان: أنا عبراني، وإنّي أتّقي الربّ إله السموات...!

٤ . انظر: إنجيل متّى، الفقرة ١٢، و١٦، وإنجيل لوقا، الفقرة ١١ .

٣. إنجاؤه سبحانه منها لأجل تسبيحه، وعودته إلىٰ قومه، الذين ينوف عددهم على مائة ألف نَسَمة.

هذه هي المحاور الواردة في القرآن الكريم، وهناك بعض البحوث الجانبية. وإليك الكلام في المحاور واحداً بعد الآخر:

١. حياته بين قومه داعياً ومبلغاً

لم تَرِدْ في الذكر الحكيم في هذا المحور إلّا آية واحدة، وهي قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.[1]

ومعنى الآية واضح وهو أنّه سبحانه أرسله إلىٰ قوم لإبلاغهم رسالات الله ودعوتهم إلى الله.

وأما إلىٰ من أُرسل وفي أي زمان ومكان، فلا تدلّ عليه الآية. وإنّما نعتمد في بيان ذلك علىٰ ما ذكره المفسرون. وحاصل ما يستفاد من التفاسير والروايات أن يونس عليه السلام أرسله الله تعالىٰ إلى أهل نينوىٰ من أرض الموصل بالعراق، وهم جمع كثير يزيدون علىٰ مائة ألف، فدعاهم عليه السلام إلى الله عزّوجلّ فلم يجيبوا إلّا بالتكذيب والردّ، فضاق صدره بهم، وأوعدهم حلول العذاب بهم، ثم خرج من بينهم، بدون إذن من ربّه، فلّما رأى القوم أمارات العذاب، ندموا وأظهروا الإيمان والتوبة إلى الله، فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا.

ويظهر ممّا رواه جميل بن درّاج عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه كان بينهم عالم أرشدهم إلىٰ طريقة التوبة، وذلك أنّ العالم قال لهم: افزعوا إلى الله فلعله يرحمكم،

---

١. الصافات: ١٣٩.

ويردّ العذاب عنكم فاخرجوا إلى المفازة، وفرّقوا بين النساء والأولاد، وبين سائر الحيوانات وأولادها، ثم ابكوا وادعوا، ففعلوا، فصرف عنهم العذاب وكان قد نزل بهم وقرُب منهم.(١)

أمّا يونس عليه السلام، فقد ترك قومه، لِما به من الغضب والسخط عليهم، وكان ظاهر حاله حال من يأبق من ربّه ويهرب من سيّده، ظاناً أنّه لا يضيّق عليه الربّ، وسار حتىٰ وصل إلى ساحل البحر، فوجد سفينة مملوءة، فركب فيها، وجرىٰ عليه ما جرىٰ.

***

٢. تركه أرض قومه وركوبه الفُلْك

١. ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾.

٢. ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾.

٣. ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ﴾.

٤. ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾.

٥. ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.(٢)

٦. ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي

---

١. مجمع البيان: ٣ / ١٣٥، نقله عن تفسير علي بن إبراهيم.

٢. الصافات: ١٤٠ ـ ١٤٤. و (أَبَقَ): هرب، وأصله الهرب من السيّد. و (الْمَشْحُونِ): المملوء. و (سَاهَمَ): قارع، أي عمل القُرعة. و (الْمُدْحَضِينَ): المغلوبين. و (مُلِيم): آتٍ بما يُلام عليه، يقال ألام الرجل إلامة فهو مليم.

﴿الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.[١]

قد تقدم أنّ يونس لما غضب علىٰ قومه لعنادهم وإصرارهم علىٰ باطلهم، فارقهم واتّجه إلى البحر ليركب الفُلك ، وظاهر قوله: ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أنّ السفينة كانت مملوءة من الناس والأحمال .

وقد استخدم سبحانه لبيان فراره من القوم لفظة «أبق» تشبيهاً لعمله بإباق العبد وهروبه من خدمة مولاه، فأخذه الله بذلك.

ولمّا جرت بهم السفينة، أشرفت على الغرق، فرأىٰ ركّابُها أن يلقوا واحداً منهم، ليخفّ وزنها وتنجو من الغرق [٢]، فتقارعوا فخرجت القرعة علىٰ يونس، فألقىٰ نفسه في الماء ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾... فابتلعه الحوت ﴿وَ هُوَ مُلِيمٌ﴾.. وهو فاعل ما يستحق عليه اللّوم، من مفارقة قومه بدون إذن من ربّه، ولكنّ إرادة الله سبحانه قَضتْ بإنجائه لأجل تسبيحه في بطن الحوت ، كما قال: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾.

والظاهر أن المراد بكونه من المسبِّحين بعد التقام الحوت له ، وأما ما هو تسبيحه فقد حكاه سبحانه في سورة الأنبياء بقوله: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وهذا التسبيح هو الّذي أدّىٰ إلىٰ نجاته. وإلّا: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي يبقىٰ في بطنه إلى اليوم الّذي

---

١. الأنبياء: ٨٧. و (النُّون): الحوت. و (لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ): لن نُضيِّق عليه .

٢. ثمة قول آخر في سبب المساهمة (المقارعة)، وهو أن الحوت قد عرض لسفينتهم، فاضطروا إلىٰ أن يلقوا واحداً منهم في البحر ليبتلعه الحوت، وينصرف عنهم، فتقارعوا فلما خرج علىٰ يونس، رمَوا به في البحر، فابتلعه الحوت. انظر: التبيان في تفسير القرآن: ٨ / ٥٢٩.

تحشر فيه الخلائق، فيكون بمثابة القبر الّذي يُقبر فيه الإنسان ويلبث فيه إلىٰ أن يبعث، فيخرج منه، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرى﴾[1].[2]

***

٣. إنجاؤه من بطن الحوت وعودته إلىٰ قومه، الذين ينوف عددهم علىٰ مائة ألف نَسَمة.

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾.

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[3].

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾.

﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[5].

إنّ تسبيح يونس في بطن الحوت وندمه علىٰ ما فعل صار سبباً لنجاته من تلك الظلمات .

وشاء الله تعالىٰ أن يرمي به الحوتُ في مكان لا يواريه شجر ولا غيره وهو

---

١. طه: ٥٥.
٢. انظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٧ / ١٦٥.
٣. الصافات: ١٤٥ ـ ١٤٨.
٤. الأنبياء: ٨٨.
٥. القلم: ٤٩ ـ ٥٠.

عليل ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ولكن الله سبحانه حفظاً لحياته ورعاية له أنبت عليه شجرة من يقطين ليستظل بورقها من حرّ الشمس ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾[١].

ثم إنّه لما شُفي من سُقمه، أمره الله تعالىٰ بالعودة إلىٰ قومه، ليواصل مهمّاته في الهداية والإرشاد والتعليم ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.. إلى أَجَلهم المُقدَّر لهم.

هذا هو الرأي المعروف بين المفسرين، ولكن بعضهم يرىٰ أنّ الآية المذكورة، جعلت إيمانهم عقب إرساله إليهم، وهذا يعني أنّ ذهابه إلى البحر والتقام الحوت إياه قد حصلا قبل وصوله إليهم. وبعبارة أوضح: إن يونس عليه السلام لمّا أُمر بالذهاب إلى أهل هذه المدينة لهدايتهم، خشي أن يُعرضوا عنه أو ينالوه بالأذىٰ، وتأوّلَ الأمر علىٰ أنّه أمر إرشاد، فذهب ليبتعد عنهم، وهو يظنّ أنّه لا يُغضب الله في ذلك، وإن كان ذهابه علىٰ هيئة الغاضب، فركب السفينة، ثم التقمه الحوت، فلما رمىٰ به، وعوفي من مرضه، أرسله الله تعالىٰ إليهم، فآمنوا به.[٢]

وقد ردّ بعضهم علىٰ هذا الرأي، مبيّناً أنّه منقول عن اليهود [٣]، وأنّه لا يليق

---

١. اليقطين: القَرْع، وقيل: هو كلّ شجر لا يقوم علىٰ ساق كالبطيخ والقثاء والقرع. قال صاحب «المنجد»: وغلب على القرع المستطيل.

٢. نُقل هذا الرأي عن ابن عباس رضي الله عنه، فقد روي عنه (كما في التبيان: ٨/ ٥٣٠) أنّه قال: كانت رسالته بعدما نبذه الحوت. وقد تبنّاه عبدالوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء»، وأسهب في بيانه.

٣. جاء في سِفْر يونان من العهد القديم، الفقرة (١): كانت كلمة الربّ إلىٰ يونان بن أمتّاي قائلاً: «قُم انطلق إلىٰ نينوى المدينة العظيمة، ونادِ عليها، فإنّ شرّها قد صَعِدَ إلىٰ أمامي» فقام يونان ليهرُبَ إلىٰ تَرشيش من وجه الربّ، فنزل إلى يافا، فوجد سفينة سائرةً إلى تَرشيش...

بمقام الأنبياء، إذ كيف يترك ﷺ تبليغ رسالة ربّه قبل الشروع في تنفيذها بمجرّد توهّم عدم السماع له، أو خشيةً من أن يلحقه أذىً منهم؟[١]

هذه هي المحاور الثلاثة الّتي وردت في الآية الكريمة وهناك بحوث جانبية سنشير إليها فيما يلي:

كيف قبل سبحانه توبة قوم يونس؟

تدلّ الآية التالية على أنّه سبحانه قبل توبة قوم يونس عند مشاهدة طلائع العذاب مع أن سُنّة الله سبحانه هي عدم الانتفاع بالإيمان عند نزول العذاب. وإليك الآية وما يمكن القول فيها: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[٢].

الإيمان بالله إنّما ينفع إذا كان نابعاً من صميم القلب، وأمّا الإيمان الّذي يأتي لأجل الخلاص من العذاب في الدنيا فليس بنافع شيئاً. ومن هنا فإنّ الأُمم الماضية الّتي آمنت بعد رؤية العذاب، قد حلّ بها العذاب وأُهلكوا، ولم ينفعهم إيمانهم هذا، ذلك لأنّه لم يكن منطلقاً من صميم القلب، نعم استثنىٰ سبحانه في هذه الآية فقط قوم يونس، وسيوافيك أنهم انتفعوا بهذا الإيمان، فرُفع عنهم العذاب قبل نزوله، وسنذكر وجه الاستثناء.

وبذلك يظهر أنّ معنىٰ قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾:

---

١. النجار، قصص الأنبياء: ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

٢. يونس: ٩٨.

لم تكن قـرية آمـنت ـ حـين نـزول العـذاب ـ إلّا قـوم يـونس، وذلك لأنّ لولا التحضيضية إذا دخلت على الفعل الماضي تفيد معنىٰ النفي، كما في قولك: هلّا قرأت القرآن، وعلىٰ ذلك يكون معنىٰ قوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾: إنّه ما كانت قرية من هذه القرى الّتي جاءتهم رسلنا فكذبوهم آمنت قبل نـزول العذاب فنفعها إيمانها ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾.

ثمّ إنّه يقع الكلام في وجه استثناء إيمان قوم يونس دون غيرهم، إذ لا شكّ في أنّه قد نفع إيمان قوم يونس ولم ينفع إيمان فرعون مثلاً، وعندئذ يُطرح هنا السؤال التالي: ما الفرق بين الإيمانين؟ حيث نـفع إيـمانهم دون إيـمان الثـاني وأتباعه، يقول سبحانه: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * ءَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[١].

ويؤيد الضابطة انّه سبحانه يحكي سنته المستمرة في الأقوام البائدة ويقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[٢].

والجواب: هناك فرق بين الإيمانين، فإيمان قوم يونس كـان إيـماناً عـن

---

١. يونس: ٩٠ ـ ٩٢.
٢. غافر: ٨٤ ـ ٨٥.

اختيار، ولأجل ذلك بقوا علىٰ إيمانهم بعد رفع العذاب، بينما كان إيمان فرعون إيماناً اضطرارياً غير ناجم عن ثورة روحية على الكفر والوثنية، بل كان وليد رؤية العذاب وهجوم الأمواج. لا أقول: إنّ إيمان قوم يونس كان حقيقياً جدّياً، وإيمان الآخرين كان صورياً غير حقيقي، بل: الكل كان حقيقياً، وإنّما الاختلاف في كون أحدهما ناشئاً عن اختيار، والآخر ناشئاً عن الاضطرار والخوف، وبعبارة أُخرى: كان الأوّل ناشئاً عن عامل داخلي، والثاني عن عامل خارجي.

والدليل علىٰ ذلك استقرار وثبوت قوم يونس على الإيمان بعد كشف العذاب عنهم لقوله سبحانه: ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلى حِينٍ﴾ ، وقوله : ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[١] ، والظاهر من الآية أنّ يونس بعدما نجا ممّا ابتلي به، أُرسل إلى نفس القوم، فاستقبلوه بوجوه مشرقة وتمتعوا بحياتهم في ظل الإيمان إلى الوقت المؤجّل في علم اللّه.

وأمّا الفراعنة فكان دَيْدنُهم الوعد بالإيمان عند نزول العذاب، والرجوع إلى الشرك وإلىٰ ما كانوا عليه من الفساد في مجال العقيدة والعمل، بعد كشفه، والذكر الحكيم يصرّح بذلك في الآيات التالية: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[٢].

١. الصافات: ١٤٧ ـ ١٤٨.

٢. الأعراف: ١٣٣ـ ١٣٥.

وثبات قوم يونس علىٰ إيمانهم وعدم انحرافهم عنه بعد كشف العذاب، ونكث الفراعنة بعد كشف الرجز عنهم نكثاً بعد نكث، خير دليل علىٰ أنّ إيمان القوم كان إيماناً اختيارياً ثابتاً ونابعاً عن اليقين، وإيمان الفراعنة كان اضطرارياً ناشئاً عن الخوف.

والأوّل من الإيمانين يخرق حجب الجهل، ويشاهد الإنسان عبوديته بعين القلب وعظمة الرب ونور الإيمان، فيصير خاضعاً أمام الله، يعبده ولا يعبد غيره.

والثاني منهما يدور مدار وجود عامل الاضطرار والإلجاء، فيؤمن عند وجوده ويكفر بارتفاعه، ولا يعدّ ذلك الإيمان كمالاً للروح ولا قيمة له في سوق المعارف، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[١].

ذرائع المخطِّئة في نفي عصمة النبي يونس عليه السلام

يزعم المخطِّئة أنّ الأنبياء عليهم السلام تجوز عليهم المعصية، واستندوا في ذلك إلى بعض الآيات الّتي يمسّ ظاهرها عصمتهم، ونزاهة ساحتهم من الذنوب.

وثمة موارد في قصة يونس عليه السلام، تمسّك بها المخطِّئة واتّخذوها ذرائع لنفي عصمته، وهذه الموارد الّتي حكاها القرآن المجيد عنه عليه السلام، هي:

أ. ذهابه مغاضباً.

ب. ظنّه أن لن يَقْدِرَ اللهُ عليه.

---

١. يونس: ٩٩.

ج. اعترافه بكونه من الظالمين.

وإليك التوضيح:

أمّا الأوّل: فقد زعم المخطّئة أنّ معناه أنّه خرج مغاضباً لربّه من حيث إنّه تعالىٰ لم يُنزل بقومه العذاب.[١]

وهذا تفسير بالرأي، بل افتراء على الأنبياء، وسوء ظن بهم، ولا يغاضب ربّه إلّا من كان معادياً له وجاهلاً بحكمته في أفعاله، ومثل هذا لا يليق بالمؤمن فضلاً عن الأنبياء.

والصواب أنّ غضبه كان علىٰ قومه، لمقامهم علىٰ تكذيبه وإصرارهم على الكفر ويأسه من توبتهم، فخرج من بينهم.[٢]

هكذا فسّره الإمام الرضا عليه السلام عندما سأله المأمون عن مفاد الآية وقال: «ذلك يونس بن متّى ذهب مغاضباً لقومه».[٣]

وأمّا الثاني: أعني: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ فالفعل، أعني: (نَقْدِر)، من القَدر بمعنى الضِّيق لا من القُدرة، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللّٰهُ﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ

١. يظهر أن هذا المعنىٰ قد أُخذ من اليهود، فقد جاء في سِفْر يونان من العهد القديم هذا النصّ: فرأى الله أعمالَهم وأنهم رجعوا عن طريقهم الشرّير. فندمَ الله على الشرّ الّذي قال إنّه يصنعه بهم، ولم يصنعه. فساء الأمر يونان مساءةً شديدةً وغضب...

٢. تنزيه الأنبياء: ١٠٢.

٣. بحار الأنوار: ٣٨٧/١٤.

٤. الطلاق: ٧.

وَيَقْدِرُ﴾[1]، فمعنى الآية أنّه عليه السلام ظنّ أن لا يضيق عليه الأمر لترك الصبر والمصابرة مع قومه، لا بمعنى أنّه خطر هذا الظن بباله، بل كان ذهابه وترك قومه يُمثِّل حالة مَنْ ظَنَّ أن لن نقدر عليه في خروجه من قومه من غير انتظار لأمر اللّه، فكانت مفارقتُه قومَه مُمَثِّلة لحال من يظن بمولاه ذلك.

وأمّا تفسيره بأنّه ظن أنّه سبحانه لا يقدر عليه، فهو تفسير بما لا تصح نسبته إلى الجهلة من الناس فضلاً عن الأولياء والأنبياء.

وبما أنّ مفارقته قومه بلا إذن منه سبحانه، كان يُمثِّل حال من يظن أن لا يُضيِّق مولاه عليه ، ابتلاه اللّه بالحوت فالتقمه.

وهنا وقف عليه السلام علىٰ أنّه ترك ما كان هو الأَولىٰ فعلاً، فندم علىٰ عمله، واتّجه إلىٰ ربّه ﴿فنادى في الظلمات أن لا إلٰه إلّا أنت﴾ .

ونقل الزمخشري في كشّافه: عن ابن عباس أنّه دخل على معاوية فقال: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة، فغرقت فيها، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلاّ بك، قال: وما هي يا معاوية؟ فقرأ هذه الآية وقال: أوَ يظنّ نبي اللّه أن لا يقدر عليه؟[2]

قال: هذا من القَدر لا من القُدرة.

وأمّا المورد الثالث: فقد مرّ في قصة آدم [3] أنّ الظلم في اللغة بمعنىٰ وضع

١. الإسراء: ٣٠.

٢. الكشاف: ٢ / ٣٣٥.

٣. ج: ١ / ٧٤.

الشيء في غير موضعه المختصّ به، ولا شك أنّ مفارقته قومه وتركهم في الظرف القلق العصيب كان أمراً لا يُترقّب صدوره منه، وإن لم يكن عصياناً لأمر مولاه، فالعطف والحنان المترقب من الأنبياء غير ما يترقب من غيرهم، فلأجل ذلك كان فعله واقعاً في غير موقعه.

ومن المحتمل أن يكون الفعل الصادر منه في غير موقعه، هو طلبه العذاب لقومه وترك المصابرة، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[1]، فالظاهر أنّ متعلّق النداء في الآية طلب نزول العذاب على قومه بقرينة قوله: ﴿وهو مكظوم﴾، أي كان ممتلئاً غيظاً أو غماً، والمعنى: يا أيّها النبي لا تكن مثل صاحب الحوت، ولا يوجد منك مثل ما وجد منه من الضجر والمغاضبة، فتُبتلى ببلائه، فاصبر لقضاء ربك، فإنّه يستدرجهم ويملي لهم، ولا تستعجل لهم العذاب لكفرهم.

---

١. القلم: ٤٨.

خلاصة قصة يونس عليه السلام

شاء الله تعالىٰ أن يُرسل يونس (وهو كما يظهر من بني إسرائيل) إلىٰ أهل مدينة واسعة (هي نينوىٰ من أرض الموصل بالعراق، كما يقول المفسّرون)، يزيد عددهم علىٰ مائة ألف نسَمَة ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، ليبلّغهم رسالة السماء، ويدعوهم إلى الإيمان والتوبة، والإقلاع عن الشرّ والفساد، وارتكاب الموبقات.

لم تنفتح قلوبهم لدعوته عليه السلام، وتمادَوا في صدودهم وإعراضهم عنها، ولم يكترثوا لإنذاره بحلول نقمة الله تعالىٰ عليهم، فامتلأ صدره غيظاً منهم، ويئس من صلاحهم وتغيير مسلكهم، فقرّر الانسحاب من ميدان الهداية والتبليغ، معتقداً أنّه استنفد كافة السُّبل في هذا المجال، فهجرهم مغاضباً دون أن يستأذن ربَّه في ذلك، وسار بعيداً عنهم إلى أن وصل إلى ساحل البحر، فركب سفينة قد غصّت بركّابها، وكان حالُه ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى﴾ هذا ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أشبه بحال العبد الهارب من سيِّده، الظانّ أنّه لن يُضيِّق عليه بالحبس وغيره ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾.

أخذت السفينة تمخُر بهم عُباب الماء، ثم ما لبثت أن تعرّضتْ لخطر مُحدق، وأوشكت على الغرق، ففزع أهلها، ورأَوا أنّ نجاتها تكمن في إلقاء واحد منهم في البحر، يُحدِّده الاقتراع ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ﴾ يونس ﴿مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾.. المغلوبين في القرعة، فألقىٰ بنفسه (أو أُلقي) في البحر ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾..

وابتلعه، ﴿وَ هُوَ مُلِيمٌ﴾.. وهو آتٍ بما يُلام عليه، إذ تخلّىٰ عن الساحة، ولم يصبر علىٰ متاعب قومه.

أحسّ ﷺ وهو في ظلمات جوف الحوت، أنّ الحياة لازالت تـدبّ فـيه، فتضرّع إلى الله سبحانه، وناداه مهلّلاً ومنزّهاً: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ فـلا مرجع سواك ولا ملاذ غيرك، ثم قال قولَ الخاضع الخاشع المـعترف بـالتقصير: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ حين تركتُ قومي مغاضباً لهم بدون أمر من عندك. وهكذا يستعظم المُخلَصون كلّ عمل يتركون فيه الأَوْلىٰ والأفضل.

سمع الله تعالىٰ نداءه، فاستجاب له ، ونجّاه من هذا الكرب العظيم، إذ قذف به الحوتُ عليلاً إلىٰ مكان جَرْدٍ ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾، ولكنّ المُنعم جل شأنه تولّاه بعنايته وخصّه برعايته، فأنبتَ في جواره ﴿شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ (قيل هو القَرْع)، وارتفعت فوقه، ليستظلّ بأفيائها من لَفْح الشمس.

ثم أمره سبحانه بالعودة إلىٰ قومه، الذين تابوا إلى الله، وندموا علىٰ ما فرط منهم في جنبه، بعد أن فارقهم يونس ﷺ، ورأوا طلائع العذاب الّذي أنذرهم به، فلمّا رجع إليهم، وبثّ فيهم دعوته، أقبلوا عليها طائعين، واهتدوا بأنوارها، فمتّعهمُ الله في دنياهم إلى أن انقضت آجالُهم المُقدّرة لهم، بعد أن كان سبحانه قد كشف عنهم عذاب الذُّل والهوان لإيمانهم وتوبتهم، كما قال في كتابه العـزيز ﴿فَـلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَـنُوا كَشَـفْنَا عَـنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

الدروس والعبر

في قصة يونس عليه السلام بعض العِبر الّتي تهمّ المصلحين أوّلاً وعامة الناس ثانياً، ومنها :

١. إنّ طريق الإصلاح والتغيير، طريق شائك، حافل بالمصاعب، فينبغي للسائر فيه أن يتدرّع الصبر، ويحتمل الأذىٰ، ويصمد أمام المشاكل والمعوِّقات الّتي تعترضه، فلا يضعف أمامها، ولا يتخلّىٰ عن مسؤوليته وأداء مهمته تبرّماً بالناس وضجراً منهم لإصرارهم على العناد والمكابرة، ولا يدع اليأس منهم يتسرّب إلىٰ نفسه، فيُطفئ فيها نور الأمل، الّذي يُغريه بمواصلة السير، ومتابعة الخُطىٰ.

وقد دعا سبحانه نبيّه الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الاستفادة من هذا الدرس من حياة يونس عليه السلام، ليكون أقوىٰ عزماً على الثبات ومواجهة العقبات، وأوسعَ صدراً في التعامل مع صدود الناس وإعراضهم، قال سبحانه: ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَ هُوَ مَكْظُومٌ**﴾.

٢. إنّ رفع العذاب عن قوم يونس، من أقسام البداء الّذي دلّ عليه كتاب الله وسنته، بشرط أن يُفسَّر على الوجه الصحيح، وهو قائم على أصلين :

أ. إن لله تعالىٰ قدرة وسلطة مطلقة، فهو قادر على تغيير أي تقدير وإحلال تقدير آخر محلّه متىٰ شاء، في حين يعلم سلفاً كلا التقديرين ولا سبيل لأي تغيير إلىٰ علمه قط.

ب. إنّ إعمال القدرة والسلطة من جانب الله وإحلال تقدير مكان تقدير آخر لا يتمّ دون حكمة ومصلحة، وانّ قسماً من هذا التغيير يرتبط في الحقيقة بعمل الإنسان وسلوكه، فالإنسان الطالح في فترة من عمره إذا أصلح أعمالَه فيما بعد ذلك، فقد هيأ أرضية إحلال تقدير ـ السعادة ـ مكان تقدير آخر ـ الشقاء ـ. قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[١].

وبذلك ظهر أنّ رفع العذاب عن قوم يونس، كان من أقسام البداء بهذا المعنىٰ.

ثم إن رفع العذاب لا يعدّ تكذيباً ليونس عليه السلام ـ لو ثبت أنّه أوعدهم بنزول العذاب عليهم ـ، وما ذلك إلّا لأنّ هلاك القوم بالعذاب كان مشروطاً بعدم ندامتهم ورجوعهم إلى الله، وبما أنّ الشرط لم يتحقّق فلم يعمّهم العذاب، وكان سبحانه عالماً بأنّه لا يتحقق شرطه فلا يعمهم العذاب، غير أنّ يونس وقف على المقتضي وأخبر بالعذاب، ولم يقف على الشرط، وهوكان صادقاً في إيعاده حسبَ علمه بالمقتضي.

ثم إنّ البداء إذا أُطلق، فلا يعني أنّه بدا لله حقيقة ـ تعالىٰ الله عن ذلك ـ بل يطلق عليه بضرب من المجاز، وذلك بالنظر إلى مشاهدة طلائع العذاب وآثاره، وكم لهذا النوع من الإطلاق نظائر في الكتاب، قال سبحانه: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً﴾[٢] وليس هذا إطلاقاً غريباً، كيف وقد أطلقه الرسول الأعظم في شأن ثلاثة أشخاص. الأبرص والأقرع والأعمى حسب ما رواه البخاري في

١. الرعد: ١١.

٢. النمل: ٥٠.

صحيحه، وقال بدا لله أن يبتليهم في ثلاثة [١].

٣. إن نجاة قوم يونس من الهلاك، دليل علىٰ أنّ رحمته سبحانه قد سبقت غضبه، وأنّه لو كان هناك استحقاق للرحمة لسبقت رحمتُه عذابَه لأنّه سبحانه رؤوف بعباده، واسع الحلم عنهم.

١. صحيح البخاري: ٤ / ١٧٢، كتاب الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل.

٢١

النبي زكريا عليه السلام

كان زكريا عليه السلام من أنبياء بني إسرائيل. ذُكر اسمه في القرآن الكريم سبع مرات[١]، ووردت قصة حياته بشيء من التفصيل في سورتين [٢] وفيها مشهدان مهمّان:

الأوّل: حضانته لمريم عليها السلام ومشاهدة ما يحيطها من الكرامات .

الثاني: دعاؤه الله سبحانه أن يرزقه ولداً وقد طعن في السن وكانت امرأته عاقراً.

وإليك الكلام فيهما:

١. حضانته لمريم عليها السلام

١. ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

٢. ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَ إِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَ إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

---

١. آل عمران: ٣٧ (مرتان)، و ٣٨، والأنعام: ٨٥ ومريم: ٢ و ٧، والأنبياء: ٨٩.

٢. آل عمران، ومريم.

٣. ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَ كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

***

يقول المؤرخون، إنّه كان لقوفاذ الإسرائيلي بنتان: الأُولىٰ حنّة، كانت عند عمران (وهو من ذرية النبي سليمان عليه السلام)، فولدت له مريم، والثانية: إيشاع، كانت عند زكريا عليه السلام، فولدت له يحيىٰ عليه السلام.

وعلىٰ هذا فيحيى بن زكريا ومريم بنت عمران، ابنا خالة. وليس المراد بعمران هذا عمران أبي موسى عليه السلام، إذ بينهما ألف وثمانمائة سنة تقريباً. وعلىٰ كل تقدير فقد نذرت امرأة عمران بأن تجعل ما في بطنها ﴿مُحَرَّراً﴾ أي خالصاً للعبادة والخدمة في الهيكل.

وكان المحرّر إذا حُرّرَ جعل في المعبد يقوم عليه ويكنسه ويخدمه، لا يبرح حتّى يبلغ الحلم، وحينذاك يخيّر إن شاء يقيم فيه أقام، وإن أحبّ ان يذهب، ذهب حيثما يشاء.

فلما وضعت ما حملته ﴿قَالَت﴾ متحسّرةً: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ وكانت ترجو أن تلد ذكراً، لأنّ التحرير إنّما يجوز في الذكور دون الإناث. ثمّ إنها سمّتها مريم (وهو بالعبرية بمعنىٰ خادم الربّ) ودعت لها بقولها: ﴿وَ إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. ولكنه سبحانه تقبّل مريم من أمها

---

١. آل عمران: ٣٥ ـ ٣٧.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ مع أُنوثتها، ورضي بها في النذر الّذي نذرته ولم يقبل قبلها أُنثىٰ في ذلك المعنىٰ ﴿وَ أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَناً﴾ أي جعل نشوءَها نشوءاً حسناً.

ومن عوامل تربيتها ونشوئها نشوءاً حسناً، أنّه تعالىٰ جعلها تحت كفالة نبي كزكريا، حيث ضمّها إلى نفسه، واهتمّ برعايتها والقيام بأمرها.

رأى زكريا النبي عليه السلام، وكان يومئذ رئيس الهيكل اليهودي، رأىٰ كرامة لمريم يحكيها سبحانه بقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾... كان يجد عندها طعاماً، وهو يعلم أنّه لم يحمله إليها أحد، وقال كثير من المفسرين: إنّه كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وبالعكس، فسألها متعجباً، وقال: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾.. من أين لك هذا الرزق؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

هذا ما يرجع إلى الأمر الأوّل من حياة زكريا الّتي عاش فيها مع بنت عمران، حيث ربّاها وكفلها وشاهد ما تتمتع به من الكرامات.

٢. دعاؤه الله أن يرزقه ولداً

١. ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

٢. ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

٣. ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

٤. ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾.(١)

٥. ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾.

٦. ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾(٢).

***

لماذا طلب زكريا الولد ؟

إنّ قوله تعالىٰ: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ...﴾ يدلّ علىٰ أنّ الباعث لطلب الولد من قبل زكريا ـ على الرغم من أنّه قد طُعن في السنّ ـ هو ما شاهده في مريم من الخصائص النفسية والكمالات الروحية، حتىٰ أنّ الرزق كان يأتيها من الله سبحانه .

وهكذا ألهبت فضائل مريم السامية، وشأنُها الرفيع عند الله، ألهبت الشوقَ في قلب هذا الشيخ الكبير إلىٰ أن يَنعمَ بولد، مثل مريم في الكرامة عند الله، وسمّو الشخصية، فتوجه إلى ربّه، و ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

---

١. آل عمران: ٣٨ ـ ٤١.

٢. مريم: ١٠ ـ ١١.

وثمة باعث آخر لطلب الولد، يظهر من دعاء زكريا الآتي: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾[1].

فقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ يدل على أنّ بني أعمامه [2] كانوا غير صالحين فخاف أن يموت ويرثوه ويصرفوا ما تركه في غير مورده ولذلك ابتهل إلى الله سبحانه أيَ ابتهال وقال: ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ فأظهر عجزه وضعفه، مضيفاً إليه قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾ أي لم أكن بدعائي اياك فيما مضىٰ مُخيَّباً محروماً وقد عودّتني حسنَ الإجابة وما خيّبتني فيما سألتك، ولا حرَمتَني الاستجابة فيما دعوتك، فلا تخيّبني فيما أسألك ولا تَحرمني إجابتك فيما أدعوك.

الأنبياء يورثون كما يورث سائر الناس

دعا زكريا ربّه أن يهبه ولداً، يرثه ويرث من آل يعقوب، ولاشكّ في أنّ المراد هو وراثة الأموال .

---

١ . مريم: ٤ ـ ٦. قوله ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ معناه انتشر الشيب في الرأس، كما ينتشر شعاع النار. وهو من أحسن الاستعارات.

٢ . قال الشيخ الطوسي في «التبيان في تفسير القرآن»: ٧ / ١٠٤ ـ ١٠٥: وإنّما قيل لبني العم موالي، لأنهم الذين يلونه في النسب بعد الصُلب. وأنشدوا في أن الموالي بنو العم، قول الشاعر:

مهلاً بني عمّنا مهلاً موالينا ... لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

واحتمال أنّ المراد هو وراثة النبوة مردود بوجهين:

أ. لو كان المراد هو وراثة الولد ما للوالد من النبوة، فلا وجه لخوفه عليه السلام من بني الأعمام من ورائه (أي من بعد موته)، إذ لو كانوا صالحين لورثوا النبوة شاء النبي زكريا أم لم يشاء، وإن كانوا طالحين فلامعنىٰ لخوفه منهم لأن النبوة عهد الله سبحانه ولا ينال عهدُه الظالمين .

ب. إن زكريا عليه السلام قال في دعائه : ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ أي اجعل يا رب ذلك الولي الّذي يرثني مرضياً عندك ممتثلاً لأمرك، ومتىٰ حملنا الإرث على النبوة لم يكن لذلك معنىٰ وكان لغواً عبثاً، ألا ترىٰ انّه لا يُحسن أن يقول أحد: اللهم ابعث لنا نبياً واجعله عاقلاً مرضياً في أخلاقه، لأنّه إذا كان نبياً فقد دخل الرضا وما هو أعظم من الرضا في النبوة.[١]

وقد ذهب أكثر أهل السنة إلى أنّ الأنبياء لا يورثون المال، بل يورثون العلم والنبوة.

ويبدو أنّ مسألة الميراث في النبوة قد طُرحت في فترة متأخّرة عن النزاع الّذي حصل بين الخليفة الأوّل وبين فاطمة الزهراء عليها السلام حول حقّها في ميراث أبيها، وحقّها في أرض فدك الّتي نحلها إياها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

قال الكاتب الفذ عبد الفتاح عبد المقصود المصري، تحت عنوان (هل النبوة ميراث؟):

(في إحدى المحاورات الّتي كثر تبادلها بين فاطمة وأبي بكر، نرىٰ فاطمة

١ . مجمع البيان: ٣ / ٥٠٣.

تتمسك بحقّها في ميراث أبيها، فيقول لها الخليفة:

إنّ رسول الله قال: «إنّا معشر الأنبياء لا نورث. ما تركناه صدقة...».

فتحتج عليه بقوله تعالى: ﴿وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ دَاوُدَ...﴾، وبقوله في شأن زكريا إذ دعا ربّه: ﴿... فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ...﴾.

وقد استفاض الحديث في فدك أقصى استفاضة..

ولانبالغ إن قلنا إنّ أبرز جانب من هذا الحديث استشرىٰ الجدال فيه، هو انتفاء وراثة الأنبياء.

ففي هذا الجانب أكثر القوم التأويل، حتّى لنراهم قضوا بحتمية قبض أنبياء الله أيديهم عن توريث أبنائهم ما فيها من متاع. ولزموا الزوم ما لا يلزم، فذهبوا في تأويلهم بعيداً مقررين أن النبي ـ أي نبي ـ إن ورّث شيئاً، فإنما لا يورث إلّا نبوة، وحكمة، وعلماً لدُنيّاً من عند الله.

فالأيلولة هنا، من الأب لولده، أيلولة روحانية، محورها الدين، وليست أيلولة مادية محورها المال.

وبغير هذا تقول صيغة «الحديث».. ذلك أنها، وإن نفت توريث الأنبياء نشب الدنيا، فهي لم تُشر إلى النبوة كميراث.

ونحسب أن كل ما ورد في هذا الموضوع من تأويلات، إنّما جاء بآخرة، ولم يأتِ في زمان الخلاف على النحلة، ولا عاصر القول بحديث: «الأنبياء لا يورثون...».

أم من ذا الّذي علمناه ـ من بين المحدّثين الأولين، وأصحاب رسول الله ـ رأى أن النبوة تركة، فلم يعصمها برأيه هذا، من أن يجري عليها ما يجري على التركات المالية الّتي تقسم على الورثة أنصبته معلومة بحسب درجات القربى من الظهور والبطون لكل ذي درجة نصيب محسوب ؟

أبو بكر نفسه، الّذي نقل إلينا: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» لم يقل مثل هذا المقال.

إنّما النبوة اجتباء.. وإذا كان من العلم ما هو كسبي، ومنه ما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء، فالنبوة كلها نور.

الله يجتبي لنبوته من عباده من يشاء.

بتقديره الإلهي يختار، لا بمنازل الجاه، ولا بصلات الأنساب، ولا بمعايير الثراء.

إنها إذن اجتباء.

وظيفة اجتماعية، لو جاز التعبير، تتسنم ذروة الاجتماع، لأنّها قائمة على قدسية الاختيار، يختص بها الله من اختار من خلقه على أساس من مشيئة ربانية، لا على أساس أصل، أو نسب، أو حكمة، أو ثروة، أو جاه.

يستوي عندها من يمدد إلى نبي بوشيجة، ومن لا يمدد بسبب من الأسباب.

فيها تتسع مشيئة الله للأبوة والبنوة والأخوة، كما تتسع أيضاً لمن لا يرتبطون بأي صلة من دم.

فهاهم أولاد إبراهيم وولده إسماعيل، وزكريا وابنه يحيى، وموسىٰ وأخوه هارون. كلّهم أنبياء، لكنّهم لم يتنبأوا عن طريق الميراث.

ثم هذا عيسى ابن مريم نبي رسول ، ولا أب له يعزىٰ إليه توريثه نبوته .

أفأراده الله دليلاً علىٰ أن النبوة لا تنحدر في الأصلاب؟).[1]

استغرابه من رزقه الولد

استجاب الله سبحانه دعوة زكريا عليه السلام وبشّره عن طريق الملائكة بأنّه سيهب له ولداً يسمىٰ يحيىٰ ،يتمتع بهذه الصفات:

١. **مُصدِّقاً بكلمة من الله:** أي مصدقاً بعيسىٰ عليه السلام، الّذي خلقه الله بكلمة (كن) من غير أب.

٢. **سيِّداً:** يسود قومه في العلم والدين، وقد رُزق ذلك منذ صباه، كما قال سبحانه: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾[2].

٣. **حَصُوراً:** أي ممتنعاً عن مقاربة النساء. وقيل: مبالغاً في حبس النفس عن الشهوات والملاهي.

٤. **ونبياً من الصالحين:** ناشئاً من أصلاب قوم صالحين، ولا غرو فهو من أصلاب الأنبياء صلوات الله عليهم .[3]

---

١. عبد الفتاح عبد المقصود، في نور محمد فاطمة الزهراء: ٢ / ٣٤٧ ـ ٣٥١، وص ٣٥٨.

٢. مريم: ١٢.

٣. تفسير المراغي: ٣ / ١٤٨. ومثله في «تفسير الكاشف»: ٢ / ٥٣، وفيه: ويتفق هذا مع قول الشيعة الإمامية: أن جميع آباء الأنبياء يجب أن يكونوا مؤمنين بالله واليوم الآخر.

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على منزلة زكريا عليه السلام، فقد استجاب تبارك وتعالى لدعوته ورزقه ولداً، وهبه من الصفات أكثر ممّا كان يتمنّى عليه السلام مثلها فيه، وهو يراها متجسّدة في (مريم) الّتي عاشت تحت كفالته.

لمّا سمع عليه السلام نبأ البشارة من الملائكة ، أخذ في السؤال والمراجعة: كيف يُرزق بولد، وهو شيخ كبير وامرأته عقيم؟ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ وسؤاله هذا سؤال تعجب واستعلام لحقيقة الحال كسؤال إبراهيم عن كيفية إحياء الموتى مع أنّه كان مؤمناً مذعناً بأن الله يحيي الموتى، ولكنه سأله كيفية الإحياء ليطمئنّ قلبه، فأجيب زكريا بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ والظاهر أنّ فاعل قال هو المَلك والدليل عليه ما في سورة مريم في جواب استعجاب زكريا: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ فالفاعل للفعل الأوّل هو الملك والثاني هو الله سبحانه. وعلى كل تقدير فالجواب واضح، وهو أنّ قدرة الله تبارك وتعالى فوق ما تتصور حيث أنشأكم أيها الزوج والزوجة من العدم ولم تكونا شيئاً.

فهو أقدر على أن يرزقكما ولداً من وجودكما وعن طريقكما.

طلب العلامة لحمل امرأته

ثم إنّ زكريا سأل الله تعالى أن يجعل له علامة يعرف بها وقت حمل امرأته ﴿قال رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ استعجالاً للسرور، أو ليطمئن أكثر، أو ليقابل هذه النعمة حمداً وشكراً ، فجعل الله تعالى العلامة في إمساك لسانه، فلم يقدر أن يكلم

الناس إلّا إيماءً من غير آفة حدثت فيه ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ وهذا يدل على أن لسانه ينطق إذا أراد أن يلهج بذكر الله وتسبيحه، وهذا دليل على الإعجاز.

ولما احتبس لسانه عن الكلام مع الناس، أشار إلىٰ قومه الذين خرج عليهم من المحراب بعدما نادته الملائكة بالبشارة وهو قائم يصلّي فيه، أشار إليهم أن يداوموا على التسبيح لله تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.. ذلك ليعيشوا في مثل الجو الّذي يعيش فيه، وليشكروا الله على ما أنعم عليه وعليهم من بعده .[1]

١ . في ظلال القرآن: ١٦ / ٢٩.

خلاصة قصة زكريا عليه السلام

مضت سنوات طوال، وهما يقضيان حياتهما في مودّة ورحمة وسكينة، راضيين بقضاء الله سبحانه، فالمرأة كانت عقيماً لا تلد.

تقدّمت السنّ بزكريا عليه السلام، وهو يمارس مهامّ النبوة، ويدعو قومه بني إسرائيل إلى الله تعالىٰ، وإلى الالتزام بمنهجه القويم، دون أن يُرزق بمولود تقرّ به عينه، ولكن شعاع ضوء بدأ ينفذ إلىٰ حياته، إذ شاء له سبحانه أن يكفل مريم البتول. تلك الأُنثىٰ الّتي نذرتها أمُّها امرأة عمران، وهي لا تزال في أحشائها، نذرتها للخدمة في المعبد، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ الّذي راحَ يتعهّدها ويرعاها، ويُغدق عليها من عطفه وحنانه، حتّىٰ شبّت على التقوىٰ والورع وكرائم الخصال، وسَمتْ مكانتُها عند بارئها، فألبسها سبحانه حُلل الكرامة، وأفاض عليها من رزقه، ذلك الرزق الّذي كان يجده عندها زكريا، كلما دخل عليها المحراب، ممّا أثار ـ وهو من أنبياء الله المُصْطَفَيْن ـ عجبه واستغرابه، فقال متسائلاً: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا﴾ وأنتِ في وحدتكِ وعزلتك عن الناس؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أيقظت هذه الكرامة، وهذه المنزلة الخصيصة لمريم، شعورَ الأبوّة الكامن في نفسه، وأحيت في دخيلته الأمل الّذي كاد يذوي علىٰ كرّ الأيام بأن يحيا في ولد يخلفه ويرثه، ويحجبُ الموالي (قيل هم بنو عمّه) عن حيازة ميراثه، وإنفاقه

في السُّبُل الجائرة، فتوجّه إلىٰ ربِّه خاشعاً ضارعاً، وبثّ إليه شكواه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾، ورفع إليه رجاءه: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ .

لم تتأخر إجابة هذه الدعوة الصادقة الخالصة. لقد قضى الله بأن يبعث إليه بدفقة ضوء تُحيي أمله، وتُنير حياته.. أن تزفّ إليه الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب هذه البشارة الإلهية ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾، شاء الله أن يختار له اسماً لم يُعرَف من قبل ﴿اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ .

استمع عليه السلام إلىٰ هذا النداء، فـ﴿قَالَ﴾ متعجباً: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾[١] .

وهنا جاءه الخطاب الجليّ أنّ يد الله قادرة علىٰ أن تفعل ما تشاء، وأنّ استيلاد امرأة عاقر من شيخ هرمٍ أيسر ـ وفق مقاييس البشر ـ من إنشاء الإنسان من العدَم ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ .

اهتزّ عليه السلام لهذا النبأ، فـ﴿قَالَ﴾ ابتهاجاً وشوقاً إلىٰ تحقّقه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾.. وعلامة استدلّ بها علىٰ وقوع ما بشّرتني به .

استجاب تعالىٰ لرغبته، وأعطاه هذه العلامة ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾. ستظلّ صامتاً عاجزاً عن الكلام مع الناس طيلة ثلاثة أيام، وأنت سويٌّ معافىً ما بك من مرض ولا آفة.

---

١. مريم: ٨.

وأمره تعالىٰ بالتجرد لذكر الله وتسبيحه، والانقطاع إليه ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾، فلسانك ينطلق في هذا المجال .

وكما هو شأن الأنبياء الذين يحرصون علىٰ أداء رسالاتهم، وأن تتجه أقوامهم إلى الله وتُعرض عما سواه، أومأ زكريا إلىٰ قومه حين خرج عليهم من المحراب ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ .

وهكذا عظمت منّتُه سبحانه علىٰ هذا النبيّ المسارع إلى الخيرات، الداعي ربّه رغبةً ورهبةً وخشوعاً، بأن أصلح له زوجه، ووهب له ابناً تقياً بارّاً بوالديه ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

الدروس والعبر

تعطينا قصة زكريا عليه السلام دروساً في الحياة، منها:

١. يجب أن لا يقطع الإنسان أمله من رحمة الله حتّى في الظروف القاسية الّتي تنقطع فيها الأسباب والوسائل الطبيعية، لأنّه سبحانه قادر على استجابة دعاء الإنسان وتحقيق حاجته عن طريق غير عادي.

٢. إنّ الولد وإنْ كان نعم العضد والعون لأبيه، ولكن ليس كل ولد عضداً وساعداً ومعيناً، بل هو الولد الطيب المرضيّ عند الله كما ورد في دعاء زكريا حيث قال: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ وقال: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾. وقد وصف الله سبحانه عباد الرحمن بأنّهم هم الذين يطلبون من الله أن يهبهم ذرية تكون قرة أعين لهم، كما قال: ﴿وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[١].

٣. إنّ الأنبياء يُورثون كسائر الناس ولا وجه لحرمان أولاد الأنبياء من الإرث، فإنّما لا يتوارث أهل ملتين لا أهل ملة واحدة كما احتجّت بذلك الزهراء عليها السلام عند حرمانها من ميراثها، ولذلك ورث يحيى ما لزكريا من الأموال.

٤. إن زكريا عليه السلام طلب من ربّه ولداً رضياً، حتّىٰ يرثه، ويحجب الموالي (بنو عمّه) الذين كانوا ـ كما ورد في الأخبار ـ غير صالحين، عن وراثته .

---

١. الفرقان: ٧٤.

وهذا الأمر، يدعو الإنسان إلىٰ أن يفكَر في مصير أولاده وأن يهتمّ فيما يتركه من الأموال حتّى لا يسيطر عليها الطالحون فيصرفونها في غير ما يرضي الله سبحانه .

٥. يجب أن يكون الرجاء مقترناً مع الخوف، فالرجاء المنفصل عن الخوف يورث الطغيان، كما أنّ الخوف المجرد عن الرجاء يوجب اليأس، فالرجاء مع الخوف من العوامل البنّاءة للحياة السعيدة، والخاسر من اعتمد على الرجاء وغض النظر عن الخوف، وبالعكس.

٢٢

النبيّ يحيى بن زكريّا عليه السلام

إنّ النبي يحيىٰ من أنبياء بني إسرائيل، وقد ذُكر اسمه في القرآن الكريم خمس مرات [١]، مقروناً ببيان أوصافه وخصائصه الّتي شاركه في كثير منها المسيح عليه السلام، كما يتضح ذلك عن قريب.

وإليك ما ورد في حقه من الآيات:

١. ﴿أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَ سَيِّدًا وَ حَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٢].

٢. ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً﴾[٣].

٣. ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

٤. ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَ كَانَ تَقِيًّا﴾.

٥. ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

٦. ﴿وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[٤].

***

---

١. آل عمران: ٣٩، والأنعام: ٨٥، ومريم: ٧و ١٢، والأنبياء: ٩٠.

٢. آل عمران: ٣٩.

٣. مريم: ٧.

٤. مريم: ١٢ ـ ١٥.

أضفى الله سبحانه على يحيى بن زكريا صفات، قد أضفىٰ كثيراً منها على المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فكأنّهما فرقدان يدوران في فلك واحد، وإليك البيان:

فالقرآن يصف يحيىٰ عليه السلام بالصفات التالية:

١. ﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾: أي بالمسيح عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَ كَلِمَتُهُ﴾[١].

يقول الطبرسي: كان يحيى أكبر سناً من عيسىٰ بستة أشهر، وكلف التصديق به، فكان أول من صدّقه وشهد أنّه كلمة الله وروحه، وكان ذلك إحدى معجزات عيسىٰ عليه السلام وأقوى الأسباب لإظهار أمره، فان الناس كانوا يقبلون قول يحيى لمعرفتهم بصدقه وزهده.[٢]

٢. ﴿وَسَيِّدًا﴾: والسيد هو الّذي يتولى أمر سواد الناس وجماعتهم في أمر حياتهم ومعاشهم ثم غلب استعماله في شريف القوم، لما أن التولي

١. النساء: ١٧١.

٢. يُدعىٰ يحيى عليه السلام عند النصارىٰ بـ(يوحَنّا المَعْمَدان)، وكان يدعو الناس إلى التوبة، ويعمّدهم (أي يغسّلهم) بالماء من أجل التوبة من خطاياهم. وهو الّذي عمّد يسوع (يعني المسيح عليه السلام) في نهر الأردن.

جاء في إنجيل متى (الفقرة ٣): في تلك الأيام ظهر يوحنّا المعمدان ينادي في برّيّة اليهودية، فيقول: توبوا قد اقترب ملكوت السموات.

وممّا ورد في الفقرة ١١ منه: أخذ يسوع يقول للجموع في شأن يوحنّا: (... ماذا خرجتم ترون؟ أرجُلاً يلبس الثياب الناعمة؟ها إنّ الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في قصور الملوك. بل ماذا خرجتم ترون؟ أنبياً؟ أقول لكم: نعم، بل أفضل من نبي. فهذا الّذي كُتب في شأنه: ها أنذا أُرسلُ رسولي قُدّامك، ليُعدّ الطريقَ أمامك...).

المذكور يستلزم شرفاً بالحكم أو المال أو فضيلة أُخرى.

٣. ﴿وَ حَصُوراً﴾: والحصور هو الّذي لا يأتي النساء، والمراد بذلك في الآية بقرينة السياق: الممتنع عن ذلك، للإعراض عن مشتهيات الناس زهداً [١].

٤. ﴿وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: ناشئاً من أصلاب قوم صالحين.

٥. ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾، أي لم يُسمَّ أحد بيحيىٰ قبله. قال الصادق عليه السلام: وكذلك الحسين، لم يكن له من قبل سَمِيّ.

٦. ﴿وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾: اختلف في معنى الحكم، فقيل: هو الفهم لكتاب الله. وقيل: النبوة. وهذا لا يلائم بعض الآيات، الّتي يظهر أن الحكم فيها في مقابل النبوة، مثل قوله سبحانه: ﴿ وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ﴾[٢] فالحكم فيها غير النبوة.

ولذا فسّره السيد الطباطبائي رحمه الله بالمعارف الحقة الإلهية وانكشاف ماهوتحت ستار الغيب بالنسبة إلى الأنظار العاديّة.

وإيتاء يحيى عليه السلام الحكم وهو صبي، يدحض الإشكال الّذي يثيره بعضهم حول كيفية تولّي بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام مهام الإمامة وهم في سنّ مبكرة.

روى العياشي بإسناده عن علي بن أسباط، قال: قدمت المدينة وأنا أريد مصر، فدخلت على أبي جعفر محمد بن علي الرضا عليه السلام وهو إذ ذاك خماسي، فجعلت أتأمله لأصفه لأصحابنا بمصر، فنظر إليّ فقال: يا عليّ، إن الله أخذ في

---

١. الميزان: ٣ / ١٧٧.

٢. الجاثية: ١٦.

الإمامة كما أخذ في النبوة، قال: ﴿وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا﴾[١] وقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ فقد يجوز أن يعطي الحكم ابن أربعين سنة، ويجوز أن يعطاه الصبي» .[٢]

٧. ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾ والحنان هو العطف والإشفاق. قال الراغب: ولكون الإشفاق لاينفك من الرحمة، عبّر عن الرحمة بالحنان. والمراد به ـ كما يقول السيد الطباطبائي ـ نوع عطف وانجذاب خاص إلهي بينه وبين ربّه غير مألوف. وقيل: تحنناً على العباد ورقة قلب عليهم ليدعوهم إلىٰ طاعة الله.

وربما يفسر الحنان بالمحبة أي محبة منا، فيكون نظير قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[٣] .

٨. ﴿و زَكَاةً﴾: أي عملاً صالحاً زاكياً. وقيل: الطهارة من الذنوب. وفسّره السيد الطباطبائي بقوله: النمو الصالح؛ نمو الروح.

٩. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾: التقي صفة مشبهة من التقوىٰ وهو الورع عن محارم الله والتجنب عن اقتراف المناهي المؤدي إلى عذاب الله.

١٠. ﴿وبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ البرّ ـ بفتح الباء ـ صفة مشبهة من البرّ ـ بكسر الباء ـ وهو الإحسان أي محسناً ومكرماً لوالديه.

١١. ﴿ولَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾: الجبار هو المستكبر المستعلي الّذي

---

١. القصص: ١٤.

٢. بحار الأنوار: ١٤ / ١٧٧.

٣. مريم: ٩٦.

يـحمل النـاس عـلى مـا أراد ولا يـتحمل عـنهم. والعَـصِيّ: صـفة مشـبهة مـن العصيان .

إنّ الجمل الثلاث الأخيرة (تقياً، براً، لم يكن جباراً عصياً) سـيقت لتـبيان جوامع أحواله بالنسبة إلى الخالق والمخلوق، فقوله: ﴿وَ كَانَ تَقِيًّا﴾ حاله بالنسبة إلى ربّه، وقوله ﴿بَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ حاله بالنسبة إلىٰ والديه، وقوله: ﴿وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ حاله بالنسبة إلى سائر الناس، فكان مطيعاً لربه باراً بوالديه ناصحاً للناس غير متحكم بهم بما أُوتي من النبوة.[١]

هذه هي خصائص يحيى الواردة في القرآن الكريم، وإذا أمعنت النظر فيما ورد في المسيح من الأوصاف والخصائص، ترىٰ التشابه الكبير بين النبيين، فقد وصف الله تعالىٰ المسيح بالصفات التالية:

﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾[٢] وسيوافيك شرح هذه الحقائق في محلها عند الحديث عن قصة عيسى المسيح عليه السلام.

ثم إنّه سبحانه سلّم علىٰ يحيىٰ في مواطن ثلاثة: ﴿وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ .

ولكن المسيح هـو الّـذي سـلّم عـلىٰ نـفسه بـقوله: ﴿وَ السَّـلاَمُ عَـلَيَّ

---

١. انظر الميزان: ١٤ / ٢١.

٢. مريم: ٢٩ ـ ٣٢.

يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[١].

هذا، ويظهر من بعض الروايات وجود التشابه بين النبي يحيىٰ والحسين الشهيد عليهما السلام.

روىٰ سفيان بن عيينة عن عليّ بن زيد عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: خرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلّا وذكر يحيى بن زكريا عليهما السلام وقال يوماً: من هوان الدنيا على الله عزّوجلّ أنّ رأس يحيى بن زكريا أُهدي إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل.[٢]

وعلى كل تقدير، فقد قتل هذا النبي الصالح التقي بسيف الظلم، وأُهدي رأسه إلى امرأة بغيّ. ومن أراد أن يقف على القصة مفصلة، فليرجع إلى المصادر الحديثية[٣] والتاريخية.

---

١. مريم: ٣٣.

٢. بحار الأنوار: ١٤ / ١٧٥.

٣. انظر علىٰ سبيل المثال: بحار الأنوار: ١٤ / ١٣٩ ـ ١٩٠.

خلاصة قصة يحيىٰ عليه السلام

حملتْ به أُمُّه علىٰ أثر نداء خفيّ، ناجىٰ به أبوه (زكريا) ربَّه.. وفي وضع خارق للمألوف، فالأمُّ عجوز عقيم، والأب شيخ كبير، قد لَهَزَه القتير.[1]

ولمّا وَضَعتْه، سُمِّي بـ(يحيىٰ).. الاسم الّذي اختاره له المُنعم جلّ ثناؤه، ولم يُسبَق أن سُمِّي به أحد ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

نشأ علىٰ أبويه الكريمين، وتحلّىٰ بأكرم الخصال، وأسنى المزايا والخِلال، وتفتّقت مواهبه الّتي اختصّه بها تعالىٰ منذ نعومة أظفاره.

تلقّىٰ عليه السلام هذا الأمَر الإلهي الصارم: ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ في حقلَيْ العلم والعمل.. واَسْعَ إلىٰ تنفيذ ما فيه من وصايا وأحكام وتجسيدها في حياة المجتمع بعزم ماضٍ وحزم شديد.

أذعنَ عليه السلام للأمر، وسارعَ إلى النهوض بالمسؤولية الكبرىٰ الّتي كلّفه بها سبحانه بعد أن منحه هذه الموهبة الجزيلة، وهي البصيرة في الدين والمعارف الإلٰهية في سنٍّ مبكرة ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، وأولاه رحمة وعطفاً وحناناً من لَدُنه، زكَتْ في ظلالها روحه، ونمتْ نموّاً طيّباً ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً﴾.

واتّصف عليه السلام بالزهد، والرغبة عن ملذات الحياة الدنيا ومباهجها، والورع عن

---

١. لهَزه: خالَطه والقَتير: الشَّيب. قال الإمام علي عليه السلام: أَيُّهَا ٱلْيَفَنُ ٱلْكَبِيرُ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ ٱلْقَتِيرُ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا ٱلْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ ٱلْأَعْنَاقِ. نهج البلاغة، الخطبة: ١٨٣. و (اليَفَن): الشيخ المُسن.

محارم الله، والبرّ بوالديه، والرأفة بالناس، والتواضع لهم، والحرص علىٰ هدايتهم وإعانتهم.

استمال عليه السلام بهذه الصفات والسجايا قلوب الناس وأصبح سيّد قومه، يتهافتون عليه، ويستمعون قولَه ووعظَه، ودعوتَه إلى التصديق بنبوة كلمة الله عيسى بن مريم عليهما السلام، إذ كان عليه السلام ﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾، مؤازراً له في تبليغ رسالة ربّه، داعياً إلى الانضواء تحت ظل رايته.

وتوالت علىٰ يحيى النِّعم، إذ بعث إليه سبحانه بطاقةَ تهنئة، فيها أمنٌ ﴿وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ﴾ من الشدائد والمكاره ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾[1]، وهي أشدّ المواقف الّتي يواجهها كلّ إنسان في أيام حياته القصيرة، وفي سفره، وفي إقامته الدائمة.

١. قيل: إن تقييد البعث بقوله: (حياً) للدلالة علىٰ أنّه سيُقتل شهيداً، لقوله تعالىٰ في الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ آل عمران: ١٦٩.
يُشار إلىٰ أن استشهاد النبي يحيىٰ على يد الطاغية (هيرودُس)، وإهداء رأسه إلىٰ إحدىٰ بغايا بني إسرائيل، لم يرد له ذكر في القرآن الكريم، وإنّما ورد في الروايات والأخبار.

الدروس والعبر

١. إن الله تعالىٰ كما يخصّ عباده المخلَصين بالمواهب، وهم في مرحلة الشباب أو الكهولة، فإنّ حكمته سبحانه قد تقضي بإيتائهم المواهب والكرامات، وهم في سنّ الطفولة والصبا، ويكون لهم شأن خطير في مجتمعاتهم، وقابلية واستعداد على التذكير والتوجيه والإرشاد والقيادة.

ومن هنا لا ينبغي إخضاع أمثال هذه الشخصيات للمقاييس المألوفة لجُلّ البشر، فهم يُنكرون أو يستبعدون توافر هذه المزايا والمؤهلات في مثل هؤلاء الأشخاص، الذين تستضيء بأنوارهم أُممهم، وهم في عمر كواكب الأسحار، فالله هو الّذي يختار بعلمه من يُجزل له من عطائه، ويفيض عليه من كرمه، و﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1].

وقد تجلّىٰ هذا العطاء الإلهي في النبي يحيىٰ عليه السلام، الّذي آتاه سبحانه الحكم وهو صبي، وأضفىٰ عليه من الصفات والسمات، ما جعله سيِّد قومه في علمه وحكمته وأخلاقه، وملاذاً يلجأون إليه في مهمّاتهم وشؤونهم الدينية.

٢. إنّ أنبياء الله هم الأُسوة لنا في حياتنا، فالنبي يحيىٰ عليه السلام كان زاهداً، تقياً، مجتنباً للمعاصي صائناً لنفسه عن ملذات الحياة الدينا، مستجيباً لطاعة الله، منتهجاً شريعته الغرّاء، وفي الوقت نفسه كان بارّاً بوالديه محسناً لهما، عطوفاً على الناس

---

١. الأنعام: ١٢٤.

غير متجبر عليهم ولا ظالم لهم، وبهذا استحق هذه المنزلة الخصيصة عند ربّه، والسيادة علىٰ قومه .

٣. يستفاد من قصة يحيىٰ عليه السلام (من خلال الروايات والأخبار) أنّ أتقى الناس وأشرفهم وأكرمهم عند الله تعالىٰ قد يُقتلون بيد الأشقياء والأشرار، فتُحرم الأُمم من بركاتهم وعطاءاتهم وأنوارهم، بفعل استهتار هؤلاء الظالمين بأرواح الأبرار، وبالقيم والمبادئ الّتي يحملونها ويسعون إلىٰ بثّها ونشرها بين الناس.

فالنبي يحيى عليه السلام قد قتله الحاكم الظالم، وأُهدىٰ رأسه إلىٰ إحدى البغايا، استجابة لنزوة تافهة، وحقد أعمىٰ .

وما أشبه الّذي جرىٰ لريحانة النبي صلى الله عليه وآله الإمام الحسين عليه السلام، بما جرىٰ ليحيى عليه السلام، إذ قُتل السبط عليه السلام بيد أحد الفجرة، وأُهدي رأسه إلى لعين ناكر للوحي والنبوة على رؤوس الأشهاد. إذ تمثّل يومئذٍ بهذا البيت الطافح بالكفر:

لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحي نزل

والحديث ذو شجون.

٢٣

النبي عيسى بن مريم عليه السلام

إنّ المسيح عيسى بن مريم عليه السلام أحد أنبياء الله العظام الذين لهم كتاب وشريعة ومعاجز.

ورد ذكره في القرآن الكريم باسم عيسىٰ عليه السلام خمساً وعشرين مرّة [١]، وباسم المسيح أحد عشر مرّة، [٢] ثلاثة منها مقرونة باسمه الشريف (عيسىٰ)، وورد ذكره بعنوان (ابن مريم) بشكل مستقل مرّتين [٣]، فيكون مجموع الموارد الّتي ذُكر فيها خمساً وثلاثين مرّة، وهذا يكشف عن عظمته وشخصيته الفذّة.

وأمّا دراسة حياته كما وردت في الذكر الحكيم، فيمكن تقسيمها إلى المحاور العشرة التالية:

١. الولادة المعجزة.

٢. خصائصه وشخصيته.

---

١. البقرة: ٨٧، ١٣٦، ٢٥٣، وآل عمران: ٤٥، ٥٢، ٥٥، ٥٩، ٨٤ والنساء: ١٥٧، ١٦٣، ١٧١، والمائدة: ٤٦، ٧٨، ١١٠، ١١٢، ١١٤، ١١٦، والأنعام: ٨٥ ومريم: ٣٤، والأحزاب: ٧، والشورى: ١٣، والزخرف: ٦٣، والحديد: ٢٧، والصف: ٦، ١٤.

٢. آل عمران: ٤٥، والنساء: ١٥٧، ١٧١، ١٧٢، والمائدة: ١٧ (مرتان)، ٧٢ (مرتان)، ٧٥، والتوبة: ٣٠، ٣١.

٣. المؤمنون: ٥٠، والزخرف: ٥٧.

٣. كتابه وشريعته.

٤. دلائل نبوته ومعجزاته.

٥. إبلاغ الرسالة لبني إسرائيل.

٦. حواريّوه ونزول المائدة السماوية .

٧. تآمر اليهود لقتله، وعروجه.

٨. تسرب التحريف إلىٰ كتابه وشريعته.

٩. غلو النصارىٰ فيه بتأليههم له .

١٠. شهادة المسيح يوم القيامة على تكذيب الغالين .

وإليك دراسة هذه المحاور واحداً بعد الآخر .

١

الولادة المعجزة

إنّ ولادة عيسىٰ بن مريم عليه السلام كانت ولادة غير عادية حيث إنّ مريم حملت به وهي بعد عذراء لم يمسّها بشر، وهذا الشكل من الولادة وإنْ كان علىٰ خلاف المألوف من الأسباب إلّا أنّه ليس أمراً محالاً، لأنّ قدرة الله تعالىٰ مطلقة لا يحدّها شيء، وسلطانه نافذ لا يحول دونه شيء، وقد ظهر هذا الاقتدار والسلطان جليّاً من قبلُ في خلق آدم من تراب دون أن يكون له أب وأم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1].

كما ظهر سلطانه في ولادة يحيىٰ، حيث وُلد من أب هَرِمٍ قد غزا رأسه الشيب، وأُم عاقر. ومَن لا يؤمن بهذه الأُمور الخارقة للعادة، ويذهب إلى تفسير الأُمور بالقوانين الطبيعية فقط، فهو من الجاهلين بمشيئة الله المطلقة، وسلطانه الواسع، قال سبحانه: ﴿وَ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[2].

وعلىٰ ضوء ذلك لا محيص لمن يؤمن بالغيب عن قبول هذه المعاجز دون تردّد.

بشارة الملائكة لمريم

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ

---

١. آل عمران: ٥٩.
٢. الأنعام: ٩١.

عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

﴿وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١].

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا﴾.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾[٢].

بلغت مريم العذراء عليها السلام مكانة سامية، إذ صارت مُحدَّثة تحدّثها الملائكة ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ والمراد من الملائكة هو الروح الأمين بشهادة قوله سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ ولعل التعبير بالجمع في المقام للتعظيم، وأمّا التمثّل فهو عبارة عن ظهور شيء في صورة إنسان وهو ليس بإنسان،

---

١. آل عمران: ٤٥ ـ ٤٧.
٢. مريم: ١٦ ـ ٢١.

وإنّما يراه المخاطب في صورته ولكنه ليس في الخارج كذلك، وبعبارة أخرى إنّ معنىٰ تمثّل شيء لشيء في صورة كذا هو تصوره إنساناً لا صيرورته إنساناً في الخارج، فتمثّل الملك بشراً هو ظهوره لمن يشاهده في صورة الإنسان لا صيرورة الملك إنساناً، ولو كان التمثّل واقعاً في نفسه وفي الخارج عن ظرف الإدراك كان من قبيل صيرورة الشيء شيئاً آخر وانقلابه إليه لا بمعنىٰ ظهور له كذلك.

وعلىٰ كل تقدير، ألقىٰ الروح الأمين إلىٰ مريم هذا النبأ العظيم: ﴿إِنَّ اللّٰهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ والكلمة تطلق على اللفظ الدال على المعنىٰ، وربما تُطلق على الأعيان الخارجية لأنها تحكي قدرته وعلمه سبحانه. وعلىٰ ضوء ذلك فالممكنات كلها كلمات الله تبارك وتعالىٰ، لقوله سبحانه: ﴿وَ لَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] وإنّما خُصّ عيسىٰ بأنّه كلمته، لأنّه أريد بها كلمة خاصة، إذ خُلق في بطن أُمّه بغير الأسباب المألوفة عند البشر، فهو إذن كلمة خاصة لامتيازها عن سائر الكلم.

وقد اختلفت كلمة المفسرين في وجه تسميته بالمسيح إلىٰ ثلاثة وعشرين قولاً، أفضلها قولهم: لأنّه مُسح بدهن زيت بورك فيه وكانت الأنبياء تمسح به.[2]

وأوضحه ابن عاشور بقوله: ومعنى مسيح ممسوح بدهن المَسْحة وهو الزيت المعطر الّذي أمر الله موسى أن يتخذه ليسكبه علىٰ رأس أخيه هارون حينما جعله كاهناً لبني إسرائيل، وصارت كهنة بني اسرائيل يمسحون بمثله

١. لقمان: ٢٧.

٢. مجمع البيان: ٢ / ٤٤٢.

من يملكونهم عليهم من عهد شاول الملِك، فصار المسيح عندهم بمعنىٰ المَلِك.[١]

ويمكن أن يقال أنّ المراد به المبارك، فإنّ التدهين عندهم إنّما كان للتبريك، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾[٢].[٣]

وعيسى معرّب (يسوع) بالعبرانية، وقد فسروه بالمخلّص وهو المنجي، وفي بعض الأخبار تفسيره بيعيش وهو أنسب بسبب تسمية ابن زكريا بيحيى على ما مرّ من المشابهة التامة بين هذين النبيين.

أمّا نسبته إلى أُمّه، فهي مفخرة عظيمة لها، إذ جعلها سبحانه ـ كما جعل ابنها ـ آية للعالمين علىٰ قدرته ومشيئته المطلقة، وفيها إشارة إلى أنّه مخلوق من غير أب، وأنّه يُنعت بذلك.

ثم إنّ البشارة تحدّثت عن مقام هذا المولود، ومزاياه الّتي خصّه بها سبحانه: ﴿وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ ذا جاهٍ وقَدْر وكرامة فيهما ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله، وذوي المكانة الرفيعة عنده ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾[٤] أي يكلمهم في الطفولة والكهولة علىٰ سواء. والمعنىٰ إلحاق حاله في الطفولية بحال الكهولية في كمال العقل والتكلم.[٥]

---

١. التحرير والتنوير: ٣/ ٩٧.

٢. مريم: ٣١.

٣. الميزان: ٣/ ١٦٤.

٤. المهد: الموضع يُهيّأ ويوطّأ للصبي. والكهل: ما بين الشاب والشيخ، وحدّده بعضهم بمن كانت سنوّ عمره بين الثلاثين والخمسين تقريباً.

٥. تفسير البيضاوي: ١/ ٢٨٨ (تفسير الآية ١١٠ من سورة المائدة).

تحصّل من ذلك أنّ الملائكة حدّثت مريم وهي عذراء بأنّها ستحمل ولداً ذكراً اسمه المسيح ذا مكانة عالية في الدنيا والآخرة، فكما أنّ ولادته ستكون خارقة للعادة، فكذا تكلّمه في المهد إلىٰ عصر الكهولة.

هذا ما حدّثت به الملائكة مريم، فلننظر إلى موقفها عليها السلام بعد سماعها هذا الحديث.

لقد استغربت من وقوع هذا الأمر، كما استغرب زوج خالتها (زكريا عليه السلام) من قبل، و﴿قالت﴾ متعجّبةً : ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ ؟

وجاءها الجواب الّذي يكشف عن حقيقة القدرة غير المحدودة لله ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، فكما يقدر سبحانه أن يخلق الأشياء بأسباب، يقدر أن يخلقها دفعة واحدة.

ثم إنّه سبحانه يذكر وجهاً آخر لولادة عيسىٰ عليه السلام عن طريق الإعجاز، وهو قوله: ﴿وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي آية باهرة، وبرهاناً جليّاً على عظيم قدرتنا ﴿وَ رَحْمَةً مِنَّا﴾ للعباد برسالاته الّتي يبلّغها عن الله تعالىٰ، فتحتّم حَملُها، كما يقول سبحانه : ﴿وَ كَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾.

ثم إنّ من اعتاد تفسير المعاجز بالطرق العلمية المعتادة ربما يفسر حَمْلَها من دون أن يمسّها بشر بتشبيه ذلك بتولد بعض الحيوانات المائية الّتي يحصل التوالد بينها بخلية واحدة، فلو أريد بذلك التقريب فنعم المراد. وإلّا فشأن المعاجز فوق الطرق العاديّة، لأنّها خارقة لها بإذن الله .

حمل مريم ومخاضها

قد مرّ أنّه سبحانه قال: ﴿وَ كَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ أي حَمْلها صار أمراً قطعياً لا بداء فيه، ثم أخذ سبحانه يذكر في الآيات التالية كيفية مخاضها وولادتها، وردّة فعل قومها واتّهامهم لها:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا﴾.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا﴾.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً﴾.[١]

لمّا أحسّت مريم العذراء بالحمل اعتزلت عن الناس وانفردت به في مكان بعيد ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ حياءً، وخوفاً من أن تُتّهم في عفّتها وشرفها ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ أي دفعها وجع الولادة ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ لتستند إليه، فلمّا ولدت ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا﴾ شيئاً

١. مريم: ٢٢ ـ ٢٦. و (المخاض): وجع الولادة، وهو الطَّلْق. و (جِذْع النخلة): ساقُها. و (النسي): الشيء الحقير الّذي من شأنه أن يُنسىٰ. و (السريّ): جدول الماء، ويُطلق على الشريف الرفيع، والأوّل هو المراد، لقوله ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾.

لا يؤبه له ولا يعتدّ به، وهو تعبير عمّا تعانيه من كَرْب وهمّ وغمّ. وهنا أنطقَ اللهُ وليدَها ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾[١] تطييباً لقلبها ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾. لقد أجرىٰ سبحانه تحت قدميها نهراً صغيراً، وأتاح لها تمراً حلواً مناسباً للنفساء، صالحاً للاجتناء ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا﴾.

قال الطبرسي: إنّ الجذع كان يابساً لا ثمر عليه إذ لو كان عليه ثمر لهزّته من غير أن تؤمر بذلك، وكان في الشتاء فصار معجزة بخروج الرطب في غير أوانه وبخروجه دفعة واحدة، فإنّ العادة أن يكون التمر نَوْراً أولاً ثم يصير بَلَحاً ثم بُسْراً ثم رطباً.

وبذلك أتم الله نعمته على أَمَته الصالحة في حَمْلها، ومخاضها، ووضعها وإروائها من جدول ماء أُجريَ تحت قدميها، وإطعامها من ثمرة طيبة في غير فصلها.

عودتها إلى قومها

أدام الله تعالىٰ نعمته على مريم العذراء عليها السلام بأن رفع عنها معاناة التفكير في الموقف الّذي ينبغي أن تتخذه إزاء قومها في أمرها وأمر ابنها، وكيف تقنعهم بأنّها حملته من دون أن يمسها بشر، وأنّ ولدها آية معجزة من الحكيم القدير،

---

١. وقال فريق من المفسرين: إنّ المنادي هو الروح الأمين، ووجّهوا كون الروح تحتها، بأنّها كانت حين الوضع في أكمة، وكان الروح واقفاً تحت الأكمة، فناداها من تحتها. قال السيد الطباطبائي: ولا دليل علىٰ شيء من ذلك من جهة اللفظ. الميزان: ١٤ / ٤٣.

فأرشدها سبحانه إلى انتهاج الأسلوب التالي:

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً﴾.

ثم جرى بينها وبينهم ما كشفت عنه هذه الآيات البيّنات:

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا﴾.

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ مَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

﴿وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

﴿وَ بَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

﴿وَ السَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.(١)

أمر الله سبحانه مريم بعد أن وضعت ابنها بأُمور أربعة:

١. الأكل من الرُّطَب الجنيّ : ﴿فَكُلِي﴾.

٢. الشرب من الماء النابع تحت قدميها ﴿وَاشْرَبي﴾ .

٣. أن تكون مسرورة بما حباها الله تعالىٰ : ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾ .

---

١. مريم: ٢٦ ـ ٣٤.

٤. إذا رأت أحداً يسألها عن رضيعها فعليها أن تقول إنّي نذرت صوم الصمت، وأوجبتُ على نفسي لله ألّا أتكلم. وربما قيل الصوم عن الطعام والشراب والكلام، والأوّل هو الأظهر .

حملت عليها السلام ابنها قاصدة قومها ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ وحينما رأوها بهذه الحال، استنكروا ما رأوا، و ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾ أي أمراً عظيماً يُتحيّر فيه، [1] إذ لم يكن لك زوج تحملين منه . وفي ناموس الطبيعة أنّ الولد يتّبع والديه في سلوكه وحياته ، ومن هنا أخذوا يذكّرونها بأصلها الطيب، وقالوا معيّرين إياها بإتيان هذه الفعلة الشنعاء، الّتي لا تصدر عن سليلة الطاهرين ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ نُسبت إلى هارون أخي موسى عليه السلام، لأنها كانت من ولده [2]، كما يقال للتميمي مثلاً: يا أخا تميم: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ أي لم يكن أبوك فاجراً ﴿وَ مَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ مرتكبة للفواحش.

فلما سمعت استنكارهم واتّهامهم لها بالسوء قامت بما أمرها الله سبحانه به، وهو عدم التكلم مع القوم واكتفت بالإشارة إلى الرضيع ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ ليسألوه عن حقيقة الأمر، فظنوا أنّها تهزأ بهم، فاعترضوا عليها وقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ؟

في هذا الموقف العصيب لأُمّه البتول، انطلق الصبيّ يكسر حاجز الصمت

---

١. وقيل: الفريّ، من الفرية بمعنى الكذب، كناية عن القبيح المنكر.

٢. وقيل: إنّ هارون هذا، كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل، يُنسب إليه من عُرف بالصلاح، فمعنى ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ يا شبيهة هارون ، وقيل في هارون غير ذلك. انظر التبيان في تفسير القرآن: ٧/ ١٢٢.

ويهدم جدران السكوت بكلمات قدسية، عرّف فيها نفسه بأجلىٰ بيان:

١. ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ ابتدأ بالإعلان عن عبوديته لله تعالىٰ، ليدحض عقيدة الغلاة من النصارىٰ الذين يزعمون فيما بعد أنّه ابن الله.

٢. ﴿ آتَانِي الْكِتَابَ﴾ وهو الإنجيل، ولعلّ التعبير بالماضي لأجل كونه أمراً متيقناً وأنّه سوف يؤتىٰ الكتاب .

٣. ﴿وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا﴾. إعلام بنبوته.

٤. ﴿وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أي محلاً لكل بركة، والبركة نماء الخير، والمبارك الّذي يُنمى الخير به. وكان عليه السلام نفّاعاً للناس، ولذا وصف بالمبارك.

٥. ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوةِ وَالزَّكَاةِ﴾ مشيراً إلى تشريعها في شريعته، والصلاة هي صلة الإنسان بالله سبحانه والزكاة صلته بالناس، وقد تقارن ذكر الصلاة والزكاة في القرآن الكريم في نيف وعشرين مورداً، وهذا يدلّ علىٰ وحدة الشرائع السماوية جوهراً وإن اختلفت شكلاً.

٦. ﴿بَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أي وجعلني مطيعاً محسناً لها.

٧. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.. الجبار هو الّذي يستعلي على الناس، ويحملهم علىٰ ما يريد، والشقيّ نقيض السعيد، ونُقل عن ابن عطاء أنّ الجبار هو الّذي لا ينصح، والشقيّ هو الّذي لا ينتصح .

وفي هذه القصة دروس وعبر يجب التوقف عندها للفائدة.

٢

خصائص المسيح عليه السلام في القرآن الكريم

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾(١).

﴿...إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾(٢).

﴿... وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾(٣).

﴿وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٤).

﴿... وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ...﴾(٥).

﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾(٦).

﴿وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَاةَ وَ الإِنْجِيلَ﴾.

﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

---

١. آل عمران: ٤٥.
٢. النساء: ١٧١.
٣. مريم: ٢١.
٤. آل عمران: ٤٦.
٥. البقرة: ٨٧و ٢٥٣.
٦. المائدة: ١١٠.

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾[١].

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى﴾[٢].

***

يشترك الأنبياء عليهم‌السلام في كثير من الخصائص الّتي أهّلتهم لهذا المقام الرفيع، وقد أسبغ عليهم سبحانه مواهبه الكريمة لصدقهم وإخلاصهم لله تعالىٰ، وقد اتّصف عدد منهم بصفاتٍ ميّزتهم عن سائر الأنبياء، في حين تفرّد آخرون ببعض الخصائص والمزايا. وإليك ما تفرّد به سيدنا المسيح عليه‌السلام من الخصائص، وما امتاز به من الصفات :

١. انّه كلمة الله سبحانه

لقد بيّنا في المحور الأوّل معنى الكلمة، وسبب إطلاقها على النبي عيسىٰ عليه‌السلام، فراجع .

٢. آية للناس ورحمة

إنّ ولادة المسيح كانت آية من آيات الله الّتي تكشف عن قدرته سبحانه على الخلق والإبداع وفق إرادته الّتي لا تقيّدها السنن المألوفة لدىٰ البشر، وكانت حياته عليه‌السلام المُكرَّسة لنفع الناس وتعليمهم وهدايتهم إلى سبيل الرشاد، مظهراً من مظاهر رحمة الله تعالىٰ .

---

١. آل عمران: ٤٨ ـ ٥٠.

٢. الشورى: ١٣.

٣. تأييده بروح القُدُس

أيده سبحانه بروح القُدُس (وهو في قول جمهور المفسرين: جبريل عليه السلام) وقوّاه به، فتكلّم عليه السلام في المهد صبيّاً، لتبرئة أُمّه الطاهرة ممّا رُميت بـه مـن ذوي النفوس الخسيسة، فأقرّ علىٰ نفسه بالعبودية لله تعالىٰ، وشهد بنبوته وإيتائه الكتاب. وكان مؤيّداً بروح القدس إلى آخر أيّامه في بني إسرائيل.

يُذكر أنّ روح القدس، هو الّذي حمَل آيات الذكر الحكيم إلى نبيّنا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾[1].

وقال الإمام علي عليه السلام وهو يصف التأييد الإلهي لمعلّمه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: وَلَقَدْ قَرَنَ ٱللهُ بِهِ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ ٱلْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ ٱلْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ.[2]

٤. تصديقه بالتوراة وتلقّيه الكتاب (الإنجيل)

أرسل تبارك وتعالىٰ لعباده ثلة من الأنبياء، ليدعوهم إلى الله تعالىٰ ويرشدوهم إلى نهجه القويم ويقيموا العدل وينشروا الخير. وكانوا عليهم السلام يتلقّون تعاليم شفهية من لدن الله تعالىٰ، وقد حظي عدد منهم بكتب سماوية، أجلّهم أُولو العزم الخمسة، الذين بُعثوا ومعهم كُتب وشرائع ومناهج إلهية. وكان المسيح ابن مريم عليه السلام أحد الأنبياء أُولي العزم، لقوله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى

---

١. النحل: ١٠٢.

٢. نهج البلاغة: ٣٠٠، الخطبة ١٩٢ (وتسمّى القاصعة).

بِهِ نُوحًا وَ الذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَ عِيسَى﴾، وقد آتاه الله تعالىٰ كتاباً وهو الإنجيل، وجعله مصدّقاً لشريعة موسىٰ عليه السلام، قال تعالىٰ: **﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾**[١].

٥. بعثته إلىٰ بني إسرائيل

من الأُمور الواضحة في القرآن الكريم أنّ السيد المسيح عليه السلام بُعث إلى قومه بني إسرائيل، ولكنّ السؤال الّذي يُثار هنا: هل كانت رسالته مختصة بهم، كما هو ظاهر قوله تعالىٰ: **﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾**، وقوله: **﴿وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾**[٢] أو أنّ رسالته كانت عامّة، تشمل الناس جميعاً؟

والجواب أنّ ثمّة قرائن تؤيد كونها رسالة عامّة، منها ما اشتهر بين المفسرين وغيرهم من أنّ رسالات أُولي العزم من الرُّسُل كانت عالمية، وعيسىٰ عليه السلام هو رابع هؤلاء الرسل. [٣] ومنها الواقع التاريخي لرسالة عيسى عليه السلام وعدم اقتصارها على الإسرائيليين أنفسهم، بل شملت شعوباً كثيرة أُخرى [٤]، وممّا يدخل في هذا الإطار توجّه الحواريّين (تلاميذ عيسى عليه السلام) إلى بلدان لا يسكنها الإسرائيليون، فقد جاء في الإصحاح الحادي عشر من أعمال الرسل: أنّ

١. المائدة: ٤٦. ٢. الصف: ٦.
٣. راجع الجزء الأوّل، ص ١٣١ ـ ١٣٢ للاطلاع على المراد من أُولي العزم.
٤. محمد باقر الحكيم، القصص القرآني: ٣٣١.

برنابا وشاول ذهبا إلىٰ أنطاكية وعلّما جمعاً غفيراً .

أمّا بصدد الآيتين المتقدمتين الّتي يظهر منهما خصوص بعثة عيسى ﷺ إلى الإسرائيليين، فيمكن أن يقال: إنّ المسيح ﷺ خصّ قومه بالذكر في خطابه، باعتبارهم مجال عمله وحركته ومركز دعوته، حيث لم تُتح له الفرصة للانطلاق في حركته إلىٰ خارج نطاق قومه بني إسرائيل، ولذا كان يوجّه الخطاب إليهم وحدهم .

وقد يقال: إنّ التخصيص في الآيتين المذكورتين، هو للردّ على من زعم أنّه مبعوث إلىٰ غيرهم .(١)

ولو حاولنا أن نثمّن كمالاته الروحية، فعلينا أن نذكر ما ورد في حقه من الصفات في الآيات الماضية في المحورين الأوّل والثاني، وهي :

١. ﴿غُلامًا زَكِيًّا﴾ .

٢. ﴿مُبَارَكاً﴾ .

٣. ﴿بَرّاً بِوَالِدَتِي﴾ .

٤. ﴿لَمْ يَجْعَلْني جَبَّاراً شَقِيًّا﴾ .

٥. ﴿وَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

٦. ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾.

٧. ﴿وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

---

١. انظر تفسير البيضاوي: ١ / ١٦٠ (في تفسير الآية ٤٩ من سورة آل عمران).

۳

کتابه وشریعته

۱. ﴿وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَاةَ وَ الإِنْجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.[۱]

۲. ﴿وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَطِيعُونِ﴾[۲].

۳. ﴿وَ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ آتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[۳].

٤. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ... * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَ قَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ ﴾[٤].

۵. ﴿وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَطِيعُونِ ﴾[۵].

---

۱. آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩.
۲. آل عمران: ۵۰.
۳. المائدة: ٤٦.
٤. الحديد: ٢٦ ـ ٢٨.
۵. الزخرف: ٦٣.

وصف سبحانه وتعالىٰ المسيحَ عليه السلام في أكثر من آية بأنّه ذو رسالة، وأنّه كان رسولاً وهو غير كونه نبياً، فإن مقام النبوة هو مقام تلقّي الوحي سواء أمر بالتبليغ أم لا، وأمّا مقام الرسالة فهو مقام تحقيق ما تلقّاه عن الوحي وإبلاغه إلى الناس.

وأمّا كتابه فقد أسماه سبحانه بالإنجيل ووصفه بالهدىٰ والنور، وقد ورد ذكره مقروناً في كثير من الآيات بالتوراة :

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَ الإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ... ﴾[1].

وهو مع كونه مصدقاً للتوراة الّتي أُنزلت علىٰ موسىٰ عليه السلام، فإنّ فيه البشارة بمجيء النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَ الإِنْجِيلِ﴾.[2]

وكان عيسىٰ عليه السلام يبشّر قومه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويصرّح باسمه الشريف، ويقول: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[3].

وأمّا شريعته عليه السلام فهي مكمِّلة لشريعة موسىٰ عليه السلام، مع إباحة بعض

---

١. آل عمران: ٣ـ ٤.

٢. الأعراف: ١٥٧.

٣. الصف: ٦.

المحظورات فيها، المشار إليها بقوله: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.
ومن المعروف أنّ الجهل والهوىٰ والحرص على الشهوات والمصالح، جعل من بني إسرائيل فِرقاً متباينة، فلمّا بُعث المسيح عليه السلام فيهم، خاطبهم بقوله: ﴿وَ لأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [1] من العقائد والأحكام.

يُذكر أنّ الإنجيل السماوي الّذي أُنزل على النبي عليه السلام (وهو إنجيل واحد لا غير)، قد فُقد، ولم يبقَ له أثر، تماماً كما حدث للتوراة من قبل.

أمّا الأناجيل الأربعة المتداولة الآن، فلا تمتّ إلى الوحي الإلهي بصلة، ولم تكن موجودة في عهد المسيح، وإنّما كتبها بعده بسنوات عديدة أربعة رجال، اثنان منهم من تلامذته عليه السلام، والآخران من أتباع تلامذته، وعلماء النصارىٰ يعترفون بهذه الحقيقة، غاية الأمر أنّهم يزعمون أنّها كُتبت بالإلهام.

وهناك شواهد جمّة، أوردها علماء الإسلام في كتبهم، تدلّ على تحريف التوراة والأناجيل السائدة، ومن هنا لا نجد فيها أثراً للبشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلّا قليلاً، ولا لكثير من الحقائق.

وسيأتي المزيد من التوضيح لهذا الأمر في المحور الثامن بإذن الله تعالىٰ.

---

١. الزخرف: ٦٣.

٤

معاجزه وآيات نبوته

جرت مشيئة الله تبارك وتعالىٰ علىٰ بعث أنبيائه بالآيات البينات، لإثبات نبوتهم وصدق مقالهم وارتباطهم بوحي السماء وإلّا فسيكون بعثهم لغواً لا طائل تحته .

ثم إن التعرّف علىٰ صدق مقالهم وصلتهم بالله تعالىٰ، يتحقق بأحد أُمور ثلاثة:

١. إخبار النبي السابق بنبوة النبي اللاحق، فإذا نصّ النبي السابق المسلَّم النبوة، صراحة علىٰ نبي لاحق، فإنّ هذا النص يعتبر حجّة على الناس العالِمين به، للتصديق بنبوة اللاحق. وهذا ما حدث للنبي الخاتم محمد ﷺ إذ بشّر المسيحُ عليه السلام وإنجيلُه بنبوته ﷺ، ولذا ينبغي التصديق بها، كما ينبغي التصديق بنبوة المسيح عليه السلام إذا وُجد في التوراة ما يدل علىٰ بعث المسيح من جانب الله تبارك وتعالىٰ .

٢. جمع الدلائل والشواهد علىٰ صدق مدعي النبوة، وذلك ببذل الجهد في البحث والتنقيب عنها، وإعمال النظر في شأنها، من خلال الاستضاءة بنور العقل، والتحرّر من الجمود والتقليد، والتجرد عن الأهواء والنزعات الشخصية. يُشار إلى أنّ قيصر الروم توخّىٰ هذا الأسلوب عندما وصلت إليه رسالة النبي محمد ﷺ،

فتوصل إلىٰ أنّ كاتب الرسالة نبي صالح مبعوث من الله سبحانه. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا الإلهيات .[1]

٣. المعجزات الخارقة للعادة التي يتحدىٰ بها صاحبها جميعَ الناس، ويجب ان تكون المعجزة تناسب ثقافة العصر وأفكاره وتوجّهاته ، حتّى يذعنوا بأنّ عمله (أي عمل النبي) خارج عن حدود العلوم البشرية والقدرة البشرية.

روىٰ الكليني عن أبي يعقوب البغدادي قال: قال ابن السِّكّيت [2] لأبي الحسن عليه السلام لماذا بعث الله موسىٰ بن عمران عليه السلام بالعصا، ويده البيضاء، وآلة السحر؟ وبعث عيسىٰ بآلة الطب؟ وبعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالكلام والخطب.

فقال أبو الحسن عليه السلام: إنّ الله لما بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله،وما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجة عليهم.

---

١. الإلهيات: ٣ / ١٢٠ ـ ١٢٣.

٢. يعقوب بن إسحاق، الأهوازي الأصل، البغدادي، ابن السكّيت (١٨٦ ـ ٢٤٤ هـ): إمام في اللغة والأدب. تعلّم ببغداد، واتصل بالمتوكل العباسي، فعهد إليه بتأديب أولاده. وكان متقدّماً عند الإمامين أبي جعفر الجواد، وأبي الحسن الهادي عليهما السلام، وكانا يختصّانه. قال الخطيب البغدادي: كان من أهل الفضل والدين، موثوقاً بروايته. قتله المتوكل لأجل تشيّعه. ذُكر أن المتوكل سأله عن ابنيه المعتز والمؤيد: أهما أحبّ إليه أم الحسن والحسين؟ فقال: والله إنّ قنبراً خادم علي خير منك ومن ابنيك!! فأمر بسلّ لسانه من قفاه، فمات شهيداً رحمه الله تعالىٰ. له أكثر من (٣٠) مؤلَّفاً، منها: «إصلاح المنطق ـ ط»، و «الألفاظ ـ ط». انظر : رجال النجاشي: ٢ / ٤٢٥ برقم ١٢١٥، تاريخ بغداد: ١٤ / ٢٧٣ برقم ٧٥٦٦، الأعلام: ٨ / ١٩٥ .

وإنّ الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزّمانات [١] واحتاج الناس إلى الطب، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيا لهم الموتى، وأبرأ الاكمه والأبرص بإذن الله وأتيت به الحجة عليهم.

وإنّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام ـ وأظنه قال: ـ الشعر ـ فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجة عليهم.

قال: فقال ابن السكيت: تالله ما رأيت مثلك قط [٢].

وإليك معاجزه في القرآن الكريم:

١. ﴿وَ رَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَ أُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَ الأَبْرَصَ وَ أُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٣].

٢. ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَاةَ وَ الإِنْجِيلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ

---

١. الزمانات: الآفات الّتي تُصيب الأعضاء فتمنعها من الحركة، كالفالج واللَّقْوَة (داء يصيب الوجه يعوجّ منه الشِدْق إلى أحد جانبي العُنق).

٢. الكافي: ١ / ٢٤ ـ ٢٥، كتاب العقل والجهل، الحديث ٢٠.

٣. آل عمران: ٤٩.

بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَ تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَ الأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[١].

والإمعان في هذه الآيات يعرب عن أنّ معاجز عيسىٰ عليه السلام كانت تدور على محاور خمسة:

١. خلق الطير من الطين والنفخ فيه وصيرورته طيراً بإذن الله تعالىٰ، باعثِ الحياة ومُفيضها على الأحياء.

قال الشيخ الطبرسي، وهو يفسر الآية (٤٩) من سورة آل عمران: إنّ تصوير الطين على هيئة الطير والنفخ فيه ممّا يدخل تحت مقدور العباد، وأمّا جعل الطين طيراً حتّى يكون لحماً ودماً وخلق الحياة فيه، فممّا لا يقدر عليه غير الله تعالىٰ، ولذلك قال: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾.

٢. إبراء الأكمه (وهو الّذي يولَد أعمىٰ، وقيل: هو الأعمىٰ)، والأبرص (وهو الّذي في جلده بياض مُنفِّر).

قيل: إنّما خُصّا بالذكر، لأنّ مداواتهما أعيتْ أحذق الأطباء في ذلك العصر الّذي كان الطب فيه متقدّماً، فجعل الله الشفاء منهما علىٰ يد عيسىٰ من غير علاج، معجزة تدلّ علىٰ نبوّته عليه السلام.

٣. إحياء الموتىٰ. قيل إنّه أحيا أربعة أنفس.[٢]

---

١. المائدة: ١١٠.

٢. مجمع البيان: ١ / ٤٤٥.

٤. الإخبار بالغيب، قال: ﴿وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

٥. كفّه سبحانه بني إسرائيل عن أذاه وقتله مع كفرهم وعنادهم، فكأنّه كفّهم عنه بألطافه الّتي لا يقدر عليها غيره سبحانه، كما يقول سبحانه: ﴿وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[1].

هذه رؤوس معاجزه الواردة في القرآن الكريم، ولعل له معاجز وبينات أُخرىٰ لم تُذكر.

ثم إنّ التفريق في إسناد الفعل إلى المسيح أو إلى الله سبحانه، كما مرّ عن الطبرسي، هو محلّ نظر وتأمُّل، فالمسيح عليه السلام هو الّذي كان يقوم بالأفعال المعجزة، وكانت تظهر علىٰ يديه، ولكن بإذن الله تعالىٰ، ولذا جاء الخطاب الإلهي بهذه الصيغة: ﴿وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَ الأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾.

فالإبراء وإحياء الموتىٰ كانا من عمل المسيح، لكن بإذن الله سبحانه، ويؤيد ذلك قوله سبحانه: ﴿وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾[2] حيث إنّه سبحانه ينسب إتيان المعجزة إلى الرسول لا إلى الله سبحانه وإن كان إتيانه بها بإذنه وإقداره.

كما أنّه سبحانه وصل قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ بقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ

---

١. المائدة: ١١٠.
٢. الرعد: ٣٨.

الطَّيْرِ﴾، كما تقدّم في الآية (١١٠) من سورة المائدة، أي قبل النفخ في ما هو مخلوق كهيئة الطير وبعث الحياة فيها، وهذا يعني أنّ التفريق المذكور لم يكن من مقاصد الآية الكريمة.

٥

إبلاغ الرسالة لبني إسرائيل

ابتُلي المسيح عيسى عليه السلام (مثل أكثر الأنبياء) بأُمّة ظالمة، غاشمة، جاحدة، قلّما تتّعظ بنصائحه، وهذا ما يذكره القرآن الكريم في الآيات التالية:

﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.[١]

﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَطِيعُونِ﴾[٢].

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[٣].

---

١. آل عمران: ٥٠. ٢. الزخرف: ٦٣.

٣. المائدة: ١٤. يُذكر أنّ كلمة النصارىٰ تطلق على الأُمّة المسيحية، وقد جاءت اللفظة في القرآن

﴿وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.[١]

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[٢].

﴿وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللهُ وَ اللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.[٣]

لم يتعرّض القرآن الكريم لتفاصيل دعوة المسيح عليه السلام، ومضامين رسالته، وأسلوب تبليغها، واكتفى بالإشارة إلى الأُصول المهمة، كدعوة قومه إلىٰ تقوى الله، والتوجّه في العبادة إليه وحده، فهو ربّ الجميع، ولا ربّ سواه، ودعوتهم إلى التصديق بنبوّته عليه السلام وإطاعته الّتي تعتبر إطاعة لله تعالىٰ في أوامره ونواهيه، لأنّ النبي هو المبلِّغ عن الله سبحانه، والدليل على النهج القويم، والطريق المستقيم.

كما أنّ القرآن المجيد لم يتحدث كثيراً عن خطوات المسيح عليه السلام علىٰ طريق إبلاغ رسالته، وعمّا لاقاه من مصاعب وأهوال من قومه، وما جرىٰ بينه وبينهم من مواجهات وأحداث.

☜ الكريم ثلاث عشرة مرة، وهي صيغة جمع مفردها نصراني أو نصري ينسبون إلى مدينة الناصرة من ضواحي فلسطين الّتي قيل إنّها كانت مولد المسيح، ولذلك يوصف بعيسىٰ الناصري أو عيسى الجليلي (انظر اعلام القرآن: ٦١١)، نسبة إلىٰ ولاية الجليل الّتي كانت الناصرة من توابعها.

١. المائدة: ١١٠.

٢. المائدة: ٧٨ ـ ٧٩.

٣. آل عمران: ٥٤.

ولعل السرّ في ذلك، يكمن في أنّه عليه السلام كان يُعنىٰ بالإصلاح وتقويم الاعوجاج وتصحيح الانحراف، ولم يكن صاحبَ رسالة مستقلة، ذات شريعة جديدة، ناسخة للشريعة السابقة، وإنّما كان مصدِّقاً للتوراة، معتمداً علىٰ شريعة موسىٰ في تنظيم حياة المجتمع، مع قيامه ببعض التعديلات، الّتي من شأنها أن تُخفّف عنهم بعض التكاليف الشاقة، الّتي فُرضت عليهم من قَبلُ لظلمهم وتعنّتهم، كما قام عليه السلام بتبيين بعض الاختلافات الّتي حصلت بينهم في القضايا الدينية، بسبب تحكّم الأهواء والمصالح الذاتية والأغراض المريضة بهم .

ومع أنّ القرآن المجيد لم يذكر تفاصيل الوقائع الّتي حدثت بين المسيح عليه السلام وقومه ـ كما قلنا ـ إلّا أن ثمّة كلمات قرآنية صارخة، وبعض المميزات في حركة المسيح، تكشف عن حقيقة ما جرىٰ علىٰ أرض الواقع.

وإذا تلَونا الآيات الكريمة المتقدمة، نجد هذه الكلمات الّتي تفضح مواقف بني إسرائيل، وتعبّر عن إصرارهم على الباطل، وشدة عدائهم لنبيهم:

١. **المكر:** فالمكر والخداع والدسّ والاحتيال، هي الأساليب المتّبعة عند اليهود في التعامل مع الأنبياء والمصلحين، ومع الأُمم الّتي ابتُليت بهم، لا سيما الأُمّة الإسلامية في ماضيها وحاضرها. وما يصنعه اليهود اليوم في فلسطين والعراق ولبنان وغيرها من البلدان، دليل ساطع علىٰ خبث دسائسهم الّتي يراد منها نشر الفوضىٰ والفساد والدمار، وسفك الدماء، ونهب الثروات .

٢. **السحر المبين:** هذا هو الوصف، الّذي يصف به المعاندون ما يجيء علىٰ يد الأنبياء من آيات ومعاجز وبيّنات، **﴿وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾**[1]

---

١. الأنعام: ٢٥.

لأنّهم آمنوا فقط بأهوائهم ومصالحهم الشخصية، فلا ينفع معهم أي برهان وحجّة.

٣. **اللعن**: وهو تعبير عما بلغه بنو إسرائيل من كفر وجحود وإنكار للحق، استحقوا معه دعاء المسيح عليهم باللعن والطرد من رحمة الله، وإحلال نقمته تعالىٰ عليهم، على الرغم ممّا اتّسم به عليه السلام من رحمة ورأفة بقومه وحرصٍ عليهم.

٤. **الإصرار على الكفر**: وهذا ما أحسّه النبي عيسىٰ من قومه، وعَلِمَه علماً لا شبهة فيه كعِلم ما يُدرك بالحواس (عن الكشّاف).

وإذا ضممنا إلى ذلك وغير ذلك، كثرة المعاجز والآيات الّتي أظهرها الله تعالىٰ علىٰ يدي المسيح، أدركنا مبلغ الصدّ والإعراض والرفض والتكذيب، الّذي جوبه به عليه السلام، وهو يدعو قومه إلى الإيمان والهدىٰ، واتّباع الصراط المستقيم.

ومع كل هذا الحرص الّذي أبداه المسيح عليه السلام، فإن النصارىٰ قد تركوا ما جاء به عليه السلام وراء ظهورهم، ولم يأخذوا حظاً وافراً منه، فكان نتيجة ذلك نشوب النزاعات بينهم من وقت لآخر، وهذا هو التاريخ يذكر المعارك الدامية بين الفرق المسيحية الكاثوليكية والاورتوذكسية والبروتستانية وقد نشبت الحرب العالمية الثانية بين المسيحيين فقُتل من قُتل وحُرق من حرق وفُقد من فُقد، حتّى لقد أحصى المختصّون عدد المقتولين والمضطهدين في هذه الحرب، فبلغ حوالي مائة مليون إنسان، وإليك ما يذكره القرآن الكريم.

إنّ القرآن يُشبِّه النصارىٰ باليهود في ترك ما جاء به أنبياؤهم وعدم الاهتمام

به، فيصف اليهود بقوله: ﴿فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾(١) ويريد من الجملة الأخيرة أنّهم تركوا نصيباً ممّا وعظوا به وممّا أُمروا به في كتابهم من اتّباع النبي، فصار كالمنسيّ عندهم.

هذا ما يصف به اليهود، ثم إنّه سبحانه يصف النصارىٰ بعد هذه الآية بنفس ما وصف به اليهود ويقول: ﴿وَ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ بالتوحيد والإقرار بنبوة المسيح عليه السلام وجميع أنبياء الله وأنّهم كانوا عباد الله، فنقضوا هذا الميثاق وأعرضوا عنه وابتدعوا النصرانية الّتي هم اليوم عليها وتسمّوا بها، ولذلك لم يقل سبحانه في الآية من النصارىٰ، بل قال: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارى﴾، ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي نسوا ما وعظوا وأُمروا به، فأنتج الإعراض عن تعاليم المسيح، غليان العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة كما يقول: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

والآية تدل علىٰ أمرين:

أ. الإعراض عن تعاليم الأنبياء، يشبُّ نار العداوة بين المعرضين ويفرّقهم إلى فئات.

ب. الإغراء، وهو تسليط بعضهم علىٰ بعض الّذي يعادل التحريش، ومن المعلوم أنّ إغراء العداوة بين الناس ليس أمراً ممدوحاً، فكيف ينسبه سبحانه إلى

١. المائدة: ١٣.

نفسه؟ والجواب واضح لأنّ هذا نظير قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[١] فإنّ أسباب العداوة تعود إلى النصارىٰ أنفسهم، حيث انقسموا بنكثهم للعهد، ونقضهم للميثاق الّذي أُخذ عليهم بالتوحيد والسمع والطاعة لله ولرسوله، انقسموا إلىٰ فِرَق شتّىٰ كاليعقوبية والملكائية والنسطورية، ولكلٍّ أهواء في حق المسيح فالنسطورية تقول إن عيسىٰ ابنُ الله، واليعقوبية تقول: إنّ الله هو المسيح بن مريم، والملكائية تقول: إنّ الله ثالث ثلاثة: «الله وعيسىٰ ومريم»، ومن المعلوم أن كلاً منها يحامي عن عقيدته ويدافع عنها، ويردّ على سائر العقائد، وهذا من شأنّه أن يورث العداء والبغض بينهم بمقتضىٰ السنن والقوانين التاريخية. وبما أنّ التعادي بينهم، كان نتيجة لعمل تلك السنن الّتي وضعها الله تعالىٰ في هذا الميدان (كما وضع سائر القوانين الّتي تحكم الميادين الأُخرىٰ في هذا الكون العريض)، جاز أن ينسب سبحانه الإغراء إليه .

---

١. الصف: ٥.

٦

حواريّو عيسىٰ ونزول المائدة السماوية

يذكر القرآن المجيد جماعة من النصارى باسم حواريّي المسيح، ويصفهم بأنّهم أنصار الله، وأنّه سبحانه قد نزّل عليهم مائدة من السماء بدعاء المسيح. وهذا ما ورد في الآيات التالية:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.(١)

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَ نَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ

---

١. آل عمران: ٥٢ ـ ٥٣.

لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارْزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ كَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[٢].

والحواريّون: هم خاصة الرجل وأصفياؤه، واحدهم حَواريّ. وأصل الكلمة من (الحَوَر) وهو شدة النقاء والبياض، ولم يُطلق القرآن الكريم هذا اللفظ إلّا على خواص أصحاب عيسىٰ عليه السلام.

أمّا وجه تسميتهم بالحواريين، فقد روى الشيخ الصدوق بسنده عن الحسن بن علي بن فضّال أنّه قال. قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: لِمَ سُمِّي الحواريون الحواريين؟ قال: أما عند الناس، فإنّهم سمّوا حواريين، لأنّهم كانوا قصّارين، يخلّصون الثياب من الوسخ بالغسل، وهو اسم مشتق من الخبز الحوار، وأما عندنا فسمّي الحواريون الحواريين، لأنّهم كانوا مُخْلصين في أنفسهم، ومُخَلِّصين لغيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ والتذكير.[٣]

أمّا المائدة، فهي: الخِوان عليه الطعام، أو الطعام ذاته .

---

١. المائدة: ١١١ ـ ١١٥ .   ٢. الصف: ١٤.

٣. عيون أخبار الرضا: ٢ / ٨٥، الباب ٣٢، الحديث ١٠ (ط . مؤسسة الأعلمي).

نداء عيسىٰ عليه السلام وفرز الجماعة المؤمنة

بذل المسيح عليه السلام جهده في إصلاح قومه بني إسرائيل وحملهم على الجادة، ولكنّهم أعرضوا عنه، وأصرّوا علىٰ تكذيبه وإيذائه والافتراء عليه، على الرغم من كل الدلائل والبينات الّتي جاءهم بها.

ولمّا علم عليه السلام بإصرارهم على الكفر وتواطئهم على المكر به، أراد أن يعرف من يؤازره في طريقه إلى الله تعالىٰ، فنادىٰ في قومه ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾، لفرز الجماعة المؤمنة الصادقة الملتزمة بالحق لوجه الحق عن غيرها من الجاحدين والكاذبين والمذبذبين، وهذه الجماعة هي الّتي يتم إعدادها وتربيتها، لتكون القدوة في تجسيد المبادئ الإلهية في قولها وفعلها، ولتمارس دورها في حماية الرسالة والدفاع عنها ونشرها بين الناس. وقد استجاب لهذا النداء الحواريون، فشهدوا علىٰ توحيده سبحانه ورسالة المسيح عليه السلام ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

ولعل المراد من قولهم: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي فاكتبنا مع الذين يشهدون بأنّ المسيح قد أدّىٰ وظيفته الرساليّة وقام بأمر التبليغ بأحسن وجه.

ويدلّ علىٰ ذلك أنّه سبحانه يخبر أنّه يسأل يوم القيامة طائفتين:

أ. الذين أُرْسِل إليهم: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ .

ب. المرسَلون: ﴿وَ لَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١].

---

١. الأعراف: ٦.

والحواريون هم من الطائفة الأُولى.

ثم إنّ ظاهر قوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾ أنّ المسيح خاطب بني إسرائيل، لكن الظاهر من قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾[1] أنّه خاطب الحواريين، فكيف الجمع؟ والحلّ هو احتمال تعدّد المقامين، فتارة وجّه خطابه إلىٰ بني إسرائيل عندما لم يكن المؤمن متميزاً عن الكافر، وأُخرى وجه خطابه إلى نفس الحواريين بعد التميّز، فالذي ورد في سورة آل عمران راجع إلى المقام الأول، والّذي ورد في سورة الصف راجع إلى المقام الثاني، وعلى حسب اختلاف المقامين تغيّر الخطاب سعة وضيقاً.

ثم إن هناك نكتة، وهي أنّ المسيح خاطبهم بقوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾؟ ولكنّ الحواريين بدَل أن يعرّفوا أنفسهم بأنّهم أنصاره، قالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾ وما ذلك إلّا لأنّ كونهم أنصار الله هو عبارة أُخرى عن كونهم أنصار المسيح ، فمن نصر رسول الله فقد نصر الله تبارك وتعالىٰ، قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[2].

نزول المائدة السماوية

كان الحواريون من الراسخين في الإيمان بالله تعالىٰ وبنبيّهم المسيح عليه السلام، ومع ذلك سألوه أن يدعو الله تبارك وتعالىٰ أن يُنزّل عليهم مائدة من السماء، فما السّر في ذلك؟ والجواب أنّ السؤال لم يكن نابعاً عن ضعف إيمانهم بالله، أو

---

١. الصف: ١٤. ٢. النساء: ٨٠.

محاولةً لمعرفة مكانة المسيح عند الله واختبار صدق مقاله، بل كان نابعاً عن رغبتهم في الحصول علىٰ درجة عالية جداً من الإيمان، وقد مرّ نظير ذلك في سؤال الخليل ربَّه عن كيفية إحياء الموتىٰ فالخليل عليه السلام كان مؤمنا بأنّ الله سبحانه يحيي الموتىٰ يوم القيامة، ومع ذلك طلب أن يرىٰ ذلك بأُمّ عينيه، لا لضعف إيمانه بل لطلب الإيمان الأكبر.[1]

ولهذه الغاية، قال الحواريون: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2] .

ويقع الكلام في الآية في موردين :

الأوّل: كيف يخاطب الحواريون المسيح بقولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ فهذا الكلام أشبه بكلام من لا يعرف الله سبحانه ولا قدرته مع أنّ الحواريين كانوا في درجة عالية من الإيمان؟

الثاني: إنّ المسيح خاطبهم بأمرين:

أ. أمرهم بالتقوى ، ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ﴾ .

ب. علّق تقواهم بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وهذا أيضاً لا يناسب شأنهم.

وبالجملة إنّ خطابهم للمسيح وإجابة المسيح لهم لا يناسبان منزلة الحواريين ومكانتهم، فكيف يمكن التوفيق بينهما؟

ونجيب عن ذلك بقولنا:

---

١. انظر: الجزء الأوّل: ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

٢. المائدة: ١١٢.

أمّا الأوّل: فيمكن أن يقال أنّ الاستطاعة في الآية كناية عن اقتضاء المصلحة ووقوع الإذن كما أنّ الإمكان والقدرة والقوة يكنىٰ بها عن ذلك، كما يقال: «لا يقدر الرئيس أن يصغي إلى كل ذي حاجة» بمعنىٰ أنّ مصلحة الملك تمنعه من ذلك وإلّا فمطلق الإصغاء مقدور له، ويقال: «لا يستطيع الغني أن يعطي كل سائل» أي أنّ مصلحة حفظ المال لا تقتضيه، وبقول أحدنا لصديقه: «هل تستطيع أن تروح معي إلى فلان؟» وإنما السؤال عن الاستطاعة بحسب الحكمة والمصلحة لا بحسب أصل القدرة على الذهاب.[1]

وأمّا الثاني: وهو قوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ فظاهره طلب إيضاح منه لطلبهم نزول المائدة، لأنّهم سألوا معجزة بعد معاجز كثيرة أتىٰ بها المسيح في حياته، ومنها نفس وجوده وولادته من امرأة لم يمسها بشر.

ويمكن أن يقال: إنّ الأمر بالتقوىٰ كناية عن تقويمها في القلوب وليس توبيخاً لهم كما أنّ تقييد الأمر بالتقوى بالإيمان، أعني قوله: إن كنتم مؤمنين لأجل الدعوة إلى ترسيخ الإيمان في القلب.

يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أمر بملازمة التقوىٰ وعدم تزلزل الإيمان ولذلك جاء بـ«إن» المفيدة للشكّ في الإيمان ليعلم الداعي إلى ذلك السؤال خشية أن يكون نشأ لهم عن شكّ في صدق رسوله، فسألوا معجزة يعلمون بها صدقه بعد أن آمنوا به.[2]

هذا، وقد ذهب السيد الطباطبائي إلى أنّ قوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ كان توبيخاً

---

١. الميزان: ٦ / ٢٢٩ ـ ٢٣٠. ٢. التحرير والتنوير: ٥ / ٢٦٥.

منه ﷺ لهم، وأنّ الأصل في مؤاخذتهم الّذي يترتب عليه الوعيد الشديد في آخر الآيات، هو أنّهم سألوا آية، حيث لا حاجة إليها، واقترحوا بما في معنى العبث بآيات الله .

ومهما يكن، فقد عمد الحواريون إزاء موقف المسيح هذا منهم، عمدوا إلىٰ توضيح قصدهم، وبيان أنّ طلبهم المائدة السماوية لم يكن نابعاً عن الهوىٰ، بل لغايات عقلائية أربع، هي:

١. **الأكل** : ﴿**نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا**﴾ وكأنّ مرادهم بذكره أنّهم ما أرادوا به الاستهزاء بآيات الله، بل أرادوا أن يأكلوا منها وهو غرض عقلائي.

٢. **الحصول** على اطمئنان أكثر بالله وبرسوله : ﴿**وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا**﴾ .

٣. **العلم** بصدق المسيح فيما بلّغهم عن ربّه، ويراد بالعلم حينئذ العلم اليقيني الّذي يحصل في القلب بعد ارتفاع الخواطر والوساوس النفسانية: ﴿**وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا**﴾ .

٤. **أن نكون من الشاهدين** عند الحاجة إلى الشهادة يوم القيامة : ﴿**وَ نَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ وقد ورد هذا التعبير في قوله سبحانه: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾.

وربما يحتمل أن يكون معنى الآية: ﴿**وَ نَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ أي من الشاهدين على رؤية هذه المعجزة فنبلّغها من لم يشهدها، لتكون حجة بالغة عليهم، فيؤمن ويهتدي من جحد وكفر، ويزداد الذين آمنوا إيماناً.

ولمّا تم الحوار بينه وبينهم وثبت أنّ طلبهم المائدة كان لأغراض قدسية،

دعا المسيح ربّه سبحانه وقال: ﴿اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارْزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ .

وهذا الدعاء قد اشتمل علىٰ كلمتين: «اللّهم» و «ربنا»، وأحدهما يكفي عن الآخر مع أنّ الأدعية القرآنية كلها تبدأ بقوله: (ربّ) أو (ربّنا)، نظير: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَ لاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾[1]، و ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ﴾[2]، و ﴿رَبَّنَا وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾[3] .

ولعلّ النكتة في ذلك، هي وجود الفرق بين المقامين، فالمسيح هنا يطلب معجزة من الله تبارك وتعالىٰ في ظروف غنيّة عن الإعجاز، لأنّه سبحانه قد بعثه بالبينات والدلائل الّتي تُغني عن أية معجزة سواها، فطلبُ المعجزة في تلك الظروف يحتاج إلى تذلل وخضوع أكثر ليستنزل بذلك عطف الله ورحمته ولذلك أردف قوله (ربّنا) بعد قوله (اللّهمّ) .

ثم إنّ المسيح يُعرّف ذلك اليوم الّذي تنزل فيه المائدة عيداً للنصارى، وما هذا إلّا لأنّ نزول المائدة تعبير عن نزول الرحمة والبركة، فيناسب أن يتخذه الشعب عيداً لإظهار الفرح والسرور.

وإذا جاز أن يُتّخذ يوم نزول المائدة السماوية عيداً للنصارىٰ عبر القرون، لِما ترتّب عليه من فوائد روحية ومادية، فالأجدر بالمسلمين أن يتّخذوا من يوم

---

١. البقرة: ٢٨٦.

٢. آل عمران: ١٩٣.

٣. آل عمران: ١٩٤.

ميلاد النبي ومن بعثته ﷺ مناسبتين للفرح والسرور والابتهاج علىٰ مرّ العصور، ويُحتفىٰ بهما (مع التقيّد بالضوابط الشرعية) كما يُحتفىٰ بالأعياد الإسلامية ، تعزيراً وتوقيراً للنبي الأكرم ﷺ، وتيمّناً بالنعمة والبركة والرحمة المهداة للبشرية جمعاء، واعتزازاً وتكريماً لدوره العظيم في صنع كيان هذه الأُمّة، الّتي قادها برسالة السماء الحافلة بالقيم والمفاهيم السامية والنُظُم القويمة في مختلف مجالات الحياة إلى السعادة والنجاة، وإلى الرقيّ والرفعة، بعدما كانت تتخبّط ـ مثل سائر الأُمم ـ في الجهل والضلال والصراعات والفتن:

محمّدٌ ذكرُهُ روحٌ لأنفسنا ... محمّدٌ شكرُهُ فَرْضٌ على الأُمَمِ
محمّدٌ زينة الدنيا وبهجتُها ... محمّدٌ كاشف الغُمّاتِ والظُّلَمِ
محمّدٌ سيّدٌ طابتْ مناقبُهُ ... محمّدٌ صاغَهُ الرحمٰنُ بالنِّعَمِ
محمّدٌ طابت الدنيا ببعثتِهِ ... محمّدٌ جاء بالآياتِ والحِكَمِ [1]

ونعمَ ما قاله بعض المفسرين:

(كانت الحياة البشرية قبل محمد ﷺ في الحضيض، فرفعها محمد إلى القمّة، وتراجعت الآن عن القمة السامقة، وانحدرت في نيويورك وواشنطن وشيكاغو، حيث العصبيات النّتنة، عصبيات الجنس واللون). [2]

---

١. الأبيات لأبي عبدالله محمد البوصيري.

٢. نقله الشيخ مغنية في تفسيره الكاشف: ٣/ ١٩٦.

استجابة دعاء المسيح

استجاب الله للمسيح دعاءه وقال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فقوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ وعد صريح بالإنزال وهو يدل علىٰ تحقق وعده كما سيوافيك شرحه.

وأمّا تقارن نزول المائدة بالوعيد الشديد الّذي لم يتوعد به غيرهم، فيمكن توجيهه بهذه الصورة، وهي أنّه سبحانه خصّهم بهذه الآية، وكرّمهم بها، ولم يشاركهم فيها غيرهم، وقد جاءت بناءً على اقتراحهم وطلبهم، وأدركوها بجميع حواسّهم، ومن هنا استحقوا الوعيد على كفرهم بعد نزولها بعذاب لا يشاركهم فيه غيرهم من الأُمم.

يُذكر أن ظاهر الآية الكريمة ـ كما تقدم ـ هو تحقق الوعد الإلهي، ولكن يبدو من بعضهم ـ كما نقل النجار في قصص الأنبياء ـ أنّ المائدة لم تنزل أو لم ينص القرآن على نزولها بالفعل.

وأصحاب هذا الرأي قد تأثروا بما ورد في الإنجيل، فقد جاء فيه: فلمّا سمع يسوع، انصرف من هناك في سفينة إلى مكان قَفْر يعتزلُ فيه، فعرف الجموع ذلك فتبعوه من المدن سيراً على الأقدام. فلمّا نزل إلى البرّ رأى جمعاً كثيراً، فأخذته الشفقة عليهم، فشَفى مرضاهم. ولمّا كان المساء، دنا إليه تلاميذه وقالوا له: المكان قفر وقد فات الوقت، فاصرف الجموعَ ليذهبوا إلى القرى فيشتروا لهم طعاماً. فقال لهم يسوع: لا حاجة بهم إلى الذهاب. أعطوهم أنتم ما يأكلون. فقالوا له: ليس عندنا ههنا غير خمسة أرغفة وسمكتين. فقال: عليّ بها. ثم أمر الجموع

بالقعود على العشب، وأخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين، ورفع عينيه نحو السماء، وبارك وكسر الأرغفة، وناولها تلاميذه، والتلاميذ ناولوها الجموع. فأكلوا كلُّهم حتّى شبعوا.[١]

هذا ما في العهد الجديد إلّا أنّ الإمعان في الآيات الواردة حول المائدة، يدلّ علىٰ خلاف ذلك وأنّه أُنزلت مائدة سماوية من عالم الغيب، ويدلّ عليه أُمور ثلاثة:

١. قولهم: ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وقول المسيح: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ والجملتان صريحتان في أنّهم طلبوا مائدة غيبية بشهادة قولهم: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾.

٢. إنّهم طلبوا من المسيح نزول المائدة، والمائدة عبارة عن سماط الأكل الّذي يشتمل على الطعام المنوّع وغيره، فالمطلوب هو نزول خوان يشتمل على طعام غير موجود لديهم، وأين هذا المعنىٰ ممّا ورد في الإنجيل من أنّ عيسى قد بارك طعاماً كان عندهم من قبل.

٣. إنّه سبحانه أنذرهم بقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[٢] وهذا الإنذار يدلّ علىٰ وقوع معجزة غيبية عظيمة علىٰ نحو لو كفر أحد هؤلاء بعدها، لأُخذ بأشد العقوبات، وهذا يناسب نزول المائدة من عالم الغيب، لا إشباع جماعة كثيرة بطعام قليل غبّ دعاء المسيح عليه السلام.

---

١. انظر الكتاب المقدس، العهد الجديد: ٧٨؛ إنجيل متى، الإصحاح: ١٤.

٢. المائدة: ١١٥.

سيماء الحواريين في القرآن الكريم وفي الأناجيل

رسم القرآن الكريم سيماء الحواريين بصورة جماعة مؤمنة، استجابوا لنداء المسيح عليه السلام الداعي إلى نصرته في طريق دعوته إلى الله، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾، وعبّروا له عن إيمانهم بالله تعالىٰ وبرسالته، واتّباعهم للرسول عليه السلام، وقد أكرمهم الله سبحانه بمائدة سماوية، نزلت عليهم ببركة دعاء المسيح عليه السلام.

وكفىٰ في منزلتهم قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[1].

وأمّا سيماء الحواريين في الأناجيل، ففيها تشويش وتناقض، واتهام لهم بالضعف والتخاذل، وارتكاب الزّلل. وإليك بعض مواقفهم من المسيح عليه السلام كما عرضتها الأناجيل المتداولة:

١. الحواريّ يدلّ على مكان اختفاء المسيح

فهذا هو إنجيل متّى يرفع الستار عن مدىٰ إيمان بعضهم بالمسيح ومدىٰ ثباته في سبيل دينه، يقول: (ولمّا كان الفجر عقد جميع عظماء الكهنة وشيوخ الشعب مجلس شورى في أمر يسوع [2] ليحكموا عليه بالموت. ثم أوثقوه وساقوه وسلموه إلى الحاكم بيلاطُس. فلما رأى «يهوذا» الّذي أسلَمَه أن قد حُكِم عليه، نَدِم وردّ الثلاثين من الفضة إلى عظماء الكهنة والشيوخ وقال: «خطئتُ إذ

---

١. المائدة: ١١١.

٢. المراد به المسيح.

أسلمتُ دماً بريئاً». فقالوا له: «مالنا ولهذا الأمر؟ أنت وشأنك فيه». فألقى الفضة عند المَقْدس وانصرف، ثم ذهب فشَنق نفسه) [١] .

أين صفات الحواريين في القرآن من هذا الّذي دلّ على مكان المسيح مقابل ثلاثين درهماً، ولما وقف على مصير المسيح السيء ندم وانتحر.

وهذا ليس هو المورد الوحيد الّذي جنىٰ فيه واحد من الحواريين ـ حَسب زعم الأناجيل ـ بل له نظير، نجده في إنجيل يوحنا.

٢. الحواريّ يعترض على استعمال المسيح الطِّيب

(وقبل الفِصح بستة أيام جاء يسوع إلى بيت عَنْيا، حيث كان لعَازَر الّذي أقامه من بين الأموات. فأقيم له عشاء هناك، وكانت مَرْتا تخدم، وكان لعَازَر في جملة الذين معه على الطعام. فتناولت مريم حُقّة طِيب من النارَدين الخالص الغالي الثمن، ودهنتْ قدمَي يسوع ثم مسحتْهما بشعرها. فعَبِق البيت بالطيب. فقال يهوذا الإسخَريوطي أحدُ تلاميذه، وهو الّذي أوشك ان يُسلِمَه لماذا لم يُبَع هذا الطيب بثلاثمائة دينار، فتُعطىٰ للفقراء؟ ولم يَقُل هذا لاهتمامه بالفقراء، بل لأنّه كان سارقاً...) [٢] .

٣. نوم الحواريين ليلة الهجوم على المسيح

(ثم جاء يسوع معهم إلى ضيعة يقال لها جَتسَمانيّة، فقال للتلاميذ: «أُمكثوا

---

١. متى: ٢٧ / ٣ ـ ١٩، الكتاب المقدس (الانجيل): ١١٤.

٢. العهد الجديد: ٣٢٨، إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٢.

هـنا، ريـثما أمـضي وأُصـلي هـناك» ومـضىٰ بـبُطرس وابـنَيْ زبـدى، وجـعل يَشعُر بالحزن والكآبة. فقال لهم: «نفسي حزينة حتّى الموت. أُمكثوا هنا واسهروا معي».

ثم أبعدَ قـليلاً وسـقط عـلى وجـهه يُـصلي فـيقول: «يـا أبت، إن أمكـن الأمر، فلتبتعد عني هذه الكأس، ولكن لا كما أنا أشاء، بل كما أنت تشاء» ثم رجع إلى التلاميذ فوجدهم نائمين، فقال لبطرس: «أهكذا لم تَقْوَوا على السـهر مـعي ساعة واحدة! اسهَروا وصَلّوا لئلا تقعوا في التجربة. الروح مندفع وأمـا الجسـد فضعيف».

ثم مضى ثانية وصلّى فقال: «يا أبت، إذا لم يكن ممكناً أن تبتعد عني هذه الكأس أو أشرَبَها، فليكن ما تشاء» ثم رجع فوجدهم نائمين، لأنّ النعاس أثـقل أعينهم. فتركهم ومضىٰ مرّة أُخرى وصلّى ثالثة فردّد الكلام نفسه. ثم رجـع إلى التلاميذ وقال لهم: «ناموا الآن واستريحوا. ها قد اقتربت الساعة الّتي فيها يُسلَم ابنُ الإنسان إلى أيدي الخاطئين. قوموا ننطلق! ها قد اقترب الّذي يُسْلِمني»[1].

٤. بطرس يتبرىٰ من المسيح

وجاء في إنجيل متى ، وتحت عنوان (يسوع ينبئ بإنكار بطرس له): (فقال لهم يسوع: «سأكون لكم جميعاً حَجَر عثرة في هذه الليلة، فقد كُتب «ساضرب الراعي فتتبدَّد خِراف القطيع». ولكن بعد قيامتي أَتقدّمكم إلى الجليل». فـأجاب بطرس: «إذا كنت لهم جميعاً حجر عثرة، فلن تكون لي أنا حجر عثرة». فقال له

---

١. العهد الجديد: ١١١، إنجيل متى، الإصحاح ٢٦.

يسوع: «الحق أقول لك: في هذه الليلة، قبل أن يـصيح الديك، تُـنكرني ثـلاث مرات». فقال له بُطرس: «لست بناكِرِكَ وإن وجَبَ عليَّ أن أموت معك» وهكذا قال التلاميذ كلهم...).

ثم يقول في مكان آخر وتحت عنوان (إنكار بطرس ليسوع): (وكان بُطرس جالساً في خارج الدار، في ساحتها، فدنت إليه جارية وقالت: «وأنت أيضاً كنت مع يسوع الجليلي». فأنكر أمام جميع الحاضرين قال: «لا أدري ما تقولين». ثـم مضىٰ إلى الباب الكبير، فرأته جارية أُخرى فقالت لمن كانوا هناك: «هذا الرجل كان مع يسوع الناصري». فأنكر ثانياً وحلف قال: «إني لا أَعرف هذا الرجل». وبعد قليل دنا الحاضرون وقالوا لبطرس: «حقاً أنت أيضاً منهم، فإن لهـجتك تـفضح أمرَك». فأخذ يلعنُ ويحلف قال: «إني لا أعرف هذا الرجل». فصاح الديك عندئذ، فتذّكر بطرس كلمة يسوع إذ قال: «قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مـرات»، فخرج من ساحة الدار وبكى بكاءً مُرّاً) .(١)

وهذه الدراسة بشكل مقارن بين الأناجيل، والذكر الحكيم، تكشف عن أن الكتاب العزيز هو المهيمن على الكتب كلها. وأنّ مصدر القصص القرآنـية، هـو الوحي دون هذه الكتب، وإلّا لكان البدل مثل الأصل أو النسخة الثانية نظير الأُولىٰ .

---

١. نفس المصدر: ١١٠ و ١١٣.

٧

تآمر اليهود على قتل المسيح عليه السلام

لما بلّغ النبيُّ عيسىٰ عليه السلام رسالات الله سبحانه، أثار ذلك حَنَق اليهود المعاندين، فتآمروا علىٰ قتله، كما مرّ فيما نقلناه عن الأناجيل. وقد ذكر سبحانه كيدهم وتآمرهم عليه، ونجاته منهم وإحباط تآمرهم في الآيات التالية:

﴿وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللهُ وَ اللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِي مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[١].

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا

---

١. آل عمران: ٥٤ ـ ٥٧.

صَلَبُوهُ وَ لَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَ مَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَ كَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً﴾.

﴿وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1].

***

أشار سبحانه بقوله : ﴿وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللهُ وَ اللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ إلى تآمر اليهود ضد المسيح عليه السلام، وإلى الشرّ الّذي كان يبيّتونه له.

ثم إنّه سبحانه آثر المسيح بثلاث خصائص، وأكرم أتباعه برابعة، قال جلّ شأنه:

﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى﴾.

١. ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾.

٢. ﴿وَ رَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

٣. ﴿وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٤. ﴿وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

وإليك البيان:

---

١. النساء: ١٥٧ ـ ١٥٩.

١. قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾.

لا شك أن التوفّي في مصطلحنا اليوم عبارة عن أخذ الروح وقبضها، قال في «اللسان» تُوفِّي فلان وتوفّاه الله: إذا قبض نفسه، وفي الصحاح تُوفِّي فلان إذا قبض روحه.

ولكن التوفِّي لغةً هو بمعنى مطلق الأخذ، ولو استعمل في قبض الروح، فإنّما هو من قبيل تطبيق الكلي علىٰ مصداقه، بشهادة أنّه يقال: تَوفّيت المال منه واستوفيته: أي أخذته .[1]

وعلىٰ هذا فلابدّ من إمعان النظر في مفهوم قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾.

فما هو المراد منه؟ هناك احتمالات:

١. قبض روحه مع قطع صلتها بالجسد الملازم للموت.

٢. أخذ روحه مع بقاء صلتها بالبدن كما هو الحال في النوم.

٣. أخذ الروح والبدن معاً .

أمّا الأوّل والثاني فقد استخدما في قوله سبحانه: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ التي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[2].

حيث إنّ تقدير الآية بالشكل التالي: «ويتوفّى الأنفس الّتي لم تمت في منامها» فعلىٰ هذا يكون قوله: ﴿يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ﴾ ناظراً إلى المعنىٰ الأوّل،

---

١. لسان العرب: ١٥ / ٤٠٠ مادة «وفي».

٢. الزمر: ٤٢.

ويكون قوله: ﴿و (يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ) التي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ناظراً إلى المعنىٰ الثاني.

ترىٰ أنّه سبحانه جمع بين الإثبات والنفي، فمن جانب يقول: ﴿يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ﴾ ومن جانب آخر يقول ﴿لَمْ تَمُتْ﴾، وهذا يدل على أن التوفّي ليس مرادفاً للموت وإلّا لزم التناقض، بل هو بمعنىٰ الأخذ سواء أكان تاماً أم ناقصاً، ويؤيد ما ذكرنا من أنّ التوفّي لا يعادل الموت بل هو أعم، الآيات التالية:

١. ﴿وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾[1] فهنا استُعمل التوفّي في النوم، وليس هو موتاً حقيقياً.

٢. قوله سبحانه: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾[2] فالفاعل في قوله: ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ هو الموت. ومعنى الآية: حتّى يأخذهن الموت فلو كان التوفّي بمعنىٰ الموت، يرجع معنىٰ الآية إلى مثل قولنا: حتّىٰ يُميتهنّ الموت، وهو غير صحيح.

إلىٰ هنا خرجنا بالنتيجة التالية، وهي: أنّ التوفّي بمعنى الأخذ لا الموت. بقيَ أن نتعرف ـ في ضوء ذلك ـ علىٰ ما هو المقصود من الأخذ؟ هل كان بصورة الإماتة أو الإنامة أو بشكل آخر، وهو إنقاذه ونجاته من مخالب المتآمرين ؟

أمّا الاحتمال الثاني، فهو منتفٍ قطعاً، فيدور الأمر بين الأوّل والثالث.

---

١. الأنعام: ٦٠.

٢. النساء: ١٥.

ولكن الظاهر أنّ المراد هو الثالث وذلك لأنّه سبحانه يخاطب عيسى بأُمور ثلاثة ويقول: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي﴾: ﴿مُتَوَفِّيكَ، وَرَافِعُكَ إليّ، وَ مُطَهِّرُكَ﴾ فبما أنّ لفظة «عيسىٰ» علم للجسم والروح فلابد أن تكون تلك الهوية محفوظة في الأُمور الثلاثة: التوفّي والرفع والتطهير، فلو قلنا بأنّ المراد من التوفّي هو أخذه وتخليصه من أيدي المتآمرين يكون عيسىٰ بروحه وبدنه مأخوذاً ومرفوعاً ومطهَّراً.

وأمّا لو قلنا بأنّ التوفّي بمعنىٰ الإماتة، فالإماتة تتعلق بعيسى كله: بمعنىٰ أخذ روحه وترك جسده، وأمّا الرفع فيتعلق بجزء من عيسىٰ (وهو الروح) لا كله، مع أنّ ظاهر الآية أنّ المتوفّىٰ هو المرفوع، والمرفوع هو المتوفّىٰ، فمن فسّر التوفّي بالموت يلزمه القول بالتفكيك في الآية الواحدة، وهو تعلّق التوفّي بالجسم والروح، وتعلق الرفع بالروح فقط.

قال المحقّق محمد جواد البلاغي (المتوفّى ١٣٥٢ هـ) : ليس للتوفّي إلّا معنىً واحداً، وهو الأخذ تماماً ووافياً. إمّا من عالم الحياة، وإمّا من عالم اليقظة، وإمّا من عالم الأرض والاختلاط بالبشر إلى العالم السماوي كتوفّي المسيح وأخذه.[1]

وقد أشار إلىٰ بعض ما ذكرنا الطبري في تفسيره، قال: وقال آخرون: إنّي قابضك من الأرض فرافعك إليّ. قالوا ومعنىٰ الوفاة القبض، كما يقال: توفَّيتُ من فلان مالي عليه بمعنىٰ قبضتُه واستوفيتُه، قالوا: ومعنىٰ قوله: إنّي متوفيك ورافعك

---

١. آلاء الرحمن: ٣٤.

أي قابضك من الأرض حياً إلى جواري وآخذك إلى ما عندي بغير موت ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر.[1]

وعلى هذا، فلو كان هناك إجماع للمسلمين على كون المسيح حياً، فلا ينافيه قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾.

وأمّا الخصيصة الثالثة، فهي تطهيره معنوياً، بإبعاده عن دنس معاشرة الكفار ومخالطتهم ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وأمّا الخصيصة الرابعة المتعلّقة بأتباعه، أعني قوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، فقد أوضحها العلّامة الطباطبائي بقوله: المراد باتّباعه هو الاتّباع على الحق، أعني الاتّباع المرضي لله سبحانه.

ويُراد بالذين كفروا: اليهود، وبالذين اتبعوا: النصارى، لما صدر من سلَفهم من الإيمان بعيسى واتّباعه ـ وقد كان إيماناً مرضياً واتّباعاً حقاً ـ وإن كان الله سبحانه لم يرتض اتّباعهم له عليه السلام بعد ظهور الإسلام، ولا اتّباع أهل التثليث منهم قبل ظهور الدعوة الإسلامية.

فالمراد جعل النصارى ـ وهم الذين اتّبع أسلافُهم عيسى عليه السلام ـ فوق اليهود، وهم الذين كفروا بعيسى عليه السلام ومكروا به، والغرض في المقام بيان نزول السّخط الإلهي على اليهود، وحلول المكر بهم، وتشديد العذاب على أُمتهم.

---

١. تفسير الطبري: ٣/ ٢٠٣.

ثم قال: وهاهنا وجه آخر، وهو أن يكون المراد بالذين اتّبعوا: هم النصارىٰ والمسلمين قاطبة، وتكون الآية مخبرة عن كون اليهود تحت إذلال من يذعن بلزوم اتّباع عيسىٰ إلى يوم القيامة، والتقريب عين التقريب.[1]

نجاة المسيح عليه السلام

قلنا في المحور الخامس أنّ القرآن الكريم لم يُسهب في الحديث عن مواقف اليهود من عيسىٰ عليه السلام وعن شقاقهم وعصيانهم وبغيهم عليه، واكتفى بالإشارة إلى ذلك كله بعبارات وجيزة، ولكنها قوية التعبير عمّا طُبعوا عليه من خبث ولؤم ومكر ولِجاج.

وقد أبرزت الأناجيل المتداولة الدور الدنيء، الّذي قام به الشيوخ والكتبة وعظماء الكهنة والجموع المؤيدة لهم في التأليب عليه عليه السلام والاستخفاف به، والتربّص به لأخذه بكلمة من كلماته للوشاية به إلى الحاكم الروماني الّذي كانت بلاده تحتلّ فلسطين، وذلك باتّهامه بإثارة الفتن، وادّعائه الملك، ونهيه عن دفع الجزية إلى قيصر.[2]

وقد تُوِّجت هذه المخططات الماكرة ـ وبتواطؤ وخيانة أحد تلاميذه وهو يهوذا الإسخَريوطي كما تقول الأناجيل ـ بمحاولة اعتقاله وإعدامه.

---

١. انظر: الميزان في تفسير القرآن: ٣ / ٢٠٨ ـ ٢١٠.

٢. ورد في إنجيل لوقا (الإصحاح ٢٣) وتحت عنوان (يسوع عند بيلاطُس): ثم قامت جماعتُهم كلّها فساقوه إلى بيلاطُس وأخذوا يتّهمونه، قالوا: «وجَدْنا هذا الرّجلَ يفتنُ أُمتَنَا، وينهىٰ عن دفع الجزية إلى قيصر، ويقول إنّه المسيحُ المَلِك».

وهنا نواجه ثلاثة اعتقادات في مسألة المسيح عليه السلام والمصير الّذي انتهىٰ إليه:

فاليهود يعتقدون أنّه قد أُلقي القبض عليه، ثم قُتل مصلوباً، ودُفن جثمانه، وانتهىٰ أمره إلى الأبد، وهم يفتخرون بقتله، ويزعمون أنّه ليس المسيحَ المنتَظر، قال تعالىٰ حكاية عن اليهود ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ .

أمّا النصارىٰ فيعتقدون ـ طبقاً للأناجيل المتداولة ـ أنّه صُلب في يوم التهيئة (وهو يوم الجمعة)، ولفظَ الروح في الساعة الثالثة، ودُفن عند المساء، ولكنه قام من بين الأموات فجر الأحد، وتراءىٰ لتلاميذه وكلّمهم، ثم (رُفع إلى السماء وجلس عن يمين العرش) علىٰ حد تعبير إنجيل مرقس. وجاء في إنجيل لوقا: (وبينما هو يباركهم، انفصل عنهم ورُفع إلى السماء) .

وأما المسلمون فيعتقدون ـ انطلاقاً ممّا نزل من الحقّ في الذكر الحكيم ـ أنّه لم يُقتل ولم يُصلب، بل توفّاه الله تعالىٰ (قد مضىٰ معنى التوفّي) ورفعه إليه [1]، وأنقذه من مخالب المتآمرين عليه، وأن الأمر قد التبس عليهم ﴿وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَلَبُوهُ وَ لَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَ مَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾[2] أي وما قتلوه وهم متيقّنون أنّه هو بعينه. وقد جاء في الروايات أنّ الله تعالىٰ ألقىٰ شبهه علىٰ غيره، فأُخذ وقُتل مكانه.

---

١. المشهور بين الكثير من المفسرين وغيرهم أن الله تعالىٰ رفعه بروحه وجسمه إلى السماء، في حين تجنّب آخرون الخوض في كيفية رفعه.

٢. النساء: ١٥٧.

يُـذكر أن إنـجيل بـرنابا (وهـو غـير الأنـاجيل الأربـعة المـتداولة) يـنفي قضية الصلب، ويصرِّح بأن الجند أخذوا يهوذا الإسخَريوطي نفسه، ظناً أنّه هـو المسيح.

وممّا يؤكِّد أن الجند لم يكونوا يعرفون المسيح عليه السلام حقّ المعرفة، ما جاء في إنجيل مرقس (تحت عنوان اعتقال يسوع): وبينما هو يتكلّم، إذ وصل يهوذا أحد الاثني‌عشر، ومعه عصابةٌ تحملُ السيوف والعصيّ، أرسلها عظماءُ الكهنة والكتَبَةُ والشيوخ. وكان الّذي يُسلمُه [1] قد جعل لهم علامةً إذ قال: «هو ذاك الّذي أُقَبِّلُهُ، فأمسِكوه وسوقوه محفوظاً». [2]

وممّا يزيد في احتمال أن الّذي صُلب مكان المسيح، كان تلميذه الخائن (يهوذا)، هو أن العهد الجديد قد روىٰ نهاية سريعة لحياته، فقد ورد في إنجيل متى هذا النّص:

فلمّا رأى يهوذا الّذي أسلمه أن قد حُكم عليه [3]، نَدِم وردّ الثلاثين مـن الفضة [4] إلى عظماء الكَهَنة والشيوخ فقال: «خطئت إذ أسلمتُ دماً بريئاً». فقالوا له: «مالَنا ولهذا الأمر؟ أنتَ وشأنك فيه». فألقى الفضة عند المَقْدِس وانصرفَ، ثم ذهَب فشَنَقَ نفسَهُ. [5]

---

١. أي يهوذا الإسخريوطي المذكور.

٢. العهد الجديد: ١٧١، إنجيل مرقس، الإصحاح ١٤، الفقرة (٤٣ ـ ٤٤).

٣. أي حُكم على المسيح عليه السلام بالموت.

٤. جاء في إنجيل لوقا، الإصحاح ٢١، الفقرة (٤ ـ ٥): فمضىٰ ـ أي يهوذا ـ وفـاوضَ عـظماءَ الكَـهَنة وقادةَ الحرس ليرى كيف يُسلمُه إليهم. ففرحوا واتفقوا أن يعطوه شيئاً من الفضة. فرضي...

٥. العهد الجديد: ١١٤، إنجيل متى، الإصحاح ٢٧، الفقرة (٣ ـ ٥).

بينما جاء في سِفْر أعمال الرسل، وهو يتحدّث عن يهوذا: فوقع علىٰ رأسه مُنكَّساً وانشقّ من وسطه، وانْدَلَقتْ أمعاؤه كلُّها. وعرفَ ذلك سُكّان أورشيلم جميعاً،... [١]

ولعلّ هذا الاختلاف في الرواية (بين الانتحار وبين النكس على الرأس) يشير إلى أن أصحاب الشأن أرادوا أن يضعوا حلّاً لمسألة اختفاء يهوذا عن مسرح الحياة بعد حادثة الصلب الّتي ظنوا أنها وقعت للمسيح، فاختاروا هذه الخاتمة السريعة لحياته.

يُذكر أنّ النصارىٰ يعتقدون أن المسيح عليه السلام جاء ليضحي بنفسه من أجل ذنوبهم وخطاياهم، وقد صُلب وقُتل ليغسل بدمه ذنوب البشر، ولينقذ البشرية من العقاب، ولذلك فهم يعتقدون بأنّ طريق الخلاص والنجاة من العذاب والعقاب هو الإيمان بهذا الموضوع. ومن هنا أكد القرآن عن قضية عدم صلب المسيح عليه السلام (مع أنّ هذه القضية تظهر وكأنّها مسألة بسيطة) من أجل دحض عقيدة الفداء من أجل خطايا الآخرين، الّتي تعتبر خير مشجع على الفساد وممارسة الذنوب وتؤدي بالبشرية إلى التلوث والفساد ولكي يقرّر أن كلّ إنسان يؤاخذ بجريرته وعمله، وأنّ طريق النجاة والخلاص يرسمه الإيمان والعمل الصالح فقط. [٢]

وخلاصة ما مرّ من كلام أن الله تعالىٰ نجّى المسيح عليه السلام من أعدائه، وأنقذه

---

١. العهد الجديد: ٣٧٦، سِفْر أعمال الرسل ١ / ١٨ ـ ١٩.

٢. تفسير الأمثل: ٣ / ٤٦٤ باختصار، وتصرّف قليل.

من مكرهم، فلم يُصلب ولم يُقتل، بل توفّاه سبحانه ورفعه إليه .

والسؤال الّذي يثار هنا: إذا كان الله تعالىٰ قد رفع المسيح إليه بجسمه وروحه ـ كما يقول الكثير من المفسرين وغيرهم ـ فهل هو حي في زماننا هذا أو لا؟ هذا ما سنعقد له بحثاً مستقلاً، فنقول:

حياة المسيح في عصرنا

المشهور بين المسلمين أن المسيح حيّ، وأنّه ينزل عند ظهور الإمام المهدي عليه السلام ليشاركه في مهمة إنقاذ البشرية من الظلم والضياع، وإقامة دولة العدل العالمية، ولكن الشكوك أخذت تُثار حول هذا الموضوع حتّى أنّه بعث قادياني إلى الأزهر يسأل: هل سينزل عيسىٰ؟ وما هو حكم من ينكر نزوله ؟ ـ والقاديانيون ينكرون عيسىٰ ـ وغرضه من هذا السؤال أن ينتزع من الأزهر ما يردُّ به على المسلمين الذين يعارضون القاديانية في الهند، فحوّل الشيخ المراغي سؤال القادياني إلى الشيخ محمود شلتوت، فكتب الجواب علىٰ وَفْق مرادِ السائل، وأنكر نزول عيسى، وقد ردّ عليه الحافظ الناقد عبد الله بن صدّيق الغماري في رسالة أسماها: «إقامة البرهان على نزول عيسىٰ آخر الزمان» وأردفها بكتاب آخر سماه: «عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسىٰ عليه السلام»[1].

وقد كتبنا رسالة في حياة عيسىٰ عليه السلام في سالف الأيام، نقتبس منها ما يلي:

يدلّ علىٰ حياة عيسى بعد رفعه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا

---

١ . انظر: عبد الله بن صديق الغماري، تأليف الدكتور فاروق حمادة: ١ / ٣١.

﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[١].

توضيح الدلالة، هو أنّ ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى (ما) والمبتدأ محذوف يدل عليه سياق الكلام، فيكون معنى الآية: «ما أحد من أهل الكتاب إلّا ليؤمنن به» والضمير في قوله «به» يرجع إلى المسيح بلا نقاش، إنّما الكلام في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾، فهل يرجع الضمير فيه أيضاً إلى المسيح، أو يرجع إلى «أحد» المقدّر؟ كلاهما محتمل ولا يمكن القطع ابتداءً بأيّ واحد من الاحتمالين، إلّا بعد الإمعان في الآية، فنقول:

إنّ للمفسرين في تفسير الآية رأيين:

الأوّل: أنّ الضميرين في «به» و «موته» يرجعان إلى (عيسىٰ) وأنّ جميع أهل الكتاب المتواجدين في وقت نزول عيسىٰ، الّذي يتولىٰ ـ كما ورد في الأخبار ـ قتل الدّجال، يصدّقون به فتصير الملل كلها واحدة وهي ملة الإسلام.

الثاني: الضمير الأوّل «به» لعيسىٰ والثاني «موته» للكتابيّ، فالمعنىٰ علىٰ هذا: إلّا ليؤمنن بعيسىٰ قبل أن يموت هذا الكتابي إذا عاين وميّز الحقّ عن الباطل، لأنّ كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتّى يتبين له الحقّ من الباطل من عقيدته.

ولكن الإمعان في الآية المتقدمة يؤيد الوجه الأوّل حيث إنّ الآية السابقة لها تضمنت نجاة المسيح من اليهود وعدم قتلهم إياه ورفعه إلى الله ثمّ تلتها الآية

١. النساء: ١٥٩.

التالية قائلة: ﴿وإن مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ فتكون الآية التالية بمنزلة البرهنة على ما سبق وجاء في الآية السابقة، وكأنّه سبحانه يقول: سيأتي يوم يؤمن فيه كل كتابي بحياة عيسىٰ قبل موته، وإنْ شئت قلت: يؤمن بأنّه ما قُتل وما صُلب بل رُفع إلى الله قبل موت المسيح، فيكون دليلاً على حياته إلىٰ أن يتحقّق ما وعده الله سبحانه بإيمان كل كتابيّ بحياته.

ولأجل بيان هذا المُدّعىٰ، نورد الآيتين علىٰ مقاطع بالشكل التالي:

١. ﴿قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾.

٢. ﴿وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَلَبُوهُ﴾.

٣. ﴿وَ مَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

٤. ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾.

٥. ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ .

٦. ﴿وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

إنّ مقتضىٰ تسلسل الجُمل في هاتين الآيتين هو إرجاعها إلىٰ أمر واحد، وهو أنّه سبحانه بصدد بيان سنة الله في إنجائه، وردّ كيد الأعداء عنه، فيتعيّن رجوع الضميرين المجرورين «به» و «موته» إلىٰ عيسىٰ ﷺ أخذاً بسياق الكلام وتوحيداً لمرجعهما.

وهناك كلام للدكتور عبد الباقي أحمد محمد سلامة في كتابه: «بين يدي الساعة» يؤيد المختار عندنا، يقول: إنّ المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما

ادّعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارىٰ الجهلة، فأخبر الله تعالىٰ أنّه لم يكن الأمر كذلك، وإنّما شبّه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك، وأنّه باق حي، وأنّه سينزل قبل يوم القيامة كما دلّت عليه الأحاديث المتواترة، فيقتل المسيح الضلالة ويكسر الصليب ويضع الجزية، يعني: لا يقبلها من أحد من هذه الأديان، بل لا يقبل إلّا الإسلام، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنّه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم قبل موته، أي موت عيسىٰ الّذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارىٰ أنّه قتل وصلب، وسياق الآيات دليل علىٰ ذلك فقد قال تعالىٰ: ﴿وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللهُ﴾، ثم ذكر تعالىٰ هذه الآية ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾[1].[2]

وأمّا تعيين ظرف ذلك الإيمان، فيُرجَع فيه إلى الروايات المتضافرة الّتي ستوافيك وتدلّ علىٰ أنّه سينزل آخر الزمان حكماً عدلاً، وأنّه يأتم بإمام المسلمين، وهو الّذي يقتل الدجال، وعندئذ يؤمن به كلّ كتابيّ حيٍّ علىٰ أديم الأرض.

هذا كله حول الرأي الأوّل، وأما الرأي الثاني أي رجوع الضمير إلى الكتابي فيكون معنى الآية: أنّ كلّ كتابي يؤمن بالمسيح قبل أن يموت ذلك الكتابي، فاليهودي الكافر بنبوة عيسىٰ، يؤمن بها عند موته، والنصراني القائل بألوهيته،

١. النساء: ١٥٧ ـ ١٥٩.

٢. بين يدي الساعة: ١٢٩، طبع الرياض.

يُصدِّق بأنّه نبيّ مرسل، لانكشاف الحقائق عند الموت، وحينئذ يطرح هذا السؤال نفسه:

هل أن هذا الإيمان محسوس لغير الكتابي، أو أنّه لا يحسّ به غيره؟

أمّا الأوّل فهو خلاف المُشاهَد والملموس ، إذ لا نشاهده عند موت أهل الكتاب، وأمّا الثاني: فالموت وإن كان يقارن رفع الحجب والأستار، ولكن هذا الإيمان الاضطراري لا يختص بأهل الكتاب أوّلاً، كما لا يختص بمسألة المسيح ثانياً، إذ عندئذ تنكشف الحقائق علىٰ ما هي عليه من دون اختصاص بهذه المسألة، ثم ما فائدة هذا الإيمان الاضطراري بالمسيح ثالثاً؟

فالتدبر في سياق الآية هذه، وما ينضمّ إليها من الآيات المربوطة بها، يفيد أنّ عيسىٰ عليه السلام لم يُتوفَّ بقتل أو صلب ولا بالموت حتف الأنف، وأنّ الكتابيين جميعاً، سيؤمنون به قبل موته، ويشاهدونه عياناً ويذعنون له إذعاناً لا خلاف فيه، وهذا فرع كونه حيّاً حتّى يؤمن به كل كتابيٍّ قبل موته. وعلى هذا فالظاهر أنّ المراد هو كل الكتابيين الموجودين في ذلك الزمان، لا من مات وغبَر من عصر المسيح إلىٰ ذلك اليوم.

الروايات الدالة على حياة المسيح عليه السلام

تضافرت الروايات علىٰ أنّ المسيح ينزل في آخر الزمان، وإليك بعضها:

١. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم.(١)

٢. عن جابر بن عبدالله، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لا تزال طائفة من أُمّتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. قال: فينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم: تعال صلِّ بنا. فيقول: لا، إنّ بعضكم على بعض أمير، تكرمة الله هذه الأُمّة.(٢)

٣. عن مجمع بن جارية، قال صلى الله عليه وآله وسلم: ليقتلن ابنُ مريم الدجال ببابِ لدّ.(٣)

٤. عن أبي هريرة، قال صلى الله عليه وآله وسلم: ليهبطن عيسىٰ ابنُ مريم حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً وليسلكن فجّاً حاجاً أو معتمراً أو بنيتهما وليأتينّ قبري حتّى يسلِّم عليَّ ولأردنّ عليه.(٤)

٥. عن محمد بن مسلم الثقفي، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام (يعني الباقر) يقول: القائم منصور بالرعب... إلى أن قال: وينزل روح الله عيسىٰ بن مريم فيصلّي خلفه.(٥)

---

١. صحيح البخاري: ٤ / ١٦٨ (باب نزول عيسى)، صحيح مسلم: ١ / ٩٤ (باب نزول عيسى).

٢. صحيح مسلم: ١ / ٩٥. ٣. كنز العمال: ١٤ / ٣٣٤ برقم ٣٨٨٤٩.

٤. انظر كنز العمال: ١٤ / ٣٣٤ ـ ٣٣٥ برقم ٣٨٨٤٥ و ٣٨٨٤٦ و ٣٨٨٤٩ و ٣٨٨٥١.

٥. الصدوق، إكمال الدين: ١ / ٣٣٠ ـ ٣٣١، ح: ١٦.

٦. وعن عامر بن واثلة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: عشر قبل الساعة لابدّ منها: السفياني، والدّجال.. ونزول عيسىٰ عليه السلام.[١]

وقد أوردنا ثلاثين رواية من كتب الفريقين في هذا الموضوع [٢]، في رسالتنا المذكورة.

المسيح من أشراط الساعة

إنّ للساعة أشراطاً وعلامات، يشير الذكر الحكيم إلى بعضها، والروايات إلىٰ بعضها الآخر؛ قال سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾[٣].

فالآية تتحدث عن مجيء الساعة فجأة، ومع ذلك فقد جاء بعض أشراطها، والنبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم من أشراطها، فقد روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: بُعثتُ أنا والساعة كهاتين.[٤]

ومن أشراط الساعة وعلامتها، نزول المسيح عليه السلام وبه فُسّر قوله تعالىٰ:

﴿وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَ اتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[٥].

وظاهر الآية أنّ المسيح عليه السلام من أشراط الساعة وربّما تسأل: هل المراد هو خلقه أو المراد نزوله في آخر الزمان؟

---

١. الطوسي، الغَيبة: ٤٣٦، ح: ٤٢٦، نشر مؤسسة المعارف الإسلامية ـ قم.

٢. حياة المسيح ص ١٦٤ ـ ١٧٤، المطبوعة في ذيل كتاب الإيمان والكفر نشر دار الأضواء.

٣. محمد: ١٨.

٤. مجمع البيان: ٥ / ١٠٥.

٥. الزخرف: ٦١.

والجواب أن الأوّل غير محتمل لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم المتأخّر عنه بخمسة قرون أَوْلىٰ بأن يكون من أشراط الساعة، فتعيّن ما يذكره المفسرون من أنّ المراد هو نزول عيسىٰ، حيث يُعلم به قرب قيام الساعة ﴿فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي بالساعة.(١)

جدال قريش حول المسيح المعبود

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٢).

***

أخبر سبحانه تبارك وتعالى في غير واحدة من الآيات بأنّ المشركين وآلهتهم الّتي يعبدونها من دون الله ستصير يوم القيامة حصب جهنم ووقودها كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾(٣).

ثم استدل على بطلان أُلوهيتهم بورودهم جهنم وخلودهم فيها، قائلاً: ﴿لَوْ

---

١. وقيل: ضمير (إنّه) في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ يعود إلى القرآن، والمعنىٰ أن القرآن يُعْلم الناس بيوم القيامة ويخبرهم عن حقيقته، فلا يجوز الشك فيه. انظر: تفسير المراغي: ٢٥ / ١٠٤، وتفسير الكاشف: ٦ / ٥٥٦.

٢. الزخرف: ٥٧ ـ ٥٩.

٣. الأنبياء: ٩٨.

كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَ كُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

روي أنّه لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ قال عبدالله بن الزِّبَعْرىٰ للنبي ﷺ: أليس النصارىٰ يعبدون المسيح، وأنت تقول كان نبياً وعبداً صالحاً، فإن كان في النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه، ففرح رجال قريش وضحكوا وارتفعت أصواتهم.

وإلىٰ هذا الجدل أشار سبحانه بقوله: ﴿وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[١] أي يضجّون ضجيجَ المجادلة حيث خاصموا النبي ﷺ بقولهم: ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي ليست آلهتنا خيراً من عيسىٰ فإن كان عيسىٰ في النار لأنّه يُعبَد من دون الله فكذلك آلهتنا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً﴾ أي ليجادلوك ويخاصموك ويدفعونك به عن الحق ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي مجادلون، ثم إنّه سبحانه ردّ علىٰ هذا بصورة إجمالية فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾[٢].

وبذلك أَفحم النبيُّ ﷺ المجادلَ عبد الله بن الزبعرىٰ.

وحاصل معنىٰ الآية أنّ الذين سبقت لهم منّا الحسنىٰ: عيسى وعُزَير ومريم والملائكة الذين عُبدوا من دون الله وهم كارهون، استثناهم سبحانه من جملة:

١. الزخرف: ٥٧.

٢. الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٢.

﴿مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فالآية إجابة عامة تعمّ كل إنسان أو مَلَك صالح عُبِدَ دون أن يكون له دور في العبادة. وهناك جواب خاص بخصوص المسيح وحاصله: التعريف بالمسيح بوجهين :

١. قوله : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وحاصله ليس عيسى إلّا عبداً أنعمنا عليه بالخلق من غير أب وبالنبوة وجعلناه آية لهم ودلالة يَعرفون بها قدرة الله تعالىٰ علىٰ ما يريد، حيث خلقه من غير أب وهو مَثَل لهم .

٢. قوله: ﴿وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَ اتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

وقد مرّ تفسير الآية.

٨

تسرب التحريف

إلى كتاب المسيح عليه السلام وشريعته

﴿وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَ لاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَاجًا وَ لَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

﴿وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.[2]

---

١. المائدة: ٤٧ ـ ٤٨.

٢. المائدة: ٦٦.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَ الإِنْجِيلَ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَ كُفْراً فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.[١]

***

إنّ الرسالات الإلهية المنزلة على الأنبياء عليهم السلام، تكفل للإنسان الّذي تخاطبه، السعادة في الحياتين: الدنيا والآخرة، إذ لا أحد أعرف بحاجات الإنسان ومصالحه الحقيقية من خالقه وبارئه جلّ شأنه، ولا أحد أقدر منه تعالىٰ على رسم المنهاج الصائب، الّذي يقوده إلى الخير والصلاح، وينعم في ظلاله بالعدل والبركة والأمن والسلام، قال تعالىٰ: ﴿وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾[٢].

وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[٣].

ومن هنا حث سبحانه عبادَه على الالتزام بمنهاجه القويم، ودعا إلى إقراره وتحكيمه في سيرتهم، قال تعالى: ﴿وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ﴾[٤].

وقال مخاطباً النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾[٥].

---

١. المائدة: ٦٨.
٢. المائدة: ٦٦.
٣. الاسراء: ٩.
٤. المائدة: ٤٧.
٥. الجاثية: ١٨.

كما حذّرهم سبحانه من مغبّة العصيان والتمرد والزيغ عن صراطه الأبلج. وقد قلنا فيما سبق أن العمل بالكتب السماوية غير المحرّفة يكون موجباً لكسب رضاه تبارك وتعالىٰ، الّذي يتبعه إفاضة النِّعم ونزول البركات.[١]

ولا ريب في أنّ المجتمع الّذي يرفض هذا المنهاج ويناهضه أو يبتعد عنه ويقصيه عن ساحة الحياة، سوف يُمنىٰ بالحيرة والضياع، وبالتعاسة والشقاء، وستضجّ حياته بالمآسي والمظالم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وقال عزّ شأنه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَ الإِنْجِيلَ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

ولاشكّ في أنّ تحريف الكتاب عن مواضعه، هو صورة من صور الابتعاد عن المنهاج الربّاني والإعراض عنه.

(وبينما مُنيت الكتب السماوية السابقة بالتحريف وأُفرغت من كثير من محتواها، ظلّت الرسالة الإسلامية سليمة ضمن النص القرآني، واحتفظت بمحتواها العقائدي والتشريعي دون أن تتعرّض لأيّ تحريف، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢]. وبهذا كانت هي الرسالة المُهيمنة القادرة على الاستمرار مع الزمن وكل ما يحمل من عوامل التطور والتجديد، باعتبارها الرسالة الوريثة لكل ما يعبّر عنه تاريخ النبوات من رسالات، والمشتملة على كل ما في تلك النبوات والرسالات من قيم ثابتة دون ما لابسها من قيم مرحلية،

---

١. راجع الجزء الأوّل من هذا الكتاب، ص ١١٠.

٢. الحجر: ٩.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[1])[2]، فالله سبحانه أنزل على نبيّه القرآن بالحق مصدقاً لما تقدمه من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل لِما فيها من معارف وأحكام إلهية حقّة، ولكن القرآن مهيمن على ما تقدم من الكتاب فيما اختلفوا، فكأن القرآن الكريم صندوق الأمانات الإلٰهية فلو كان خلاف في خارجه يُرجع إلىٰ ما فيه من الوثائق لمعرفة الحق، بل هو المهيمن فيما اتفقوا فيه ولكن كان مخالفاً للكتاب العزيز.

وقد سبق أن ذكرنا في المحور الثالث أنّ الإنجيل الّذي أُنزل على عيسىٰ عليه السلام قد فُقد، وأن الأناجيل الأربعة المتداولة قد كُتبت في زمن متأخّر عن المسيح عليه السلام، وأنّها لا تمتّ إلى الوحي بصلة.

وإليك أسماء هذه الأناجيل الّتي أُطلق عليها أسماء الرجال الأربعة الذين قاموا بكتابتها:

١. إنجيل مرقس: وهو أقصر الأناجيل، ومن المحتمل أن يكون قد كُتب بعد سنة ٧٠ م) بفترة وجيزة. وكان مرقس يهودياً من بيت لاوي، وقد تتلمذ على يد بطرس، أحد حواريّي المسيح وتلامذته.

٢. إنجيل متّى: من المحتمل أن تكون كتابته قد تمّت حوالي عام (٨٠ م)، وقد اشتمل علىٰ إنجيل مرقس كله تقريباً إلّا أنّه أضاف تعاليم أُخرى كثيرة من

---

١. المائدة: ٤٨. والمراد بالكتاب الأوّل: القرآن، وبالكتاب الثاني: جنس الكتاب الشامل لجميع الكتب السماوية.

٢. المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد محمد باقر الصدر: ٩/ ٧٧ ـ ٨١ موجز في أُصول الدين.

تعاليم المسيح، قام بترتيبها في شكل مقالات طويلة. وكان متّى يهودياً يعمل عشّاراً، يجبي الضرائب للحاكم الروماني كلوديوس، ثم آمن بالمسيح وصار من حواريّيه.

٣. إنجيل لوقا: من المحتمل أن يكون قد كُتب حوالي عام (٨٥ م). وقد اختلفت كلمة الباحثين حول لوقا، والأغلب علىٰ أنّه من أهل أنطاكية، وانّه تلميذ بولس، الّذي اعتنق المسيحية بعد المسيح عليه السلام.

٤. إنجيل يوحنّا: من المحتمل أن تكون كتابته قد تمّت بين عام (٩٠ و ١١٠ م)، وهويختلف عن الأناجيل الثلاثة في كثير من التفاصيل. وكان يوحنّا ـ كما يرىٰ الكثير من علماء النصارىٰ ـ من تلامذة المسيح عليه السلام.

يُذكر أن كثيراً من علماء اليوم يشكّون في صحة قيام أولئك الرجال بكتابتها[1]، فقد ذهبت جماعة من علماء النصارىٰ إلىٰ أن إنجيل يوحنّا، ليس ليوحنا بن زَبَدي الصيّاد (تلميذ المسيح)، وإنّما هو من تأليف طالب من طلاب مدرسة الإسكندرية. أمّا دائرة المعارف البريطانية الّتي شارك في تأليفها أكثر من خمسمائة عالم من النصارىٰ الغربيين، فتقول في هذا الشأن (وتحت مادة إنجيل) ما هذا نصّه:

أمّا إنجيل يوحنا فإنّه لا مرية ولا شكّ كتاب مزوّر أراد صاحبه مضادة حواريّين لبعضهما، وهما القدّيسان: يوحنا ومتّى، ولقد ادّعىٰ هذا الكاتب المزوِّر في متن الكتاب أنّه هو الحواري الّذي يحبّه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة علىٰ علّاتها، وجزمت بأنّ الكاتب هو يوحنا الحواري، ووضعت اسمه

---

١. الموسوعة العربية العالمية: ٣ / ١٣٥ ـ ١٣٦ (ط. الثانية).

على الكتاب، مع أن صاحبه غير يوحنّا يقيناً. ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة الّتي لا رابطة بينها وبين من نُسبت إليه، وإنا لنشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ـ ولو بأوهىٰ رابطة ـ ذلك الرجل الفلسفي الّذي ألف الكتاب في الجيل الثاني بالحواري يوحنّا الصيّاد الجليلي، فإن أعمالهم تضيع سُدىً لخبطهم علىٰ غير هدىً.[1]

وستأتي الإشارة إلى رأي النقاد حول إنجيل متّى.

وثمة دلائل وبراهين كثيرة تؤكد ضياع التوراة والإنجيل، وتأخُّرَ كتابة الرائج منهما، ووقوعَ التحريف فيهما، وقد أثبت ذلك العديد من علماء اليهود والنصارىٰ، والكثير من الباحثين في الديانتين، وصرّحوا بهذه الحقائق في كتاباتهم، ومن ذلك ما جاء في مادة يوشيا من «قاموس الكتاب المقدّس» الّذي اشترك في وضعه (٢٧) عالماً:

(ممّا لا شك في أن معظم الأسفار المقدسة أُتلف أو فُقد في عصر الارتداد عن الله والاضطهاد).

كما أُلفت في هذا المجال الكثير من الكتب والرسائل، منها: كتاب «إظهار الحق للشيخ رحمةالله الهندي (المتوفّىٰ ١٣٠٦ هـ) ، وفيه مائة شاهد على تحريف التوراة والإنجيل لفظاً ومعنىً، وكتابا «الرحلة المدرسية» و «الهدىٰ إلى دين المصطفىٰ» للشيخ محمد جواد البلاغي النجفي، وكتاب «محمد رسول الله هكذا بشّرت الأناجيل» لبشري زخاري ميخائيل، وغيرها.[2]

---

١. محمد علي برُّو العاملي، الكتاب المقدس في الميزان: ٢٤٨.

٢. محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف: ٧/ ٣١٥ـ٣١٦.

ولإعطاء صورة واضحة عن الأناجيل، نورد هنا فقرات ممّا كتبه المؤرخ والكاتب الأمريكي وِل. ديورانت (١٨٨٥ ـ ١٩٨١ م) في هذا الصدد، قال بعد حديثه عن شخصية المسيح عليه السلام:

أمّا الأناجيل فليس أمرها بهذه السهولة، ذلك أنّ الأربعة الأناجيل الّتي وصلت إلينا هي البقية الباقية من عدد أكبر منها كثيراً، كانت في وقت منتشرة بين المسيحيين في القرنين الأوّل والثاني.

وترجع أقدم النسخ الّتي لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث، أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كُتبت بين عامي ٦٠، ١٢٠ م، ثم تعرّضت بعد كتابتها مدىٰ قرنين من الزمان لأخطاء في النقل، ولعلها تعرّضت أيضاً لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة الّتي ينتمي إليها الناسخ أو أغراضها.

ويتفق الناقدون الثقاة بوجه عام على أسبقية إنجيل مرقس في الزمن على سائر الأناجيل، وفي تحديد تاريخه بين عام ٦٥ و ٧٠ م.

وتقول الرواية المأخوذ بها إن انجيل متّى أقدم الأناجيل كلها، ويعتقد (إيرنيوس) انّه كُتب في الأصل باللغة «العبرية» ـ أي الآرامية، ولكنه لم يصل إلينا إلّا باللغة اليونانية. وإذ كان يبدو لنا إنّه في هذه الصورة الأخيرة يردّد أقوال مرقس، وأنّه ينقل في أكبر الظن من أقوال يسوع نفسها، فإن النقاد يميلون إلى القول بأنّه من تأليف أحد أتباع متّى، وليس من أقوال «العشّار» نفسه. وحتّى أكثر العلماء يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامي ٧٥ ـ ٩٠ م.

ولا يدّعي الإنجيل الرابع أنّه ترجمة ليسوع، بل هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية بوصفه كلمة الله، وخالق العالم، ومنقذ البشرية. وهو يناقض الأناجيل الأُخرىٰ في كثير من التفاصيل، وفي الصورة العامة الّتي يرسمها للمسيح .

وملاك القول أنّ ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر، وأنّ فيها نقطاً تاريخية مشكوكاً في صحتها، وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشبهة بما يُروىٰ عن آلهة الوثنيين، وكثيراً من الحوادث الّتي يبدو انّها وُضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة في العهد القديم، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقدير أساس تاريخي لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس متأخّر من طقوسها.(١)

١. قصة الحضارة: ١١/ ٢٠٦ ـ ٢١٠.

٩

غلو النصارى في المسيح وتأليههم له

الهدف السامي من بعث الأنبياء هو دعوة الناس إلىٰ توحيد الله سبحانه ذاتاً وصفة وفعلاً وعبادة، فتوحيده الذاتي أمر لم تختلف فيه الشرائع السماوية، وكأن شعار الكل «لا إله إلّا الله» أو قوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وكان المسيح عليه السلام ـ مثل سائر الأنبياء عليهم السلام ـ قد دعا بني إسرائيل إلى التوحيد ونبذ الشرك وإلى الإخلاص في العبادة لله تعالىٰ، والالتزام بالشريعة الإلهية، ولكنهم واجهوا دعوته بالرفض والتعنّت، وسخروا منه وآذَوْه، فلما توفّاه سبحانه ورفعه إليه، دار صراع طويل بين أتباعه الموحّدين وبين تيار نصراني يقوده بولس، الّذي كان يهودياً متعصّباً مناوئاً للنصارىٰ، ثم أظهرَ إيمانه بالمسيحية فجأة، وصار من أكبر الدعاة إليها، واستطاع أن يبثّ في أوساط المسيحيين تعاليمه وأفكاره الّتي لا تمتّ إلى تعاليم المسيح عليه السلام بصلة. وتمكّن هذا التيار من حسم الموقف لصالحه، الأمر الّذي أدىٰ فيما بعد إلى تحريف الدين، وظهور الغلو فيه بتقرير اُلوهية المسيح، وعقيدة الثالوث أو التثليث الّتي كانت شائعة بين الوثنيين من الهنود والرومان والمصريين وغيرهم، وسيأتي توضيح ذلك .

وفي الآيات التالية تصريح بالغلو الّذي تسرب إلى الديانة المسيحية.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ

إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رُسُلِهِ وَ لاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ وَ كَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَ لاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[١].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَ للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْوَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

---

١. النساء: ١٧١ ـ ١٧٢.

٢. المائدة: ١٧.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1].

***

المسيح نبيّ وليس بإله

أقام القرآن الكريم الدليل تلو الدليل وبطرق عديدة علىٰ أن المسيح ليس إلهاً:

الطريق الأوّل: شأنه الدعوة إلىٰ عبادة الله

فالنبي عيسىٰ عليه السلام مبعوث من الله سبحانه إلىٰ هداية الناس، وهو كلمته الّتي ألقاها إلىٰ مريم. ومَن هذا هو شأنه لا يمكن أن يكون إلهاً ،وقد أشير إلى هذا البرهان في الآيتين التاليتين:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رُسُلِهِ﴾.

فكونه رسول الله وكلمةً تكوينية منه ألقاها إلىٰ مريم العذراء يدلّ على أنّه عليه السلام مخلوق لله ومربوب، وليس خالقاً ورباً.

ويقول أيضاً: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ

---

١. المائدة: ٧٥.

يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَ لَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[1].

إنّ شأن النبي المبعوث من الله سبحانه بالكتاب والنبوة، هو دعوة الناس إلىٰ عبادة الله تعالىٰ وانّ يكونوا ﴿**رَبَّانِيِّينَ**﴾ أي علماء وفقهاء ﴿**بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾فهؤلاء في ظل العلم بالكتاب ودراسة الدين دراسة صحيحة يسوقون الناس إلى عبادة الله لا إلى عبادة أنفسهم:

هذا هو الطريق الأوّل لإبطال القول بأُلوهية المسيح ودعوته إلىٰ عبادة نفسه

الطريق الثاني: هو نبيّ وليس ربّاً

الهدف المشترك لكافة الأنبياء المبعوثين من الله سبحانه هو التوحيد في عامة المراتب ومنها، انّه سبحانه تبارك وتعالىٰ خالقٌ وفي الوقت نفسه ربٌّ، فالقول بأنّه هو خالق العالَم وما فيه، توحيد في الخالقية، والقول بأنّه هو المدبر للكون بعد إيجاده، توحيد في الربوبية، ولكن الديانة النصرانية خرجت عن هذا المسار المشترك حيث اعتقدوا بربوبية المسيح بل بربوبية الأحبار والرهبان في دائرة خاصّة: أعني غفران الذنوب. والشفاعة وغيرهما. والمرجو من هؤلاء أن يرجعوا إلى ذلك المسار ويُخلّصوا أنفسَهم من قيود الشرك، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ**﴾الّذي هو المسار المشترك بين عامة الديانات الإلٰهية ﴿**وَ لاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لاَ يَتَّخِذَ**

---

١. آل عمران: ٧٩.

بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وقد عرفتَ أن الربوبية غير الخالقية وهي مرحلة متأخرة عنها، فرُبَّ إنسان يكون موحِّداً في جانب الخلقة مشركاً في جانب التدبير.

ثم إنّه سبحانه يأمر نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

إلىٰ هنا تبين أنّه سبحانه تارة يندّد بهم، بأن شأن النبي ليس إلّا الدعوة إلى الله لا إلى النفس، وأُخرىٰ بأن الهدف السامي من بعث الأنبياء هو التوحيد في الربوبية، فعلى الديانة النصرانية الخروج من وحل الشرك إلىٰ ساحة التوحيد.

الطريق الثالث: هو نبي وليس ابناً لله

يعتقد النصارىٰ أنّ المسيح عليه السلام ليس نبياً فقط، وإنّما هو ابن لله بمعناه الحقيقي لا المجازي والتشريفي، فهو ـ في زعمهم ـ مساوٍ لله في الجوهر والذات، وهو الأقنوم الثاني من الثالوث المقدّس. وقد ردّ القرآن الكريم عقيدة البنوّة هذه بوجوه:

١. إنّ هذه العقيدة الّتي تقرّرت رسمياً في الديانة النصرانية عام (٣٢٥م) لها جذور تاريخية في عقائد الكفار ﴿وَ قَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَ قَالَتِ النَّصَارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ يُضَاهِئُونَ [١] قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[٢]. وقد أثبت الباحثون أنّ هذه العقيدة تسلّلت إلى النصرانية

---

١. يضاهئون: يشابهون.

٢. التوبة: ٣٠.

من الوثنيين، حيث كانت سائدة بين الهنود واليونانيين والرومانيين وغيرهم، فقد جاء في كتاب الهنود المقدّس (فوشنو بورانا) أن: المعبود برهَما وكافة الآلهة الّتي ليس لها ابتداء وانتهاء تكرّمت بخلاص الأرض من حملها الثقيل منها بإرسال فشنو إلى رحم ديفاكي، وولادته منها كأنّه ولدها، وتقمّصه بكرشنا الّذي هو نفس برهما، وإنّه لسر عجيب كيف أنّ الإله تكيّف بجسد الإنسان.

ويقول (بوجانا) إله البوذيين: سأتخذ جسداً ناسوتياً، وأنزل فأولد بين الناس لأمنحهم السلام وراحة الجسد، وأُزيل أحزان وأتراح العالم.

وكان اليونانيون يدّعون أن بولو هو ابن الإله المشتري من الأُم البشرية لاتونا.

وكان الرومانيون يقولون عن يوليوس قيصر إنّه ابن الله، وقالوا أيضاً إن اوغسطوس قيصر إنسان وإله.[1]

يُذكر أنّ القول بالبنوّة وُجد أيضاً عند العرب في العصر الجاهلي، حيث كانوا يعتقدون أنّ الملائكة بناتُ الله سبحانه، وقد ردّ عليهم القرآن بقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾[2].

٢. إنّ حقيقة الولد عبارة عن انفصال جزء من كل من الأب والأُمّ وتركيبهما بصورة الخليّة الأُولى ثم إنّ هذه الخلية تتطور وتتكامل بمرور الوقت إلى أن تضع

١. الكتاب المقدس في الميزان: ٣٥١ـ ٣٥٢.

٢. الصافات: ١٤٩ـ ١٥٠.

الأُم جنينها. هذا هو واقع الولد ولكنه سبحانه إذا أراد خلق شيء يتحقق ذلك الأمر بخطاب «كن» دون الحاجة إلىٰ تطوّر وتدرّج، وبعبارة أُخرىٰ: إنّ واقع الولد رهن التدرج والتطور، وواقع فعله سبحانه هو الفورية، وهذان الأمران متناقضان وإلىٰ ذلك يشير الله سبحانه بقوله: ﴿**مَا كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[١].

وبعبارة ثالثة: الولد جزء من أجزاء وجود الوالد ينفصل عنه، ثم يُربّىٰ في رحم الأُم بالتدريج حتّى يصير فرداً مثله، والله سبحانه غني عن التوسل في فعله إلى التدريج، بل ما أراده يكون كما أراده من غير مهلة وتدريج ، وقد ورد نظير هذا المعنى في قوله: ﴿**إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾.

٣. إنّ الولد إنّما يراد للاستعانة به في الحوائج، والله سبحانه غني عن العالمين، كما قال: ﴿**وَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ**﴾[٢].

٤. إنّه سبحانه يُبطل كون المسيح ولداً ببرهان رابع وهو ان كل ما في السماوات والأرض مملوك لله تعالىٰ وهو مالك له، والمالك لا يكون أباً للمملوك، ومن كان له هذا النوع من الملك، فهو غني عن اتخاذ ولد، قال سبحانه: ﴿**إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَ كَفَى بِاللهِ وَكِيلاً**﴾[٣] ويقول سبحانه: ﴿**الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾[٤].

---

١. مريم: ٣٥.
٢. البقرة: ١١٦.
٣. النساء: ١٧١.
٤. الفرقان: ٢.

المسيح هو الله المتجسّد

إنّ الديانة النصرانية تجاوزت حدود كون المسيح ولداً إلى الادّعاء بأنّه الأقنوم الثاني من الذوات الإلهية الثلاثة، الّتي تتقاسم جميع الأعمال الإلهية على السواء، وهو أقنوم الابن الأزلي، وقد حلّ في جسد بشريّ فصار مسيحاً. وهذا هو المعروف بينهم ويشير إليه سبحانه بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[1].

والقرآن الكريم يرد على هذا الادّعاء بوجوه:

١. انّ المسيح والملائكة المقربين غير مستنكفين عن الاعتراف بعبوديتهم لله تعالىٰ، فإذا كان المسيح معترفاً بالعبودية، فما هو الدليل لإعطائه منزلة يرفضها هو نفسه؟ قال سبحانه: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَ لاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾[2] والدليل على ذلك أن المسيح كان يصلي ويصوم، فهل كان يصلي ويصوم لنفسه أو لآخر غيره؟ [3] وقد احتج الإمام الرضا عليه السلام بهذا الدليل على

---

١. المائدة: ٧٢.

٢. النساء: ١٧١ ـ ١٧٢.

٣. جاء في إنجيل متّى، الإصحاح (٢٦)، الفقرة (٣٦ ـ ٤٥): ثم جاء يسوع معهم إلىٰ ضيْعة يُقال لها جَتْسمانيّة، فقال للتلاميذ: «امكثوا هنا، ريثما أمضي وأُصلّي هناك». ثم أبعَدَ قليلاً وسقطَ على وجهه يصلّي... ثم رجع إلى التلاميذ فوجدهم نائمين... ثم مضىٰ ثانية وصلّىٰ... ومضىٰ مرة أُخرىٰ وصلّىٰ ثالثةً. وفيه أيضاً، الإصحاح (٤): ثم سار الروحُ بيسوع إلى البرّيّة ليُجرّبَه إبليس. فصام أربعين يوماً وأربعين ليلةً حتىٰ جاعَ...

الجاثليق فقال عليه السلام له: يا نصراني والله إنّا لنؤمن بعيسىٰ الّذي آمن بمحمد صلى الله عليه وآله وما نتقم علىٰ عيساكم شيئاً إلّا ضعفه وقلة صيامه وصلاته. قال الجاثليق: أفسدتَ والله علمك وضعّفت أمرك، وما كنت ظننت إلّا أنك أعلم أهل الإسلام، قال الرضا عليه السلام: وكيف ذلك؟ قال الجاثليق: من قولك: إن عيساكم كان ضعيفاً قليل الصيام قليل الصلاة، وما أفطر عيسىٰ يوماً قطّ ولا نام بليل قطّ، وما زال صائم الدهر، قائم الليل. قال الرضا عليه السلام: فلمن كان يصوم ويصلّي؟ قال: فخرِسَ الجاثليق وانقطع.(١)

٢. إنّ قدرة الله تعالىٰ قدرة مطلقة يخضع كل موجودٍ أمامها، فحياة المسيح وأُمّه وموتهما بيده، شأن كل موجود طبيعي يعيش علىٰ وجه البسيطة، فإذا اقتضت مشيئته إهلاكهما، فما هو المانع من إنجاز مشيئته؟ فلو كانا إلهين واجبي الوجود لامتنع تطرق العدم والهلاك إليهما، يقول سبحانه: ﴿**قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**﴾.

٣. إنّ السماوات والأرض وما بينهما ملك لله سبحانه فهو يملكها ملكية نابعة من خالقيته لها فإذا كان سبحانه مالكاً لكل ما في الكون فبالطبع، يكون مالكاً للمسيح وأُمه، ومالكيته لهما تلازم مخلوقيتهما فكيف يكونا آلهين؟ يقول سبحانه: ﴿**وَ للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾(٢)، ويقول سبحانه: ﴿**الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ**

---

١. توحيد الصدوق: ٤٢٢.

٢. المائدة: ١٨.

يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[١].

٤. إنّ المسيح وأُمّه كانا يعيشان علىٰ وجه البسيطة كسائر الناس فيأكلان الطعام، فهما إذن في حاجة إليه، والحاجة سمة النقص، وهو آية كونهما بشرين ممكنين مخلوقين لله تبارك وتعالىٰ، فكيف يصحّ تقدير أنّهما إلهان؟ يقول سبحانه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[٢].

إلى هنا تم ما ذكره القرآن الكريم من البراهين الدامغة علىٰ بُطلان كون المسيح إلٰهاً.

عقيدة التثليث ومناقشتها كلامياً

كان المسيحيون الأوائل يؤمنون بالوحدانية، ويعتقدون بعبودية المسيح لله تعالىٰ، ويعتبرونه إنساناً بحتاً، ولما اعتنق بولس النصرانية، وانتشرت تعاليمه المتأثرة بالديانات الوثنية في أوساط المسيحيين، أخذ بعض تلك العقائد يتسرّب إليهم، ومنها عقيدة التثليث الّتي كانت سائدة بين الشعوب الوثنية.

وظلت هذه العقيدة مثار جدل مدة طويلة، خصوصاً بعد ظهور الأُسقف آريوس، وإعلانه عن آرائه في عام (٣١٢م)، والّتي أنكر فيها ألوهية المسيح وأكد أنّه مخلوق، وأن معنىٰ كونه ابناً لله تعالىٰ، أنّه بارّ وتقيّ، يعمل بمشيئة الله تعالىٰ.

---

١. الفرقان: ٢.

٢. المائدة: ٧٥.

ولما خشي الأمبراطور الروماني قسطنطين الكبير استفحال أمر آريوس وتزايد أتباعه، دعا المجمع المسكوني للانعقاد، فانعقد في نيقية (تقع الآن في شمال غربي تركيا) عام (٣٢٥ م)، وأعلن أنّ الله والمسيح الإلٰه هما نفس الجوهر، وشجب أقوال آريوس، وحكم عليه بالهَرْطَقة (الابتداع)، وأمر بحرق كتاباته وتحريم اقتنائها. ومع ذلك ظلّت آراء آريوس قائمة حتىٰ بعد موته في عام (٣٣٦م) إلىٰ أن صدر الأمر باستئصالها في عهد ثيودو سيوس الثاني عام (٤٢٨م)، وذلك بعد انعقاد عدة مجامع حكمت بصوابها تارة وبفسادها تارة أُخرىٰ.

والتثليث عند النصارىٰ يُقصد به الاعتقاد بوجود ثلاثة أقانيم (جمع أُقنوم، وهي كلمة يونانية، وتعني الأصل والمبدأ)، وملخّصه: أن الربَّ في الجوهر واحد، ولكنه ذو أقانيم (شخوص) ثلاثة، هي: الأب، والابن، والروح القدس .

وهذه العقيدة قد تبلورت تدريجياً واتخذت صورتها النهائية، عقب انعقاد مجمع نيقية عام (٣٢٥ م)، ومجمع القسطنطينية عام (٣٨١ م)، ومع ذلك أنكر المكدونيون كون الروح القدس أُقنوماً.

ولما انعقد مجمع طليطلة عام (٥٨٩ م) حكم بأنّ الروح القدس منبثق من الابن أيضاً، ومن ثم قبلت الكنيسة اللاتينية هذه الإضافة إلّا أنّ الكنيسة اليونانية رفضت هذه الإضافة، واعتبرتها بدعةً، وكانت هذه العبارة ولا تزال من جملة الموانع الكبرىٰ للاتحاد بين الكنيستين الكاثوليكية واليونانية.

قلنا: إنّ النصارى أخذوا عقيدة التثليث (أو الثالوث الأقدس) وغيرها من العقائد عن الوثنيين. وللتوضيح أكثر نقول:

كانت هذه العقيدة منتشرة بين الهنود والمصريين والفرس واليونانيين والرومانيين وغيرهم من الوثنيين.

فالهندوس يعتقدون أنّ للإله ثلاثة أقانيم رئيسية، تُدعىٰ الثالوث الهندوسي، وهي: براهما، وفشنو، وسيفا، فهو براهما من حيث هو مُوجد، وهو فشنو من حيث هو حافظ، وهو سيفا من حيث هو مُهلك.

وجاء في أحد الكتب الهندية المقدسة أنّ كاهناً توجّه إلى الآلهة برهما وفشنو وسيفا وسألهم: أيكم الإله الحق؟ فأجابوا جميعاً: اعلم أيها الكاهن أنّه لا يوجد أدنىٰ فارق بيننا نحن الثلاثة، فإنّ الإله الواحد يظهر بثلاثة أشكال بأعماله من خَلْق وحفظ وإعدام، ولكنّه في الحقيقة واحد، فمن يعبد أحد الثلاثة فكأنّه عبدها جميعاً، أو عبد الواحد الأعلىٰ.

وقد وُجد في أنقاض أحد الهياكل بالهند صنماً له ثلاثة رؤوس علىٰ جسد واحد، والمقصود منه التعبير عن الثالثوث.

وكان المصريون يقدّسون آلهة متعددة، أعظمها رع (أوآمون كما كان يسميه أهل الجنوب) وأوزير، وإيزيس وحورس. ولما تقادم العهد امتزج رع وآمون وإله آخر هو (فتاح) فاصبحت ثلاث صور أومظاهر لإله واحد أعلىٰ .

وكان الوثنيون اليونان والرومان يعتقدون بالتثليث.

وقد شيّد آخر فلاسفة الوثنيين أفلوطينس (٢٠٣ م ـ ٢٦٩ م) الّذي تتلمذ على يد أمونيوس ساكاس الّذي ارتدّ عن المسيحية إلى الوثنية، شيّد فلسفته عن الإله على التثليث، فكان يقول:

«إن الإله هو ثالوث من الوحدة، والفكرة، والنفس. ومن وراء الكائن يوجد الواحد.(١)

ولقد لخّص الكاتب الأمريكي الكبير ول. ديورانت تأثير الوثنية على المسيحية بقوله:

إنّ المسيحية لم تقضِ على الوثنية، بل تبنّتها، ذلك أنّ العقل اليوناني المحتضر عاد إلى الحياة في صورة جديدة في لاهوت الكنيسة وطقوسها، وأصبحت اللغة اليونانية الّتي ظلت قروناً عدة صاحبة السلطان على السياسة أداة الآداب، والطقوس المسيحية، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلىٰ طقوس القدّاس الخفيّة الرهيبة، وساعدت عدة مظاهر أُخرىٰ من الثقافة اليونانية على إحداث هذه النتيجة المتناقضة الأطراف. فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدّس... وقصارى القول أن المسيحية كانت آخر شيء عظيم ابتدعه العالم الوثني القديم.(٢)

وممّا يثير العجب أنّ النصارىٰ يدّعون من جانب أنهم على خط التوحيد الموروث من النبي إبراهيم الخليل ﷺ ومن جانب آخر يقولون بالتثليث وإن الله ثالث ثلاثة، وهناك إلٰهان آخران أحدهما المسيح والآخر روح القدس، وعندئذ يلزم عليهم القول بالنقيضين، فنقول ما يريدون من كلمتهم الدارجة:

١ـ انظر: الموسوعة العربية العالمية: ١ / ٥٧٨ و ٦ / ٩٣ـ ٩٤و ٢٥ / ٣٦٢، ٦٢٦؛ محمد علي برّو العاملي، الكتاب المقدس في الميزان: ٣٣١ـ ٣٤٥؛ محمد عزت الطهطاوي، النصرانية في الميزان: ٢٣، ٤٣ـ ٤٤، ٦٥.

٢ـ قصة الحضارة: ١١ / ٢٧٥ـ ٢٧٦.

الإله: الاب.

الإله: الابن.

الإله: روح القدس.

فهل كل واحد من هؤلاء إله يملك كل الألوهية بمعنى أن كل واحد منهم هو إله تام، أو يملك كل منهم بعض الألوهية فالمجموع إله تام؟

فعلى القول الأوّل يلزم الشرك الّذي على النقيض من الخط الموروث من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وعلى القول الثاني يكون كل واحد منهم إلهاً ناقصاً والمجموع من حيث المجموع يكون إلها تاماً ومن المعلوم أنّ المركب محتاج في وجوده إلى أجزائه فيكون الإله المتولد من الأجزاء الثلاثة إلهاً ممكناً.

قال سبحانه: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[1].

وفي آية أُخرى نهىٰ سبحانه عن القول بالتثليث بحجة أنّ المسيح كلمة الله ومخلوقه وروحه منه الّتي ألقاها إلىٰ مريم، يقول سبحانه: **﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رُسُلِهِ وَ لاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾**[2].

هذا، وقد وجدت فكرة الثالوث معارضة شديدة بدءاً من القرن الثالث عشر

---

١ . المائدة: ٧٣.

٢ . النساء: ١٧١.

الميلادي، حيث قاد هذه المعارضة كثير من اللاهوتيين، وعدة طوائف جديدة كالسوسينيانيين والجرمانيين والموحدين والعموميين وغيرهم، قائلين إن فكرة التثليث مخالفة للكتاب المقدس والعقل.[١]

افتراض ربوبية المسيح بشكل آخر

وهناك من ينكر كون المسيح إلهاً ويعتقد بكونه إنساناً مخلوقاً لله تبارك وتعالى غير أنّه سبحانه فوّض إليه الربوبية وتدبير العالم، فهو ليس بإله ولكنه رب.

وربما يتنازلون عن كونه رباً ومدبراً لعامة العالم وربما يعتقدون بربوبيته في قسمٍ من الأُمور، وهي أن مصير العباد يوم القيامة بيده فهو يغفر الذنوب ويشفع لمن شاء.

وهذا أيضاً مرفوض عند الموحِّدين، لأن من مراتب التوحيد، التوحيد في التدبير في الدنيا والآخرة، وأن مصير الإنسان يوم القيامة بيد الله سبحانه فهو يغفر الذنوب وبيده الشفاعة، يقول سبحانه: ﴿وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ﴾[٢] وفي آية أُخرىٰ: ﴿قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[٣].

وبهذا تبيّن أنّ الديانة النصرانية لا يجمعها اعتقاد واحد في المسيح، فمن قائل بأنّه إله، إلىٰ آخر بأنّه ابن الله وولده، إلىٰ ثالث بإنّه رب بيده المغفرة والشفاعة

١. الموسوعة العربية العالمية: ٦ / ٩٤.

٢. آل عمران: ١٣٥.

٣. الزمر: ٤٤.

ولذلك يصرّ القرآن الكريم على أنّ الرب هو الله سبحانه، ويندّد بعقيدة أهل الكتاب باتخاذ المسيح بل الأحبار والرهبان أرباباً، ويقول: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَ لاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾.

فقوله تعالىٰ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ تعبير عن تجاوز اليهود والنصارىٰ لكلّ الحدود فقالوا بربوبية الأحبار والرهبان، حيث أعطوهم زمام التشريع. روي عن الباقر والصادق عليهما السلام أنهما قالا في تفسير الآية: أما والله ما صاموا ولا صلوا ولكنهم أحلوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فاتّبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون».

وروى الثعلبي بإسناده عن عدّي بن حاتم، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي عنقي صليبٌ من ذهب فقال لي: يا عدي اطرحْ هذا الوثن من عنقك. قال: فطرحته ثم انتهيت إليه، وهو يقرأ من سورة البراءة هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ حتّى فرغ منها، فقلت له: إنا لسنا نعبدهم! فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه ويحلّون ما حرّم الله فتستحلونه؟ قال: فقلت بلىٰ. قال صلى الله عليه وآله وسلم: فتلك عبادتهم.[1]

---

١. مجمع البيان: ٣ / ٢٤.

١٠

شهادة المسيح عليه السلام يوم القيامة

على تكذيب مؤلِّهيه

قد أبطل سبحانه ببيان واضح ورصين كون المسيح عليه السلام إلهاً أو ولداً لله أو ربّاً، ولأجل إتمام الحجة، يذكر سبحانه ما يدور من حوار بينه وبين المسيح يوم القيامة، فيسأله سبحانه هل أنّ الاعتقاد فيك وفي أُمّك «أنكما إلهان»، كان بأمر منك، وأنت قلت لهم ذلك، أو هم ابتدعوه من عند أنفسهم؟ فبادر عليه السلام إلى تنزيهه سبحانه عما لا يليق به، وإلىٰ تبرئة نفسه عن قول ما لا يحقّ له التفوّه به، ثم أوضح حقيقة ما قاله للناس وأنّه ما دعاهم إلّا إلىٰ عبادة الله سبحانه، وبهذا يكمل الله الحجة عليهم. وإليك ما ورد في هذا الموضوع من الآيات:

﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَ لاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ

عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

سبق أن أشرنا إلىٰ أنّ ظرف الحوار الدائر بين الرب والمربوب هو يوم القيامة بشهادة قوله في نهاية الحوار: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ ولكن بما أنّ الحوار أمر محقّق الوقوع في المستقبل، حكاه بصيغة الماضي، وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فهذه الجملة تحكي ما افترته النصارى على عيسى ابن مريم. وأمّا لفظة ﴿دُونِ﴾ في قوله: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فتستعمل في معنيين، فتارة يراد بها الغير، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾[2] وأُخرىٰ بمعنى الأقلّ، كقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[3] ويحتمل أن يكون معنى الآية: (ويغفر ما سوىٰ ذلك). وعلى كل تقدير ففي أي مورد أضيفت اللفظة إلى الله سبحانه كما في المقام ﴿إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ لا يراد بها إلّا تشريك الإلٰهين معه سبحانه .

لقد دافع المسيح عليه السلام عن نفسه بوجهين:

---

١. المائدة: ١١٦ ـ ١١٩.

٢. آل عمران: ١١٨.

٣. النساء: ١١٦.

١. إن شأن الأنبياء أن لا يخرجوا عن إطار الرسالة، وهم يسيرون على الخط الّذي رُسم لهم، وإلىٰ ذلك يشير بقوله: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ وقد مرّ انّه سبحانه يصف أنبياءه بأنّهم ليس لهم التخطّي عمّا رُسم لهم، حيث قال: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾ .

٢. استشهد بعلمه سبحانه بأنّه لو قال ذلك لَعَلمَه سبحانه، إذ لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، كيف والله سبحانه يعلم ما في نفس المسيح وهو لا يعلم ما في نفسه سبحانه، كما قال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَ لاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾.

إلى هنا كان المسيح على جانب السلب والنفي وانّه لم يدعُ الناس إلىٰ عبادته وعبادة أُمّه، ثم مال إلىٰ جانب الإثبات، وبيّن حقيقة ما قاله لهم: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ﴾ .

ويشهد لقوله هذا، ما جاء في إنجيل لوقا، الإصحاح (٤)، قال المسيح: «مكتوب: للربِّ إلهك تسجُد وإياه وحده تعبُد».

ثم أضاف بأنّك خير شاهد لما قلت وأنا بين ظهرانيهم، وأمّا بعدما أخذتني وغبتُ عنهم، فأنت المراقب لأحوالهم، المطّلع على المصدر الّذي أخذوا منه تلك العقيدة لأنك لا تخفىٰ عليك خافية: ﴿وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

سؤال وإجابة

ربّما يقال إنّ النصرانية كانت تعتقد بأُلوهية المسيح دون أُمّه فليس في المذاهب الدارجة من يعتقد بأُلوهية الأُم، فكيف يتحدّث القرآن الكريم عن اتّخاذها إلهاً؟

ويمكن الإجابة عن ذلك بوجهين:

١. ما نقله الطبرسي أنّهم لما جعلوا المسيح إلٰهاً لزمهم أن يجعلوا والدته أيضاً إلٰهاً، لأنّ الولد يكون من جنس الوالدة فهذا على طريق الإلزام لهم.

٢. يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك. ويعضد هذا القول ما حكاه الشيخ أبو جعفر عن بعض النصارى انّه قال: كان فيما مضى قوم يقال لهم المريمية يعتقدون في مريم أنّها إله، فعلىٰ هذا يكون القول فيه كالقول في الحكاية عن اليهود وقولهم عُزَير ابن الله.

وبعد أن تم الحوار، أثنىٰ سبحانه على الصادقين، كل الصادقين في الإيمان والقول والعمل، وبيّن ما ينتظرهم في الآخرة من نعيم مقيم وسعادة دائمة : **﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾**. وفي هذا التعقيب شهادة منه تعالىٰ بصدق عيسىٰ في أقواله وأفعاله، وأنّه أدّىٰ رسالة ربّه على الوجه الأكمل، وأنّ من كفر وأشرك فعليه وحده تقع التبعة والمسؤولية.[1]

١. التفسير الكاشف: ٣ / ١٥٣.

خلاصة قصة عيسى عليه السلام

استقرّت مريم عليها السلام في المعبد، واعتكفت فيه للخدمة والعبادة والابتهال إلى الله عزوجلّ، ونشأت على التقوىٰ والطُّهر والعفاف في ظلّ كفالة النبي زكريا لها، وبلغت في سموّها الروحي درجةً أن صارت أهلاً لإفاضة الرزق الإلٰهي عليها، ولمخاطبة الملائكة لها.

وبينما كانت في خلوتها، منفردة عن أهلها في مكان شرقيّ (لعلّه شرقيّ المعبد) متّخذةً من دونهم ستراً، تتوارىٰ به عن أنظارهم، رغبةً ـ كما يظهر ـ في الانقطاع لله ومناجاته، بينما كانت كذلك، إذ دخل عليها رجلٌ مكتملُ الخَلْق، كما قال سبحانه: ﴿**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**﴾.

ارتعشتْ لهذه المفاجأة، وحسبتْ أنّه يريد بها سوءاً، فاتّجهت إلىٰ ربّها تلوذ بحِماه من شرّه، و ﴿**قَالَتْ**﴾ وهي تأمل أن تلمس مشاعر التقوىٰ لديه ﴿**إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً**﴾، فكشف لها عن حقيقته وعن مهمّته، و ﴿**قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً**﴾، ف ﴿**قَالَتْ**﴾ متسائلةً، وقد هالَها ما سمعت: ﴿**أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا**﴾؟

هذا ما كانت تفكّر به في ذلك الموقف الرهيب، ولم يقع في وهمها أن ثمّة سبباً آخر يمكن أن يجيء منه الغلام إلىٰ أن جَلاه الروحُ الأمين، بقوله مُخبراً عن ربّ العالمين: ﴿**كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**﴾... وسهلٌ يسير على البارئ القادر المدبِّر، ذلك أنّه ﴿**إِذَا قَضَى أَمْرًا**﴾ لحكمةٍ ما ﴿**فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾،

وقد اقتضت حكمته سبحانه أن يجعل هذا المولود ﴿آيَةً لِلنَّاسِ﴾.. وبرهاناً مضيئاً علىٰ قدرته وعظمته جلّ شأنه، وأن يكون رحمةً للإنسانية.

وهكذا تجلّت القدرة الإلٰهية في إنشاء هذا المخلوق الّذي حَمَلتْ به أُمُّه، ودبّتْ فيه الحياة بنفخة من روح الله!!

ثَقُل علىٰ مريم أن تُرىٰ حاملاً ولم يكن لها زوج، فآثرت الاعتزال عن أهلها، والانفراد به في مكان بعيد ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيّاً﴾.

ولما داهمها المخاض، لجأت مضطرّةً إلىٰ ﴿جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ لتستند إليه. وهنا وقد أَزفِتْ لحظة مواجهة الواقع، غَمَرها حزن عميق، وخنَقها الضِّيق، واسودّت الدنيا في عينيها، فـ﴿قالَتْ يَا لَيْتَني مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾.

ولم يكد يستبدّ بها هذا الشعور الجارف بالحزن والقلق، حتّى أنطقَ اللهُ وليدَها ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ ليؤنسَها ويفثأ همَّها ﴿أَلَّا تَحْزَني قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.. جدولاً صغيراً أجراه تحت قدميك ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا﴾.

ثم شاء سبحانه أن يوصيها علىٰ لسان وليدها المبارك بأن تلوذ بالصمت وتُمسكَ عن الكلام: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً﴾. وهكذا انتشلها سبحانه من أمواج التفكير الّتي تتلاطم في رأسها:

كيف تستقبل قومَها بهذا الحادث الغريب الّذي تأباه عقولُهم ولا ترضاه نفوسُهم؟!

كيف تُقنعهم بأن وليدها خُلق في أجواء الطهر والقداسة والعفاف، برغم أنّها لم تقترن برجل، ولم يكن لها بَعْل؟!

كيف تقنعهم بأنّه خُلق بنفخة من روح الله، وبكلمة منه تعالىٰ؟!

وبينما كانت عيون القوم تقتحمها بنظرات التعجب والازدراء، وهي تحمل مولودها الصغير، وبينما كانت ﷺ تتلقىٰ منهم سيلاً من كلمات الاستهجان والاستنكار والبهتان، راح هذا المولود يتحدث عن صفاته وكمالاته المودَعة فيه، وعن مهمّاته ودوره الرسالي في هذه الحياة ﴿**قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً**﴾، وهو ردٌّ استباقي لما يزعمه النصارىٰ فيما بعد من أنّه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة.

ثم تحقق الوعد الإلهي بإرساله نبيّاً، وتكليفه بمهمة دعوة قومه إلى التوحيد وعبادة الله وحده، وهدايتهم وإرشادهم، وأيّده بالآيات والبيّنات كأدلة علىٰ صدق نبوّته وارتباطه بالغيب، فكان يصنع من الطين مثل شكل الطير ثم ينفخ فيه ﴿**فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ**﴾، ويشفي الأكمه [1] والأبرص [2]، ويُحيي الموتىٰ بإذن الله، ويُخبر الناس ببعض أسرارهم.

عُني سلام الله عليه ـ وهو يؤدي رسالته ـ بالإصلاح وتقويم الانحراف، وإحياء الروح الّتي أيبسها الجفاف، والارتقاء بالإنسان من حضيض المادة إلى عالم القيم الإيمانية والمعنوية، والتبشير بالنبي الخاتم ﷺ، منطلقاً في دعوته لقيادة الحياة الاجتماعية، وتنظيم شؤون قومه من القاعدة العريضة في التشريع

١. الأكْمَه: هو مَن وُلد أعمىٰ.
٢. الأبرص: هو الّذي في جلده بياض مُنَفِّر.

السابق ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾، آخذاً بنظر الاعتبار الواقع المُعاش، وضرورة مواكبته ﴿وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، ساعياً إلىٰ معالجة إفرازاته السيئة ﴿وَ لأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾.

وقف الإسرائيليون من هذه الدعوات الخيّرة والجهود الإصلاحية موقفاً متعنّتاً، وتمادَوا في عصيانهم وعدوانهم، وأصرّوا على التكذيب بالبيّنات والدلائل الباهرة، ووصفوها بأنّها ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾، ورأىٰ جِماحَهم في هذا النفق المظلم، وإيغالَهم في اللِّجاج والعناد ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾، فالرسالة تتطلّب جماعة صادقة في إيمانها، مخلصةً لرسالتها، مجسِّدةً لمبادئها في القول والعمل والسلوك، مستعدّةً للبذل والتضحية والعطاء في سبيل تحقيق أهدافها، وتحمُّلِ مسؤولية نشرها وتبليغها.

لبّى الحواريّون (وهم خواص أصحابه عليه السلام) هذا النداء، الّذي لمس أوتار قلوبهم، فترنّمت ألسنتهم بأنشودة الإيمان والإخلاص والحبّ والوفاء: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

وثمّة حدث بارز في حياة الحواريّين، تعرّض له القرآن الكريم، وهو أنّهم سألوا نبيّهم قائلين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ علىٰ ما تقتضيه الحكمة والإرادة لا علىٰ ما تقتضيه القدرة [١] ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾؟

---

١. تفسير البيضاوي: ١ / ٢٨٨.

حذَّرهم عليه السلام من أمثال هذا السؤال، و ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ﴾ أن تقترحوا عليه من الآيات ما يوحي بالتعنّت والمكابرة ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لأنّكم إن كنتم مؤمنين بالله وبصحة نبوّتي، فقد أغناكم ما عرفتموه عن الآيات.[1]

وهنا أفصح الحواريون عن مقاصدهم، و ﴿قَالُوا:

نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا

وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا

وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا

وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

فلما علم المسيح عليه السلام بمقاصدهم السامية هذه، ابتهل إلى الله تعالىٰ في خشوع وتذلّل وحرارة، وقال ﴿اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ :

تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا

وَآيَةً مِنْكَ

وَارْزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

فوافاه الخطاب الإلٰهي متضمِّناً الوعد بنزول المائدة، والوعيد بأشدّ العذاب لمن يكفر بعد نزولها.

لم يقف اليهود من دعوة عيسىٰ عليه السلام إلى التوحيد ومن رسالته وحركته الإصلاحية عند الحدّ الّذي أشرنا إليه من المنابذة والمخالفة والتكذيب والافتراء،

١. التبيان في تفسير القرآن: ٤ / ٦٠.

بل دفع بهم الحقد واللؤم والانحراف إلى المكر به والتآمر ضدّه للقبض عليه، وتصفيته جسدياً، ولكن الله تعالىٰ خيّب سعيهم، وردّ كيدهم إلىٰ نحورهم، فتوفّاه ورفعه إليه وطهّره من معاشرة الكافرين الأرجاس، الذين التبس الأمر عليهم، فصلبوا غيره وقتلوه، ظناً منهم أنّه عيسىٰ عليه السلام!! وقد أماط القرآن الكريم اللثام عن هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَلَبُوهُ وَ لَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾، وتجلّت حقيقة الزعم بقتله وصلبه أكثر، في الشك الّذي ثار بين أتباعه المختلفين في شأنه عليه السلام، حيث نفت بعض طوائف المسيحيين [١] قضية صلبه وقتله، وهذا ما أشار إليه تعالىٰ بقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَ مَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَ كَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً﴾.

تفاقم الخلاف بين أتباع عيسىٰ بعد سنين من رفعه، ودار جدل عنيف بين الموحّدين منهم وبين المتأثرين بالأفكار والعقائد الوثنية الّتي تسرّبت في أوساطهم، واستمر الصراع بينهما زمناً طويلاً إلى أن حُسم لصالح الطرف الثاني، حيث أُقرّت بعض العقائد المستوحاة من الوثنيين، واعتُبرت من صميم الديانة النصرانية، ومنها الإقرار بأُلوهية المسيح وأنّه ابن الله وهو مساوٍ له في الجوهر والذات، والإقرار بعقيدة التثليث، وتعني عندهم أنّ الله واحد، ولكنّه ذو أقانيم (شخوص) ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس.

وقد نعى القرآن المجيد عليهم هذا الغلوَّ في الاعتقادات، كاشفاً عن زيفها ببراهين واضحة، تنسجم مع منطق العقل والفطرة السليمة:

---

١ . مثل: الساطرينوسيون، والمركيونيون، والبارديسيانيون، وغيرهم. مع الأنبياء في القرآن الكريم: ٣٢٦.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رُسُلِهِ وَ لاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ وَ كَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

فهل يهتدي أولو الألباب بأنوار هذه الآيات البيّنات، ويمتاحون من هذه العين الصافية، الّتي تروي ظمأهم إلى الحقيقة ؟

الدروس والعِبَر

١. إنّ الله سبحانه وتعالىٰ قد أحاط مريم برعايته ورحمته في حملها وولادتها، ومع ذلك أمرها أن تهزّ جذع النخلة ليُسقط عليها رطباً جنياً، مع أنّه سبحانه قادر على أن يرزقها الرطب من دون حاجة إلى القيام بهذا العمل.

ويُستفاد من هذا، أنّ الأُمور وإنْ كانت بيد الله تعالىٰ، وهو المالك لأزمّتها، إلّا أن ذلك لا يعني أن يقف الإنسان إزاءها مكتوف اليدين، وأن يجنح إلى التوكل الّذي يقوده إلى التقاعس عن العمل وترك ما يقدر عليه منه، فمن أراد بلوغ هدفٍ ما، فلابدّ أن يسعىٰ، وأن يأخذ بالوسائل المتاحة لديه، فالتوكّل الصحيح هو الّذي يأتي بعد الاستعداد للأمر وبذل الجهد .

وقد صاغ أحد الشعراء هذا المعنىٰ المستفاد من الآية الكريمة، فقال:

ألم ترَ أن الله أوحىٰ لمريمٍ
وهُزّي إليك الجذعَ يَسّاقطِ الرُّطَبُ
ولو شاء أحنى الجذعَ من غير هزِّهِ
إليها، ولكنْ كلُّ شيءٍ له سببُ

٢. إن على الإنسان أن لا يبادر إلى إساءة الظن بالآخرين واتهامهم وتقريعهم بمجرد أن يرىٰ منهم أُموراً يُنكر ظاهرها، بل عليه أن يتبيّنها ويتحرّىٰ عن حقيقتها ويتفهّم طبيعتها.

وتؤكد التجارب أنّ اللئيم الخبيث النفس لايكتفي بإطلاق الاتهامات سريعاً، بل يذهب إلىٰ أبعد من ذلك، فيرسم في مخيّلته صوراً قاتمة لتلك الأُمور، ثم تبعثه على التصديق بها أوهامُه المريضة وشكوكه الفاسدة. قال أبو الطيب المتنبي:

إذا ساء فِعلُ المرء ساءت ظنونُهُ　　　وصَدَّق ما يعتادُهُ من توهُّمِ

وفي قصتنا هذه، نجد لؤماء القوم ومرضى القلوب منهم يسارعون إلى الطعن في مريم عليها السلام، واتهامها في شرفها وعفّتها، دون أن تسمح لهم طباعهم الخبيثة بأن يتحقّقوا الأمر، ويحيطوا به علماً.

ولا ريب في أنّ المجتمع الّذي تشيع فيه الشكوك والأوهام، وتلهج ألسنة أبنائه بالشر وقوارص الكلم، ان هذا المجتمع سوف تتفكّك فيه العلاقات الاجتماعية، ويتكدّر فيه صفو الحياة، ويُمنىٰ بالتعاسة والشقاء.

٣. إنّ الله سبحانه يُعين العبد ويمدّه بلطفه وعنايته لاسيما في الأوقات العصيبة، ما دام العبد دائباً علىٰ طاعته، عاملاً بمرضاته، ممتثلاً أمره ونهيه.

ونحن نجد أنّ الصديقة مريم عليها السلام لما اشتدّ بها الخوف من كلام الناس وبُهتانهم وافترائهم عليها، وتملّكتْها الحيرة في كيفية مواجهة قومها، وهي تحمل إليهم طفلاً قد وُلد من غير أب!! في هذا الظرف القاسي امتدت إليها يد الرحمة لتنقذها من هذه الهوّة الّتي وجدت نفسها فيها، وجاءها العون الإلٰهي بأوضح الوجوه وأكمل المعجزات. لقد أنطق سبحانه رضيعَها الحديث الولادة، فكان ذلك دليلاً واضحاً وبرهانا ساطعاً علىٰ طهارة أُمّه وبراءتها ممّا رُميت به، إذ تبين لهم أنّ

الأمر كلّه من صنع الغيب، ومن عمل القدرة الإلٰهية الّتي لا يحدّها شيء، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾[1].

٤. إن للصلاة والزكاة أهمية بالغة في الشرائع السماوية، وتتجلّىٰ أهميتهما هنا، لورود ذكرهما على لسان النبي عيسى عليه السلام وهو لم يزل في المهد صبياً، مبيّناً أنهما من وصايا ربّه تعالىٰ ﴿وَأَوْصَاني بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾[2].

فالصلاة توثّق الصلة بين الإنسان وربّه الخالق القادر المهيمن، فتطهِّر القلب من الكِبْر، وتموّنه بالزاد الّذي يحمله لسفره الطويل المُجهد، وهو يصارع أهواء النفس ونزواتها وأطماعها، ويكافح قوى الشرّ والظلم والفساد والطغيان .

والزكاة تطهّر النفس من الشحّ، وإيتاؤها ينمّي مشاعر الأخوة والتضامن والتعاون، ويقوّي أواصر الحبّ والودّ، ويساهم في معالجة مشكلةالفقر، بإشباع حاجات البائسين والمحرومين، وتوفير حياة كريمة لهم.

وقد أكد الإسلام على هاتين الفريضتين، ووضع لهما حدوداً وأحكاماً، تجدها مفصَّلة في كتب الفقه.

قال الإمام علي عليه السلام في هذين الركنين الأساسيين من أركان الإسلام:

تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَٱسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا. فَإِنَّهَا ﴿كَانَتْ عَلَىٰ ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾.[3] أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَىٰ جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ

---

١. الطلاق: ٤.

٢. مريم: ٣١.

٣. النساء: ١٠٣.

حِينَ سُئِلُوا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ؟ قالوا: لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْـمُصَلِّينَ﴾.[١] وَإِنَّـهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ [٢] ٱلْوَرَقِ، وَتُطْلِقُهَا إِطْلَاقَ الرِّبَقِ [٣]، وَشَبَّهَهَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ بِالْحَمَّةِ [٤] تَكُونُ عَلَىٰ بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي ٱلْـيَوْمِ وَاللَّـيْلَةِ خَـمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَىٰ أَنْ يَبْقَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ؟[٥]....

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَاناً لِأَهْلِ ٱلْإِسْلَامِ، فَمَنْ أَعْـطَاهَا طَـيِّبَ النَّفْسِ بِهَا، فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً، وَمِنَ النَّارِ حِجَازاً وَوِقَايَةً....[٦]

٥. تكشف هذه القصة عن طبائع اليهود اللئيمة، وعن خساسة أنفسهم، وانغلاق قلوبهم، وتبلّد أحاسيسهم، وشدة بغضهم للحق ودعاته، فقد جاءهم المسيح ﷺ بالبينات وبالآيات الباهرات، وأبدىٰ حرصه الشديد عليهم، ورأفته بهم بما بذل من جهود مضنية علىٰ طريق تعليمهم وإرشادهم وبثّ الحكمة فيهم، وحلّ نزاعاتهم، وتيسير بعض التكاليف الشاقة الّتي فرضت عليهم من قبل. ومع ذلك وقفوا منه موقفاً عدائياً سافراً، فبهتوا أُمّه الطاهرة البتول، وبالغوا في تكذيبه والإعراض عنه والافتراء عليه، ثم نصبوا له أشراك المكر والخديعة للقبض عليه، ثم قتلوه وصلبوه كما يزعمون، وهم يفتخرون بتدوين اسمه في سجلّهم الأسود، الحافل بأسماء المقتولين ظلماً من الأنبياء والمصلحين.

---

١. المدّثر: ٤٢.

٢. حتّ الورق عن الشجرة: قشره.

٣. الرِّبَق: حَبل فيه عدة عُرى كلٌ منها رِبْقة.

٤. الحَمَّة: كل عين ينبع منها الماء الحار، ويُستشفىٰ بها من العلل.

٥. الدَّرَن: الوسخ.

٦. نهج البلاغة: ٣٦٦، الخطبة: ١٩٩.

٦. إنّ إرادة الله تبارك وتعالى أقوى من كلّ الخطط الماكرة الّتي تحيكها جيوش الشيطان، فقد اجتمعت كلمة رؤساء اليهود على صلب المسيح عليه السلام وقتله، ولكنّ الله سبحانه كتب له النجاة، والله غالب علىٰ أمره، فأبطل كيدهم من حيث لا يعلمون وأعمىٰ أبصارهم عن المسيح الحقيقي، فصلبوا من وشىٰ به إليهم ودلّهم على مكانه.

٧. إنّ الأُمة إذا لم تبلغ مكانة عالية من حيث العقل والفكر والوعي، ربّما تتعرّض بسهولة للابتزاز في أحسن الآثار الّتي ترثها عن أنبيائها وقادتها. وهذا ما وقع فعلاً للنصارىٰ، الذين لم يكونوا في المستوى الّذي يؤهلهم لحمل الأمانة والدفاع عنها، ففرّطوا في الإنجيل الّذي أُنزل علىٰ نبيهم عليه السلام، وامتدّت إليه يد التحريف والتزوير، وصُيِّر ترجمة لحياة المسيح من بدء ولادته إلى نهاية حياته وما تشتمل عليه من قضايا الصلب والدفن والقيام من بين الأموات والرفع إلى السماء، وهو مع ذلك لا يخلو من التناقضات والأباطيل والقصص المختلقة.

٨. إنّ المناهج الإلهية إذا وقعت في أيدي أناس غير عارفين بقدرها، فلم يتّبعوها ويهتدوا بأنوارها، ربّما تنقلب إلى الضدّ، وتتحول إلى مناهج أرضية، تقود أتباعها إلى الضلال والشقاء. وهذا هو حال المنهج التوحيدي لسيدنا المسيح عليه السلام، إذ لم يعد له وجود في الديانة النصرانية، وطغىٰ عليه المنهج الوثني، فأصبحوا يؤلّهون المخلوق، ويقدّسون الصور والتماثيل، وأضحت الاحتفالات الوثنية أعياداً مسيحية.

٩. إنّ الإنسان إذا بلغ مرتبة عالية من الإيمان والتقوىٰ والصدق مع الله تعالىٰ، ربّما يتمكن من رؤية الملائكة وسماع كلامهم، فالصدّيقة مريم العذراء لم تكن

نبيّة، ولكنّها رأت بعينيها الروح الأمين، وسمعت كلامه وحاورته،فلا غرو إذن أن يصدق ذلك لغير مريم. وفي هذا الإطار يأتي قول الإمام علي عليه السلام:

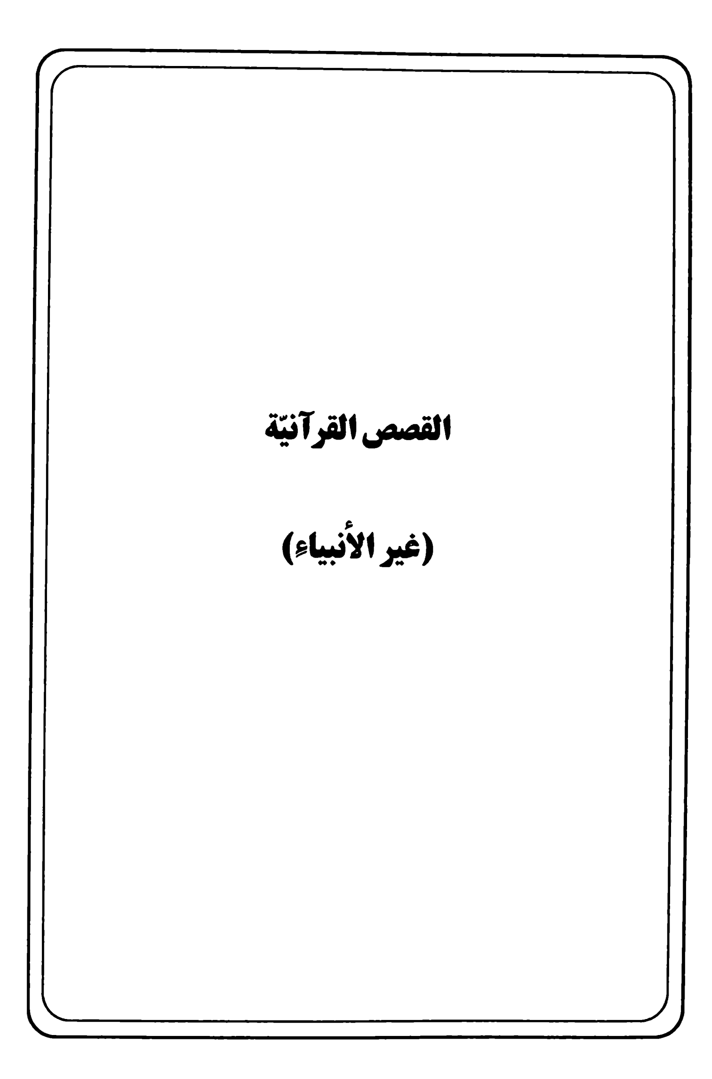
وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ ٱلْوَحْيُ عَلَيْهِ صلى الله عليه وآله فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ ٱللهِ مَا هٰذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: «هٰذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ. إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَىٰ مَا أَرَىٰ، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلٰكِنَّكَ لَوَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَيْرٍ».[1]

كما يأتي في هذا الإطار القول بأنّ أئمة أهل البيت كانوا محدّثين ومُلهَمين. ومَن سبَر تاريخ حياتهم عليهم السلام، واطّلع على غزارة علمهم وفقههم، وعَلِمَ أنهم لم يختلفوا قطّ إلى حلقات الدرس، أيقن بصحة ذلك.

١٠. الإيمان بمعنىٰ اليقين بالله سبحانه وأسمائه وصفاته، والعوالم الغيبية لها درجات كثيرة، قلّما يتفق لإنسان أن يبلغ منتهاها. فالحواريون مثلاً كانوا على درجة كبيرة من الإيمان ومع ذلك حاولوا أن يصلوا إلىٰ مقام أعلىٰ ممّا هم فيه. وهذا يدلنا علىٰ أنّه يحق لكلّ إنسان أن يطلب من الله سبحانه زيادة الإيمان واليقين، وقد جاء في ما روي من أدعية أهل البيت عليهم السلام ما يشير إلىٰ ذلك.

---

١. نهج البلاغة: ٣٠١، الخطبة: ١٩٢ (وتسمّى القاصعة).



القصص القرآنيّة

(غير الأنبياءِ)

بسم الله الرحمن الرحيم

القصص القرآنية على قسمين:

قسم يرتبط بالأنبياء الكرام ورسل الله العظام عليهم السلام الواردة أسماؤهم في القرآن الكريم، وهو يُشكِّل الجزء الأكبر منها، وقد تقدمت دراسة حياتهم حسَب ما سنحت الفرصة، وأما قصة نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فقد خصصّنا لها جزءً خاصاً من موسوعتنا «مفاهيم القرآن»، [1] فلا حاجة إلى تجديد البحث في ذلك.

والقسم الآخر يتعلق بغير الأنبياء المذكورين، ممّن لهم شأن في التاريخ ودور في رسالات الأنبياء، وهذا ما ندرسه بعون الله في هذا القسم، وقد ارتأينا أن نذكرهم حسب ترتيب الحروف الهجائية، راجين الله سبحانه أن يعصمنا من الخطأ والزلل.

لقد حيكت حول حياة بعض هؤلاء شبهات وإبهامات لا محيص للدارس إلّا مراجعة القرآن الكريم والإمعان في ألفاظه وجمله والروايات المتضافرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وأمّا الاعتماد على التواريخ المدوّنة بعد الإسلام في حق هؤلاء فلا تفيد إلّا الظن. والله الهادي إلى سواء السبيل.

---

١. الجزء السابع. فقد درسنا فيه حياته صلى الله عليه وآله وسلم من لدى ولادته إلى رحيله على ضوء الكتاب العزيز.

١. أصحاب الأُخدود

٢. أصحاب الأيكة

٣. أصحاب الجنة

٤. أصحاب الرسّ

٥. أصحاب الفيل

٦. أصحاب القرية

٧. أصحاب الكهف

٩. الخارجون من ديارهم حذر الموت

١٠. ذو القرنين

١١. القرية الخاوية علىٰ عروشها

١٢. لقمان الحكيم

١٣. المنسلخ من آيات الله

١٤. هاروت وماروت

١

أصحاب الأُخدود

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾.

﴿وَشَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ﴾.

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾.

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾.

﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾.

﴿وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

﴿الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾[١].

---

١. البروج: ١ ـ ١١.

مفردات الآيات

البروج: المنازل العالية، ويُراد بها منازل الشمس والقمر والكواكب.

اليوم الموعود: هو يوم القيامة الّذي تُجازىٰ فيه الخلائق.

شاهد ومشهود: اختلفت فيهما كلمات المفسرين، وقد أنهاها بعضهم إلىٰ ثلاثين قولاً. ويحتمل أن يكون المراد من الأوّل هو النبي ﷺ لقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا﴾[1].

وأمّا المشهود فيحتمل أن يراد به يوم القيامة لقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾[2].

وهذا هو المروي عن الإمام الحسن السبط عليه السلام.

كما يحتمل أن يراد به كلّ ما يشاهده الإنسان ويعاينه، في مقابل عالم الغيب، ولذلك وصف سبحانه قرآن الفجر بالمشهود وقال: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[3].

الأُخدود (علىٰ وزن أفعول): الشّق العظيم في الأرض.

الوَقود: ما يُشعل به النار من حطب وغيره. وفي وصف النار بذات الوقود إشارة إلى عظمة أمرها واشتعالها بحيث كلما قربت إلىٰ أن تخمد يُلقىٰ فيها الوقود لتبقى مشتعلة.

---

١. الأحزاب: ٤٥.

٢. هود: ١٠٣.

٣. الإسراء: ٧٨.

الفتن: المعاملة بالشدّة والإيقاع في العَناء، الّذي يعبَّر عنه اليوم بالتعذيب. وكانت الغاية من الفتن هي رجوع المؤمنين والمؤمنات عن إيمانهم ودينهم.

هذا ما يرجع إلىٰ إيضاح مفردات الآيات الغامضة، وأمّا شأن نزولها فقد نزلت في من كانوا يفتنون المؤمنين والمؤمنات ويعذبونهم حتّى يرتدّوا عن دينهم، وقد عُدّ من الذين فتنوا المؤمنين أبو جهل رأس الفتنة ومُسعرها، وأمية بن خلف، وصفوان بن أمية، والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، وأمّا المفتونون فمنهم: بلال بن رباح الّذي كان عبداً لأُمية بن خلف وكان يعذبه، وخبّاب بن الأرتّ الّذي كان عبداً لأُم أنمار، وعمار بن ياسر وأبوه وأخوه، وكانوا عَبيداً لحذيفة بن المغيرة.

وأمّا المؤمنات المفتونات، فمنهن سُمَيّة أم عمار بن ياسر، ولبينة بنت فهيرة، إلىٰ غيرهما من المؤمنات اللاتي لم يرجعن عن إيمانهنّ برسالة محمد ﷺ بسبب التعذيب.

وإلىٰ هذا أشار سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾.

يقول الطبرسي: فإن قيل كيف فصل بين عذاب جهنم وعذاب الحريق وهما واحد؟ وأُجيب عن ذلك بأنّ المراد؛ لهم أنواع العذاب في جهنم سوى الإحراق، مثل الزقوم والغِسْلين والمقامع، ولهم مع ذلك الإحراق بالنار.[١]

إلى هنا تم ما كنا نقصد بيانه من شأن نزول الآيات.

١. مجمع البيان: ٥ / ٤٨٦.

بقي الكلام فيما هو المهم، أعني: تبيين أصحاب الأُخدود وما في الآيات من الضمائر.

قال سبحانه: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾.

هل هذا إخبار عن قتلهم أو هو دعاء عليهم باللعن والطرد؟ نظير قوله سبحانه: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾[1].

فعلى الأوّل: يكون المقصود من قوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ المؤمنين المربوطين بهيئة القعود حول الأُخدود ليكون التعذيب أشد وأطول، وعلى الثاني يكون في المقام احتمالان مبنيان على ما هو المراد من شهود في الآية التالية، أعني قوله ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾.

فإن أُريد به، من يتحمل الشهادة لأجل أدائها عند الملك وان المعذبين قاموا بوظائفهم أحسن قيام، يكون المقصود الموكَّلين المراقِبين لأعمال المعذِّبين.

وإن أُريد به الحضور والمعاينة. يكون المقصود نفس الملك والوزراء والأمراء الجالسين علىٰ كراسيهم لمشاهدة عملية التعذيب.

والظاهر هو الثاني سواء أُريد بهم الموكّلون أو نفس الملك والوزراء بشهادة رجوع الضمائر الثلاثة إليهم، أعني قوله سبحانه:

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾.

﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَ مَا نَقَمُوا﴾.

---

١. عبس: ١٧.

فإنّ الضمائر وبالأخصّ الثاني والثالث والرابع تعود إلى الجبابرة الناقمين دون المؤمنين المعذّبين.

وبذلك يتبين معنى الآيات التالية: ﴿إِذْ هُمْ﴾ أي الموكّلون أو الحاضرون ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على النار ﴿قُعُودٌ﴾. ﴿وَهُمْ﴾ أي الموكلون الحاضرون ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وما يجري عليهم من التعذيب ﴿شُهُودٌ﴾.

ثم إنّه سبحانه يذكر الجريمة الّتي لأجلها استحقوا هذا النوع من التعذيب، ويقول: ﴿وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ﴾.

فجريمتهم هي الإيمان بالله بالصفات المذكورة في الآيات: «عزيز، حميد، مالك السماوات والأرض». فلو كانت هذه جريمتهم فهي تقتضي التكريم والتجليل، ولكنهم ـ ويااللأسف ـ عُذّبوا بأشد أنواع العذاب.

من هم أصحاب الأخدود؟

اختلفت كلمات المفسرين في تعيين أصحاب الاخدود.

روى القمي في تفسيره في قوله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ قال: كان سببه أن الّذي هيّج الحبشة على غزوة اليمن ذو نواس وهو آخر من ملك من حِمْيَر، تهوّد واجتمعت معه حمير على اليهوديّة، وسمّى نفسه يوسف وأقام على ذلك حيناً من الدهر، ثمّ أُخبر أنّ بنجران بقايا قوم علىٰ دين النصرانية، وكانوا علىٰ دين عيسى عليه السلام وعلى حكم الانجيل، ورأس ذلك الدين عبدالله بن بريامن، فحمله أهل دينه علىٰ أن يسير إليهم ويحملهم على اليهودية ويدخلهم فيها، فسار

حتّىٰ قدم نجران، فجمع من كان بها علىٰ دين النصرانية ثمّ عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها، فأبوا عليه، فجادلهم وعرض عليهم وحرَص الحرص كلّه، فأبوا عليه وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها، واختاروا القتل، فخدَّ لهم أُخدوداً وجمع فيه الحطب وأشعل فيه النار، فمنهم من أُحرق بالنار، ومنهم مَنْ قتل بالسيف، ومثّل بهم كلّ مثلة، فبلغ عدد من قتل وأحرق بالنار عشرين ألفاً.[١]

هذا الخبر لا يخلو من تأمّل، لأنّ اليهود يعتقدون بالله العزيز الحميد الّذي له ملك السماوات والأرض فكيف يصح لهم أن يحرقوا هؤلاء الجماعة الذين يتفقون معهم في العقيدة؟ اللهم إلّا إذا كانت الآية ناظرة إلىٰ تبرئتهم من أي جرم وانهم قُتلوا مظلومين كما في قوله سبحانه: ﴿وَ مَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾[٢]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾[٣].

وهناك رواية أُخرىٰ تدل على أن أصحاب الاخدود كانوا من أهل الحبشة. روى جابر الجعفي عن أبي جعفر[٤] عليه السلام قال: بعث الله نبياً حبشياً إلىٰ قومه فقاتلهم، فقُتل أصحابه وأُسروا وخدّوا لهم أُخدوداً من نار ثم نادوا: من كان من أهل ملّتنا فليعتزل، ومن كان على دين هذا النبيّ فليقتحم النار، فجعلوا يقتحمون [النار] وأقبلت امرأة معها صبي لها فهابت النار، فقال لها [صبيّها]: اقتحمي، قال: فاقتحمت النار، وهم أصحاب الأُخدود.[٥]

---

١. تفسير القمي: ٧١٩. ٢. الأعراف: ١٢٦.
٣. المائدة: ٥٩. ٤. يعني الإمام محمد الباقر عليه السلام.
٥. بحار الانوار: ١٤ / ٤٤٠ عن محاسن البرقي: ٢٤٩ و ٢٥٠.

ويظهر من رواية أُخرى أنها كانت في أرض العجم. روىٰ سعيد بن جبير قال: لمّا انهزم أهل «اسفندهان» قال عمر بن الخطاب: ماهم يهود ولا نصارىٰ ولا لهم كتاب وكانوا مجوساً. فقال علي عليه السلام بل قد كان لهم كتاب ولكنه رُفع، وذلك أنّ ملكاً لهم سَكَر فوقع على ابنته أو قال علىٰ أخته، فلما أفاق قال لها كيف المخرج ممّا وقعتُ فيه؟ قالت: تجمع أهل مملكتك وتخبرهم أنك ترىٰ نكاح البنات وتأمرهم أن يُحلّوه، فجمعهم فأخبرهم، فأبوا أن يتابعوه، فخدَّ لهم أخدوداً في الأرض وأوقد النيران وعرضهم عليها، فمن أبىٰ قبول ذلك قذفه في النار، ومن أجاب خلّىٰ سبيله.[1]

ويمكن الجمع بين هذه الروايات بالقول إنّه لا يبعد وقوع هذه الحادثة أكثر من مرّة، فوقعت في اليمن والحبشة وأرض العجم، إذ كان التعذيب بالنار أمراً شائعاً، وقد مورس منذ القدم ومنه تعذيب إبراهيم عليه السلام بالنار. وقد ورد في التواريخ تحريق عمر بن هند مائة من بني تميم.

وتعدد الوقائع الّذي ذكرنا هو المنقول عن مقاتل أيضاً؛ قال مقاتل: كان أصحاب الأُخدود ثلاثة، واحد بنجران، والآخر بالشام، والآخر بفارس حرقوا بالنار... إلى آخر ما ذكره.[2]

---

١. مجمع البيان: ٥ / ٤٦٥.

٢. مجمع البيان: ٥ / ٤٦٦.

٢

أصحاب الأيْكة

مرّ في الجزء الأوّل، ص ٣١٣ أنّ أصحاب الأيْكة هم أهل مَدْين (قوم شعيب عليه السلام)، فراجع.

٣

أصحاب الجنة

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لاَ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَ لَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1].

---

١. القلم: ١٧ ـ ٣٣.

مفردات الآيات:

١. **بَلَوْنَاهُمْ**: اختبرناهم.

٢. **لَيَصْرِمُنَّهَا**: ليقطعُنّ ثمارَها .

٣. **لا يستثنون**: لا يستثنون من الثمر شيئاً للمساكين. ويحتمل أن يكون المراد تركهم قول: «إن شاء الله»، وهذا يدل على مبلغ غرورهم بقوة أنفسهم، حيث لا يتصورون عائقاً يمنعهم عمّا قصدوه.

٤. **طائف**: بلاء يطوف عليها ويحيط بها ليلاً.

٥. **الصَّرِيمِ**: الأرض المحصود زرعها، ويسمى الليل صريماً وكذلك النهار.

٦. **فَتَنَادَوْا**: نادىٰ بعضهم بعضا .

٧. **علىٰ حَرْدٍ**: علىٰ منع، يقال: حاردتْ السنةُ: إذا منعتْ مطرَها، وحاردتْ الناقةُ إذا منعتْ لبنها.

٨. **الأوسط**: الأفضل والأقرب إلى الخير.

ثمة جماعة لديهم بستان أغنّ، وافر الثمر، فلمّا أينع وحان أن يُصرم ويُقطع، وثبتْ في نفوسهم نوازع الطمع، وهبّت على قلوبهم سَموم الأَثَرة، فجفّفت فيها مشاعرَ الرحمة والرأفة، وأوحت لهم أوهامهم الضيقة بتدبيرٍ ماكر، وأرهفوا عزمهم لتنفيذه: أن يجنوا الثمر في الصباح الباكر علىٰ حين غفلة من الفقراء، ليستأثروا به وحدهم، ويضنّوا به علىٰ مَن لهم فيه نصيب **﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ﴾** .

وناموا ليلتهم، مسترسلين مع أحلامهم، ولم يدروا أن الأقدار تسخر منهم، وتنقض ما أبرموا من أمر.

لقد دهمت بستانَهم في تلك الليلة داهيةٌ دهياء، أتت علىٰ جميع ثماره، أو أحرقته، فصيرته كالليل الحالك ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾.

وما أن تنفّس الصبح، حتّى نهض هؤلاء الغافلون، يحضّ بعضهم بعضاً على الإسراع لجني ثمار بستانهم ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾، فمضَوا إليه وهم يتهامسون: أن لن ينالَ جائع ساغب ممّا تحوزون شيئاً ﴿فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لاَ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾.

اندهش الغافلون الشِّحاح، حين رأَوا ما حلَّ ببستانهم، وغَمَرتْهم سحابة من الحزن الممضّ، والهمّ الفادح، واعترفوا بمجانبتهم للصواب في سلوكهم الّذي قادهم إليه الحرص والطمع ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ بجنايتهم على أنفسهم، إذ انتهى الأمر إلىٰ حرمانهم، لعزمهم علىٰ حرمان المساكين.

وهنا انبرىٰ أحدُهم، وكان أفضلَهم وأقربهم إلى الخير، ولكنّه تابعهم فيما عزموا عليه، فأصابه مثل ما أصابهم من الخسران المبين، انبرىٰ قائلاً: ألم أنصح لكم عندما تواطأتم علىٰ تلك الحيلة، بأن تذكروا الله، وتشكروه علىٰ آلائه بالقول وبأداء حق المحتاجين؟ ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ﴾.

أحسّ الأشحّاء ـ بعد أن سُقط في أيديهم ـ بخطيئتهم، فتوجّهوا إلىٰ ربهم ذاكرين، معترفين بظلمهم لأنفسهم ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

ثم أخذ بعضهم يلوم بعضاً علىٰ إقدامهم على هذا الفعل الشائن، ثم دعَوْا علىٰ أنفسهم بالويل والهلاك، لأنّهم أوقعوها في هلكة يستحقونها لطغيانهم وتجاوزهم حدود الله تعالىٰ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾.

وفي ظل هذا الاعتراف بالذنب، والتقصير في حق المحرومين، رفعوا رجاءهم إلىٰ ربّهم، مؤمّلين أن يعفو عنهم ويغفر لهم، وأن يمنّ عليهم خيراً من بستانهم التالف ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾.

إنّ الغاية من سرد القصة، التنديد بقريش، وفيهم «الوليد بن المغيرة» الموصوف في نفس السورة بقوله تعالى: ﴿وَ لاَ تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾[١].

فالقرآن يضرب لهم مثلاً بهؤلاء الأغنياء الذين كان عندهم بستان يدرّ بالخيرات ومنذ أن شحّت نفوسهم، وصمّموا على الاعتداء على حقوق المساكين بمنعهم وحرمانهم، انقطعت عنهم الرحمة الإلهية، وصار بستانهم إلىٰ ما صار إليه. وهذا البلاء الّذي ابتلى الله به أهل مكة (القحط، كما يقول الرّواة)، لأنّهم كذّبوا النبي ﷺ وناهضوا دعوته، هو كالبلاء الّذي ابتلىٰ به أصحابَ البستان،

١. القلم: ١٠ ـ ١٤.

وليس من البعيد أن يكون مصير طغاة قريش وعتاتهم كمصيرهم، الّذي تعرّفتَ عليه.

وفي نهاية المطاف، حذّرهم الله سبحانه من العذاب الأُخروي، وهو أشدّ من العذاب الدنيوي وأنكىٰ: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَ لَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

٤

أصحاب الرّس

﴿وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَ جَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَ ثَمُودَ وَ أَصْحَابَ الرَّسِّ وَ قُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾[١].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ * وَعَادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[٢].

***

١. الفرقان: ٣٧ ـ ٣٨.

٢. ق: ١٢ ـ ١٤.

مفردات الآيات

الرّس: البئر الّتي لم تُطَو (أي لم تُبْنَ) بحجارة ولا غيرها.

وقيل: الرّس كلّ محفور في كلام العرب، وهو المعدن.

وقيل: هو اسم نهر كانوا على شاطئه. وذهب بعض المفسرين إلى أنّهم هم أصحاب البئر المعطّلة والقصر المشيد المشار إليهما في قوله سبحانه: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾[1].

والمعنى: كم من بئر بارَ أهلها وغار ماؤها، وتعطّلت من دِلائها فلا مستقي منها ولا وارد لها، وكم من قصر رفيع مُجصَّص تداعى للخراب بهلاك أهله فلم يبق فيه داعٍ ولا مجيب.

قال الضحاك: هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها حاضور انزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ومعهم صالح، فلما حضروا مات صالح فسُمّي المكان حضرموت، ثم إنّهم كثروا فكفروا وعبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نبياً يقال له حنظلة، فقتلوه في السوق، فأهلكهم الله فماتوا عن آخرهم وعطلت بئرهم وخرب قصر ملكهم.[2]

ثم إنّه سبحانه ذكر أصحاب الرس في سورة الفرقان بعد عاد وثمود فقال ﴿وَعَادًا وَ ثَمُودَ وَ أَصْحَابَ الرَّسِّ وَ قُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ ولكنه ذكرهم في سورة (ق) بعد قوم نوح وبعد ثمود.

---

١. الحج: ٤٥.

٢. مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧ / ٨٨ـ٨٩.

وبما أنّه عطَفهم بالواو، فلا يدلّ على التقدم والتأخر، نعم يُشعر بأنّ العرب كانوا يعرفون أصحاب الرسّ وما جرىٰ عليهم، وبما أنّه سبحانه يذكر هذه الأقوام للاعتبار والاتّعاظ فمن الأَولىٰ أن تكون قصصهم معروفةً في عصر نزول القرآن. ومع ذلك اختلفت أقوال المفسرين في المراد من الرسّ وفي تعيين مكانه، وهذه الأقوال هي كالتالي:

١. نهر بآذربايجان.

٢. قرية باليمامة ويقال لها فلْج.

٣. بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار.

وقيل: إنّ أصحاب الرسّ هم أصحاب الأخدود، وقيل: هم قوم شعيب.[١]

وعلىٰ كل تقدير، فإنّ الغاية من ذكرهم هو الاعتبار بما حاق بهم بسبب تكذيبهم بالحق وإصرارهم على الباطل واغترارهم بالحياة الدنيا، ويكفينا إخبار القرآن الكريم لنا بمصيرهم المخزي هذا، وليس من المهم جداً أن نعرف موطنهم أو تفاصيل قصتهم. وإلىٰ هذه الغاية أشار أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله: أَيْنَ ٱلْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ ٱلْعَمَالِقَةِ! أَيْنَ ٱلْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ ٱلْفَرَاعِنَةِ! أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وَأَطْفَؤُوا سُنَنَ (سير) ٱلْمُرْسَلِينَ، وَأَحْيَوْا سُنَنَ ٱلْجَبَّارِينَ!.[٢]

هذا، وقد ذكر العلّامة المجلسي قصة أصحاب الرس، وأورد فيها سبعة أحاديث علىٰ طولها، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى بحار الأنوار.[٣]

---

١. راجع: تفسير الآية (٣٨) من سورة الفرقان في التفاسير: التبيان، والبيان، وتفسير المراغي، والميزان، والتفسير الكاشف.

٢. نهج البلاغة: ٢ / ١٠٧ / الخطبة ١٨٢.

٣. بحار الأنوار: ١٤ / ١٤٩ ـ ١٦٠.

٥

أصحاب السبت

ذكر سبحانه أصحاب السبت بشكل موجز في سورة البقرة والنساء والنمل، وذكر قصتهم بتفصيل أكثر في سورة الأعراف، وإليك الآيات المتعلقة بهم:

﴿وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَ كَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾[٢].

﴿ وَ قُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَ قُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾[٣].

﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَ يَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ

---

١. البقرة: ٦٥.

٢. النساء: ٤٧.

٣. النساء: ١٥٤.

نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[١].

وقبل الخوض في قصتهم نذكر معاني مفردات الآيات الكريمة:

لاَ تَعْدُوا: (من عَدَوْت في الأمر): إذا تجاوزت الحق فيه، أعدو عدواناً وعداءً وعَدْواً، وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي يتجاوزون حكم الله بالصيد المُحرَّم عليهم في يوم السبت .

الحيتان: (جمع حوت): السمك، وأكثر ما يسمي العرب السمكة بالحوت والنون.

حاضرة البحر: قريبة من البحر، مشرفة عليه. وهذه القرية الواقعة علىٰ شاطئ البحر، هي أَيْلَة[٢]، وروي ذلك عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، وقيل: طبرية[٣]. والعرب تسمّي المدينة قرية.

---

١. الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٦.

٢. أَيْلَة: مدينة (وميناء) أسّسها النبي سليمان عليه السلام علىٰ رأس خليج العَقَبة، وتقع إلى الغرب من مدينة (وميناء) العقبة الحالية، الواقعة في أقصى الطرف الجنوبي الغربي للأردن، على الركن الشمالي الشرقي لرأس خليج العقبة. يُذكر أن خليج العقبة، هو أحد فرعَي الطرف الشمالي للبحر الأحمر. الموسوعة العربية العالمية: ١٦ / ٣٢٦ (العقبة).

٣. طبرية: مدينة مطلة علىٰ بحيرة طبرية الّتي تسمّىٰ أحياناً بحر الجليل أو بحيرة الجليل، وتقع في شمالي فلسطين المحتلة. معجم البلدان: ٤ / ١٧، الموسوعة العربية العالمية: ١٥ / ٥٦٢.

شُرّعاً: (جمع شارع)، وهو صفة للحيتان: أي ظاهرة علىٰ وجه الماء قريبة من سطحه .

ويوم سبتهم: إشارة إلى اليوم الّذي يحرم فيه العمل، وقوله: ﴿ لاَ يَسْبِتُونَ﴾ إشارة إلى سائر الأيام الّتي لا يحرم العمل فيها.

وخلاصة قصة أصحاب السبت، هي أن الله تبارك وتعالىٰ حرّم على اليهود العمل في يوم السبت، ونهاهم عن صيد الأسماك فيه، حفظاً لاحترامه. وقد شاء سبحانه أن يختبرهم ويبتليَهم بسبب فسقهم وعصيانهم، ليكشف الستار عن حقيقة نفوسهم، المتّصفة بالضعف والخسّة والخداع، فكان السمك يأتي بكثرة ظاهراً علىٰ وجه الماء، قريباً من سطحه في يوم السبت علىٰ خلاف سائر الأيام .

وبظهور السمك الكثير، ظهرت حقيقتهم، وطبيعة أنفسهم، الّتي جُبلت على الاحتيال والغدر، ونكث العهود، والانسياق وراء الأهواء والأطماع، فكانوا يحجزون السمك في يوم السبت بطريقة ما، وينتشلونه يوم الأحد، محتجّين علىٰ جواز عملهم بأنّهم اصطادوه يوم الأحد، فكانوا يحصلون من ذلك الطريق علىٰ أموالٍ طائلة.

وإليك التفصيل علىٰ ضوء الآيات الكريمة:

﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ أي استخبرهم يا محمد ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أي مجاورة البحر وقريبة منه ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ يظلمون فيه بصيد السمك ويتجاوزون الحدّ ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً﴾ أي ظاهرةً

على وجه الماء ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ بل تغوص الحيتان في الماء.[١]

فنُهوا عن الصيد لاختبار حالهم، وكشف حقيقتهم ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

ثم إنّ القوم انقسموا إلىٰ فرق ثلاث:

١. فرقة ظالمة معتدية، وهي الّتي لجأت إلى الاحتيال في صيد السمك، فتجاوزت بذلك حُكم الله تعالىٰ، واقترفت المعصية .

٢. فرقة ناطقة، وهي الّتي تحمّلت مسؤولية قول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فوعظت العصاة، وحذّرتهم من مغبّة ارتكاب ذلك العمل .

٣. فرقة ساكتة، وهي الّتي امتنعت عن الصيد ، ولكنها تركت العصاة وشأنهم، فلم تنصح لهم أو تزجرهم، بل اكتفت بموقف المتفرّج، الّذي لا يبالي بما يحدث، طلَباً للراحة، أو خوفاً على مصالحه الذاتية.

والله سبحانه يحكي حال الطائفتين الأخيرتين ويقول: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ أي جماعة من بني إسرائيل ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ في الآخرة. وهذا التساؤل يعبّر عن اليأس من اتعاظ هؤلاء المحتالين، وعدم اكتراثهم للتحذير.

فأجاب الواعظون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر بجوابين:

---

١. هل أنّ وجود الأسماك بكثرة وبالقرب من سطح الماء في يوم السبت، كان يرجع إلى سبب غيبي، وعملٍ إلهي مباشر، أو يرجع إلى سبب طبيعي معين؟

نحن نميل إلى التعليل الأوّل، وإن كان كلا التعليلين لا يخرجان عن إطار الاختبار الإلهي لهم.

١. إن في قيامنا بهذا العمل ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ حيث فرض علينا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتّى لا نُلامَ بعدم الوعظ، ونُنسَب إلى التقصير في النهي عن المنكر.

٢. لعلهم بالوعظ والإنذار يتقون الله تعالىٰ، ويرجعون إلى طاعته، ويمتثلون أمره.

ولكن القرآن يشهد بعدم تأثير الوعظ في نفوسهم ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وتركوا ما ذكّرهم الواعظون به ولم ينتهوا عن ارتكاب المعصية ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ خلّصنا الذين كانوا يعظون القوم ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي شديد. وما هذا إلّا بسبب فُسقهم وعصيانهم .

قال العلّامة الطباطبائي: «فالإنسان يطوف عليه طائف من توفيق الله يذكّره بتكاليف هامة إلٰهية ثم إن استقام وثبت فهو، وإن ترك الاستقامة ولم يزجره زاجر باطني ولا ردعه رادع نفساني عدا حدود الله بالمعصية غير أنّه في بادئ أمره يتألم تألماً باطنياً ويتحرّج تحرجاً قلبياً من ذلك، ثم إذا عاد إليها ثانياً من غير توبة زادت صورة المعصية في نفسه تمكناً، وضعف أثر التذكير وهان أمره، وكلما عاد إليها وتكررت منه المخالفة زادت تلك قوة وهذه ضعفاً حتّى يزول أثر التذكير من أصله، ساوى وجوده عدمه فلحق بالنسيان في عدم التأثير، وهو المراد بقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا﴾ أي زال أثره كأنّه منسي زائل الصورة عن النفس».[1]

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ وتركوا ما نهوا عنه وتمرّدوا في الفساد، عاقبهم

---

١. الميزان في تفسير القرآن: ٨/ ٢٩٥.

الله تعالىٰ بمسخهم علىٰ هيئة القردة ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ مبعدين مطرودين، وفي الآية دلالة على أنّ الناجين كانوا هم الناهون عن السوء، وقد هلك الباقون من المصطادين وغيرهم التاركين للوعظ، وما ذلك إلّا لأنّها خصّت النجاةَ بالناهين ولم يذكر عن غيرهم شيئاً.

وفي الآية دلالة على أنّ الناجين كانوا هم الناهين عن السوء فقط، وقد أخذ الله الباقين، وهم الذين يعدون في السبت والذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ﴾.

وفيه دلالة على أنّ اللائمين كانوا مشاركين للعادين في ظلمهم وفسقهم حيث تركوا عظتهم ولم يهجروهم.

وفي الآية دلالة علىٰ سنَّة إلهية عامة، وهي أنّ عدم ردع الظالمين عن ظلمهم بمنع، وعظة إن لم يمكن المنع، أو هجرة إن لم تمكن العظة ، مشاركة معهم في ظلمهم، وأن الأخذ الإلهي الشديد كما يرصد الظالمين كذلك يرصد مشاركيهم في ظلمهم.[١]

وتسأل: هل كان المسخ مركزاً على الصورة الإنسانية بتبدلها إلى صورة القرد أو عمّت أنفسهم وأرواحهم فصاروا قردة بالحقيقة؟

الجواب: الظاهر هو الأوّل، لأنّه سبحانه أراد بالمسخ عقابهم، وهو يتحقق باختصاص المسخ بالصور دون الأرواح والأنفس، لكي يحسّوا حقارتهم وذلتهم، فلو عمّ المسخ الصورة والروح لما كان ذلك تعذيباً وتحقيراً.

---

١. الميزان في تفسير القرآن: ٨/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

٦

أصحاب الفيل

وردت قصة أصحاب الفيل في القرآن الكريم بصورة مختصرة، ويراد بهم أبرهة وجنوده، الذين راموا هدم الكعبة، لصرف العرب عن حجّها إلىٰ زيارة كنيستهم في اليمن، فحالت بينهم وبين أمانيهم طيور تحمل أحجاراً رمتهم بها فأهلكتهم عن آخرهم، ونجا أبرهة هارباً ولكنه هلك فيما بعد.

وبالنظر لعظمة هذه الحادثة وخطورتها ووقعها في نفوس العرب آنذاك، فقد جُعلت مبدءاً لتأريخ الكثير من الحوادث، فكانوا يؤرّخون به، فيقولون حدث كذا لسنةٍ قبل عام الفيل أو لثلاثٍ بعده، وكما هو معروف فإنّ مولد نبينا الأكرم ﷺ قد أُرِّخ بعام الفيل.

قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾[١].

---

١. الفيل: ١ ـ ٥.

مفردات الآيات:

أبابيل: جماعات، والمعروف أنّه لا مفرد له مثل: عباديد وشماطيط، ونقل عن الزمخشري أن واحد أبابيل إبّالة ومنه قولهم في المثل: ضغث على إبّالة وهي الحزمة الكبيرة من الحطب. والمراد جماعات من الطير.

من سِجِّيل: من طين متحجِّر. قال أبو عبيدة: كلّ شديد سجِّيل. قال ابن مقبل:

ضرباً تواصىٰ به الأبطال سجِّيلا[1]

العصف: ورق الزرع، سمِّي بذلك لأنّ الريح تعصف به إذا قُطع .

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ خطاب من الله لنبيه ﷺ ليعتبر به غيره، إذ فيه أعظم الآيات الّتي أظهرها للناس يوم ذاك .

التعبير بالرؤية، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مع أنّ النبي لم يرها ولم يشاهدها لأنّه قد ولد في نفس العام، ما هو إلّا لأن الحادثة قد اشتهرت بين الناس ونقلت بالتواتر علىٰ نحو كأنّه رآها وشاهدها، وربما يقال: إنّ الرؤية في الآية بمعنى العلم.

وسُمّوا بأصحاب الفيل لأن قائدهم توجّه إلى الكعبة لهدمها ومعه جيش جرّار، تتقدمهم أفيال عظيمة.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ الكيد هو الاحتيال علىٰ إلحاق ضرر بالغير.

---

١. التبيان في تفسير القرآن: ١٠ / ٤١٠ ـ ٤١١.

والتضليل جعل الغير ضالاً، وهو كناية عن إبطال كيدهم، وتخييب سعيهم، بعدم وصولهم إلىٰ مقصودهم.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴾ بيان لكيفية تضليل كيدهم بإرسال جماعات من الطيور فوق رؤوسهم.

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ وقد جاء نظيره في قصة قوم لوط: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾[1] حتّى جعلهم كعصف مأكول... كورق زرع أكلته الدوابّ وداسته وأفنته، فإذا أصابهم الحجر مزّقهم، وصاروا أشلاء في مواضعهم.

هذا تفسير مجمل للآيات المتعلقة بهذه الحادثة، أمّا الأخبار الواردة في شأنها فمفصّلة، وخلاصتها: أنّ أبرهة ملك اليمن من قبل نجاشي الحبشة (إثيوبيا حالياً)، أراد أن يعظم شأن النصرانية الّتي يدين بها النجاشي، فبنىٰ كنيسة فخمة باليمن، وعزم علىٰ أن يجعل العرب يحجّون إليها بدل الكعبة المشرّفة، فلما امتنع العرب من ذلك، وأهانها بعضهم بفعله (كما قيل)، غضب، وصمّم علىٰ هدم الكعبة، فقاد جيشاً جراراً، يتقدمه فيل أو أكثر، وسار باتجاه مكة، فلما وصل قريباً منها، أرسل من يُخبر كبير القوم (وكان سيد قريش عبدالمطلب بن هاشم هو الزعيم آنذاك) بأنّه لم يأت لحربهم، وإنّما جاء لهدم الكعبة.

فلما أصبح أبرهة، عبّأ جيشه لدخول مكة، عازماً علىٰ هدم الكعبة، ولكن المشيئة الإلهية حالت دون تقدّمهم، حيث أرسل سبحانه عليهم أسراباً من الطير،

---

١. هود: ٨٢.

تقذفهم بأحجار صغيرة، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط، وأُصيب أبرهة في جسده، فلم يزل لحمه يسقط قطعة قطعة إلىٰ أن مات بمقرّ مُلكه صنعاء.(١)

وهكذا، أهلك الله تعالىٰ جيش أبرهة، ومزّقه كلّ ممزَّق، وحمىٰ بيته المعظّم من شرّه المستطير، وصدقَ عبد المطلب في كلمته الّتي واجه بها أبرهة: للبيت ربٌّ يحميه.

وقد وصف الدكتور طه حسين موقف عبدالمطلب في هذا الحدث الجليل، بقوله:

في هذه الموقعة أظهر عبدالمطلب من الصبر والجلد، ومن الشجاعة والثقة ما لم يظهره غيره من أشراف قريش، ذلك أنّه قد أشار علىٰ قريش أن تُخلي مكة، فسمع له قومه، وأقام هو بمكة لم يعتزلها، وإنّما أقام عند الكعبة يدعو الله ويستنصره. ويقول الرواة: إنّ الجيش أغار علىٰ إبل قريش فاحتازها، وجاء عبدالمطلب إلى أبرهة، ولما دخل عليه لم يكلّمه إلّا في إبل له، فصَغُر في نفس أبرهة، وقال له: كنت أظن أنك تكلّمني في شأن مكة وشأن هذا البيت الّذي تعظّمونه. قال عبدالمطلب: إني أُكلّمك في مالي الّذي أملكه، أمّا البيت فان له ربّاً يحميه. فأرسل الله علىٰ أبرهة وجيشه من تلك الطير الّتي رمتهم بحجارة من سجيل، فجعلتهم كعصف مأكول، وعادت قريش إلى مكة، فازداد إكبارهم لعبد المطلب وشجاعته وثقته وثباته.(٢)

---

١. انظر القصة في: الكامل: ١ / ٢٦٠ ـ ٢٦٣؛ التبيان: ١٠ / ٤٠٩ ـ ٤١١؛ مجمع البيان: ١٠ / ٥٣٩ ـ ٥٤٣؛ تاريخ اليعقوبي: ١ / ٢٥٢ ـ ٢٥٣؛ بحار الانوار: ٥ / ١٣٠ ـ ١٤٢.

٢. التفسير الكاشف: ٧ / ٦١٠، نقلاً عن «مرآة الإسلام» لطه حسين.

عنزٌ ولو طارت

حاول جماعة من المؤرخين أن يسندوا ما وقع في هذه الحادثة إلىٰ علل طبيعية مادية تخرجه عن كونه آية من آيات الله تعالى ومعجزة في وقتها. وقد نقل ابن الأثير قولهم في هذا الشأن، وردّ عليه، قال: وقال كثير من أهل السير إنّ الحصبة والجدري أول ما رؤيا في العرب بعد الفيل، وكذلك قالوا إنّ العشر والحرمل والشيح لم تعرف بأرض العرب إلّا بعد الفيل.

وهذا ممّا لا ينبغي أن يعرّج عليه، فإن هذه الأمراض والأشجار قبل الفيل مذ خلق الله العالم، ولما ردّ الحبشة عن الكعبة وأصابهم ما أصابهم، عظّمت العرب قريشاً، وقالوا أهل الله، قاتل عنهم.[١]

ولنا هنا كلام ذكرنا تفصيله في محاضراتنا حول حياة سيد المرسلين، ونشير في المقام إلىٰ إجماله:

لا شكّ أن لكل ظاهرة طبيعية علة، إلّا أنها لا تنحصر بالعلل المادية أو الطبيعية بل يمكن أن تكون للظاهرة علة طبيعية غير معلومة لنا أو علة مجردة، فالمؤمن بالغيب لا يحصر علل الحوادث بالعلل المادية الظاهرة، فمن حاول تفسير المعاجز والكرامات عن طريق العلل المادية، فقد أنكر المعجزة بذاتها والكرامة بأصالتها.

ثم لنفترض أنّ هلاك القوم قد تم بواسطة جراثيم «الحصبة والجدري»

---

١. الكامل في التاريخ: ١ / ٢٦٣.

ولكن من الّذي أرشد تلك الطيور إلىٰ تلك الأحجار الصغيرة الملوثة بميكروب الحصبة والجدري، فتوجهت بصورة مجتمعة إلىٰ تلك الأحـجار الخـاصة بـدل التوجه إلى الحَبّ والطعام؟ ثم لماذا ـ بعد حمل تلك الأحجار بمناقيرها وأرجلها ـ اختارت التحليق فوق معسكر «أبرهة» ورمي جنده دون سواه ؟ وفي ذلك الوقت الّذي همّ فيه بهدم الكعبة دون غيره من الأوقات؟ هل يمكن اعتبار كل ذلك أمراً عادياً، وحدثاً طبيعياً؟

وللشيخ الطوسي هنا كلام متين، يردّ به علىٰ هذا النوع من التفاسير، قال ﵀: وقصة أصحاب الفيل من الأدلّة الواضحة والحجج اللائحة على الملحدين، ومَن أنكر الصانع، لأنّه لا يمكن نسبة ذلك إلى طبيعة ولا موجب، كما تأولوا الزلازل والرياح والخسوف وغير ذلك ممّا أهلك الله به الأُمم، لأنّه ليس في الطبيعة إقبال طير بأحجار وتقصد أقواماً دون غيرهم حتّى تهلكهم بما ترميهم به، ولا تعدىٰ إلى غيرهم، بل ذلك من أوضح الأدلّة علىٰ أنّه من فعل الله تـعالىٰ، وليس لأحـد أن يضعّف ذلك وينكر الخبر به، لأن النبي ﷺ لما قرأ علىٰ أهل مكة هذه السورة، كانوا قريبي عهد بالفيل، فلو لم يكن كذلك، ولم يكن له أصل لأنكروه، فكيف وهم أرّخوا به كما أرّخوا بنيان الكعبة وموت قصي وغيره. وقد نظم الشعراء في قصة الفيل الشعر ونقلته الرواة، فلا يمكن جحد ذلك، لأنّه مكابرة.[١]

---

١. التبيان في تفسير القرآن: ١٠ / ٤١١.

تأويل بعيد

وثمة من يؤْثر أو يبالغ في تفسير الخوارق والمعجزات بالأسباب الطبيعية المألوفة، تأثّراً بمكتشفات العلم الحديث، أو إرضاءً للمفتونين بـه، فـيحاول أن يُأوِّل كل خارقة بما ينسجم وما عرفه وألفه من السنن والقوانين الكونية. وفي هذا الإطار يأتي تأويل الشيخ محمد عبده للطير الّتي انقضّت على الجيش، وللحجارة الّتي قذفتهم بها. قال ﷺ :

«فيجوز لك أن تعتقد أنّ هذا الطير من جنس البعوض أو الذبـاب الّـذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحـجارة مـن الطـين المسـموم اليابس الّذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فاذا اتصل بجسد دخل في مسامّه، فأثار فيه تلك القروح، الّتي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يُعدّ من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير ـ الّذي يسمونه الآن بالميكروب ـ لا يخرج عنها» .

نقل هذا التأويل سيد قطب في تفسيره، وعلّق عليه بكلام طويل، بيّن فيه أنّ هذه الصورة الّتي افترضها الشيخ عبده، أو تلك الّتي جاءت بها الروايات من أنّ الحجارة كانت تخرق الرؤوس والأجسام، أنّ هاتان الصورتان تتساويان في نظره من حيث إمكان الوقوع، ومن حيث الدلالة علىٰ قدرة الله وتدبيره، وليست هذه الصورة أو تلك أولىٰ بتفسير الحادث. وقال:

إنّ سنة الله ليست فقط هي ما عهده البشر وما عرفوه. وما يعرف البشر من

سنّة الله إلّا طرفاً يسيراً يكشفه الله لهم بمقدار ما يطيقون، وبمقدار ما يتهيّأون له بتجاربهم ومداركهم في الزمن الطويل، فهذه الخوارق ـ كما يسمّونها ـ هي من سنّة الله، ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهده وما عرفوه.

ومن ثم فنحن لا نقف أمام الخارقة متردّدين ولا مؤوّلين لها ـ متىٰ صحّت الرواية ـ أو كان في النصوص وفي ملابسات الحادث ما يوحي بأنّها جرت خارقة، ولم تجرِ علىٰ مألوف الناس ومعهودهم. وأضاف:

أمّا في هذا الحادث بالذات، فنحن أمْيَل إلى اعتبار أنّ الأمر قد جرىٰ علىٰ أساس الخارقة غير المعهودة، وأنّ الله أرسل طيراً أبابيل غير معهودة، تحمل حجارة غير معهودة، تفعل بالأجسام فعلاً غير معهود.

نحن أمْيَل إلىٰ هذا الاعتبار، لا لأنّه أعظم دلالة ولا أكبر حقيقة، ولكن لأنّ السورة وملابسات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب.... ولا داعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف من الأمر في حادث هو في ذاته وبملابساته مفرد فذّ.(١)

---

١. في ظلال القرآن: ٣٠ / ٢٥١ ـ ٢٥٣.

الدروس والعبر

١. إنّ هذه المعجزة الخارقة للعادة الّتي لم تقع علىٰ يد نبي، كانت لأجل إظهار أنّ البيت الحرام له ربّ قويٌّ عزيز، يحميه ويصونه من كيد الكائدين، ويسحق قوىٰ البغي والعدوان الّتي تريد به سوءاً.

٢. إنّه سبحانه قصم ظهور الظالمين وحطّم قوّتهم وجبروتهم بشيء ضئيل جدّاً.. بحجارة من سجّيل، جاء في الأخبار أنّها أصغر من الحمّصة، ولكنّها مزّقت أجسادهم، وجعلتها كفُتات أوراق الشجر. ومن هنا ينبغي للمؤمن أن يدرك القوة الحقيقية في هذا الوجود، ليركن إليها، ويستمدّ منها العون في صراعه مع قوى الضلال والطغيان، ولا ينخدع بمظاهر القوّة البشرية، أو يتهيّبها، ويجبن عن مواجهتها، بعد إعداد ما يُستطاع من القوة.

٣. وردت بعد هذه السورة، سورة «قريش»، وكأنّ القرآن يشير بذلك إلىٰ أنّ مجازاة أصحاب الفيل كان نعمة من الله سبحانه علىٰ قريش مضافاً إلى نعمة أُخرى هي رحلة الشتاء والصيف. فأهلك الله سبحانه أصحاب الفيل لترجع قريش إلى مكة ويشتغلوا بتجارتهم الشتوية والصيفية.

٤. إنّه سبحانه بإبادة أصحاب الفيل، قد استجاب دعوة نبيه إبراهيم حيث إنّه بعد ما بنى البيت دعا الله سبحانه بقوله: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾[1].

---

١. إبراهيم: ٣٥.

٥. إنّ هذه الواقعة الّتي كان لها أثر عجيب في نفوس العرب بعظمة الكعبة، كانت إرهاصاً وتوطئة لمبعث النبي الأكرم ﷺ الّذي ولد في هذا العام، وكأنّها كانت البذرة الأُولىٰ لظهور الحق على الباطل وإزهاقه. فالقوة الّتي حمت البيت الحرام وحرسته، قادرة على حماية المبعوث رحمة للعالمين، وحماية رسالته ودعوته من كيد الأعداء ومؤامراتهم الدنيئة.

٧

أصحاب القرية

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾.

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾.

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾[1].

***

لم يكشف القرآن الكريم عن اسم القرية ولا عمّن هم أصحابها، كما لم يفصح عن أسماء المرسلين إليها، فالغاية من القصة لا تتوقف على إيراد هذه المعلومات.

وقد جاء في بعض الأخبار والروايات أنّ القرية هي أنطاكية [2]، وأنّ

---

١. يس: ١٣ ـ ١٩.

٢. أنطاكية: من مدن الشام القديمة. أُنشئت نحو (٣٠٠) سنة قبل الميلاد، تبعد عن حلب ٩٦كم وعن الاسكندرونة ٥٩ كم. أصبحت جزءاً من تركيا عام (١٩٢٣ م) بموجب معاهدة لوزان.

المرسلين كانوا من الحواريين، وأنّ عيسى ﷺ قد وجّههم إليها.

اكتفت بعض الروايات بذكر اسم ثالث المرسلين، وتقول إنّه الحواري شمعون الصَّفا، [١] في حين ورد في بعض التفاسير أنّهم: يوحنا، وبولس، وشمعون. [٢]

ويظهر أنّ بعض هذه الأخبار متلقاة عن رواة الإسرائيليات كوهب بن منبّه، أو مستقاة من العهد الجديد، وقد جرت محاولات لجعلها منسجمة مع آيات الكتاب العزيز، ومع ذلك، فهي لا تخلو من اضطراب واختلاف.

يُشار إلى أن سِفْر أعمال الرسل من العهد الجديد يتحدث عن قيام بعض الحواريين وأتباعهم بالتجوّل في بعض الأقطار بعد صلب المسيح ﷺ (المزعوم) للتبشير، ولم يتحدث عن قيامهم بهذه المهمة في حياته ﷺ.

وجاء في هذا السِّفْر أن بطرس (من حواريي عيسى ﷺ)، وبرنابا [٣]، وبولس، قدموا أنطاكية لهذا الغرض. وهذا الأخير متّفق على أنّه تحوّل من اليهودية إلى النصرانية بعد المسيح، فكيف يكون مُرسَلاً من قِبَله ﷺ إلى أنطاكية؟

---

١. انظر: قصص الأنبياء للراوندي: ٢٧٤، الباب ١٨، الفصل ٧، الحديث ٣٣٢، تفسير الكشاف: ٣ / ٢٨٢ (ط. دار المعرفة)، بحار الأنوار: ١٤ / ٢٥٢، كتاب النبوة، الباب ١٨، الحديث ٤٤.

٢. انظر: تفسير المراغي: ٢٢ / ١٥١، وقصص القرآن (المقتبس من تفسير الأمثل): ٤٢٣.

٣. يبدو من إنجيله أنّه كان من ملازمي المسيح ﷺ وتلامذته (الكتاب المقدس في الميزان: ٢٧٩ - ٢٨٢)، في حين يُعرّفه التاريخ المسيحي بأنّه كان قساً يهودياً من قبرص وأنّه كان من اليهود الأوائل الذين تحولوا إلى النصرانية بفعل الحواريين. انظر: الموسوعة العربية العالمية: ٤ / ٣٧٠ (ط. الثانية).

ومهما يكن، فإن الغاية من ذكر هذه القصة، هي تثبيت فؤاد النبي ﷺ بعد أن آذاه قومه وكذّبوه، فأراد الله تعالىٰ إخباره ﷺ بأنّ تكذيب الناس للأنبياء ليس أمراً بديعاً ولا جديداً، وإنّما هو سنّة ماضية فيما سلف من الأقوام الّتي بُعثَ فيها الأنبياء من قبل، وهؤلاء هم أصحاب القرية، كذّبوا المرسلين الثلاثة واحداً بعد الآخر، ودام التكذيب إلى أن وافاهم عذاب الله. وإليك بيان حالهم كما ذكرته الآيات الكريمة:

١. ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ وتقدير الآية: واضربْ أصحابَ القرية مثلاً لهم: أي بيّن أحوالهم وما صارت إليه مصائرهم ليتخذها قومك عبرة وعظة، وأُريد بضرب المثل في الآية وسائر الآيات الّتي ورد فيها، وصف الحال على حد قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾[1] وقوله: ﴿اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾[2] والمراد من الأمثال، هو وصف النبيّ بكونه مسحوراً الوارد في الآية المتقدمة: ﴿وَ قَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُورًا﴾[3]. أو كونه مجنوناً أو كاهنا.

﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾. المتبادر من الآيات انهم كانوا مبعوثين من جانب الله سبحانه، حيث يُسند إرسالهما إلىٰ نفسه ويقول ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و ﴿عَزَّزْنَا﴾،

---

١. محمد: ١٥.

٢. الفرقان: ٩.

٣. الفرقان: ٨.

وهذا ما ذهب إليه ابن عباس، واختاره كثير من جلّة العلماء، [١] لكن المعروف بين الكثير من المفسرين انهم كانوا مبعوثين من جانب المسيح، وقالوا إنّه لا مانع من إسناد الفعل إلى الله سبحانه، لأنّ رسل المسيح هم رسله تعالىٰ أيضاً.

ثم إنّ المبعوثين دعَوا إلى أمر واحد فقالوا كلمة واحدة **﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾**. وأمّا الغاية من إرسالهم فلم ترد في الآيات الماضية، وإنّما تُعلم ممّا سيأتي من الآيات وهي دعوة القوم إلىٰ عبادة الله وحده.

وكلما أكّد الرسلُ القولَ بكونهم مبعوثين من الله سبحانه لهدايتهم، اشتد تكذيب القوم وإنكارهم، متعلّلين في كل مرحلة بذرائع وهمية، يبطلون بها حسب زعمهم رسالتهم، وما هي إلّا:

١. أَنْتُمْ بَشَرٌ :

ردّ القومُ على الرسل بأنّ المبعوث من الله يجب أن يكون أرقىٰ من المرسَل إليهم، وليس ذلك إلّا الملَك، ولكنكم بشر مثلنا غيرُ صالحين للرسالة بل أنتم كاذبون في ادّعاء الرسالة، كما قالوا: **﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾**.

ويظهر من غير واحدة من الآيات أنّ هذا المنطق كان رائجاً بين الوثنيين حيث كانوا يردّون رسالات الأنبياء بحجة أنّهم بشر، قال تعالىٰ: **﴿وَ مَا قَدَرُوا اللهَ**

---

١. يؤيد هذا الرأي: أ. قولهم: **﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾**. ب. إنهم لو كانوا رسل المسيح، لما قالوا: **﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾**. ج. إنّ أهل أنطاكية كما يبدو من سفر أعمال الرسل، استجابوا لدعوة حواريي عيسى وأتباعهم، وآمنوا بالمسيح عليه السلام. انظر: تفسير المراغي: ٢٢ / ١٥٠.

حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾[1].

وقال سبحانه حاكياً منطق أقوام، كعاد وثمود وغيرهما: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾[2] غير أنّ القوم كانوا جاهلين بسر مسانخة المرسل والمرسل إليه، إذ مضافاً إلىٰ أنّ السيرة الجارية في تاريخ الأُمم هو كون الرسل بشراً دون أن يكونوا ملائكة، فإنّ الغاية من بعث الأنبياء هو إنقاذهم ممّا هم فيه من الأمراض الروحيّة، وهو فرع تعرّفهم علىٰ دائهم ودوائهم الّذي ينسجم مع كون الرسول من سنخ المرسل إليهم.

وإزاء هذا التكذيب، أكّد المرسلون صدقهم وصدق سفارتهم من الله تعالىٰ بقولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. ولا ريب في أنّ التبليغ لا يكون مبيناً وظاهراً مكشوفاً ما لم يكن معزّزاً بدلائل واضحة وآيات باهرة، ولكنّ القوم أصرّوا علىٰ رفض دعوتهم، وأثاروا في هذا المجال قضية أُخرى، وهي:

٢. التشاؤم بالرسل

لمّا غلبتهم حجة المرسلين حاولوا اتهام الرسل بأمر آخر، حتّى يبرّروا به عدم إيمانهم برسالاتهم وهو اتهامهم بأنّهم شؤم حلّ في وسطهم ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ ، ولعلّ مكروهاً ما أو بلاءً أصابهم في تلك الفترة (كالمجاعة وغيرها)، فلم يجدوا أسهل من إلقاء تبعة ذلك على المرسلين، ليزكّوا أعمالهم، ويبعدوا عن أنفسهم كل تقصير.

---

١. الأنعام: ٩١.

٢. إبراهيم: ١٠.

إن التطيّر والتشاؤم بالأنبياء ذريعة الجهلة وكانت شائعة بين الأُمم السالفة وقد حكاها سبحانه في أكثر من آية، يقول سبحانه حاكياً عن قوم صالح: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ ﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ﴾[٢].

هذا، وقد ردّ المرسلون عليهم بقولهم: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ الطائر هو الطير وكان يُتشأم به ثم تُوسّع في الاستعمال في كل ما يتشأم به فمعنى قولهم ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾: ان الّذي يجب أن تتشأموا به، هو إعراضكم عن الحق الّذي هو التوحيد وإقبالكم إلى الباطل الّذي هو الشرك، ثم أضافوا قولهم ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ بل السبب الواقعي هو إسرافكم وتجاوزكم عن الحدّ.

٣. التهديد بالرجم

ثم إنّ القوم طلبوا من الرسل أن يكفّوا عن التبليغ وبث الدعوة، وإلّا أسكتوهم بالرمي بالحجارة وإذاقتهم أشدّ العذاب ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣]، وليس هذا التلويح بالتهديد أمراً جديداً، بل تعرض له كل الرسل على طول التاريخ، فهؤلاء هم قوم شعيب يخاطبون نبيهم ﷺ بقولهم: ﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[٤]، وهذا آزر يخاطب إبراهيم الخليل بقوله: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[٥].

---

١. النمل: ٤٧. ٢. الأعراف: ١٣١.
٣. يس: ١٨. ٤. هود: ٩١.
٥. مريم: ٤٦.

فمنطق القوة هو منطق العاجز عن الحوار ومواجهة الحجة بالحجة، والّذي يفتقد قوة المنطق، يلجأ عند الهزيمة إلىٰ منطق القوة.

يذكر المفسرون أنّ المرسلين لما أحسّوا بعزم القوم علىٰ رجمهم غادروا أنطاكية إلى مكان آخر.

***

رجل العقيدة والعزيمة

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونَ * إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ * يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[١].

تتعلق هذه الآيات بموقف رجل، كان يسكن في أطراف هذه المدينة الوثنية الجاحدة، وقد أبىٰ له إيمانه وإخلاصه للحق، أن يظلّ صامتاً، بعيداً عن جوّ

---

١. يس: ٢٠ ـ ٣٠.

الأحداث الساخنة، وهو يسمع بالموقف الصارم لقومه من الرسل ودعوتهم، وعزمهم على البطش بهم، فجاء إلى المدينة مسرعاً، لينتصر للرسل، ويدعوَ قومه إلى اتّباعهم، ويرشدَهم إلىٰ سواء السبيل.

لم يشر القرآن الكريم إلىٰ اسم هذا المؤمن الشجاع، ولكنّ المفسرين نقلوا عن ابن عباس وغيره أنّ اسمه: حبيب النجار، وأنّه آمن بالرسل عند ورودهم القرية، فلما بلغه أنّ قومه قد كذبوا الرسل، وهمّوا بقتلهم جاء يعدو ويشتد، وإلىٰ ذلك يشير قوله سبحانه: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾.

وهذا يدل على أنّ قلب الرجل كان ينبض بالإيمان، والحرص على هداية قومه، وقد تحمَّل تلك المسؤولية الخطيرة، غير عابئ بما يلحقه من أذىً، وهو يجهر بكلمة الحق .

وكان هذا الرجل المجاهد الّذي جاء مسرعاً لمناصرة المرسلين، ودعوة قومه إلى اقتفاء أثرهم، قد اعتمد في سبيل إقناع قومه على البراهين التالية:

١. تنزُّه المرسلين عن طلب الأجر

إنّ تنزّه المرسلين عن طلب الأجر وعن تحقيق أية مآرب شخصية، أقوى شاهد علىٰ صدقهم في دعواهم، حيث إنّهم ركبوا المخاطر وبذلوا الجهود المضنية لتعليمكم وهدايتكم والنصح لكم، لا طلباً للمال، ولا رغبة في الاستئثار بالمكاسب المادية، وإنّما انطلاقاً من كونهم مبعوثين من الله، وقد أشار الرجل بقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُهْتَدُونَ﴾[1] إلىٰ منطق الأنبياء عبر

---

١. يس: ٢١.

القرون، فإنّ دعوتهم كانت متميزة بترفّعهم عن طلب الأجر، وإعلانهم أنّ أجرهم على الله تعالىٰ، وقد تكرر هذا المضمون في سورة الشعراء في غير واحدة من الآيات. قال تعالى حاكياً عن نوح ﷺ قوله: ﴿وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[١] ولاحظ الآيات: ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

وتشهد علىٰ ذلك الفطرة الإنسانية، فإنّ الدعوة إذا كانت مشوبة بطلب الأجر، فإنّها تورث الشك في ذهن المخاطب بأنّ هدف الداعي هو إصابة المال وجمعه، وهذا بخلاف مَن ينشر دعوته من دون أن يطلب منهم شيئاً، فإنّه يورث الاطمئنان بأنّ الدعوة نابعة عن النصح، فيكون ذلك أرسخ في قلوبهم.

٢. المعبودية من شؤون الخالقية

الأُمّة الوثنية كانت تعتقد بأنّ السماوات والأرض وما بينهما مخلوقة لله سبحانه، وأنّه هو الّذي خلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، لكنهم تخيلوا أنّ بُعدهم عن الخالق وعدم رؤيته، صار سبباً لأن يتخذوا شفعاء توجب عبادتها الزلفىٰ عند الله تعالىٰ والقربىٰ لديه، وهم الهياكل النورية والنفوس المجردة المتمثلة في صورة الأصنام والأوثان، فكانوا يعبدون الصور المجسمة لحكايتها ذعن الصور الواقعية، وقد جاء التصريح ببعض ما ذكرنا على لسانهم في القرآن الكريم، كقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[٢].

---

١. الشعراء: ١٠٩.

٢. الزمر: ٣.

هذا وقد أبطل الرجل المجاهد منطقهم هذا بالقول بأن الأَولىٰ والأليق هو عبادة الخالق الّذي خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً، فأوجده دون أن يستعين بشخص، وهيّأ أسباب حياته في الأرض، وأما غيره فالكل ممكنٌ، مفتقر إليه. كما قال: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٣. عجز الآلهة عن دفع الضُّرّ

وهذا هو البرهان الثالث للرجل المجاهد في طريق دعوة قومه إلى التوحيد ونبذ الشرك وحاصله: أنّه لو كانت الغاية من عبادة الأوثان هي إيصال النفع ودفع الضر، فهذه الغاية لا تحصل من عبادتهم إذ لو تعلقت إرادة الرحمن بضر إنسان، فلا تنقذه الأوثان ولا تنفعه شفاعتهم، كما قال: ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونَ﴾.

لم يؤثر هذا الأسلوب المضيء بنور الدليل والبرهان، والمتضوّع بشذا المحبة والنصيحة، لم يؤثر في هؤلاء القوم، الذين تحجّرت عقولهم لخضوعهم للأصنام والأوثان، وقست قلوبهم لارتكابهم المعاصي والآثام. وهنا توجّه رجل العقيدة والثبات إلى الرسل، ليؤكد إيمانه ويستشهدهم عليه، معلناً عن موقفه بوضوح، وبلا لُبس ومناورة: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾. لقد هتف بذلك أمام قومه الغاشمين، ناذراً حياته لله، موطِّناً نفسه على احتمال المكاره في سبيله، فكان ثمنُ هذا الهتاف بالحق ـ كما يفيده السياق ـ القتلَ، وسفكَ دمه الزكي، وكان الجزاء الّذي ينتظره هو الفوز بنعيم الجنة، والمنزلة الرفيعة عند الله، إذ سرعان ما ﴿قِيلَ﴾ له بعد أن عرجت روحه إلىٰ بارئها ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾، وحينئذٍ تمنّىٰ ـ وهو

الناصح المشفق ـ أن يعلم قومه بما منّ الله عليه من الغفران، وحباه من الكرامة، فيرغبوا فيه ويؤمنوا به لينالوا مثله: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

والجنة الّتي أُشير إليها هي الجنة البرزخية، فللإنسان هناك حياة أرفع من الحياة الدنيوية.

والآية تدل على أنّ للإنسان البرزخي صلة بالإنسان المادي وأنّه من هناك يرى الدنيا وأهلها وما حولهم.

عاقبة المكذبين

لم يستجب أصحاب القرية لدعوة المرسلين، وهددوهم بالرجم ، كما أنّهم لم يقبلوا نصائح ابن قريتهم ومن له علاقة بهم، وبادروا إلى قتله، لأنّه آمن بالرسل ودعاهم إلى التوحيد. ولم يكن إزاء هذا العناد والإصرار على التكذيب وإراقة الدم الحرام، من حلّ سوىٰ إهلاك هؤلاء الضالين المجرمين، وهو أمر هيِّن لا يحتاج إنجازُه إلىٰ إرسال ملائكة ﴿وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ﴾ أي على قوم هذا الرجل المؤمن ﴿ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد قتلهِ ﴿ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لأنّه ليس من سنّته تعالىٰ أن يستأصل الظالمين بجند من السماء ﴿وَ مَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾.

وفعلاً، ما هي إلّا صيحة واحدة، حتّى أصبحو موتىٰ لا يتحركون ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ولعلها كانت من الصاعقة الّتي حدثت في المنطقة فأوجدت زلزالاً في الأرض، خمدت علىٰ أثره حياة القوم، وصاروا كحديث أمس الدابر.

وبعد هذا المصير البائس، يجيء النداء الإلٰهي: ﴿**يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ وهو واقع موقع الرثاء للأُمم المكذبة، إذ حلّوا محلّ من يُتحسر عليهم، لعدم انتفاعهم بالمواعظ والنذر البالغة، الأمر الّذي أفضىٰ إلىٰ هلاكهم. والآية تعمّ أصحاب القرية ومن تقدّمهم من الأقوام البائدة، كما تعمّ الأُمة الحاضرة.

٨

أصحاب الكهف

عرض القرآن الكريم هذه القصة بشكل مُجمل، ولخّصها في أربع آيات، ثم شرع بعد ذلك في تفصيلها:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾[١].

هذا هو ملخّص القصة، وإليك توضيح ما فيها من مفردات:

الكهف: تجويف طبيعي كبير في الجبل، فإذا صَغُر فهو الغار.

الرقيم: بمعنى المرقوم، من الرَّقْم، وهو الكتابة والخط. قيل: المراد به هنا اللوح الّذي رُقمت (كُتبت) فيه أسماء أصحاب الكهف. وقيل: اسم مكان.

والرقيم ـ اليوم ـ اسم واد في شرقي الأردن قرب عمّان، وهناك كهف يقال إنّه لأصحاب الكهف، وفيه قبور يُدّعى أنّها قبورهم. وقد زرت الكهف ورأيته عن كثب.

---

١. الكهف: ٩ ـ ١٢.

والظاهر أنّ أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم وليسا بطائفتين، والدليل عليه أنّه سبحانه ذكر قصة أصحاب الكهف ولم يذكر عن أصحاب الرقيم شيئاً، وهذا يدل على اتحادهما.

وأمّا قوله سبحانه ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ فليس دليلاً على اختلافهما وإنّما أُريد من الحزبين، الفريقان المختلفان منهم في مدة لبثهم في الكهف، ففريق قال إنّهم لبثوا يوماً أو بعض يوم، في حين أحال الفريق الآخر علم ذلك إلى الله سبحانه، كما يشير إليه قوله تعالىٰ الآتي ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ...﴾، وليس لفظة (الحزبين) مشيرةً إلى أصحاب الكهف وأصحاب الرقيم.

والمراد بالعلم في قوله ﴿لِنَعْلَمَ﴾: العلم الفعلي، وهو ظهور الشيء وحضوره بوجوده الخاص عند الله.

الفتية: جمع الفتىٰ: الشاب الحَدَث. وظاهر الآية أنّهم كانوا في عنفوان الشباب، ولكنّهم حسب الروايات كانوا شباباً في عزائمهم وروحياتهم، وكهولاً في أعمارهم.

فقد روى سليمان بن جعفر النهدي، قال: قال لي جعفر بن محمد عليه السلام: يا سليمان مَن الفتىٰ؟ قال قلت له: جُعلت، فداك الفتىٰ عندنا الشاب. قال لي: أما علمت أنّ أصحاب الكهف كانوا كلهم كهولاً وسمّاهم الله فتية بإيمانهم، يا سليمان من آمن بالله واتقىٰ هو الفتىٰ.[1]

---

١. تفسير العياشي: ٣ / ٨٩، الحديث ٢٦٣٥ / ١١ (تحقيق مؤسسة البعثة ـ قم).

وفي رواية أُخرى، قال الإمام عليه السلام: الفتىٰ المؤمن، إنّ أصحاب الكهف كانوا شيوخاً فسمّاهم الله عزوجل فتية بإيمانهم.[١]

قال الشاعر الكبير السيد أحمد الصافي النجفي (المتوفّىٰ ١٣٩٨ ﻫ) :

سـنّي بـروحي لا بـعَدِّ سنيني ولأهـزَأنَّ غـداً مـن التسعينِ

العـمرُ للسـبعين يـركضُ جاهداً والروحُ ثـابتةٌ عـلى العشـرينِ

ضربنا علىٰ آذانهم: سلّطنا عليهم النوم، الّذي لا تنبّههم معه الأصوات.

هدف القصة

يمكن ملاحظة هدفين رئيسيين، استهدفتهما هذه القصة الّتي جاءت ضمن ثمانية عشر آية من سورة الكهف، وهما:

الأوّل: نزلت هذه الآيات في مكة، والمؤمنون فيها يتعرضون للقمع والتعذيب والتنكيل، والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وبنو هاشم يعانون مرارة الحصار في شعب أبي طالب، حيث لا يُسمح لهم بالخروج منه إلّا في أشهر الحج.

في تلك الظروف الصعبة نزلت الآيات لتشدّ قلوب المؤمنين وتثبّت الإيمان فيها، وذلك بالوقوف على مصير أصحاب الكهف، الذين تركوا متاعَ الحياة الدنيا وزينتها، وفارقوا أهلهم، وهجروا مجتمعهم الغارق في الوثنية، والتجأوا إلى كهف ضيق موحش من أجل أن تبقىٰ قلوبهم عامرة بالعقيدة الصحيحة، متوهّجةً بحرارة الإيمان، مشرقةً بنور الهداية، فلما علم سبحانه صدقهم وثباتهم في طريق

١. الكافي: ٨/ ٣٩٥، الحديث ٥٩٥.

التوحيد، وإخلاصهم في مناجاتهم ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ شملهم بلطفه وعنايته، وحفظهم من مكائد الملك وأعوانه، الذين كانوا يحمون الوثنية وقيمَها وتقاليدَها، ويُخضعون الناس لها بالقوة، واستجاب الله دعوتهم، فأطبق علىٰ آذانهم، فناموا سنين، يقول سبحانه: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ والآية تدل على أنهم كانوا في هذه المدة أحياءً لا أمواتاً إلّا أنهم كانوا نوّماً، فالضرب على الآذان كناية عن النوم، فإنّ النوم لا يتحقق إلّا بانقطاع صلة الإنسان بالعالم الخارجي عن طريق السمع .

الثاني: ما يذكره سبحانه في آخر القصة، وهو إقامة البرهان علىٰ إمكانية المعاد وبعث الأموات، قال تعالىٰ: ﴿وَ كَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا﴾ .

هذا توضيح ما أوجزه القرآن من القصة، وإليك شرح ما فصّله منها في الآيات التالية:

***

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا * وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ

لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾[١].

يظهر من قوله سبحانه ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أنّ هذه القصة كانت معروفة بين الناس قبل نزول القرآن المجيد، ولكنها تعرّضت ـ كأكثر الحوادث التاريخية ـ إلى التحريف والتزوير، وأُلصقت بها الأباطيل والخرافات، والله سبحانه يعرضها كما هي منزّهة عن التحريف والإضافات، وهي أنّ فتية كانوا يعيشون في مجتمع طغىٰ فيه الشرك والظلم، وهُدرت فيه كرامة الإنسان، ولكنهم اهتدوا إلى عقيدة التوحيد، وآمنوا بربهم ونبذوا الشرك، وحرّروا أنفسهم من قيوده وأغلاله، وعند ذلك استحقوا رحمة أُخرىٰ ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾ وهذا دليل على أنّ الإنسان إذا جعل نفسه معرضاً للنفحات الإلٰهية تلحقه رحمة بعد رحمة، وكأنّ الهداية الأُولى النابعة من فطرتهم سبّبت إفاضة الهداية الثانية عليهم وتثبيت قلوبهم على الحق والإيمان ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، وكان ثمرة ذلك، العزم على مواجهة ضغوط المجتمع بالثبات على عقيدة التوحيد، والصلابة في موقفهم برفض مجاراة الواقع المنحرف ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا[٢]﴾، وبيان خطأ المنهج الّذي يسلكه القوم، ونقد معتقداتهم بالوجهين التاليين:

١. إنّ الإيمان بعقيدة ما يجب أن يرتكز على دليل واضح وبرهان قوي، وهؤلاء القوم الذين أشركوا بالله، وعكفوا على عبادة غيره لا يملكون شيئاً من

---

١. الكهف: ١٣ ـ ١٦.

٢. الشّطط: الخروج عن الحدّ بالغلو فيه، والمعنىٰ. قلنا قولاً بعيداً عن الحق، مائلاً إلى الجور، إذا رفعنا المخلوق إلى درجة الخالق.

ذلك. وهذه دعوة صريحة إلى وجوب الاستناد إلى العلم في الاعتقادات، وعدم الركون إلى التقليد في هذا الشأن ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾[١].

٢. إنّ نسبة الشريك إلى الله تعالىٰ، يحتاج إلى دليل بيّن، فإذا لم يؤتَ به، فهو قول بغير علم، وافتراء للكذب، والافتراء ظلم، ولا أظلمُ ممن يفتري الكذب على الله، بزعم أن له شريكاً في العبادة. وهذا ما عناه أصحاب الكهف بقولهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾[٢].

لقد ألهمَ سبحانه هؤلاء الفتيةَ قوة العزيمة، فثبتوا على عقيدة التوحيد، وقاوموا كلّ الضغوط الّتي مورست ضدهم، وهجروا قومهم ومعتقداتهم الزائفة، ولم يأنسوا إلّا بعبادة الله وحده، ثم اتفقوا بعد التشاور فيما بينهم على اللجوء إلى الكهف للاختباء فيه، وإيكال أمرهم إلى الله تعالىٰ، وهو ما عبّروا عنه بقولهم : ﴿وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا[٣]﴾، فقوله ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ إشارة إلىٰ نعمه المعنويّة، كما أن قوله ﴿يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ إشارة إلىٰ نعمه الماديّة.

دخل الفتية الكهف، راجين رحمته سبحانه، متطلّعين إليه في مستقبل أمرهم، فضرب الله علىٰ آذانهم في الكهف، ومكثوا فيه نياماً فترة طويلة، سيأتي تحديدها.

١. الكهف: ١٥.

٢. الأنعام: ٢١.

٣. المِرْفَق: ما يُرتَفق وينتفع به.

وَضع الفتية في الكهف

﴿وَتَرى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ إِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ ذَاتَ الشِّمَالِ وَ كَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾[١].

مفردات الآيتين

تزاور: مضارع مشتق من الزَّور ـ بفتح الزاي ـ وهو الميل وفيه قراءتان الأُولى تزّاور بتشديد الزاي، وأصلة تتزاور بتاءين فادغمت تاء التفاعل في الزاي تخفيفاً. والقراءة الثانية: تزاور على حذف إحدى التاءين.

تقرضهم: القرض القطع يقال قرضت الموضع إذا قطعته وجاوزته والمراد هنا انصراف الشمس.

الفجوة: المتسع من الأرض وجمعه فجوات.

الرقود: جمع راقد وهو النائم.

الوصيد: مدخل الكهف شُبِّه بالباب الّذي هو الوصيد لأنّه يوصد

---

١. الكهف: ١٧ ـ ١٨.

ويغلق، يقال: أوصدت الباب إذا أغلقته. وقيل: فِناء الكهف.

تتحدث هاتان الآيتان عن أُمور ثلاثة:

١. الوضع الجغرافي للكهف.

٢. وضع الفتية فيه .

٣. حال من يراهم أو يدخل عليهم.

أما الأمر الأوّل: فيتوقف توضيحه على أمرين:

١. إنّه سبحانه عندما يصف الكهف يقول ذات اليمين وذات الشمال والمراد بهما يمين الكهف وشماله، والذات بمعنىٰ الصاحبة وهي صفة لمحذوف يدل عليه الكلام أي الجهة صاحبة اليمين والجهة صاحبة الشمال.

٢. إنّه سبحانه عندما يذكر طلوع الشمس صباحاً علىٰ باب الكهف أو فمه، يستخدم كلمة ﴿**تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ**﴾ وقد مرّ أن التزاور بمعنى التمايل وعندما يذكر غروب الشمس يستخدم كلمة ﴿**تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ**﴾ وقد مرّ أن القرض بمعنى القطع وهو كناية عن انصرافها عنهم ﴿**وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ**﴾ أي وهم في متسع من الكهف.

ومعنىٰ ذلك أن نور الشمس كان ينفذ إلى الكهف، ولكنه لا يقع عليهم، فيؤذي أجسامهم، لا عند طلوع الشمس، ولا عند غروبها، لأنّهم كانوا في وسط الكهف، وهو مكان واسع.

ثم إنّه سبحانه يعدّ ذلك من آياته، ويقول: ﴿**ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ**

﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ ولعل اسم الإشارة إشارة إلىٰ وجودهم بهذا الوضع، في كهف تلك صفته، (فالشمس هنا كأنّها جزء من هذا الكهف، قد شُغلت به عن الدنيا كلها، حتّى كأنّها مسخرة لمن هم في هذا الكهف دون الكائنات كلها، وحتّى لكأنّها أُمٌّ حانية عليهم، ترعاهم بعينها، وتُظلّهم بظلّها)[١]، إذا طلعت تميل عن الكهف جهة اليمين، وإذا غربت تجوزهم منحرفة عنهم جهة الشمال.

وأمّا الأمر الثاني، أعني: كيفية لبثهم في الغار، فإنهم ظلّوا ـ بقدرة الله تعالىٰ ـ سنين كثيرة أحياءً، بَيْد أنهم كانوا يغطّون في نوم عميق، لا يحسّون معه بشيء، ومن تدبيره سبحانه أنّه لو نظر إليهم أحد لحسبهم أيقاظاً منتبهين لا نياماً راقدين، ذلك أن أعينهم كانت مفتوحة حال نومهم، تماماً كالأيقاظ.

ولأجل أن لا تتأثر أبدانهم بطول المكث على الأرض، ولا تبطل قواهم البدنية بالخمود والركود، كانوا يُقلَّبون من جنب إلى جنب. والظاهر أن تقلبهم من اليمين إلى الشمال وبالعكس كان بأمر من الله سبحانه لا من عند أنفسهم، لأنّه يسند التقليب إلى نفسه، حيث يقول: ﴿وَ نُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾.

ومع ذلك ، يمكن أن يقال أن التقلب كان حركة طبيعية لهم كما هو المشاهد في النائمين العاديين حيث يتقلبون من جهة إلىٰ جهة، ولا مانع من نسبة فعلهم إلى الله سبحانه لأنّ الفعل المباشر للإنسان فعل تسبيبي لله سبحانه، ولذلك يقول: ﴿وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[٢].

---

١. التفسير القرآني للقرآن: ٨/ ٦٠١.

٢. الأنفال: ١٧.

وإلىٰ ما ذكرنا يشير قوله سبحانه ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَ هُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾.

ثم يأتي بعد ذلك ذكر كلبهم، فيقول ﴿وَ كَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ وقد مرّ أن الوصيد بمعنى مدخل الكهف، أو فِنائه.

وأمّا الأمر الثالث: وهو حال من يراهم ويدخل عليهم، فإنّ الله سبحانه يصفها بقوله: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

والخطاب لكل من يُفترض اطّلاعه عليهم. والمعنىٰ: أنّه لو أشرف عليهم إنسان، ورأىٰ وضعهم ومنظرهم، لهرب منهم خوفاً من أن يصله مكروه منهم، ولَمُلئ كلّ كيانه رُعباً وفزعاً.

أمّا الوجه في ترتيب الجملتين: ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾، فهو ـ كما يقول السيد الطباطبائي ـ أنّ الفرار ـ وهو التبّعد عن المكروه ـ معلول لتوقّع وصول المكروه تحذّراً منه، وليس بمعلول للرعب، الّذي هو الخشية وتأثر القلب، والمكروه المُترقَّب يجب أن يُتحذَّر منه، سواء كان هناك رعب أو لم يكن. فتقديم الفرار على الرعب ليس من قبيل تقديم المسبَّب على سببه، بل من تقديم حكم الخوف على الرعب، وهما حالان متغايران قلبياً، ولو استُبدل الخوف بالرعب، لكان من حق الكلام تقديم الجملة الثانية على الأُولىٰ.[1]

***

---

١. انظر الميزان في تفسير القرآن: ١٣ / ٢٥٦.

إيقاظهم من النوم وسؤال بعضهم بعضاً

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾[1].

مفردات الآيتين:

بعثناهم: أيقظناهم.

الوَرِق: ـ بكسر الراء ـ: الدراهم. وكأنّه كانت معهم دراهم عليها صورة الملك الّذي كان في زمانهم.

التلطّف: إعمال اللطف والرفق، وإظهارهما.

يظهروا عليكم: يطّلعوا عليكم، ويعلموا بمكانكم .

يرجموكم: يقتلوكم بالرجم.

يعرض القرآن الكريم في هذا المقطع من القصة، مشهد الفتية وهم يستيقظون من رقدتهم الطويلة ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي كما أنمناهم قروناً بهذه

---

١. الكهف: ١٩ ـ ٢٠.

الصورة العجيبة الغريبة الّتي تعدّ آية علىٰ قدرتنا المطلقة، كذلك أيقظناهم. وأما غاية البعث (الإيقاظ)، فقد ذكرها سبحانه بقوله: ﴿لِيَتَسَاءَلُوا[١] بَيْنَهُمْ﴾ عن مدة نومهم، ويتحاوروا في هذا الشأن، فتظهر لهم حقيقة الأمر.

إن عملية تغيير الأوضاع الفاسدة وتقويض ذلك الكيان الوثني الظالم، الّتي امتدت فترة طويلة، قد جرت ـ بنظرة أُخرىٰ ـ في مثل يوم أو بعض يوم.

وفي هذا تنبيه إلىٰ أنّ أيام الباطل مهما طالت، فإنّها ليست بشيء في الحساب الربّاني، وأنّ علىٰ أصحاب الحق أن يزدادوا يقيناً وبصيرة بقدرة الله الغالبة، وإرادته النافذة في تصريف الأُمور وتدبيرها، فلايصيبهم اليأس والقنوط، ولا يستطيلون أيام أهل الباطل، ويستثقلون وطأته، ويبهرهم جبروته، (بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ ٱلْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً، ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً!)[٢].

لما بعث الله سبحانه هؤلاء الفتية من نومتهم الطويلة، أخذ أحدهم يسأل الآخرين ويقول: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ كأنّه استشعر طول رقدتهم، فأجاب بعضهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ولمّا كان الجواب مبنياً على ظن غير واضح، ردّ بعض آخر منهم عليهم، مفوّضين علم ذلك إلى الله، حيث: ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وهذا دليل على كمال معرفتهم وتوحيدهم.

ثم ارتأوا وقد أحسّوا بالجوع الشديد أن يبعثوا أحدهم بالدراهم الّتي كانت معهم، ليشتري لهم طعاماً زكيّاً، والمراد به حلالاً لا حراماً أوّلاً، طيباً لا خبيثاً ثانياً،

---

١. قيل: إن اللام في ﴿لِيَتَسَاءَلُوا﴾ للعاقبة وليست للغاية. يعني أن نتيجة يقظتهم، هي أن سأل أحدهم الآخرين عن طول مدة نومهم.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٨٧.

كما قال سبحانه: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ والرزق هو القوت، كما قال سبحانه حاكياً عن يوسف: ﴿لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾[1].

ولمّا اجتمع رأيهم على بعث أحدهم لشراء الطعام، وكان هناك مظنة التعرف عليه وعلى مكانه، أوصَوا من بعثوه باليقظة والحذر حتّى لا يُعرف، وهذا ما عبّروا عنه بقولهم: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾، ويفسّره قولهم: ﴿وَ لاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

ومن الواضح أنّهم لو عُرفوا لقتُلوا رجماً لثباتهم على عقيدة التوحيد، أو أُكرهوا على اتّباع دين القوم وممارسة طقوسه.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أنّ التاء في ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ هي نصف حروف القرآن عدّاً، وهناك قول آخر وهو أنّ النون في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾[2] هي نصف حروف القرآن.

انكشاف أمرهم

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ﴾[3].

إنّ القرآن الكريم قد طوى الكلام عن كيفية انكشاف أمرهم، واطّلاع أهل

---

١. يوسف: ٣٧.

٢. الكهف: ٧٤.

٣. الكهف: ٢١.

المدينة علىٰ حالهم، ولكن يمكن فهم ذلك، من خلال السياق وحيثيات القصة، إذ لا شك في أن ممّا يثير الناس، ويلفت أنظارهم، هو وجود شخص في أوساطهم، لا يمتّ إليهم بصلة، بل ينتمي إلى عصر غابر، في شكله وزيّه وعاداته وطريقة تعامله وغير ذلك.

وقد تكون الوَرِق (النقود) الّتي دفعها لتسديد ثمن الطعام، والّتي ترجع إلى عهد بعيد، هي الّتي نَمَّتْ عليه، وكشفت أمره، أو كشفته أكثر .

ومهما يكن، لقد بانَ السرّ، وشاع بين أهل المدينة الخبر، فاحتشدوا عند باب الكهف، وعرفوا قصة أصحابه، الذين ما لبثوا أن قُبضت أرواحهم، وصاروا جثثاً هامدة.

لقد رأىٰ الناس هذه الحادثة العجيبة، في وقت كان ينازع بعضهم بعضاً في أمر البعث ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾، فطائفة تقرّ به، وأُخرى تُنكره، وتجحد بالمعاد.[١]

وهكذا أراهم سبحانه هذه الآية (ليستدلوا بما يؤديهم إلى العلم بأنّ وعد الله في قيام الساعة حق)[٢]، فكما تجلّت قدرته تعالى في هذا الأمر الخارق للعادة بإنامتهم زمناً طويلاً (حتّى شابَهَ حالُهم حال الموتىٰ)، ثم إيقاظهم (الّذي يُشبه البعث والإحياء) من رقدتهم الطويلة، فإنّه تعالىٰ بهذه القدرة سيبعث الناس من قبورهم، ويردّ عليهم أرواحهم، ليجزيهم بما عملوا، وذلك حشر عليه يسير.

---

١. هذا أحد وجهي تفسير الآية، وقيل: إن التنازع بينهم كان في أمر الفتية: هل هم نائمون أو ميّتون؟ أو غير ذلك من موارد التنازع والاختلاف.

٢. التبيان في تفسير القرآن: ٧ / ٢٥.

وبذلك يتضح أنّ إيقاظهم بعد النوم كان لغايتين:

الأُولى: ما أشار إليه بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ وهذه الغاية ترجع إلى نفس أصحاب الكهف.

الثانية: ما ذكر في المقام: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾.

اختلاف الحاضرين في شأنهم

بعد أن اطّلع الناس على أصحاب الكهف، اختلفوا في شأنهم، وفيما يصنعون بهم بعد أن ماتوا، فذهب فريق منهم إلى هذا الرأي:

﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً﴾ أي أغلقوا باب الكهف واستروهم عن أعين الناس واجعلوهم وراء هذا البنيان .

ويُظن أنّ القائلين بذلك هم الوثنيون، وكأنهم أرادوا بذلك أن يُخفوا أمرهم، لكي ينساه الناس، ولا يتحدثون به، باعتباره برهاناً ساطعاً لإثبات البعث، الّذي هم ينكرونه، مظهرين أنّ أمرهم من الأسرار المجهولة الّتي لا تُعرف ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ . ويؤيد ذلك قولهم: ﴿رَبُّهُمْ﴾ مكان «ربّنا».

ولم يصمد هذا الرأي أمام الرأي الّذي طرحه الفريق الآخر وهو أن يبنوا عليهم مسجداً، يُتعبّد فيه لله، وتبقىٰ به قضيتهم حيّةً في النفوس ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ الضمير المجرور يرجع إلى ما عاد عليه ضمير «فقالوا» أي قال الذين غلبوا علىٰ أمر القائلين ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً﴾ والمراد من الغلبة أحد

الأمرين: الغلبة بالحجة حيث قامت حجةٌ علىٰ صحة البعث، أو الغلبة من حيث انحسار الوثنية عن الساحة واستقرار الديانة التوحيدية.

وعلى كل تقدير، تمّ إقرار رأي الفريق الثاني، القاضي ببناء مسجد وموضع للعبادة والسجود عليهم، كما قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ وفي التعبير بالمسجد دون المعبد دلالة علىٰ أنّ أصحاب هذا الرأي هم الموحدون، لأنّ المسجد في عرف القرآن هو المكان المختص لذكر الله سبحانه، قال تعالىٰ ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ﴾[1].

وهذا يدل على مشروعية بناء المساجد عند قبور أولياء الله تبركاً بتربتهم، لأن القرآن يذكر ذلك دون ردٍّ عليه، فلو كان أمراً محرّماً لأشار إليه .

ومن عجائب المدَّعيات ما ذكره الألباني في كتابه «تحذير الساجد عن اتخاذ القبور مساجد» حيث ردّ دلالة الآية علىٰ جواز بناء المساجد على القبور قائلاً: بأنّ المراد من قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا﴾ هو الأمراء والحكام ولا حجيّة لقولهم.

ولكنه غير صحيح لوجهين:

أوّلاً: قول الكثير من المفسرين إنّ أهل المدينة في ذلك العصر، كانوا مؤمنين موحِّدين، وقد فهموا ذلك من حفاوتهم الشديدة واهتمامهم البالغ بالفتية المؤمنين بعد انكشاف أمرهم.

وثانياً: إنّ القرآن الكريم يذكره بصورة المدح في مقابل الاقتراح الأوّل، فلو

---

١. الحج: ٤٠.

كان أمراً غير مشروع لنبّه عليه، وهذه هي السنّة المتبعة في الذكر الحكيم، فعندما ينقل شيئاً عن غيره وكان أمراً باطلاً، يقوم بنقده والتنديد به، نظير ما ينقله عن فرعون، فإنّه عندما أخذه الموج واقترب من الهلاك، أظهر الإيمان وقال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

فوافاه الجواب: ﴿آلآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(٢).

***

الاختلاف في عددهم

﴿سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَ لاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾(٣)

﴿وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍ وَ لاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾(٤).

كان الاختلاف الأوّل راجعاً إلى أهل المدينة الذين عثروا على الكهف ورأوا

١. يونس: ٩٠.

٢. يونس: ٩١.

٣. الكهف: ٢٢.

٤. الكهف: ٢٥ ـ ٢٦.

بأُم أعينهم أجساد اللاجئين إليه وقد بيّن سبحانه ذلك الاختلاف الدائر بينهم بالبناء عليهم وإغلاق فتحة الكهف، أو بإقامة مسجد عليهم، وقد مرّ.

والآية المتقدّمة تشير إلى اختلاف ثان يرجع إلى الاختلاف في عددهم، وهذا لا يمتّ إلى أهل المدينة بصلة، إذ لا معنىٰ لاختلافهم في عددهم وهم بمرأىٰ من أعينهم، بل هو يرجع إلى الخائضين في قصتهم من أهل الكتاب وغيرهم في عهد الرسول ﷺ، أو بعد زمن يسير من وقوع الحادثة، وعلىٰ ذلك، يرجع الضمير في قوله ﴿سَيَقُولُونَ﴾ إلى الناس. حيث كانوا مختلفين في عددهم إلىٰ أقوال ثلاثة:

١. إنّهم ثلاثة رابعهم كلبهم.

٢. خمسة سادسهم كلبهم.

٣. سبعة وثامنهم كلبهم.

أمّا القولان الأوّلان فيصفهما الذكر الحكيم بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وهو تعبير عن القول بغير علم. والرجم بالغيب أصله رمي الحجارة إلىٰ مرمىً مجهول، لا يعرف الرامي أين تقع .

أمّا القول الثالث فلا يردّ عليه القرآن بشيء، ولكن يقول بعده: ﴿قُل رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فهل في هذا الرد إشعار بتزييفه أو لا؟ الظاهر هو الثاني حيث نقله ولم يردّ عليه بشيء، ولا ينافيه قوله: ﴿قُل رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ لما تضمّنه من التعقيب : ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، ولعل الطائفة الثالثة هم المعنيون بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾، ويشهد على ما

ذكرنا من انّه ليس إشعاراً بتزييفه أنّه سبحانه يخبر عن مقدار لبثهم بقوله: **﴿وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعًا﴾** ثم يقول بعده: **﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾**.

ثم إنّه سبحانه يكلّف الرسول الأعظم ﷺ بأمرين:

١. أن يدَعَ المراء والجدل الطويل في أمر أصحاب الكهف **﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾**، ويكتفي بإلقاء ما عنده من علم في هذا الصدد في يسر ولين، من غير تجهيل ولا ردٍّ للخائضين في قصتهم، وهو ما استثناه تعالىٰ بقوله **﴿إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً﴾**.

فمسألة عدد هؤلاء الفتية ـ مثلاً ـ من المسائل الّتي لا سبيل إلى إثباتها إلّا بطريق الوحي، ومن هنا يُصبح الجدل حولها عقيماً، والأخذ والردّ فيها مدعاة للتشويش على الهدف الّذي سيقت القصة لأجله.

ولاشك في أنّ التمادي في الجدل في القضايا الجزئية وغير المهمة، هو استنزاف للوقت، وتضييع للجُهد، وتأجيج لمشاعر البغض والعداء. ومن هنا نهى الإسلام عنه، وحذّر من غوائله الخطيرة، ودعا المؤمنَ إلى ترك المراء ولو كان محقّاً.

٢. أن لا يسأل أحداً (ممن يدّعون العلم بقصة أصحاب الكهف) في شأنهم **﴿وَ لاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾**.

إنّ المسؤول ينبغي أن يكون عالماً بالموضوع الّذي يُسأل عنه، معتمداً على الدليل في إثبات أو نفي مسائله، حتّى يستهدي به السائل، ويصل إلى الحق الّذي

لا شك فيه، وهؤلاء لا حظّ لهم ممّا ذُكر، وإنّما يرجمون بالغيب، ويجازفون في أقوالهم .

ولا ريب في أنّ من يَرِد نبع القرآن الفيّاض، وينهل من نميره العذب، لايبحث عن الأوشال، ولا يسعىٰ نحو السَّراب.

ثم بيّن سبحانه الفترة الّتي قضاها الفتية راقدين في الكهف، بقوله: **﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعًا﴾** هذا هو القول الحق، لقد مكثوا في النوم (٣٠٩) سنوات، فلا ينبغي الإصغاء إلى قول آخر، فالذي أنامهم، هو أعلم بمدة نومهم من غيره **﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾**.

وبما أنّ ما جاء حول أصحاب الكهف كان من الأخبار الغيبية وقد تعلّمه النبي ﷺ عن طريق الوحي، فإنّ الله يصف نفسه في القرآن بأنّ **﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ﴾** ثم يتلوه قوله: **﴿أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ﴾** وهما لفظا التعجب، ومعناه ما أبصره وأسمعه، أي ما أبصر الله تعالىٰ بكل مبصر وما أسمعه لكل مسموع.

﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِـيٍ﴾ أي ليس لأهل السماوات والأرض ولي يتولّىٰ أُمورهم ولا يشرك الله في حكمه أحداً أي في ملكه.

إلى هنا تتم قصة أصحاب الكهف حسب ما ورد حولها من الآيات القرآنية، وبقي هنا كلام وهو تعيين محل الكهف ومكان هذه القصة.

***

الموقع الجغرافي للكهف

ما ذكره القرآن الكريم من هذه القصة هو اللب والثمرة وقد ترك التفاصيل الّتي لا عبرة فيها، وهذه هي سيرة القرآن الكريم حيث يقتصر في سرده للقصص علىٰ مختارات من نكاتها المهمة المؤثرة في إيفاء الغرض من غير أن يبسط القول فيما يفقد النكتة والعبرة ومنها التعرض للأوضاع الجغرافية ومحل الكهف. ولذلك اختلفت كلمات المؤرخين في محله، وقد عُثر في مختلف بقاع الأرض علىٰ عدةٍ من الكهوف، وعلىٰ جدرانها تماثيل رجال ثلاثة أوخمسة أو سبعة ومعهم كلب.

وإليك الإشارة إلىٰ تلك المواضع:

١. كهف «إفسوس» [١] بكسر الهمزة وهي مدينة خربة في تركيا على مسافة ٧٣ كيلومتراً من بلدة «إزمير» والكهف على مسافة كيلو متر واحد أو أقل من «إفسوس» وهذا هو المشهور بين المفسرين. نعم ليس في فم الكهف مسجد أو صومعة، ولعله خرِّب عبر السنين.

٢. كهف «رجيب» وهذا الكهف ـ الّذي شاهدته عن كثب عندما زرت الأردن لإلقاء محاضرة عام (١٤١٩ هـ) ـ وهو واقع على مسافة ثمانية كيلو مترات من مدينة عمان عاصمة الأردن بالقرب من قرية تسمى رجيب، والكهف في جبل محفوراً على الصخرة في السفح الجنوبي منه، وأطرافه من الجانبين الشرقي

---

١. قال ابن عاشور: أَبْسُس: كان بلداً من ثغور طَرَسوس بين حلب وبلاد أرمينية وأنطاكية. وليست هي (أفسس) بالفاء، المعروفة في بلاد اليونان بشهرة هيكل المشتري فيها، فإنها من بلاد اليونان، وقد اشتبه ذلك على بعض المؤرخين والمفسرين. التحرير والتنوير: ١٥ / ٢١.

والغربي مفتوحة، وباب الكهف يقابل جهة الجنوب، وفي الغار عدة قبور على هيئة النواويس البيزنطية كأنّها ثمانية أو سبعة .

وفوق الغار آثار صومعة بيزنطية تدل النقود والآثار الأُخرى المكتشفة فيها على كونها مبنية في زمان الملك جوستينوس الأوّل (٤١٨ ـ ٤٢٧ م) وآثار أُخرى على أنّ الصومعة بدّلت ثانياً بعد استيلاء المسلمين على الأرض مسجداً إسلامياً.

قال السيد الطباطبائي: إنّ مشّخصات هذا الكهف أوضح انطباقاً علىٰ ما في القرآن .

٣. كهف جبل قاسيون في الشام بالقرب من الصالحية بدمشق الشام ينسب إلى أصحاب الكهف.

٤. كهف بالبتراء من بلاد فلسطين ينسبونه إلى أصحاب الكهف.

٥. كهف اكتشف في شبه جزيرة اسكندنافية من أوربا الشمالية، عثروا فيه علىٰ سبع جثث غير بالية علىٰ هيئة الرومانيين، يظن أنهم الفتية أصحاب الكهف.

وهناك كهوف أُخرى منسوبة إلى أصحاب الكهف أيضاً، كما يذكر أنّه بالقرب من بلدة نخجوان من بلاد قفقاس يوجد كهف يعتقد أهل تلك النواحي أنّه كهف أصحاب الكهف، ولا يمكن الاعتماد على هذه النقول.

وبما أنّ القصة رومانية وسلطتهم حتّى في أيام مجدهم لم تبلغ نواحي أوربا الشمالية أو القفقاس، فالأَولىٰ تفويض العلم إلى الله سبحانه.[1]

---

١. انظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٣ / ٢٩٥ ـ ٢٩٩.

الدروس والعبر

إنّ فيما مضىٰ من قصة أصحاب الكهف عبراً وعظات:

١. إذا واجه الموحِّد ما يمنعه من حفظ دينه والعمل بشعائره في وطنه، يلزم عليه الهجرة إلىٰ مكان آخر حتّى يحتفظ بدينه، كما فعل ذلك أصحاب الكهف.

٢. إذا اختار المؤمن الغربةَ وتركَ الوطن والحياة بين قومه وعشيرته من أجل عقيدته، فسوف تكتنفه الألطاف الإلهية وينشر ربه رحمته عليه كما كان الحال كذلك في أصحاب الكهف.

٣. إنّ العقيدة أعز الأشياء لدى الموحِّد ولا يعادلها شيء، فإذا كان هناك تصادم بين العقيدة والعيش الرغيد، فالموحِّد يأخذ بالأولىٰ ويترك الثاني، وقد حكي أنّ أصحاب الكهف كانوا من حاشية الملك ومقربيه ووزرائه، ولكنّهم حين رأوا أنّ بقاءهم في البلاط يصادم عقيدتهم التوحيدية، فإنّهم تركوا البلاط وما فيه من نعم وتمسّكوا بعقيدتهم مهاجرين .

٤. إنّ العيش في الغار مع كونه مظلماً وفاقداً لوسائل الحياة، كان عندهم بسبب ما يعمر قلوبهم من الإيمان، أجملَ من القصور والرياض والنعم الّتي كانوا فيها .

وهذا هو ديدن الموحِّدين العارفين حيث يرجّحون السجن علىٰ عصيان الله تبارك وتعالىٰ، وقد مرّ بنا أنّ النبي يوسف ﷺ عندما خُيّر بين السجن وارتكاب الحرام، تمنّى الأوّل وقال : ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[1] .

---

١. يوسف: ٣٣.

٩

الخارجون من ديارهم حذر الموت

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾[١].

مفردات الآية:

«الرؤية» في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى العلم، عُبِّر بذلك لدعوى ظهور الموضوع بحيث يُعدّ فيه العلمُ رؤية، نظير قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[٢] وقد وردت صيغة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في القرآن ٣١ مرة، واستعملت تارة في موارد قريبة من الرؤية الحسّية كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[٢]، وأُخرى بعيدة عنها بحيث لا تدرك إلّا بالبرهان كقوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾[٣] والجامع بينهما أنّ المرئي بلغ من الظهور، مبلغاً يصحّ حثّ المخاطب على رؤيته.

---

١. البقرة: ٢٤٣.

٢. الفيل: ١.

٢. الحج: ٦٣.

٣. النور: ٤١.

وعلى ما ذكرنا فالرؤية في الآية بمعنى المشاهدة الحسية وليست بمعنى العلم، وإلّا يفقد الكلام بلاغته، فإنّ قوام بلاغته هو ادعاء أنّ الموضوع بلغ من الثبوت والظهور مرتبة قابلة للرؤية، وهذا لا يحصل إلّا إذا كانت الرؤية بنفس معناها لا بمعنى العلم، بل بمعنى المشاهدة الحسّية، لكن ادعاءً.

ونزيد بياناً انّا قد قلنا في محله: إنّ المجاز ليس من مقولة استعمال اللفظ في غير معناه الحقيقي، كاستعمال الأسد في الرجل الشجاع، كما هو المعروف بين علماء البيان، بل من مقولة استعماله في معناه الحقيقي لكن بادّعاء انّ المورد من مصاديقه، كادّعاء أنّ الرجل الشجاع من مصاديق الأسد، وإلّا لما دلّ الكلام على المبالغة الّتي سيق لأجلها الكلام.

ويوضح ما ذكرنا قول الشاعر:

قامت تُظلّلني ومن عجب شمس تظلّلني من الشمس

إذ ان الشاعر يسلّم ـ ولو ادعاءً ـ أنّ معشوقته من مصاديق الشمس الّذي له نور وضوء وحرارة، وعند ذلك يثير تعجبه بأنّه كيف تظلل الشمس من الشمس، ولو كان لفظ الشمس مستعملاً ابتداء في المرأة ذات الوجه الحسن، لما كان للتعجب وجه. إذ كون إنسان ـ مهما كان حسن الوجه ـ مانعاً عن ضوء الشمس لا يُثير العجب.

«أُلوف»: جمع «ألف»، وهي كناية عن الكثرة. قال الطبرسي: الظاهر أنّهم كانوا أكثر من عشرة آلاف، لأنّ بناء «فعول» للكثرة وهو ما زاد على العشرة وما نقص عنها يقال فيه آلاف يقال: عشرة آلاف ولا يقال عشرة أُلوف.

وعن بعضهم أنّه جَمعُ «إلف» مثل قاعد وقعود، وشاهد وشهود وعليه فمعنى الآية خرجوا مؤتلفي القلوب لم يخرجوا عن تباغض.(١) وهو بعيد عن متبادرَ الآية.

وأكثر المفسرين علىٰ أنّ الآية سيقت لبيان قصة من قصص بني إسرائيل أو غيرهم وأنّه سبحانه أحيا قوماً خرجوا من أوطانهم هاربين من الطاعون، لا يُحصىٰ عددهم فأماتهم الله دهراً طويلاً حتّىٰ بَليَتْ عظامُهم وتقطّعت أوصالهم، فمرّ عليهم «حزقيل» وجعل يتفكر فيهم متعجباً منهم، فأحياهم الله بدعائه.

سأل حمران بن أعين أبا جعفر الباقر عليه السلام عن هؤلاء القوم الذين قال لهم الله موتوا ثم أحياهم فقال: أحياهم حتّى نظر الناس إليهم ثم أماتهم، أم ردّهم إلى الدنيا حتّى سكنوا الدور وأكلوا الطعام؟ قال عليه السلام: لا بل ردّهم حتّى سكنوا الدور وأكلوا الطعام ونكحوا النساء ومكثوا بذلك ما شاء الله ثم ماتوا بآجالهم.

وما ذكرنا من التفسير هو المروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أيضاً، فقد روى الشيخ الصدوق مناظرة الرضا عليه السلام مع أهل الأديان وأصحاب المقالات، وممّا جاء فيها، قوله عليه السلام للجاثليق (رئيس الأساقفة): فمتى اتخذتم عيسى ربّاً جاز لكم أن تتخذوا «اليسع» و «حزقيل» ربّين لأنّهما قد صنعا مثل ما صنع عيسى بن مريم عليهما السلام من إحياء الموتىٰ وغيره، وإنّ قوماً من بني إسرائيل خرجوامن بلادهم من الطاعون وهم ألوف حذر الموت، فأماتهم الله في ساعة واحدة، فعمد أهل تلك القرية فحظروا عليهم حظيرة، فلم يزالوا فيها حتّى نخرت عظامهم وصاروا

---

١. مجمع البيان: ١ / ٣٤٦.

رميماً، فمرّ بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل، فتعجب منهم ومن كثرة العظام البالية، فأوحى الله تعالى إليه: أتحبُّ أن أُحييهم لك فتنذرهم؟ قال: نعم يا رب، فأوحى الله إليه أن نادِهم فقال: أيتها العظام البالية! قومي بإذن الله تعالىٰ، فقاموا أحياء أجمعون ينفضون التراب عن رؤوسهم.(١)

ثم إنّ بعض المفسرين يروقهم تأويل المعاجز والكرامات الواردة في القرآن الكريم، علىٰ نحو يخرجها عن كونها من الأُمور الخارقة للعادة والقوانين العامة السائدة على الكون، منهم: الشيخ محمد عبده ﷺ فإنّه يصبّ جهوده لتأويل هذا النوع من الآيات ويفرغ مفاهيمها في قالب التمثيل. يقول حول الآية: إنّ الآية لو كانت مسوقة لبيان قصة من قصص بني إسرائيل كما يدل عليه أكثر الروايات أوغيرهم كما في بعضها لكان من الواجب الإشارة إلىٰ كونهم من بني إسرائيل، وإلى النبي الّذي أحياهم كما هو دأب القرآن في سائر قصصه مع أنّ الآية خالية عن ذلك، علىٰ أن التوراة أيضاً لم تتعرض لذلك في قصص «حزقيل» النبي على نبينا وآله وعليه السلام، فليست الروايات إلّا من الإسرائيليات الّتي دسّتها اليهود.

مع أنّ الموت والحياة الدنيويتين ليستا إلّا موتاً واحداً أو حياة واحدة كما يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾(٢)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾(٣)، فلا معنىٰ لحياتين في الدنيا هذا.

فالآية مسوقة سوق المثل، والمراد بها قوم هجم عليهم أُولوا القدرة والقوة

---

١. عيون أخبار الرضا: ١ / ١٤٤، الباب ١٢ (منشورات مؤسسة الأعلمي).

٢. الدخان: ٥٦.

٣. غافر: ١١.

من أعدائهم لاستذلالهم واستخزائهم وبسط السلطة فيهم والتحكّم عليهم، فلم يدافعوا عن استقلالهم، وخرجوا من ديارهم وهم ألوف لهم كثرة وعزيمة حذر الموت، فقال لهم الله موتوا موت الخزي والجهل، فإنّ الجهل والخمود موت كما أنّ العلم وإباء الضيم حياة، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[١]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[٢].

وبالجملة فهؤلاء يموتون بالخزي وتمكُّن الأعداء منهم ويبقون أمواتاً، ثم أحياهم الله بإلقاء روح النهضة والدفاع عن الحق فيهم، فقاموا بحقوق أنفسهم واستقلّوا في أمرهم، وهؤلاء الذين أحياهم الله وإن كانوا بحسب الأشخاص غير الذين أماتهم الله إلّا أنّ الجميع أُمّة واحدة ماتت في حين، وحُييت في حين بعد حين، وقد عدّ الله تعالى القوم واحداً مع اختلاف الأشخاص كقوله تعالىٰ في بني إسرائيل: ﴿أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾[٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[٤] ولولا ما ذكرناه من كون الآية مسوقة للتمثيل، لم يستقم ارتباط الآية بما يتلوها من آيات القتال، وهو ظاهر.[٥]

---

١. الأنفال: ٢٤.

٢. الأنعام: ١٢٢.

٣. الأعراف: ١٤١.

٤. البقرة: ٥٦.

٥. لاحظ: الميزان: ٢ / ٢٨٣ ـ ٢٨٤، ملخّصاً عن رأي الشيخ عبده، الّذي نقله تلميذه السيد محمد رشيد رضا في تفسيره المنار: ٢ / ٤٥٧ ـ ٤٥٩.

يلاحظ عليه بأُمور:

أوّلاً: لو كان خروجهم من هجوم أُولوا القدرة والقوة من أعدائهم، كان اللازم ان يقول: أُخرجوا من ديارهم، كما في نظائره يقول سبحانه في حق المؤمنين المشرّدين من أوطانهم: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ**﴾[1]، وقوله في جماعة من بني إسرائيل: ﴿**قَالُوا وَ مَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَ أَبْنَائِنَا**﴾[2].

ثانياً: ما ذكره من أنّ الموت والحياة الدنيويتين ليستا إلّا موتاً واحداً، لو صحّ يلزم ردّ كل ما دلّ علىٰ تعددهما في الحياة الدنيا. كما في قصة موسىٰ[3]، وعيسى[4] وعزير[5].

أضف إلىٰ ذلك أنّ وحدة الموت والحياة الدنيويتين ضابطة لا تمنع من خروج موارد نادرة لأجل أغراض سامية.

بل يمكن أن يقال: إنّ الحياة الدنيوية وإن تخلل بينها الموت، حياة واحدة في مقابل الحياة الأخروية.

وأمّا عدم الإشارة إلى كون القصة راجعة إلىٰ بني إسرائيل أو غيرهم، نظير عدم الإشارة إلى النبي الّذي أحياهم بدعائه، لا يضرّ بكونها قصة لاتمثيلاً لما مرّ

---

١. الممتحنة: ٨.

٢. البقرة: ٢٤٦.

٣. الأعراف: ١٥ .

٤. المائدة: ١١٠ .

٥. البقرة: ٢٥٩ .

من أنّ القرآن إنّما يعرض من جوانب القصة، ما فيه عبرة، وأمّا الخارج عنها، فربما يختزل فيه المقال. ومن دَرس القصص القرآنية يـجد ذلك بـوضوح، وربّـما لا يتعرض لما هو معلوم من القرائن.

تطبيق الآية علىٰ خروج بني إسرائيل من مصر

إنّ ما ذكره الشيخ عبده من «أنّ الآية سيقت مساق المثل، وانّه سبحانه بصدد بيان أنّ الخزي والجهل موت، وأن إباء الضيم والعلم حياة، وأنّه لم يتعلق الغرض ببيان حال طائفة خاصة»، صار ذريعة لتأويل الآية بشكل آخر، يقرب ممّا ذكـره الشيخ، ولكن بتطبيقه علىٰ خروج بني إسرائيل، حيث إنّ عبادتهم العجل في التيه عُدّ موتاً لهم، وخروجهم منه بعد أربعين سنة حياة لهم. وإليك نص ما ذكره:

فإنّه بعد أن خرج بنو إسرائيل من مصر، وبعد أن رأوا من آيات الله ما رأوا عادوا فكفروا بآيات الله وعبدوا العجل، واتـخذوه إلـهاً مـن دون الله، فكـان أن عاقبهم الله بأن كتب عليهم التيه في الصحراء أربعين سنة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾[1]. وهذا موت أدبـي وماديّ معاً، فقد عزلهم الله بهذا التّيه عن الحياة، وعن المجتمع البشري كـله، لا يدرون أين هم في هذا القبر الكبير الّذي أطبق عليهم، وسدّ دونهم منافذ الخروج منه!

ثم تقول الآية الكريمة بعد هذا: ﴿ثُمَّ أَحْـيَاهُمْ﴾ أي قـال لهـم الله مـوتوا، فماتوا.. ثم أحياهم أي أخرجهم من هذا التيه، وبعثهم من هـذا القـبر المشـتمل

---

١. المائدة: ٢٦.

عليهم، بعد أن قضوا الأربعين سنة المحكوم عليهم بها.

وتقول الآية في خاتمتها: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ تنبيهاً لأُولئك الغافلين عن نعم الله وأفضاله، ليقوموا بحق شكرها، بالإخبات لله والحمد له، ولكن أكثر الناس يجحدون بآيات الله ويكفرون بنعمه !

وفي قوله تعالى: ﴿وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ تشنيع علىٰ بني إسرائيل وإدانة لهم بأنّهم استقبلوا نعم الله بالجحد والكفران.. كانوا في قبضة فرعون أمواتاً أو كالأموات فأحياهم الله، إذ خلّصهم من عدوهم، ولكنهم كفروا النعمة وجحدوا المنّة فأماتهم الله بالتيه في الصحراء أربعين سنة، ثم أحياهم إذ أخرجهم من هذا التّيه، فلم يكن منهم إلّا الجحود والكفران.[١]

يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره من مقولة تأويل الآية ، ليس عليه أيّ دلالة في ظاهرها، لا في مفرداتها ولا في جملها، ولو كان المراد ما ذكره فَلِمَ أجْمله وأبهمه علىٰ نحو لا يدور في خلد أحد من الناطقين بلغة الضاد، فليس ما ذكره إلّا من مقولة التأويل الممنوع.

والّذي دعاه، ومن قبله أُستاذه الجليل إلىٰ هذا النوع من التصرف في الآية، هو استيلاء منطق الماديين يوم ذاك علىٰ مصر فلم يجدوا محيصاً عن تأويل الآيات الواردة حول المعاجز، بشكل لا يخالف مذاهب الماديين، وبذلك يُريحوا أنفسهم من مواجهة الماديّين في هذه الميادين.

---

١. التفسير القرآني للقرآن: ١ / ٣٠١ ـ ٣٠٢.

هذا، وإنّ الفائدة الّتي يمكن استخلاصها من هذه القصة، هي إلفات الأنظار إلىٰ حقيقة أنّ أمر الحياة والموت يرجع إلى الله سبحانه، الّذي بيده ناصية كلّ دابة، فهو الّذي يهب الحياة إذا أراد، وهو الّذي يسلبها إذا شاء، وفق حكمة تقف وراء تنفيذ إرادته، وصدور مشيئته.

وهذه الحقيقة الّتي يريد القرآن الكريم ترسيخها في حسّ المؤمن، لها آثارها الإيجابية في حياته، وهو يمارس دوره الرسالي والاجتماعي، إذ يبادر إلى الطاعة، والإقدام على كل عملٍ يُكلَّف به، وعلى البذل والعطاء في كافة الميادين، دون خوف ووجل، أو جزع وفزع ممّا يواجهه مهما كان مهولاً، لأنّه موقن بأنّ قضاء الله لا يُردّ، وأنّ الأجَلَ إذا جاء لا يؤخَّر، وأنّ (ٱلْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لَا يَفُوتُهُ ٱلْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ ٱلْهَارِبُ)[1]، وأنّ (ٱلْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلَا مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ)[2].

---

١. نهج البلاغة: ١٨٠، الخطبة: ١٢٣.

٢. نهج البلاغة: ١٨١، الخطبة: ١٢٤.

١٠

ذو القَرْنَين

سُئل النبي الأكرم ﷺ عن ذي القرنين وأخباره وسيرته، فوافاه الوحي الإلهي بالجواب الّذي تُستخلص منه العبرة والفائدة، فذكر جانباً من سيرته وأعماله دون الخوض في التفاصيل، كالإفصاح عن هويّته، والعصر الذي عاش فيه، والمصير الّذي انتهىٰ إليه، وعن مقر مُلكه، والبلاد الّتي سار إليها بجيوشه.

وقد مهّد القرآن الكريم في حديثه عن ذي القرنين بالإشارة إلى ما أوتي من المُلك العظيم والإمكانات الهائلة، ثم ذكر له ثلاث رحلات، سار خلالها في اتجاهات مختلفة. وإليك الآيات المتعلقة برحلته الأُولىٰ وما قبلها:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[١].

١. الكهف: ٨٣ـ ٨٨.

مفردات الآيات وجملها

الذِّكْر: الخبر.

﴿**مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ**﴾: بَسَطْنا يده فيها وقوّيناه.

﴿**وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾: يسّرنا له كل شيء يتوصّل به إلى غـايته ومراده، من العلم وحسن التدبير والمال والثروة والقوة، وغير ذلك.

﴿**فَأَتْبَعَ سَبَبًا**﴾: مضىٰ في طريق ما هو ميسّر له .

العين: المراد بها هنا عُباب الماء ولُجّته.

﴿**حَمِئَةٍ**﴾: ذات حَمَأ، والحَمأ والحَمْأة: الطين الأسـود. والظـاهر أنّ المـياه كانت عكرة محمّلة بالطين الأسود.

﴿**مَغْرِبَ الشَّمْسِ**﴾: مكان غروبها، حسب الرؤية لا في الواقع.

تتضمن الآيات المتقدمة بيان رحلة عظيمة مجهزة بالأسباب، وفي نـهاية الرحلة وجد ذو القرنين قوماً انحرفوا عن التوحيد إلى الشرك أوعن الإيمان إلى الكفر، فألهمه الله بأنّه مخيّر بين تعذيبهم والتنكيل بهم، وبين الإحسان إليهم.

وإليك تفصيل رحلته الأُولىٰ علىٰ ضوء الآيات الكريمة:

الرحلة الأُولىٰ

شق ذو القرنين طريقه نحو المغرب : ﴿**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَـغْرِبَ الشَّـمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ**﴾ بمعنى انّه انـتهىٰ إلىٰ مكـانٍ مـغمور بـالمياه

المحمّلة بالطين الأسود، ورأى الشمس تغرب هناك، وهذا يدل علىٰ أنّه وصل إلى شاطئ مياه تغمر مساحة واسعة جداً من الأرض، ولذلك رأى الشمس كأنها تغرب فيها.

لم يحدد القرآن الكريم هذا المكان، ولكن بعض المفسرين قال إنّه المحيط الاطلسي[1]. ورجّح غيره أنّه بحر إيجه، وبحر مرمرة وعلى امتدادهما البحر الأسود، حيث كانت الشمس (كماتراءت لذي القرنين) تغرب علىٰ آفاق تتاخم تلك البحار الضاربة لونها إلى السواد. [2] وهذا التحديد الأخير يرجع إلى الأخذ بالرأي الّذي يذهب إلىٰ أنّ ذا القرنين هو الملك الفارسي قورش الكبير، الّذي قاد حملة صوب الغرب لإخضاع بلاد ليديا (تركيا حالياً).

والآية تدل على أنّ لذي القرنين جيشاً جرّاراً وقدرة مالية ووسائل نقل وأرزاقاً متوفرة إلى غير ذلك ممّا تتوقف عليه تلك الرحلة العسكرية بواسطة المواصلات الرائجة في ذلك العصر .

فلما وصل إلى البلاد الّتي تقع عندها هذه العين، ترك له سبحانه ـ كما هو ظاهر الآية ـ حرية التعامل مع أهلها ﴿**قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**﴾.

وتسأل: هل هذا الخطاب كان عن طريق الوحي النبوي أو كان من قبيل التحديث، بناءً على أنّ ذا القرنين كان محدَّثاً وإن لم يكن نبياً، أو كان من قبيل الإلهام القلبي الّذي يمنحه سبحانه لغير الأنبياء؟

---

١. تفسير المراغي: ١٦ / ١٦.

٢. محمد هادي معرفة، شبهات وردود حول القرآن الكريم: ٤٧٤ .

والجواب: لولا القرائن الخارجية لدلّت كلمة ﴿قُلْنَا﴾ علىٰ أنّه كان نبياً، ولكن تضافرت الروايات وشهدت القرائن علىٰ أنّه كان إنساناً صالحاً ورجلاً مؤمناً، ملك الشرق والغرب وعمل في أهلها بالعدل والقسط.

وظاهر الآية البدائي أنّه سبحانه خيّره بين تعذيبهم وبين الإحسان إليهم، ولكن ذيل الآية يشهد بأنّه خوطب بكلا السلوكين، كلٌّ بملاك خاص وهو أنّهم كانوا بين مشرك وموحّد، والموحّد بين مفسد وصالح، فالمشرك والمفسد كانا محكومين بالتعذيب، والموحّد الصالح كان محكوماً بحسن الجزاء، ولذلك أعلن ذو القرنين عن موقفه منهم، وقال: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ أي يعذب في الدنيا بعذاب دنيوي كما أنّه سيعذب في الآخرة بعذاب مجهول كنهه، والظاهر أنّ المراد من الظلم هوالشرك، لأنّه المنصرف إليه في الذكر الحكيم، قال لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] .

ولم يكن التعذيب مختصاً بالمشركين بل يعم الموحِّد المفسد، ولذلك أضاف إلى الإيمان العمل الصالح، وقال: ﴿وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ فشَرَطَ العمل الصالح وراء الإيمان.

قوله: ﴿ فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ أي له الحسنىٰ جزاء، فقوله ﴿جَزَاءً﴾ تمييز أو حال، وتأنيث ﴿الْحُسْنَى﴾ لكونها صفة لموصوف مؤنث، أي المثوبة الحسنىٰ، أو الخصلة الحسنىٰ.

﴿وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي نتعامل معه بالحسن قولاً وعملاً.

---

١. لقمان: ١١.

إلى هنا انتهت الرحلة الأُولىٰ لذي القرنين، والعمل الّذي قام به في نـهاية الرحلة دليل على أنّ رحلته كانت رحلة دينية لنشر التوحيد ورفض الشرك وقطع الفساد في الأرض، ولم تكن لغاية البطر أو فتح الأقاليم وبسط الشوكة والسلطة.

هكذا هو الرجل الإلٰهي.

وهنا كلمة قيمة للأُستاذ الشيخ محمد جواد مغنية ﷺ يقول فيها بعد قوله سبحانه: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ...﴾: هـذا هـو الدستور لحكـم ذي القـرنين وسـلطانه، ويتلخص بهذه الكلمة: السيف لمن عصى الله، والحسنىٰ لمن أطاعه.. إنّ المال والعلم والسلطان نعمة عظمىٰ يمتحن الله بها عباده، فأمّا الأشرار فتزيدهم كفراً وطغياناً، وأمّا الأخيار فيتخذونها وسيلة إلىٰ طاعة الله ومرضاته، كما فعل ذو القرنين.[١]

الرحلة الثانية

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ[٢] وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً﴾[٣].

لما أتمّ ذو القرنين رحلته الأُولىٰ وبلغ مقصوده وغايته، بدأ برحلة أُخرى تقابل الأُولىٰ أي رحل إلىٰ جهة المشرق، فوجد هناك أُناساً، وصف تعالىٰ حالهم بقوله ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي من دون الشمس، فيظهر أنّ الأرض

---

١. التفسير الكاشف: ٥ / ١٥٧ ـ ١٥٨.

٢. مطلع الشمس: مكان شروقها، حسب الرؤية لا في الواقع.

٣. الكهف: ٨٩ ـ ٩١.

كانت صحراوية قاحلة، وكان أهلها يعيشون فيها حياة بدائية، فلم يعرفوا بناء البيوت الّتي تؤويهم وتحجبهم عن الشمس، وعلىٰ ذلك فالمراد بالستر: البناء أو الخيام أو الأشجار ذات الظل الكثيف .

ويحتمل أن يكون المراد به ما يستر الجسم، أي أنهم كانوا عراة لا لباس عليهم، يقيهم حرّ الشمس، والظاهر هو الأوّل.

وقد رجّح بعض المفسرين أنّ هذه الأرض تقع علىٰ شاطئ افريقية الشرقي، [1] في حين قال غيره (استناداً إلىٰ أنّ ذا القرنين هو قورش الكبير) أنّها المنطقة الصحراوية الممتدة من شمالي بحر قزوين حتّى شواطئ المحيط الهندي، وتشمل بلاد مكران وسيستان وبلوجستان.[2]

وأما ماذا فعل ذو القرنين في تلك الرحلة بأهلها، فإنّ الوحي الإلهي لم يذكر شيئاً عن ذلك.

ويمكن أن يقال: إنّه انتهج نفس الأُسلوب الّذي انتهجه في رحلته الأُولىٰ، فعذّب من أصرّ على الكفر والفساد، وجازىٰ بالإحسان من آمن. ويحتمل أنّه تركهم بحالهم إذ كان شأنهم كالوحوش والحيوانات، فلم يكونوا ناضجين من ناحية الفكر والعقل.

وفي نهاية المطاف يقول سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي هكذا كان شأن ذي القرنين ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ ولم يكن عمله خافياً علينا ، حيث إنّه سبحانه علام

---

١. في ظلال القرآن: ١٦ / ١٢ .

٢. شبهات وردود حول القرآن الكريم: ٤٨١ .

الغيوب لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فكان ذو القرنين يعمل تحت رعاية الله وعلمه .

الرحلة الثالثة

ولما أتم ذو القرنين مهمته في رحلتيه إلى الشرق والغرب، ذكر القرآن الكريم رحلة ثالثة له، وهذا ما تشير إليه الآيات التالية:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾(١).

مفردات الآيات

السَّدّ: الجبل، وكل حاجز يسد طريق العبور، وكأنّ المراد بالسَّدَّين: الجَبَلان.

الخَرْج: الجُعل والعطية .

---

١. الكهف: ٩٢ ـ ٩٨.

الرَّدْم: الحاجز. وسدّ الثلمة بالحجر، كما في المفردات.

الزُّبَر: جمع زُبْرة، وهي القطعة الضخمة.

الصَّدَف: جانب الجبل.

والقِطْر: النحاس أو الرصاص المذاب.

أن يظهروه: أن يعلوه.

شرع ذو القرنين هذه المرة برحلة ثالثة، وسلك طريقاً لم يحدّد القرآن الكريم اتجاهه، ولم يُسمِّ ـ كما في الرحلتين الأُوليين ـ الموضع الّذي بلغه، لأن هدف القرآن يتعلق بنفس القصة لا بخصوصياتها .

وصل ذو القرنين إلى مكان يقع بين جبلين مُنيفَين، ووجد قريباً منهما أمة من الناس، يصعب التفاهم معهم، لبساطتهم وسذاجة فهمهم أو لغرابة لغتهم **﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾**.

طلب هؤلاء القوم من ذي القرنين ـ لما رأوا ما معه من القدرة والعدد والقوة والعظمة ـ أن يُحدث لهم سدّاً بين الجبلين، ليحول دون إغارة يأجوج ومأجوج عليهم من خلال هذا المضيق مرة بعد أخرىٰ **﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾**. وهذا يدل على أنّه كان بين هؤلاء القوم وبين المفسدين ـ أعني: يأجوج ومأجوج ـ سلسلة جبال شاهقة لا يمكن تسلقها خصوصاً بدوابهم ومراكبهم للإغارة، ولكن كان هناك مضيق بين الجبلين يسهّل لهم العبور إلىٰ أراضي الآخرين والإغارة عليها من خلاله. ومن هنا اقترحوا علىٰ ذي القرنين أن

يسدُّ لهم هذا المضيق، في مقابل مبلغٍ من المال يدفعونه إليه .

استجاب ذو القرنين لاقتراحهم، معرباً عن استغنائه عن المال الّذي عرضوه عليه، قائلاً: ﴿مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي : ما أعطاني الله من السلطان والمال خير من الخرج الّذي تريدون بذله، لكن يجب عليكم المشاركة بشكل آخر: ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ والمراد بالقوة هنا العمال وأدوات البناء ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ حاجزاً حصيناً.

ثم بدأ بالعمل: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾، وعمله كان يمر بمراحل ثلاث:

المرحلة الأُولى: أمرهم بتهيئة قطع الحديد فلمّا جيء بها، وضع بعضها فوق بعض حتّى غطّىٰ بها ما بين الجبلين إلىٰ قمّتيهما، وإليه يشير بقوله: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ .

المرحلة الثانية: أمرهم أن يجلبوا له الوقود، فلما أتوه به، أشعل النار فيه، ثم أمر بالنفخ بالمنافخ لتسخين زبر الحديد، فلما نفخوا فيها، صار الحديد كالنار توهّجاً، وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ .

المرحلة الثالثة: أمر بجلب النحاس المذاب، فأتوه به، فصبّه على الحديد المسخّن لكي يتماسك ويزيد صلابة، فصار سّداً حصيناً ، وإليه يشير بقوله: ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

وبهذه المراحل الثلاث تمّ عمل السدّ. وهذا يدلّ علىٰ تقدّم الحضارة

آنذاك، حيث كانوا يمتلكون الحديد وصهره والنحاس وذوبه.

وهكذا عجز المفسدون (يأجوج ومأجوج) عن تسوّر السدّ والصعود عليه **﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾**، كما عجزوا عن خرقه والنفوذ منه **﴿وَ مَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾**.

ثم إنّ ذا القرنين أشار بعد إنجاز السدّ إلىٰ أمرين:

١. وجّه فكرتهم إلىٰ أنّ هذا العمل رحمة من الله سبحانه ونعمة منه أجراها على يده. وهذا يدل على كونه مؤمناً متواضعاً شاكراً لله تعالىٰ، فلم يغترّ بإنجازه لهذا العمل ولم يفتخر به بل نسبه إلى الله، كما قال: **﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾**.

٢. إنّ لكل شيء أجلاً حتّى الأبنية الشاهقة والسدود المحكمة، فلها عمر محدود تنتهي بعده وتزول من الوجود، كما قال: **﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾**.

وأمّا ما هو الوعد الّذي جاء في هذه الآية، هل هو يوم القيامة أو اليوم الّذي يخرج فيه يأجوج ومأجوج كما تشير إليه الآية الكريمة: **﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾**[١]؟

يميل المفسرون الجدد إلى الرأي الثاني، ويروق لهم حمل الآية على خروج التتر والمغول من بلادهما متوجهين إلى الشرق الإسلامي في أوائل القرن السابع وقد سفكوا الدماء وخربوا البلاد وعاثوا في الأرض فساداً، وقضوا على الخلافة العباسيّة. والله العالم.

---

١. الأنبياء: ٩٦.

بقي هنا كلام، وهو أنّنا أشرنا عَرَضاً إلى الرأي القائل ان ذا القرنين هونفسه قورش الكبير (؟ ـ ٥٢٨ ق. م). ذكر هذا الرأي أحمد خان الهندي، وبذل الجهد في إيضاحه الباحث الهندي مولانا أبو الكلام آزاد، وأيده فيه بقوة بعض العلماء، وأجاب عن الشكوك المثارة حوله.[١]

وهذه الإشارة تقتضي سرد بقية الآراء الّتي ذُكرت في هذا المجال، وأشهرها رأيان:

١. إن ذا القرنين كان عربياً يمنياً، من ملوك حِمير القبيلة الشهيرة، وقد اختلفوا في اسمه، فقيل الصعب بن ذي مراثد، وقيل: أبو بكر بن افريقش، وقيل غير ذلك .

٢. إنّه ليس سوى الإسكندر المقدوني، تلميذ أرسطو .

وقد رُدّ هذا الرأي، ووصف بأنّه أغرب الآراء، باعتبار أنّ الإسكندر كان وثنياً يعبد الأصنام، بينما كان ذو القرنين مؤمناً موحِّداً، وعبداً صالحاً، معتقداً باليوم الآخر.

لقد أكثر المفسرون والباحثون الكلام في تحديد شخصيته وفي وجه تسميته بذي القرنين، وفي تحديد موقع السدّ، ونحن نترك الخوض في هذه المواضيع ، اقتداءً بالكتاب المجيد، ولأن أكثر ما قالوه يستند إلىٰ أخبار متعارضة متهافتة، أو إلىٰ أدلة ظنية، لا تفيد يقيناً.

١. شبهات وردود حول القرآن الكريم: ٤٦٨ ـ ٥٥١ .

الدروس والعبر

اشتملت قصة ذي القرنين على عبر كثيرة وعظات مهمّة على الرغم من وجود جوانب مبهمة في بعض تفاصيلها، ونحن نشير إلى ما يستفاد من الآيات المذكورة من المواعظ والعبر.

١. انّه سبحانه خلق العالم على نظام الأسباب والمسببات، وجعل لكل ظاهرة سبباً وعلة، فمن أراد تحقيق غاية ما، فعليه أن يدخل من الباب، وهو تهيئة أسبابها ووسائلها بأفضل ما يمكن. ولا يبلغ الإنسان الهدف المنشود إلّا باتباع السبب الّذي جعله الله سبحانه طريقاً لتحصيله .

قال الإمام الصادق عليه السلام: «أبى الله أن يجري الأشياء إلّا بأسباب، فجعل لكل شيء سبباً وجعل لكل سبب شرطاً» .[١]

٢. ان الحواس الخمس هي أدوات المعرفة للنفس، بها ندرك ما في الخارج من الحقائق والله سبحانه تبارك وتعالى يمنّ علينا بهذه النعم ويقول: ﴿**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الأَبْصَارَ وَ الأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[٢] ومع أنّها من أفضل الأدوات إلّا أنّها قد تخطئ في درك الواقع، كما هو الحال في رؤية غروب الشمس في مكان معين، يختلف باختلاف الموضع الّذي يقف فيه الرائي، فالرؤية هنا ظاهرية لا واقعية، صادرة عن خطأ الباصرة وهكذا تراءت الشمس لذي القرنين،

---

١. الكافي: ١ / ١٨٣، باب معرفة الأنام، الحديث ٧.

٢. النحل: ٧٨.

حيث وجدها تغرب في عين حمئة، مع أنّ الشمس لا تغرب في مكان محدد، بل أنّ دوران الأرض حول محورها مرة واحدة في اليوم، يجعل الجانب غير المواجه للشمس ليلاً، ولذا يرى الناس الذين يعيشون في هذا الجانب، يرون الشمس تغيب في المغرب، وفي مكان معين، كل بحسب موقعه.

٣. إنّ على الحاكم الصالح أن يتّبع نظاماً عادلاً، يحظىٰ فيه المواطنون الصالحون العاملون خيراً بالتكريم والتقدير والإحسان والإعانة، ويلقىٰ فيه الشرّيرون المسيئون الإهانة والإذلال والعقاب.

وقد أخذ ذو القرنين بهذا المنهج الّذي يساهم في تشجيع ذوي القلوب السليمة علىٰ التزام الصلاح، والتشمير عن ساعد الجد في ساحة العمل المثمر، وفي ردع أصحاب القلوب السقيمة عن الإقدام على الأعمال السيئة، والاعتداء على حقوق الآخرين ﴿**قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنى وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا**﴾.

وللإمام علي عليه السلام كلمة في هذا المجال أوصىٰ بها صاحبَه المُنتجب مالك بن الحارث الأشتر رضي الله عنه، في عهده الخالد إليه بولاية مصر وأعمالها:

وَلَا يَكُونَنَّ ٱلْمُحْسِنُ وَٱلْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ ٱلْإِحْسَانِ فِي ٱلْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ ٱلْإِسَاءَةِ عَلَىٰ ٱلْإِسَاءَةِ! وَأَلْزِمْ كُلّاً مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ.[1]

---

١. نهج البلاغة: ٤٣٠ ـ ٤٣١، قسم الكتب والرسائل، الرقم ٥٣.

٤. إنّ الحاكم الصالح يجب أن يسخّر نفسه لخدمة الرعية ولا يمنعه تخلّفهم وقلة فطنتهم عن توفير مصالحهم وتحقيق منافعهم، فالقائد الإلٰهي ذو القرنين سارع إلى تلبية مطالب القوم بإقامة سدٍّ لهم، رغم بساطتهم وصعوبة التفاهم معهم، إذ كانوا ﴿لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾.

٥. إنّ الأمن والأمان من نعم الله الكبرىٰ، ومن شروط الحياة الاجتماعية السالمة، ففي الحديث: «نعمتان مجهولتان: الصحة والأمان». وفي هذه القصة نجد مسارعة ذي القرنين إلى تلبية طلب القوم (الذين لقيهم في رحلته الثالثة) بإحداث سدٍّ لهم، يمنع عنهم هجمات المفسدين، وقد بذل في سبيل إقامته جهوداً جبارة، تكشف عن إدراكه لأهمية سيادة الأمن في البلاد الّتي تخضع لسيطرته، وتمتّع أهلها بظلال هذه النعمة.

٦. إنّ القيادة الرشيدة ذات الفكر الناضج والعقل المبدع، تستفيد من كافة القوىٰ والقدرات المتاحة، وتحرّك كل الهمم للتعاون والبذل والعطاء للنهوض بالأعمال الكبيرة والمشاريع الضخمة الّتي تعود بالنفع والفائدة على الأُمّة، وتعزّز كيانها، وتحفظ مصالحها. وهذا ما تجلّىٰ بوضوح في عمل ذي القرنين الّذي استنفر طاقات القوم، فكانت النتيجة بناء سدٍّ حصين منيع، أتاح لهم العيش في أمنٍ من غارات المعتدين.

٧. يرشدنا عمل ذي القرنين إلى أنّ الإتقان في العمل وإحكامه هو المطلوب في مدرسة الأنبياء والمصلحين الإلهيين، وقد روي عن النبي ﷺ أنّه جلس حول قبر سعد بن معاذ ورتب التراب فوق قبره وقال: إنّي لأعلم أنّه سيبلى

ويصل البلى إليه، ولكن الله يحب عبداً إذا عمل عملاً أحكمه.[١]

٨ـ إنّ الإنسان المؤمن يحسّ بفقره إلى الله تعالى مهما بلغ من القدرة والعظمة، ويشعر بأنّ ما ينجزه من أعمال كبيرة، لايستند إلى قدرته المحدودة (وإن بدت عظيمة في مقياس البشر)، بل إلى قدرة الله المطلقة، الّتي أفاضت عليه النعم، وشملته بالألطاف. وهذا الإحساس بالفقر والضعف، والشعور الغامر بالرحمة الإلهية، أبان عنهما ذو القرنين بقوله، بعد أن ألقىٰ بنظره إلى السدّ العجيب، وقد اكتمل بناؤه: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾.

١. أمالي الصدوق: ٤٦٨، المجلس ٦١، الحديث ٢.

١١

القرية الخاوية علىٰ عروشها

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَ انْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

مفردات الآية:

خاوية: ساقطة متهدّمة، من خوى البيت إذا سقط. وقيل: خالية، والمعنىٰ على هذا القول أنّها خالية من السكّان واقعة على عروشها.

العروش: واحدها عرش، وهو سقف البيت وكل ما هيّئ ليُستظَل به .

ذكر سبحانه قبل هذه الآية قصة محاجّة إبراهيم لمن آتاه الله الملك وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾[2] وعطف عليها هذه القصة وكأنّه يقول أرأيت كالذي حاج إبراهيم أو كالذي مرّ علىٰ قرية وهي خاوية على

١. البقرة: ٢٥٩.

٢. البقرة: ٢٥٨.

عروشها، وهذه الكلمة تستعمل في مقام التعجب .

ثم إنّه سبحانه أبهم اسم هذا الّذي مرّ علىٰ قرية [١] واسم القرية والقوم الذين كانوا يسكنونها، والقوم الذين بُعث هذا المارّ آية لهم كما يدل عليه قوله ﴿وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، مع أنّ الأنسب في مقام الاستشهاد، الإشارة إلىٰ أسمائهم ليكون أنفىٰ للشبهة.

وجه ذلك انّ الآية ـ وهي الإحياء بعد الموت وكذا أمر الهداية بهذا النحو من الصنع ـ لما كانت أمراً عظيماً، وقد وقعت موقع الاستبعاد والاستعظام، كان مقتضى البلاغة أن يعبّر عنها المتكلم الحكيم القدير بلحن الاستهانة والاستصغار، لكسر سَورة استبعاد المخاطب والسامعين، كما أنّ العظماء يتكلمون عن عظماء الرجال وعظائم الأُمور بالتصغير والتهوين تعظيماً لمقام أنفسهم، ولذلك أُبهم في الآية كثير من جهات القصة ممّا لا يتقوم به أصلها، ليدل علىٰ هوان أمرها على الله، ولذلك أيضاً أُبهم خَصمُ إبراهيمَ عليه السلام في الآية السابقة، وأُبهم كثير من جهات القصة، كأسماء الطيور وأسماء الجبال وعدد الأجزاء وغيرها في الآية اللاحقة .

وأمّا التصريح باسم إبراهيم فإنّ للقرآن عناية خاصة به، قال تعالىٰ: ﴿وَ تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾[٢]. [٣]

إنّ المارّ على القرية لما استعظم إحياء من مات فيها شاء سبحانه أن يبيّن له

---

١. قال قتادة والربيع: الّذي مرّ علىٰ قرية هو عُزَير، وروي ذلك عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام. وقيل: هو أرميا.

٢. الأنعام: ٨٣.

٣. الميزان: ٢ / ٣٦٤.

أُموراً ثلاثة، كلها تدل علىٰ إمكان المعاد بل علىٰ وقوعه، وبالتالي رفع كلّ ما جال في فكرته وذهنه :

١. أماته مائة سنة، ثم بعثه وسأله عن مدة لبثه، فأجاب ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ولعل الله أماته أوّل النهار ثم بعثه بعد مائة سنة آخر النهار، فقال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ ثم التفت فرأى بقية من الشمس فاستدرك وقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، فأُجيب بأنّه لبث مائة عام.

٢. إنّه سبحانه صان طعامه عن التغيّر والفساد طيلة هذه المدة، فلما أحياه قال له: ﴿انْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ ولا شكّ في أن صيانة الطعام والشراب عن طروء الفساد عليهما آية قدرته الواسعة، حيث يُميت السائل، ولكن يُبقي طعامه وشرابه علىٰ حالهما!!

٣. إنّه سبحانه أمات حماره، فتبددت أجزاؤه حتّى صارت عظامه رميماً؛ ثم أحياه سبحانه أمام عينه، إذ قال له: ﴿وَ انْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ .

فهذه الأُمور الثلاثة آية للناس كما هي آية للسائل، حيث سيعلم الناس بموته مائة سنة، وبحياته بعدها.

روي عن علي عليه السلام أنّ عزيراً خرج من أهله وامرأته حامل وله خمسون سنة فأماته الله مائة سنة ثم بعثه فرجع إلى أهله ابن خمسين سنة وله ابن له مائة سنة، فبان ابنُه أكبرَ منه، فذلك من آيات الله.(١)

---

١. مجمع البيان: ١ / ٣٧٠.

إماتة لا إنامة

الإمعان في الآية يثبت أنّ المارّ على القرية، لمّا رأىٰ ما حلّ بها من خراب ودمار، وما أصاب أجساد أهلها من بِلىٰ وفناء، هاله الأمر، وتساءل في نفسه عن إمكان إحياء أهل هذه القرية بعد طول مدة مكثهم أمواتاً، وتناثر لحومهم وأجسادهم، وتنكُّر صُوَرهم.

ولم يكن تساؤله هذا تعبيراً عن شك وارتياب، وإنّما عن دهشة، وعجز عن إدراك كيفية الإحياء، ومن هنا كان لابد أن يأتي الجواب وفق السؤال، وذلك بأن يريه إحياء الموتىٰ.

وأما إيقاظ النائم بعد إنامته سنين متطاولة، فهو وإن كان أمراً خارقاً للعادة، إلّا أنّه لا يكون جواباً علىٰ وفق السؤال .

أضف إلىٰ ذلك أنّه سبحانه يقول: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ فلو كانت هناك إنامة لَلَزم أن يقول: فضرب الله علىٰ أذنه سنين، وهو التعبير الّذي استُعمل في قصة أصحاب الكهف : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [1]، أو يقول ما يُشبه هذا التعبير.

وإليك ما قاله بعض المفسرين، الذين فسّروا الإماتة بالنوم المستغرق (السُّبات):

إنّ المراد من الموت هوالحال المسمّىٰ عند الأطبّاء بالسُّبات، وهو أن يفقد

---

١. الكهف: ١١.

الموجود الحيّ الحسّ والشعور مع بقاء أصل الحياة مدّة من الزمان، أيّاماً أو شهوراً أو سنين، كما أنّه الظاهر من قصّة أصحاب الكهف ورقودهم ثلاثمائة وتسع سنين ثمّ بعثهم عن الرقدة واحتجاجه تعالىٰ به على البعث، فالقصّة تشبه القصّة .

قال: والّذي وجد من موارد اتّفاقه لا يزيد سنين معدودة، فسبات مائة سنة أمر غير مألوف وخارق للعادة لكنّ القادر علىٰ توفّي الإنسان بالسبات زماناً كعدّة سنين، قادر على إلقاء السبات مائة سنة، ولا يشترط عندنا في التسليم بما تواتر به النصّ من آيات الله تعالىٰ وأخذها علىٰ ظاهرها إلّا أن تكون من الممكنات دون المستحيلات. فقد احتجّ الله بهذا السبات ورجوع الحسّ والشعور إليه ثانياً بعد سلبه مائة سنة علىٰ إمكان رجوع الحياة إلى الأموات بعد سلبها عنهم اُلوفاً من السنين.(١)

أضف إلى ذلك أنّه سبحانه أراه إحياء حماره وقد تفرّقت عظامه، فهل يصح وفق هذا التفسير تأويلُه بالسبات؟

إنّ اللجوء إلىٰ هذه التأويلات نابع عن الشعور بالهزيمة النفسية أمام العلوم المادية أو هو محاولة لإرضاء وإقناع المبهورين بها، وقد تكرر هذا النوع من التأويل من قِبَل الشيخ محمد عبده، وبعض المتأثرين بتوجّهاته كالسيد محمد رشيد رضا وغيره.

---

١. تفسير المنار: ٣ / ٤٩ ـ ٥٠ ؛ تفسير المراغي: ٣ / ٢٢؛ ولاحظ الميزان: ٢ / ٣٦٦، حيث نقل هذا الرأي، وردّ عليه.

١٢

لقمان الحكيم

قد ورد اسم لقمان في الذكر الحكيم مرّتين في سورة سُمّيت باسمه وهي السورة الحادية والثلاثون الّتي صُدّرتْ بقوله سبحانه: ﴿ ألم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾. وهذا النوع من التصدير هو كبراعة استهلال لما يرد في هذه السورة من كلمات حكيمة فاه بها لسانُ إنسان حكيم خلا قلبه عن كل شيء سوى حُبِّه لله سبحانه، فجرتْ ينابيع الحكمة عن قلبه إلىٰ فمه ولسانه.

وقد روى الفريقان عن الرسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «مَن أخلص لله أربعين صباحاً فجّر الله ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه». (١)

وقال الصادق ﷺ: «ما أخلص عبد الإيمان بالله أربعين يوماً، إلّا زهَّده الله عزوجلّ في الدنيا، وبصّره داءها ودواءها، وأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه». (٢)

فإذا كان هذا ثمرةَ إخلاصِ أربعين يوماً، فما أعظم ثمرة إخلاص الإيمان بالله سنين متمادية؟ لا شك في أنّ الحِكم والنصائح الشافية ستفيض عن قلبه إلىٰ لسانه إلىٰ حد تتشرّف بان تقع في مصاف كلم الوحي، وصدق الله العلي العظيم إذ

---

١. عُدّة الداعي لابن فهد: ٢١٨.

٢. الكافي: ٢ / ١٦، الحديث ٦، باب الإخلاص.

يقول: ﴿وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١].

***

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِي حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[٣].

يقع الكلام في قصة لقمان في محورين :

١. التعرف على شخصيته.

٢. تفسير ما ورد من حِكَمِه في الذكر الحكيم.

١. لقمان وشخصيته

اختلفت كلمة المفسرين في لقمان، وقد نقل أمين الدين الطبرسي أقوالهم وتتلخص فيما يلي:

---

١. البقرة: ٢٦٩.   ٢. لقمان: ١٢ ـ ١٣.   ٣. لقمان: ١٦ ـ ١٩.

١. إنّه كان حكيماً ولم يكن نبيّاً.

٢. إنّه كان نبيّاً، وقد فسّروا الحكمة في قوله سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ**﴾، بالنبوة .

٣. إنّه كان عبداً حبشيّاً في زمن داود، وقال له بعض الناس ألستَ كنتَ ترعىٰ الغنم معنا؟ قال: نعم، فقال: من أين أُوتيت ما أرى؟ قال: قَدَر الله، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، والصمت عمّا لا يعنيني.

٤. إنّه كان ابن أُخت أيوب.

٥. إنّه كان ابن خالة أيوب.

وعن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حقاً أقول، لم يكن لقمان نبياً وكان عبداً كثير التفكّر، حسن اليقين، أحبَّ الله فأحبَّه، ومنَّ عليه بالحكمة» .(١)

ويقرب من هذا ما رواه حمّاد عن الإمام الصادق قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن لقمان وحكمته الّتي ذكرها الله عزّوجلّ، فقال: «أما والله ما أُوتي لقمان الحكمة بحسَب، ولا مال، ولا أهل، ولا بسْطٍ في جسم، ولا جمال، ولكنّه كان رجلاً قويّاً في أمر الله، متورّعاً في الله، ساكتاً، سكيناً، عميق النظر، طويل الفكر، حديد النظر، مستغن بالعبر، لم ينم نهاراً قطّ، ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال لشدّة تستّره وعموق نظره وتحفّظه في أمره، ولم يضحك من شيء قطّ مخافة الإثم، ولم يغضب قطّ، ولم يمازح إنساناً قطّ، ولم يفرح لشيء إن أتاه من

---

١. مجمع البيان: ٤ / ٣١٥.

أمر الدنيا، ولا حزن منها على شيء قطّ، وقد نكح من النساء وولد له الأولاد الكثيرة وقدّم أكثرهم إفراطاً [١] فما بكى على موت أحد منهم، ولم يمرّ برجلين يختصمان أو يقتتلان إلّا أصلح بينهما، ولم يمض عنهما حتّى تحاجزا، ولم يسمع قولاً قطّ من أحد استحسنه إلّا سأل عن تفسيره وعمّن أخذه، وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء».[٢]

ولعل هذا المقدار يكفي في التعرف على شخصيته، غير أنّ المرء بأفكاره وآرائه، وهي تتجلّى فيما نقله عنه الذكر الحكيم.

٢. تفسير ما ورد من حكمة في القرآن الكريم

يمكن تصنيف ما ذكره القرآن الكريم عن لقمان إلى أصناف أربعة:

١. ما منَّ عليه سبحانه من إيتاء الحكمة.

٢. ما أوصىٰ به ولده في أُصول العقيدة.

٣. ما أوصىٰ به في أُصول الأعمال الصالحة .

٤. ما أوصىٰ به في مجال القيم المثاليّة.

وإليك الكلام فيها واحداً بعد الآخر:

١. ما منَّ عليه سبحانه من إيتاء الحكمة

يقول سبحانه: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَني حَمِيدٌ﴾.**

---

١. من أفرط فلان ولداً: أي مات له ولد قبل أن يبلغ.

٢. بحار الأنوار: ١٣ / ٤٠٩، باب ١٨، قصص لقمان وحكمه. ولاحظ ذيل الحديث.

مفردات الآية

الحكمة: المعرفة العلمية النافعة، وهذا هو التعريف الجامع لها. فمعرفته سبحانه بما له من الصفات والأفعال من مصاديقها، كما أنّ معرفة كمال النفس أو كمال العائلة من الحكمة، والأوّل يعبّر عنه بعلم الأخلاق، والثاني بتدبير المنزل، وربما يعد من أقسامها، معرفة صلاح المجتمع وتقويم أمره الّذي يسمّى بالسياسة المدنيّة.

ويؤيد سعةَ مفهومها قوله سبحانه ـ حيث إنّه بعد ما أفاض الكلام في سورة الإسراء في توحيده، والدعوة إلى الإحسان إلى الوالدين، وإيتاء ذي القربىٰ حقه، والنهي عن الإسراف والتقتير، وقتل الأولاد خشيةَ إملاق، واقتراف المعاصي الكبيرة كالزنا وقتل النفس، والتطفيف في الكيل والوزن، والمشي في الأرض مرحاً قال ـ: ﴿**ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا**﴾[1].

وعلىٰ ذلك فكل معرفة محكمة، هي غضّة طريّة في كل زمان ومكان، ولا تندرس بمرور الأزمنة والحقب لكونها مقتضى البرهان العقلي، أو الفطرة الإنسانية الّتي لا تتغير بتغير الأوضاع الاجتماعية، وتكمن فيها سعادته الفردية أو الاجتماعية.

وربما يستعمله الذكر الحكيم ـ عند دعوة المجتمع إلىٰ ما فيه الخير والصلاح ـ في مقابل الموعظة والمجادلة ويقول: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ**

---

١. الإسراء: ٣٩.

بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[1]. فقد وردت الحكمة في مقابل الموعظة والمجادلة بالتي هي أحسن، وعلىٰ ذلك «**فالحكمة**» هي المعرفة الّتي لامرية فيها ولا وهن، لابتنائها علىٰ حجة قاطعة مفيدة للعلم واليقين، و«**الموعظة**» هي البيان الّذي تلين به النفس ويرقّ القلب لما فيه من صلاح السامع من العبر والدروس، و**الجدال** هو الحجة الّتي تستعمل لإبطال معتقد الخصم عن طريق ما يسلّمه وينطبق على هذا النوع من التفسير لها، ما هو المعروف بين أهل الميزان، البرهانُ والخطابةُ والجدلُ.

ويمكن أن يقال: إنّ الموعظة من أقسام الحكمة وإنّ النسبة بينهما هي العموم والخصوص المطلق، والاختلاف بينهما يرجع إلى موارد إعمالها وأسلوبها، فإنّ كل معرفة صائبة حكمة من غير فرق بين أن يكون الأسلوب علمياً مبنياً على أنصع البراهين، أو كان خطابياً مليّناً للقلوب والنفوس، مبنيّاً على التجارب والعبر أو غير ذلك. وعلىٰ ضوء هذا يكون عطف «الموعظة الحسنة» من قبيل عطف الخاص على العام .

نعم المجادلة ليست من مقولة الحكمة، ولذا لم تُعطف المجادلة على الحكمة والموعظة، قال تعالى **﴿وَجَادِلْهُمْ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ﴾** وقال سبحانه: **﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالتي هِيَ أَحْسَنُ﴾**[2].

١. **الشكر**: يقول الراغب: الشكر: تصوّر النعمة وإظهارها، قيل وهو مقلوب

---

١. النحل: ١٢٥.   ٢. العنكبوت: ٤٦.

عن الكشر أي الكشف، ويضادّه الكفرُ وهو نسيان النعمة وسترها، إلىٰ أن قال: الشكر ثلاثة أضرب: شكر القلب، وهو تصور النعمة، وشكر اللسان، وهو الثناء على المنعم، وشكر سائر الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه .[1]

وإلى القسم الأوّل، أشار الإمام الصادق عليه‌السلام بقوله: «من الشكر رؤية النعمة من الله».[2]

وفي حديث آخر: مَن أنعم الله عليه نعمة فعرفها بقلبه وعلم أنّ المنعم عليه الله تعالى، فقد أدّىٰ شكرها .[3]

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى تفسير الآية.

يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِي ﴾، فقوله: «ان اشكر لي» تفسير للحكمة. من دون حاجة إلى تقدير «قيل ان اشكر لي» وحقيقة الشكر صرف النعمة في موضعها الّذي ينبغي له ولكن وضعها كذلك يلازم معرفة مبدئها، ومعرفة واقع النعمة ، وكيفية وضعها في موضعها، فمعرفة المنعم، جزء من حقيقة الشكر، ولذلك يقول: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي ﴾.

ثم إنّ الأمر بالشكر لله، لا لغاية حاجته سبحانه إليه وانتفاعه به، كيف وهو ـ عزّ اسمه ـ غنيٌّ مطلق، لا ينفعه شكر الشاكرين، ولا يضره كفر الكافرين، وإنّما ينتفع به نفس الشاكر، ويتضرر به الكافر. ولذلك قال: ﴿وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[4].

---

١. المفردات: مادة «شكر». ٢. بحار الأنوار: ٧٠ / ٢٤٩.

٣. تحف العقول: ٣٦٩؛ وسفينة البحار: ١ / ٧٧.

٤. لقمان: ١٢.

وأمّا أنّ شكر المنعم، يرجع نفعه إلى نفسه، فلأنّه بالشكر يُظهر أهليّته للنعمة، فيستحقّ دوامها، وهذا بخلاف من يكفر بالنعمة، حيث إنّه يُظهر بجهله بمبدأ النعمة، عدمَ أهليّتهِ لها، فينقطع الفيض بذلك.

وفي التعبير في جانب الشكر بفعل المضارع: ﴿وَ مَنْ يَشْكُرْ﴾، وفي جانب الكفر، بفعل الماضي: ﴿وَ مَنْ كَفَرَ﴾، اشارة إلى أن المطلوب في جانب الشكر هو الاستمرار، وأن الضّارّ في جانب الكفر هو صرف وجوده ولو مرة واحدة.

إلىٰ هنا تم تبيين ما آتاه الله سبحانه من الحكمة الّتي رأسها معرفة المنعم. ولنشرع ببيان ما أوصى به إلىٰ ولده، وهو بصدد وعظه .

٢. ما أوصىٰ به إلىٰ ولده في أُصول العقيدة

لقد أوصىٰ لقمان الحكيم في مجال العقيدة بأمرين أساسيين:

الأوّل: التوحيد.

الثاني: الإيمان بالمعاد.

وإليك دراستهما واحداً تلو الآخر.

أمّا التوحيد، فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله: ﴿بُنيَّ﴾ هو تصغير ابن، مضافاً إلى ياء المتكلم، والتصغير إمّا لكون ابنه صغيراً أو مراهقاً عند وعظه، أو كبيراً مُنزّلاً منزلة الصغير كناية عن الشفقة والتحبب.

لكن إذا لم يكن في الكلام قرينة على الثاني، يُحمل على الأوّل. لأنّ المجاز لا يصار إليه إلّا بالقرينة .

قام لقمان بوعظ ولده وهو صغير حدث، وقلب الحَدَث ـ كما قال الإمام علي عليه السلام ـ كالأرض الخالية، ما أُلقي فيها من شيء قبلته .[١]

فقلب الحدث عند الإمام كالأرض البكر لم تمسها يد إنسان، قابلة لكل زرع، أو كالرخام، قابل لأن يتخذ أيَّ شكل من أشكال الطير والحيوان والإنسان ، غير أنّ المهم هو وقوع تلك المادة بيد الزارع العارف بفنون الزراعة، أو الفنان الماهر العارف بفن التشكيل والتجسيم.

وهكذا الطفل الحدث، فإنّه في تنشئته السليمة، رهن كونه تحت رعاية مُربٍّ عارف بسعادة الطفل، عاجلها وآجلها، ولذلك يقول الإمام عليه السلام في مورد آخر:

ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن .[٢]

ويكفي في عظمة عمل التربية أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام، يستعين بالله أن يوفقه لها ويقول في دعائه: «وأعنّي علىٰ تربيتهم وتأديبهم وبرّهم».

ثم إنّ الحكيم الإلٰهي قدّم إصلاح العقيدة علىٰ إصلاح العمل، لأنّ صلاح العمل رهن صلاح الفكر، ولذلك قال: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ﴾ وبدأ ـ فيما يرجع إلىٰ صلاح العقيدة ـ بالتوحيد، لأنّه أساس الكمال والصلاح، كما أنّ الشرك مبدأ الضلال والفساد .

---

١. نهج البلاغة، قسم الرسائل، رقم ٣١.

٢. مستدرك الوسائل: ٢ / ٦٢٥.

ثم إنّه عدّ الشرك ظلماً عظيماً: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ والظاهر أنّه من كلام لقمان ومن الحكمة الّتي أُوتيها، وكون الشرك ظلماً عظيماً واضح لأنّ فيه ظلماً للخالق حسب جعل المخلوق ندّاً له، وظلماً للنفس حسب وضع نفسه في حضيص العبودية لأخسّ الجمادات.

ولو كانت عظمة العصيان منوطة بعظمة مَنْ عُصي، فالمعاصي كلها عظيمة وكبيرة، لأنّها تتضمن التجرّؤ على الله العظيم، لكن أعظم معاصيه هو جعل الشريك له ذاتاً، كما عليه الثنوية؛ أو فعلاً، كالقول بتعدد الخالق؛ أو عبادةً، كعبادة الأصنام والأوثان لغاية التقرب إلى الله. فالكل شرك وظلم عظيم.

وأما الأمر الثاني، أعني الإيمان بالمعاد، فجاء فيه قوله تعالى:

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

مفردات الآية:

١. **الضمير:** في ﴿إِنَّهَا﴾ ضمير الشأن، والمراد: الفعلة من الحسنات والسيئات.

٢. **المثقال:** وإن كان على زنة الآلة، لكنّه بمعنى المصدر أي الثقل، وليس المراد الآلة الّتي يوزن بها، نظير قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[1].

---

١. الزلزلة: ٧.

٣. فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض، الجملة كناية عن السرّ والخفاء، ولا خصوصية للصخرة، حتّى يقال بأنّ الصخرة في الأرض أو في السماء، والمراد: إنّ العمل مهما كان خفياً مستوراً يحاسب به العبد. كما قال: **﴿يَأْتِ بِهَا اللهُ﴾**: والإتيان بها إمّا بمعنىٰ تجسّم الأعمال وحضورها بوجودها البرزخي، أو بمعنى المجازاة عليها.

إذا عرفت ذلك فالحكيم الإلهي لقمان، يذكر بعد الإيمان بتوحيده كما مرّ في الآية السابقة، الإيمانَ بيوم الجزاء، وأنّه سبحانه يجزي في ذلك اليوم كل إنسان بما كسبت يداه إن خيراً فخير، وإنّ شراً فشرّ، وأن كلّ ما يصدر من الإنسان من الأعمال مهما كان صغيراً أو مستوراً، يأت به الله يوم القيامة .

إنّ الإيمان باليوم الآخر هو أحد الأركان الأساسية للدين، والدين العاري عن الإيمان بيوم الجزاء ليس ديناً، وإنّما هو منهج بشري كأكثر المناهج الفلسفية الغربية، ولذلك نرىٰ أنّه سبحانه يردف الإيمان بالله بالإيمان باليوم الآخر في مواضع كثيرة .[1]

٣. ما أوصىٰ به في أُصول الأعمال الصالحة

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾.

لمّا انتهى الحكيم الإلهي من تعليمه أُصول العقيدة، بدأ ببيان أُصول الأعمال الصالحة، فذكر منها ثلاثة:

---

١. لاحظ سورة البقرة: الآيات ٦٢، ١٢٦، ١٧٧، ٢٢٨، ٢٣٢، ٢٣٤ .

١. إقامة الصلاة.

٢. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣. الصبر على المصائب.

وإليك تحليلها:

أ: إقامة الصلاة: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾

الصلاة عمود الدين وصلة الإنسان بالله، والغاية من إقامتها وإدامتها والمحافظة عليها في أوقاتها الشرعية، هي ذكره سبحانه كل يوم وليلة خمس مرات.

يقول سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[1].

فذكره سبحانه رأس الفضائل وهرمها، وعنه تفيض سائر المكارم .

قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الشيطان ذعراً من المؤمن ما حافظ على الصلوات الخمس لوقتهن، فإذا ضيّعهن تجرأ عليه، فأدخله في العظائم ».[2]

فإذا كان المصلي، يذكر الله سبحانه بصلاته، فالتارك لها يكون ناسياً لله تعالى وتكاليفه، فهو لا يرىٰ أمامه أي شيء يردعه عن اقتراف المعاصي وارتكاب الموبقات .

وبذلك يتجلّىٰ معنىٰ قول النبي ﷺ المتقدم: «فإذا ضيعهن تجرأ عليه فأدخله في العظائم» .

---

١ . طه: ١٤ .

٢ . الوسائل: ٣، الباب ٧ من أبواب أعداد الفرائض، الحديث ٢ .

وقد شبه رسول الله ﷺ الدينَ بالفسطاط، والصلاة بعموده وقال: مثل الصلاة مثل عمود الفسطاط، إذا ثبت العمود ثبتت الأطناب والأوتاد والغشاء. وإذا انكسر العمود لم ينفع طُنُب ولا وتد ولا غشاء»[1].

إنّ بين العقيدة والعمل علاقة تجاذبية، فكما أنّ العقيدة الراسخة تدعو إلى العمل، فكل إنسان يسير في حياته على ضوء عقيدته؛ فهكذا التداوم على العمل، فإنّه يوجب ترسيخ العقيدة في النفس الإنسانية .

وإلى تأثير العقيدة في مصير الإنسان وحياته، يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ﴾[2].

وذلك لأنّ الصلاة تكشف عن ذكره سبحانه الّذي هو مظهر من مظاهر العبودية والإيمان بالله، فيؤثر في سلوك الإنسان.

كما أنّ قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوآى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾[3]، يشير إلى أنّ العمل على خلاف ما تدعو إليه العقيدة مدة مديدة، يؤدي إلى خمود شعلة العقيدة، بل زوالها.

إنّ للصلاة في أوقاتها، والمداومة عليها آثار بناءة، ذكرها علماء الأخلاق في كتب خاصة ألّفوها باسم أسرار الصلاة. ومن أراد التفصيل فليرجع إليها.

---

١. الوسائل: ٣، الباب ٨ من أبواب أعداد الفرائض، الحديث ٦.

٢. العنكبوت: ٤٥.

٣. الروم: ١٠.

ب. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لما انتهى الحكيم الإلٰهي من إيصاء ولده بالصلاة، أوصاه بأمر ثان وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقال: ﴿وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

والصلة بين الإيصاءين واضحة. فإذا كانت الصلاة مظهراً لإحياء دين الله على المستوى الفردي، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مظهر لإحياء دين الله على المستوى الاجتماعي.

وهما من الفرائض الدينية الّتي ليس لأحد التخلي عنها، يقول سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[١].

ويقول الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء، ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة، بها تُقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحل المكاسب، وتُرَدّ المظالم، وتعمر الأرض، ويُنتَصف من الأعداء، ويستقيم الأمر»[٢].

وهناك نكتة وهي:

ما هو سر هذا التركيز على أهميتهما؟ ويتضح جوابه بالإمعان في حقيقة الحياة الاجتماعية، فكل إنسان يعيش في مجتمع خاص لا يمكنه أن يفرز نفسه

---

١. آل عمران: ١١٠.

٢. وسائل الشيعة: ١١ / ٣٩٥.

عن المجتمع، بل مصير الفرد والمجتمع مصير واحد، لأن الفساد إذا دبَّ في المجتمع يتسرب إلى نفسه أوّلاً وعائلته ثانياً.

ولذلك نرىٰ أنّ النبي الأكرم مثّل المجتمع الإنساني برُكّاب السفينة، وأنّه إذا عطبت السفينة ولو في جزء صغير منها، سار العطب إلىٰ عامة أجزائها.

روى البخاري عن النعمان بن بشير، قال: قال النبي ﷺ: «مثل المُدهن في حدود الله والواقع فيها مثل قومٍ اسْتُهموا سفينةً فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها، فكان الّذي في أسفلها يمرُّون بالماء على الذين في أعلاها فتأذَّوا به فأخذ فأساً فجعل ينقرُ أسفل السَّفينة، فأتوه فقالوا: ما لك قال: تأذيتم بي ولا بدَّ لي من الماء، فإن أخذوا علىٰ يديه أنجوه ونجوا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم» [1].

ولعله إلى هذه النكتة الاجتماعية يشير قوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[2].

نعم، الحرية من القيم الإنسانية الراقية، ولكنها ليست محترمة علىٰ إطلاقها، بل لها شرطان:

الأوّل: ان لا تضرّ بسعادة الفرد. ولذلك يُعدُّ استهلاك المواد المخدرة، جريمة، لكونها تعارض سعادة الفرد وسلامته.

الثاني: أن لا تزاحم سعادة المجتمع. فكل عمل يضرّ بعفاف المجتمع

---

١. صحيح البخاري: ٣ / ١٨١.

٢. الأنفال: ٢٥.

وسلامته، ويؤدي إلى شيوع الأمراض الجسمية والروحية، فهو أمر ممنوع، حسب العقل، والفطرة الإنسانية، وعليه العقلاء في العالم.

وعلىٰ ضوء هذا أمر الإسلام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دون أن يحد من حرية الإنسان.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو ما يُعبَّر عنه في لسان العرف بالمراقبة الشعبية لِما يضرّ البلد والمواطنين، فصاغها الإسلام في قالب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي الدعوة إلى الخير والمنع عن الشر.

ج. الصبر في المصائب

لمّا أوصى الحكيم الإلٰهي ولده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أوصاه بعده بالصبر على الشدائد والملمّات، وما هذا إلّا لأمرين:

الأوّل: أنّ الصبر والاستقامة هو السبب الوحيد لكسب الفضائل والكمالات الروحية، والمقامات الاجتماعية، وقد اشتهر قول المتنبي:

علىٰ قَدْرِ أهل العزم تأتي العزائمُ   وتأتي علىٰ قَدْرِ الكرامِ المكارمُ

إنّ تسلّق الجبال الشاهقة، رهن العزم الصارم والصبر والقدرة على الثبات، وتحمُّل المشقّات في طريق صعودها. فمن تحلّىٰ بهذه الصفات، بلغ قممها الشمّاء، وإلّا ظلّ في سفوحها، أو انحدر إلىٰ أوديتها.

الثاني: إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تترتّب عليهما ـ في كثير من الأحيان ـ متاعب ومصاعب يثيرها الناس في وجه الآمر والناهي، وقد تنتج عنهما

بعض المخاطر والمحاذير، الأمر الّذي يتطلّب صلابة في الموقف، ومزيداً من الصبر والثبات على مواجهة المخاطر والتحدّيات .

ومن هنا يأمر سبحانه نبيه بالاستقامة، ويقول: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ﴾[١] .

ويأمر الأُمّة الإسلامية بالاستعانة بالصبر والصلاة، ويقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[٢].

ومن فقد المصابرة وخذل نفسه في مجال الأُمور الشاقة، لا ينال خيراً في الدنيا والآخرة.

قال الإمام علي عليه السلام: «وعليكم بالصبر فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولا خيرَ في جسد لا رأس معه، ولا في إيمان لا صبر معه».[٣]

إنّ النجاح في الدنيا والآخرة رهن وجود روح المثابرة، فغلبة قوم على قوم ليست بكثر العدة والعدد، بل بالصبر والمقاومة. يقول سبحانه: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾[٤].

حتّى أنّ الفوز بالجنان، رهن ذلك العامل، ويدلّ عليه أنّ أفواج المؤمنين عندما يدخلون الجنة، يُنادَون : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[٥].

---

١. هود: ١١٢. ٢. البقرة: ٤٥.

٣. نهج البلاغة: الخطبة ٨٢.

٤. الأنفال: ٦٥.

٥. الرعد: ٢٤.

ولذلك يوصي لقمان الحكيم ولده بالصبر، ويقول: ﴿وَ اصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾، ثم يصفه بأنّ ﴿ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾، أي من الأُمور المؤكّدة الّتي لا محيص عنها.

نعم، هناك بعض سماسرة الأهواء ممن ينتقدون الأمر بالصبر ويفسرونه بالسكوت أمام تجاوز العدو الغاشم، ويقولون إنّ «الدين أُفيون الشعوب»، لما فيه من الأمر بالصبر أمام ظلم الرأسماليين والإقطاعيين.

ولكن عزب عنهم أنّ الصبر هو الثبات في محاربة العدو المتجاوز، لا السكوت أمامه.

يقول سبحانه: ﴿فَقَاتِلُوا التي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾[1].

وبما أنّ المرابطة في الثغور لجهاد العدو أمر شاق، لا يتحمله إلّا الأمثل فالأمثل في ميدان العمل، فقد أمر الله سبحانه بها مقرونة بالصبر والمصابرة، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صَابِرُوا وَ رَابِطُوا﴾[2].

وهذا هو الإمام علي ﷺ، يقول: «لن تُقدَّس أُمّةٌ لا يؤخَذُ للضعيف فيها حقُّه من القويِّ غيرَ مُتَتَعْتِع».[3] أفبعد هذه التصريحات والمواقف الميدانية لمجاهدي الإسلام عبر القرون يصحّ لهؤلاء اتهام الإسلام بدعوة الناس إلى السكوت أمام الظالم، والشعوب التسليم إليه، والخضوع له؟!

---

١. الحجرات: ٩.

٢. آل عمران: ٢٠٠.

٣. نهج البلاغة: ٤٣٩، قسم الكتب والرسائل، الرقم ٥٣. والتعتعة في الكلام: التردد فيه من عجز وعِي، والمراد غير خائفٍ، تعبيراً باللازم.

٤. ما أوصىٰ به في مجال القيم الأخلاقية

أوصىٰ بأُمور أربعة:

١. نهىٰ عن تصعير الخدّ للناس.

٢. نهىٰ عن المشي في الأرض مرحاً.

٣. أمر بغضّ الصوت.

٤. أمر بالاعتدال في المشي.

وإليك دراستها واحداً بعد الآخر.

النهي عن مظاهر الكِبْر

١. ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

مفردات الآية:

الصَّعْر: مَيل في العنق، والتصعير: إمالته عن النظر كِبْراً. والخدّ من الوجه معروف، والجمع خدود، ولكل إنسان خدّان.

المرح: شدة الفرح والانغماس فيه.

المختال: صيغة فاعل بمعنى المتكبر المتبختر، يقال: اختال اختيالاً: تبختر وتكبّر.

الفخور: المفاخر المتمدح بالخصال.

لمّا انتهى الحكيم الإلٰهي لقمان من ذكر الوظائف الشرعية والاجتماعية، شرع في بيان الخصال الذميمة، لغاية تجنيب ولده عنها. وابتدأ بمظاهر الكبر الّذي هو رأس المعاصي، ويقابله التواضع.

أمّا حقيقة الكبر فقد فسّره الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «**الكبر أن تُغمصَ**[1] **الناس وتسفه**[2] **الحق**».[3]

وأمّا مبدأ الكبر، فهو شعور المتكبر في باطن نفسه بالمذلة والنقصان، فهو يعالج هذا الإحساس، بالتعالي على الآخرين واستصغارهم، وتسفيه الحق والاستخفاف به.

وإلىٰ هذا المعنى يشير الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «**ما من رجل تكبَّر أو تجبَّر إلّا لذلّة يجدها في نفسه**».[4]

وفي مقابله التواضع، وهو الاعتراف بحقوق الآخرين وحفظ منزلتهم.

والصفة الأُولىٰ الّتي أوصىٰ لقمان ولده بتركها، أعني: تصعير الخد للناس، وهي من مظاهر الكبر، والإنسان العاقل ينبغي أن يتعامل مع الناس على أساس الاحترام، والإيمان بوحدة النفس البشرية، بدون أن يتعالىٰ عليهم.

والمظهر الثاني للكبر، هو التبختر والاختيال في المشي، الّذي يعبِّر عن

---

١. الغَمْص: الاحتقار والاستصغار.

٢. السَّفَه: الجهل، وأصله الخفّة والطيش، ومعنىٰ سفه الحق: الاستخفاف به.

٣. الكافي: ٢ / ٣١٠، كتاب الإيمان والكفر، باب الكبر، الحديث ٨؛ ومعاني الأخبار: ٢٢٦، الحديث ٤.

٤. الكافي: ٢ / ٣١٢.

مرض في النفس، وقد نهىٰ لقمان الحكيم ابنه عنه .

إنّ الإنسان المثالي يجب أن يعالج داء الكبر من جذوره، فإن لم يُوفق فليحترز من مظاهره، كتصعير الخد للناس، والمشي في الأرض مرحاً.

وعلىٰ ضوء هذا أوصىٰ لقمان ابنه بقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ ولا تملْ بوجهك عنهم تكبّراً، بل أقبل عليهم، ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي باختيال وتبختر .

ثم إنّ الحكيم يعلل إيصاءه بترك هذين الأمرين بقوله: إنّ الله لا يحب كل مختال فخور. أي إنّ الله لا يحب كل من يأخذه الخيلاء، ويتكبر بتخيل الفضل والفضيلة، ويكثر من الفخر.

وهناك كلام، وهو أنّ الوقار يختلف عن الكبر مبدأ ومظهراً، فالمبدأ في الكبر هو ما عرفت من إحساس بالحقارة في داخل ذاته، وأمّا الوقار فمبدؤه عدم الشعور بالنقص والحاجة، فلذلك لا يتسرع الوقور لا في الكلام ولا في المشي ولا في غير ذلك من المظاهر، وفي الوقت نفسه لا يتعالىٰ ولا يتطاول على الناس، بل يرىٰ نفسه أمام الله فقيراً محتاجاً.

الاعتدال في المشي والصوت

٢. ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

مفردات الآية:

الاقتصاد هو الاعتدال.

والغض هو الخفض.

أوصى الحكيم الإلهي ولده بالاعتدال في المشي، وقال: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ فلا تكن مسرعاً أو مبطئاً واتّخذ بين ذلك سبيلاً، كما أوصاه بعدم رفع الصوت أكثر ممّا تدعو إليه الحاجة، وتجنّب الحدّة في الخطاب ﴿وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

وما ذكره لقمان الحكيم يرجع إلىٰ رعاية التعامل الإنساني مع الناس عند المحادثة والاجتماع في محيطهم.

ثم إنّ الذكر الحكيم اقتصر من حكم لقمان بما جاء في هذه السورة، ولكن الكتب الروائية حفلت بحكم كثيرة جاءت علىٰ لسانه. فمن أراد فليرجع إليها.[1]

١. بحار الأنوار: ١٣ / ٤٠٨ ـ ٤٣٤؛ والمستدرك على سفينة البحار، مادة «لقم».

١٣

المُنسلخ من آيات الله

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ أَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾[1].

مفردات الآيات:

النبأ: الخبر العظيم، ومنه اشتقاق النبوة.

الانسلاخ: خروج الشيء وانتزاعه من جلده. ويقال لكل من فارق شيئاً بحيث لا تحدّثه نفسه بالرجوع إليه: انسلخ منه .

أتبعه الشيطان: أي لحقه غير مفلت له.

الغاوين: الخائبين الخاسرين، وقيل: الضالين الهالكين.

أخلد إلى الأرض: أي سكن إليها ولصق بها، وهو في مقابل «لرفعناه بها» في الآية.

---

١. الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٧ .

تتحدث هذه الآيات عن رجل أعطاه سبحانه من الآيات والحجج، ما يضيء له طرق معرفة الله، ويسترشد به إلى الحق، ولم يبيّن لنا الذكر الحكيم نوع هذه الآيات، ولكن هذا الرجل، بدل أن يتخذها سُلّماً للعروج إلىٰ مقامات عالية من الكمالات النفسانية، تركها وأعرض عنها، واتبع هواه، فلحقه الشيطان وأدركه، فكانت عاقبته الضلال والهلاك ، ولم يتمكن من إنجاء نفسه.

وقد شبّهت الآيات الكريمة هذا الرجل بالكلب اللاهث، الّذي يلهث سواء أزجرته ومنعته أم تركته، واللهث عبارة عن سرعة التنفس مع إخراج اللسان عطشاً أو من شدة التعب.

يُشار إلى أنّ القرآن الكريم لم يُفصح عن اسم الرجل، ولا عن زمانه، كما هو الحال في غير واحد من الموارد الّتي لا يتعلق الغرض فيها بذكر هذه الخصوصيات، ولذلك اختلفت كلمات المفسرين في المعنيّ به علىٰ أقوال :

١. ذهب أكثر المفسرين إلىٰ أن المراد هو بلعام بن باعور، وكان رجلاً على شريعة موسىٰ عليه السلام ، وكان عنده اسم الله الأعظم. وكان إذا دعا الله أجابه.

٢. وقيل هو بلعم بن باعورا، من بني هاب بن لوط.

٣. وقيل إنّه أُمية بن أبي الصلت الثقفي الشاعر، وكانت قصته انّه قرأ الكتب وعلم أنّ الله سبحانه مرسِلٌ رسولاً في ذلك الوقت ورجا أن يكون هو ذلك الرسول، فلما أُرسل محمد صلى الله عليه وآله وسلم حسده، ومرّ علىٰ قتلىٰ بدر فسأل عنهم، فقيل قتلهم محمد، فقال: لو كان نبياً ما قتل أقرباءه، واستنشد رسول الله أُخته شعره بعد موته، فأنشدته:

لـك الحمـد والنعـمـاء والفـضـل ربـنـا
ولا شـيء أعـلـىٰ مـنـك جـدّاً وأمـجدُ

مـليك عـلىٰ عـرش السـماء مهيمن
لعـــزته تـــعنو الوجـــوه وتسـجد

(وبعد أن تمت القصيدة) قال رسول الله ﷺ: آمن شعره، وكفر قلبهُ، فأنزل الله فيه قوله: ﴿وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ [1].

٤. وقيل: إنّه أبو عامر بن النعمان الّذي سمّاه النبي: الفاسق، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح، وقدم المدينة فقال للنبي ﷺ: ما هذا الّذي جئت به. قال ﷺ: جئت بالحنيفية دين إبراهيم. قال: فأنا عليها، فقال ﷺ: لستَ عليها ولكنّك أدخلتَ فيها ما ليس منها. فقال أبوعامر: أمات الله الكاذب منّا طريداً وحيداً، فخرج إلىٰ أهل الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا السلاح، ثم أتىٰ قيصر وأتىٰ بجند ليُخرج النبي ﷺ من المدينة، فمات بالشام طريداً وحيداً.

٥. المراد منافقو أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم، ويكون معنىٰ «فانسلخ منها»: أي أعرضوا عن آيات الله وتركوها، فأتبعهم الشيطان أي خذلهم الله وخلّىٰ بينهم وبين الشيطان.

٦. انّه مَثَل ضربه الله لمن عُرض عليه الهدىٰ، فأبىٰ أن يقبله.[2]

أمّا الأقوال الأخيرة، أعني: نزولها في أمية بن أبي الصلت أو أبي عامر أو

---

١. مجمع البيان: ٢ / ٥٠٠.

٢. مجمع البيان: ٢ / ٤٩٩ ـ ٥٠٠.

منافقي أهل الكتاب، فيردّه أنّ السورة والآيات مكيتين فكيف تنزل في واقعة وقعت بعد سنين من نزولها؟! ولعل من قال بنزولها في حق هؤلاء أراد بها كما قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «الأصل في ذلك بلعم ثم ضربه الله مثلاً لكل مؤثِر هواه على هدى الله من أهل القبلة».

ويؤيد نزولها في الأُمم السابقة أنّه سبحانه يستعمل قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ في الحوادث الواقعة في العصور المتقدمة، قال سبحانه: ﴿وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾[1].

﴿وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾[2].

﴿وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾[3].

وعلى كل تقدير، فلا يهمنا مورد النزول وإنّما المهم الوقوف على ما تهدف إليه الآيات.

إنّ الإنسان مهما بلغ درجة من الكمال لا يعني ذلك تحتم السعادة له، لأنّ ذلك منوط بمشيئة الله سبحانه، والله سبحانه لا يشاء ذلك لمن أعرض عنه، وأقبل على غيره.

فاللازم على كل سالك نحو طريق الكمال، اللجوء إلى الله وطلب العصمة منه، وردع النفس عن التوجه إلى غيره، ويدعو الله سبحانه كل صباح ومساء: ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً. فهذا الرجل وإن بلغ من الكمال ما بلغ، ولكنه في

---

١. المائدة: ٢٧. ٢. يونس: ٧١.

٣. الشعراء: ٦٩.

أثناء الطريق انسلخ من الآيات فلم تشمله العناية الإلهية وأخلد إلى الأرض مع أنّ اللازم أن يتخذها ذريعة إلى السموّ إلىٰ كمالات أُخرىٰ، ولكنه آثر حضيض هذه الدنيا على كمال النفس وزكائها، ففي استخدام قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ في مقابل قوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ إشعارٌ بأنّ الصفات الحميدة ترفع الإنسان إلىٰ مقامات عالية، كما أنّ اتّباع الهوىٰ يُردي الإنسان إلى الحضيض الأدنى، فالخلود إلى الأرض كناية عن تفضيله للحياة الحيوانية المادية على الحياة المعنوية العلوية.

وبمناسبة هذه الآيات، نشير إلىٰ أنّه سبحانه قد ترضّىٰ علىٰ لفيف من الصحابة وقال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1]، كما أنّه ترضّىٰ على السابقين الأوّلين وقال: ﴿وَ السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

فهذه الآيات تدل علىٰ أنّ هؤلاء اكتسبوا رضا الله سبحانه حين نزولها، ولكن هل يدلّ ذلك على عصمتهم أو بقائهم على تلك الحالة عبر حياتهم؟ الصحيح أنّه لا يدلّ علىٰ ذلك إذ ليس الترضّي عنهم أكثر ممّا جاء هنا، فقد آتىٰ سبحانه هذا الرجل آياته، ومع ذلك انسلخ منها وتجرّد عنها أثناء حياته، ولم ينتفع

---

١. الفتح: ١٨.

٢. التوبة: ١٠٠.

بها في تزكية نفسه وتوثيق صلته بربّه، لغلبة هواه علىٰ إيمانه، وركونه إلى ملذات الحياة الدنيا.

وعلىٰ ضوء ذلك، فالآيتان المتقدّمتان تدلّان علىٰ كرامة كل صحابي تشمله الآيتان، لكن بصورة ضابطة كليّة علىٰ نحوٍ لو دل الدليل القطعي علىٰ خروج بعضهم عن الصراط السويّ لا يكون معارضاً لهاتين الآيتين .

هذا، وقد شبّه سبحانه حال هذا الرجل الّذي تلقّىٰ من الله ما يؤهّله للسموّ والرفعة في عالم الكمال والعرفان، ولكنه لصق بالمادة والماديات، فانقطعت عصمته بالله ولم تستمر الهداية الإلٰهية، فصار ضالاً بالاختيار، شبّهه بالكلب الّذي يستمر في اللُّهاث، منعْتَه أو تركتَه، لأن اللَّهث أمر طبيعي لسجيّته، لا يمكن أن يتخلص منه. والغاية من التشبيه هي أنّ هذا الرجل بلغ من الغواية والضلالة حداً أن صارت سجية له، وقد مُزجت بها روحه ونفسه، فلا يصدر منه إلّا التكذيب والإدبار عن آياته، ولا تؤثّر فيه نصيحة ناصحٍ، ولا وعظ واعظ، فمَثله كمَثل الكلب، حيث إنّه لا يتمكن من ترك اللهث، لأنّه أثر طبيعي له، فلا يمكن أن يخلِّص نفسه منه، لأنّ في خلقته ضيقاً في مجاري التنفس يرتاح لها في اللهث. هذا على القول بأنّ المقام من قبيل التشبيه البسيط أي تشبيه حالة الكافر بحالة الكلب .

ويمكن أن يقال إنّ المقام من قبيل التشبيه المركّب، بأن يُشبَّه الضال بالكلب ويشبَّه شقاؤه واضطراب أمره في مدة البحث عن الدين بلهث الكلب في حالة تركه في دعة، تشبيهَ المعقول بالمحسوس، وُيشبَّه شقاؤه في إعراضه عن

الدين الحق عند مجيئه بلهث الكلب في حالة طرده وضربه تشبيه المعقول بالمحسوس .[١]

ثم إنّ سيرة هذا الرجل هي سيرة كل من لزم هواه، واغترّ بزينة الدنيا وانصرف إلى مُتَعها، وأعرض عن الهدىٰ، وأصرّ على التكذيب بالحجج والبيّنات الواضحة، كما قال: ﴿**ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ .

١. التحرير والتنوير: ٨/ ٣٥٤.

١٤

هاروت وماروت

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1].

نودُّ قبل الخوض في القصة أن نذكر أُموراً يرجع بعضها إلى حيرة المفسرين في تفسير الآية والبعض الآخر إلى تفسير مفرداتها.

١. قد اختلفت كلمة المفسرين في تفسير الآية الأُولى اختلافاً عجيباً لا يوجد نظيره في آية من آيات القرآن الكريم، وقد ذكر السيد الطباطبائي أقوالهم وآراءهم في حروف الآية ومفرداتها وجملها، وقال بعد ذكرها على وجه التفصيل: «إذا ضربت بعض الأرقام الّتي ذكرناها من الاحتمالات في البعض الآخر ارتفعت

١. البقرة: ١٠٢ـ١٠٣.

الاحتمالات إلى كميّة عجيبة وهي ما يقرب من مليون ومائتين وستين ألف احتمال.

وقال: هذا لعمر الله من عجائب نظم القرآن تتردد الآية بين مذاهب واحتمالات تُدهش العقول وتحيّر الألباب.[1]

٢. قام أكثر المفسرين بتفسير الآية بالروايات الّتي أشبه ما تكون بالإسرائيليات، وإنْ كانت أسانيدها تنتهي إلى ابن عباس وابن مسعود وأبي الدرداء، إذ لا يشك عاقل في أنّها قصص خرافية لا يقبلها عقل ولا فطرة سليمة، دُسَّت وحُشرت في كتب الحديث والتفسير ونسبت إلىٰ هؤلاء، وقد نقلها الطبرسي في مجمعه والرازي في تفسيره، ولذلك صعُب تفسير الآية لمن أراد تفسيرها غير معتمد عليها.

قال الشيخ محمد جواد مغنية: تكلم المفسرون وأطالوا، ولا مستند لأكثرهم سوى الإسرائيليات الّتي لا يُقرّها عقل ولا نقل، وسوّد الرازي حوالي عشرين صفحة في تفسير هذه الآية، فزادها غموضاً وتعقيداً، ونفس الشيء فعل صاحب مجمع البيان، أما السيّد قطب فأخذ يشرح التنويم المغناطيسي، والأحلام، والتأثير والانفعالات بالإيحاء وما إليه، وهذا هو الهروب بعينه، وبقيتُ أمداً غير قصير، أبحث وأُنقّب في الكتب والتفاسير، فما شفىٰ غليلي شيء منها، حتّى تفسير الشيخ محمد عبده وتلميذيه المراغي وصاحب المنار. ثم قال: وخير ما قرأته في هذا الباب ما جاء في كتاب «النواة في حقل الحياة» للسيد العبيدي مفتي الموصل، لأنّه اعتمد علىٰ قول جماعة من علماء الآثار. ثم نقل كلامه بالحرف، وسنورده لاحقاً.

---

١. الميزان: ١ / ٩٣٤.

٣. أخذ سبحانه في سورة البقرة يحتج علىٰ بني إسرائيل، ويشرح أفعالهم وأقوالهم السيئة وعنادهم وتعنتّهم مع نبيهم موسىٰ ﷺ من آية ٤٠ إلى هنا، أعني الآية ١٠٢، والسياق خير دليل علىٰ أنّ المحور هم بنو اسرائيل وأنّ الضمير في قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ يرجع إلى اليهود، الغابرة، أو الحاضرة المعاصرة للرسول ﷺ.

٤. ان فعل «تلا» بمعنى تبع متابعة، تارة يكون بالجسم كقوله: ﴿وَ الْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا﴾[١]، وأُخرىٰ بالقراءة، ويختصّ اللفظ باتّباع كتب الله المنزلة لما فيها من أمر ونهي وترغيب وترهيب. هذا إذا تعدّىٰ بنفسه، وأما إذا تعدّىٰ بلفظة «علىٰ» فيتضمن معنى الكذب يقال: فلان يتلو علىٰ فلان ويقول عليه، أي يكذب عليه، قال تعالىٰ: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ﴾. وعلىٰ هذا، فمعنىٰ ﴿تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ علىٰ مُلك سليمان يعني تكذب الشياطين علىٰ ملك سليمان.[٢]

٥. الشَّيَاطِينُ في قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ يحتمل أن يراد بهم شياطين الإنس كما في قوله: ﴿وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[٣]. وعلىٰ هذا يكون المراد: الرجال الطالحون المفسدون، كما يحتمل أن يراد بهم شياطين الجن، والثاني هو المنصرف إليه اللفظ عند الإطلاق، خصوصاً إذا ورد عند الحديث عن مُلك سليمان فقد كانوا مُسخَّرين له، لإنجاز الأعمال المهمة، قال سبحانه: ﴿وَ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ

---

١. الشمس: ٢.
٢. المفردات: مادة «تلا».
٣. الانعام: ١١٢.

حَافِظِينَ﴾[١] وتدل الآية التالية على أنّهم كانوا من الجن: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[٢].

٦. المَلك يقابل البشر، قال سبحانه: ﴿حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[٣] وربما يستعمل في الرجل الصالح. ولا يُصار إليه إلّا بالقرينة.

٧. **السحر**: الشعوذة، وهي تمويه الحيل بإخفائها تحت حركات وأحوال يظن الرائي أنّها هي المؤثرة، مع أنّ المؤثر خفيّ، وربما يطلق على ما عُلم ظاهره وخفيَ سببه، واستعماله في الكلام البليغ الّذي يأخذ بالمسامع والقلوب مجاز، كقوله سبحانه: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[٤]، وقول النبي ﷺ: إنّ من البيان لسحراً.

٨ **بابل**: بلد قديم من بلدان العالم، يقع على ضفتي الفرات بحيث يخترقه الفرات بقرب موضعه من موقع مدينة الحلة العراقية الآن.

٩. هاروت وماروت

يظهر من الآية الكريمة أنّهما اسمان للمَلكين، اللّذين علّما الناس السحر. وقد اختلفت كلمة المحققين في معنى اللفظين. فمن قائل إلى أنّهما اسمان كلدانيان و «هاروت» معرّب «هاروكا»، وهو اسم القمر ورمز الأُنثى عند الكلدانيين، و «ماروت» معرب «ماروداخ»، وهو اسم المشتري ورمز الذكر عندهم.

١. الأنبياء: ٨٢. ٢. سبأ: ١٤.

٣. يوسف: ٣١.

٤. المدثر: ٢٧.

وكانوا يعدون الكواكب السيارة من المعبودات المقدسة الّتي هي دون الآلهة .[١]

إلىٰ آخر، بأنّهما كلمتان أرمنيتان. فالأُولىٰ معرَّب «هوروت»، بمعنى التاج، والثانية معرَّب «موروت»، بمعنى الخلود، وكلاهما من الآلهة ولهما شأن خاص لجبل «أرارات» .

إلىٰ ثالث، بأنّهما سريانيتان، فالأُولىٰ بمعنى ملك الملوك، بدون ذكر معنى للثانية.

إلىٰ رابع، أنّ الأُولىٰ معرَّب «هورودات»، الّذي هو اسم الشهر الثالث من الأشهر الشمسية الفارسية. والثانية معرب «امردات» بمعنى الخلود، وهو اسم الشهر الخامس من الأشهر الشمسية الفارسية.[٢]

١٠. الفتنة

الفتنة في الأصل بمعنى اضطراب الأحوال، وتشتّت البال، بالخوف والخطر على الأنفس والأموال. ولكن انتقل عنه إلىٰ معنى الابتلاء والاختبار. يقال: فتنت الذهب أو الفضة، إذا أذابهما بالنار.

إذا علمت هذه الأُمور، فلنرجع إلى تفسير الآية.

إنّ الآية الأُولى تحكي أنّ اليهود في تعاطي السحر واستعماله، اتّبعوا أمرين واستندوا إليهما وبرّروا عملهم بهما:

١. ما تتلوا الشياطين علىٰ ملك سليمان .

---

١. التحرير والتنوير، لابن عاشور التونسي: ١ / ٦٢٤.

٢. اعلام القرآن، للدكتور محمد خزائلي: ٦٥٥، مادة «هاروت وماروت».

٢. ما أَنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت.

فلنشرع بتفسير المبرّرين.

وملخص الأوّل أنّ اليهود كانوا يتعاطَون السحر وينسبونه إلى سليمان النبي، زعماً منهم أنّه عليه السلام مَلك المُلك وسخّر الجنّ والإنس والوحش والطير، وأتىٰ بغرائب الأُمور وخوارقها، بالسحر. فإذا كان سليمان عاملاً بالسحر فلا مانع من عملهم به.

وهذا ما يكذبه القرآن الكريم بقوله إنّ نسبة السحر إلىٰ سليمان كان من الشياطين، وهم كاذبون في نسبة السحر إليه. وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ**﴾ أي اتّبعت اليهود سابقاً أو حاضراً أو في كليهما ما كان يفتريه الشياطين من الكذب ونسبة السحر إلىٰ سليمان، وإنّه مَلك ما مَلك في ظل السحر. وقد مرّ أن فعل «تلا» إذا عُدّي بـ«علىٰ» تضمّن معنى الكذب.

ثم إنّ الذكر الحكيم يردّ ذلك بقوله: ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾. والمعنىٰ أنّ سليمان لم يكن يستعمل السحر. كيف والسحر كفر بالله، وتصرّف في الأُمور علىٰ خلاف ما وضع الله فيها من السنن. فهو عليه السلام لم يستعمل السحر ولم يكفر، وإنّما استعمله الشياطين، فكفروا به، وبذلك نزّه سبحانه سليمان عن وصمة السحر، وأثبت أنّه نبيّ مُرسَل آتاه الله العلم والحكمة، ووهب له من الملك ما لا ينبغي لأحد من بعده.

وثمة رواية عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام توضح مفاد الآية، يقول فيها: لمّا هلك سليمان وضع ابليس السحر وكتبه في كتاب ثم طواه وكتب علىٰ ظهره: هذا

ما وضع آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم من أراد كذا وكذا، فليعمل كذا وكذا. ثم دفنه تحت سريره. ثم استبانه لهم فقرأه، فقال الكافرون: ما كان يغلبنا سليمان إلّا بهذا. وقال المؤمنون: بل هو عبد الله ونبيه. فقال الله جل ذكره: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ﴾.(١)

واسناد الوضع والكتابة والقراءة إلىٰ إبليس لا ينافي استنادها في الآية إلى الشياطين لانتهاء الشر كلّه إليه وانتشاره منه لعنه الله، إلىٰ أوليائه بالوحي والوسوسة.(٢)

وحاصل الآية: أنّ اليهود كانت تبرّر عملها الإجرامي وهو استعمال السحر بعمل سليمان واستعماله. ولكنّ القرآن ينزه سليمان عن هذا الأمر ويقول إنّما أشاع هذه التهمة الشياطين في حق سليمان وملكه، وإنّه ملك ما مَلك بالسحر.

إلى هنا تم الأمر الأوّل الّذي استند إليه اليهود في عمل السحر. وإليك الأمر الثاني، وحاصله: أنّ اليهود كما كانوا يبرّرون عملهم بعمل سليمان، فإنّهم كانوا أيضاً يبرّرون عملهم بما أُنزل على المَلَكين (في بلدة بابل) المسمَّيَين بـ«هاروت وماروت»، وقد كانا يعلّمان الناس السحر فصار هذا ذريعة ثانية لاستعمالهم السحر.

ولكنّ الذكر الحكيم يرد ذلك بأنّهما وإن كانا يعلّمان الناسَ السحر، ولكنّهما كانا يذكّرانهم بأنّهما فتنة واختبار إلهي، فكانوا يوصون الناس باستعماله في إبطال السحر، الّذي فيه صلاح للمجتمع، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ

١. تفسير العياشي: ١ / ١٤٥، الحديث ١٧٩ / ٧٨.

٢. الميزان: ١ / ٢٣٧.

﴿أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي لا يستعمل السحر في غير موارد إبطاله. ولكن الناس كانوا يستعملونه في موارد الخلاف والتفرقة، وإليه يشير قوله تعالىٰ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾.

ولمّا كان هنا مظنة أنّ الساحر له القدرة على إفساد الصنع والتكوين، دفعه سبحانه بأنّ السحر نفسه هو من تقدير الله، فلا يؤثر إلّا بإذن الله، وإليه يشير قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾.

إلى هنا تم تفسير الآية الأُولىٰ.

ثم إنّه سبحانه في الآية الثانية يندّد بعمل اليهود والسحرة، ويعتبره من أسوأ منابع الفساد في المجتمع الإنساني، ذلك أنّهم باعوا آخرتهم بدنياهم وليس لهم في الآخرة نصيب، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ حيث اشتروا زخارف الدنيا بإيمانهم ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي نصيب ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي باعوا به أنفسهم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

ففي الآية تعبيران: الأوّل اشتراه، والثاني شروا.

ففي الأوّل يصور اليهود مشترين، وفي الثاني بائعين، وذلك بوجهين:

فمن حيث إنّهم استحوذوا على الدنيا بثمن هو إيمانهم، صدق عليهم عنوان الاشتراء.

ومن حيث إنّهم باعوا آخرتهم بدنياهم، فليس لهم نصيب في الآخرة، انطبق عليهم عنوان البيع.

هذا هو تفسير الآية على ضوء معاني مفرداتها وحملها، مع رفض ما ورد حولها من القصص الخرافيّة.

وعلى ضوء ما ذكرنا فالمراد بالشياطين في الآية الأُولى، هم شياطين الجن، لا الرجل الطالح؛ كما أنّ المراد من الملكين، هو ما يقابل البشر، لا الإنسانين الصالحين، والغاية من إنزالهما هو اختبار القوم وامتحانهم، فهل يستعملون السحر فيما ينفع المجتمع، كإبطاله، وحل العقد؛ أو يستعملونه في ما يضرهم. وليست هناك مشكلة في تعلم المَلَك، ونزوله إلى الأرض لتعليم البشر، لأنّه ربما يتمثل بصورة الإنسان، كما تمثل بها عندما واجه السيدة مريم، قال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[1] وليس في هذا التفسير ما يخالف أُصول العقيدة، ولا حكم العقل الحصيف.

تفسير السيد العبيدي للآية

قد سبق منا أنّ الشيخ محمد جواد مغنية، أعجبه ما ذكره العبيدي حول تفسير الآية، وإليك نص كلامه حسب ما نقله:

«لما عظم ملك سليمان عليه السلام استراب ملك بابل الطامع في سورية وفلسطين، وحل منه الجزع محل الطمع، فأوفد إلى بيت المقدس رجلين من دهاة بطانته، يبثّان من التعاليم ما عسىٰ أن يُفسد علىٰ سليمان مُلكَه، فاعتنقا اليهودية، وأظهرا الزهد باسم الدين، فالتف من حولهما الناس، كما هو شأن العامة، واستهويا الرأي العام، فشرعا يفسدان الأفكار، ويوغران الصدور علىٰ سليمان، حتّى رمياه بالكفر، فكان هذان الرجلان بظاهر حالهما من الزهد والتقشف كملكين ـ بفتح اللام ـ، ولكنهما في الواقع شيطانان، وكانت تعاليمهما كالسحر بما يعضدها من حسن

١. مريم: ١٧.

البيان، وطالما استعمل لفظ المَلَك في الرجل الصالح، ولفظ الشيطان في الرجل الطالح، ولفظ السحر في العبارة الفاتنة.. من ذلك قوله تعالىٰ عن يوسف حكاية عن صويحباته: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وقوله سبحانه: ﴿شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ وقوله حكاية عن الوليد: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[1].. وفي الحديث: «ان من البيان لسحراً».[2]

لا يخفى ما في هذا التفسير من التكلّف :

١. انّه سبحانه أعطىٰ لسليمان القدرة والسلطة ما يُبهر العقول ويُدهش النفوس حتّى يُضرب به المثل، وقد تعرَّفتَ علىٰ شيء من قدرته وسلطانه وما سُخِّر له من الجنّ وغيره في محلّه، فهل يمكن لرجلين غريبين مهما بلغا في الفصاحة والبلاغة مرتبة عليا، أن يُفسدا الأفكار ويُغريا العامة ويستهويا الرأي العام ويوغران الصدور علىٰ سليمان؟

٢. إنّ المَلَك حقيقة في جنس خاص يقابل البشر، وقد يستعار للإنسان الصالح مع وجود القرينة ولكنه استُعمل هنا ـ حسب ما ذكره ـ في الإنسان الصالح ظاهراً، الطالح باطناً وواقعاً، فهل يصحّ هذا الاستعمال، الّذي هو أشبه بسبك مجاز عن مجاز ؟

٣. إنّ السحر حقيقة بما علمت، فاستعماله في الكلام الخلّاب للعقول، استعمال مجازي، لا يُصار إليه إلّا بالقرينة .

---

١. المدثر: ٢٤ ـ ٢٥.

٢. التفسير الكاشف: ١ / ١٦١ ـ ١٦٢.

٤. لو صحّ ما ذكره، لحاق الإبهام بأكثر الجمل، ولم يبق لها معنى مجمل، أعني:

١. ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾، إذ لم ينزل على الرجلين الطالحين شيء من السماء.

٢. ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾، إذ كيف صارا ذريعة للاختبار والامتحان.

٣. ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْـمَرْءِ وَزَوْجِـهِ﴾ إذ لم يكـن للرجلين في ذلك المجال غرض ولا أَرَب، بل جاءا ليفسدا الأمر على سليمان عليه السلام.

والله العالم.

***

الحمدلله الّذي بنعمته تتم الصالحات

تم الكلام في القصص القرآنية يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر

رجب المرجب من شهور عام ١٤٢٧هـ

وتم بيد مؤلفه جعفر السبحاني

ابن الفقيه الشيخ محمد حسين الخياباني التبريزي

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



الصفحة	الموضوع

القصص القرآنيّة
(غير الأنبياء)

الموضوع	الصفحة



اصدارات مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

١. احكام السفر وآدابه
٢. احكام الصلاة
٣. الاسماء الثلاثة، الاله والرب والعبادة
٤. اصباح الشيعة بمصباح الشريعة
٥. أُصول الحديث واحكامه
٦. أُصول الفلسفة
٧. الاقسام في القرآن الكريم
٨. الالهيات ـ ٤ مجلّد
٩. الامثال في القرآن الكريم
١٠. الانصاف في مسائل دام فيها الخلاف ـ ٣ مجلد
١١. أهل البيت سماتهم وحقوقهم في القرآن
١٢. الإيمان والكفر في الكتاب والسنة
١٣. بحوث في الملل والنحل ـ ج ١ ـ الحنابلة والسلفية
١٤. بحوث في الملل والنحل ـ ج ٢ ـ الأشعرية
١٥. بحوث في الملل والنحل ـ ج ٣ الماتريديّة، والمرجئة، والجهميّة، والكراميّة والظاهريّة، والمعتزلة
١٦. بحوث في الملل والنحل ـ ج ٤ ـ ابن تيمية وابن عبدالوهاب وعقائدهما
١٧. بحوث في الملل والنحل /ج ٥
١٨. بحوث في الملل والنحل ـ ج ٦ ـ تاريخ الشيعة
١٩. بحوث في الملل والنحل ـ ج ٧ ـ تاريخ الزيدية وعقائدهم
٢٠. بحوث في الملل والنحل ـ ج ٨ ـ الإسماعليلية ،الفطحيّة، الواقفية، القرامطة ، الدروز والنصيرية
٢١. بحوث القرآنية في التوحيد والشرك
٢٢. البدعة، مفهومها، حدها وآثارها ومواردها
٢٣. البلوغ
٢٤. تحرير الاحكام الشرعية ـ ٦ مجلّد
٢٥. تذكرة الاعيان
٢٦. الجامع للشرايع
٢٧. الحجة الغراء على شهادة الزهراء عليها السلام
٢٨. الحدود (المعجم الموضوعي للمصطلاحات الكلامية)
٢٩. الحديث النبوي بين الرواية والدراية
٣٠. حوار مع الشيخ صالح بن عبد الله الدرويش ـ في جزئين

٣١. الخمس في الشريعة الإسلامية الغراء

٣٢. دراسة تحليلة للنظرية المادية الديالكتيكية

٣٣. الرسائل الأربع قواعد أُصولية وفقهية

٣٤. رسائل ومقالات ـ ٦ مجلّد

٣٥. رسالة في التحسين والتقبيح العقليين

٣٦. السيرة المحمدية

٣٧. الشؤون الاقتصادية في نصوص الكتاب والسنة

٣٨. ادوار الفقه الإمامي

٣٩. الموسوعة الرجالية الميسرة

٤٠. الله خالق الكون

٤١. ارشاد العقول ٤ مجلّد

٤٢. الزكاة ـ ٢ مجلّد

٤٣. فقه الرضاع

٤٤. الحج ـ ٤ مجلّد

٤٥. قاعدتان فلسفيتان

٤٦. شوارق الالهام في شرح تجريد الكلام ـ ٤ مجلّد

٤٧. الوهابية بين المباني الفكرية

٤٨. حكم الارجل في الوضوء

٤٩. الرحلة المغربية

٥٠. التوحيد والشرك

٥١. المحصول في علم الأُصول ـ جلد ٢

٥٢. الصوم في الشريعة الإسلامية الغراء ـ ٢ جلد

٥٣. ضياء الناظر في احكام صلاة المسافر

٥٤. عصمة الأنبياء في القرآن الكريم

٥٥. العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت

٥٦. غنية النزوع إلى علمي الأُصول والفروع ـ ٢ مجلد

٥٧. في بلد الذكريات

٥٨. في ظل اصول الاسلام

٥٩. القول الصراح في البخاري وصحيحه الجامع

٦٠. قصص الأنبياء ـ ج ٢

٦١. كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد

٦٢. لب الاثر في الجبر والقدر

٦٣. محاضرات في الالهيات

٦٤. المختار في احكام الخيار

٦٥. معجم التراث الكلامي ـ ٥ مجلّد

٦٦. المذاهب الإسلامية

٦٧. مفاهيم القرآن ـ ١٠ مجلّد

تفسير موضوعي يبحث حول التوحيد والشرك، صيغة الحكومة الإسلامية، عالميّة الرسالة المحمّدية وخاتميّتها، الرسالة المحمدية ومعاجز النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عصمة الأنبياء، أسمائه وصفاته سبحانه

في القرآن الكريم، شخصيّة النبي الأكرم، الأمثال والأقسام في القرآن الكريم

٦٨. مقتطفات من ديوان اديب العلماء

٦٩. مناسك الحج

٧٠. المناهج التفسيرية في علوم القرآن

٧١. الموجز في أُصول الفقه

٧٢. موسوعة طبقات الفقهاء ـ ١٧ مجلّد تشتمل على مقدمتين الأُولى: تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره، مصادر الفقه الإسلامي ومنابعه

٧٣. نظام الارث في الشريعة الإسلامية الغراء

٧٤. نظام الطلاق في الشريعة الإسلامية الغراء

٧٥. نظام القضاء في الشريعة الإسلامية ـ ٢ مجلد

٧٦. نظام المضاربة في الشريعة الإسلامية الغراء

٧٧. نظام النكاح في الشريعة الإسلامية ـ ٢ مجلد

٧٨. نظرية المعرفة

٧٩. نهاية المرام في علم الكلام ـ ٣ مجلّد

٨٠. نيل الوطر من قاعدة لا ضرر

٨١. الوسيط في أُصول الفقه

٨٢. الوهابية في الميزان

٨٣. في رحاب نوابغ العلماء

١. الشيخ الطبرسي

٢. صدر المتالهين

٣. الشيخ الانصاري

٤. المحقق الكركي

٥. الإمام شرف الدين

٨٤. معالم الدين في فقه آل يسن ـ ٢ مجلّد

٨٥. معجم طبقات المتكلمين ـ ٥ مجلّد

٨٦. المواهب في تحرير احكام المكاسب

٨٧. الفكر الخالد في بيان العقائد ٢ مجلّد

٨٨. نهاية الوصول إلى علم الأُصول ٤ مجلّد

٨٩. أُصول الفقه المقارن

٩٠. رسائل أُصولية

٩١. الدر الثمين أو ديوان المعصومين

٩٢. قاعدتان فقهيتان ـ الاضرر والرضاع

٩٣. تسليك النفس

٩٤. تاريخ الفقه الإسلامي وادواره

٩٥. الموجز في أُصول الفقه

٩٦. مصادر الفقه الاسلامي

٩٧. اللالي العبقرية

٩٨. كليات في علم الرجال

٩٩. العوالم الغيبية في القرآن الكريم

١٠٠. Doctrines of shii Islam

سيصدر قريباً

١٠١. نهاية الوصول إلى علم الأُصول ج ٥

١٠٢. شوارق الالهام في شرح تجريد الكلام ج ٥